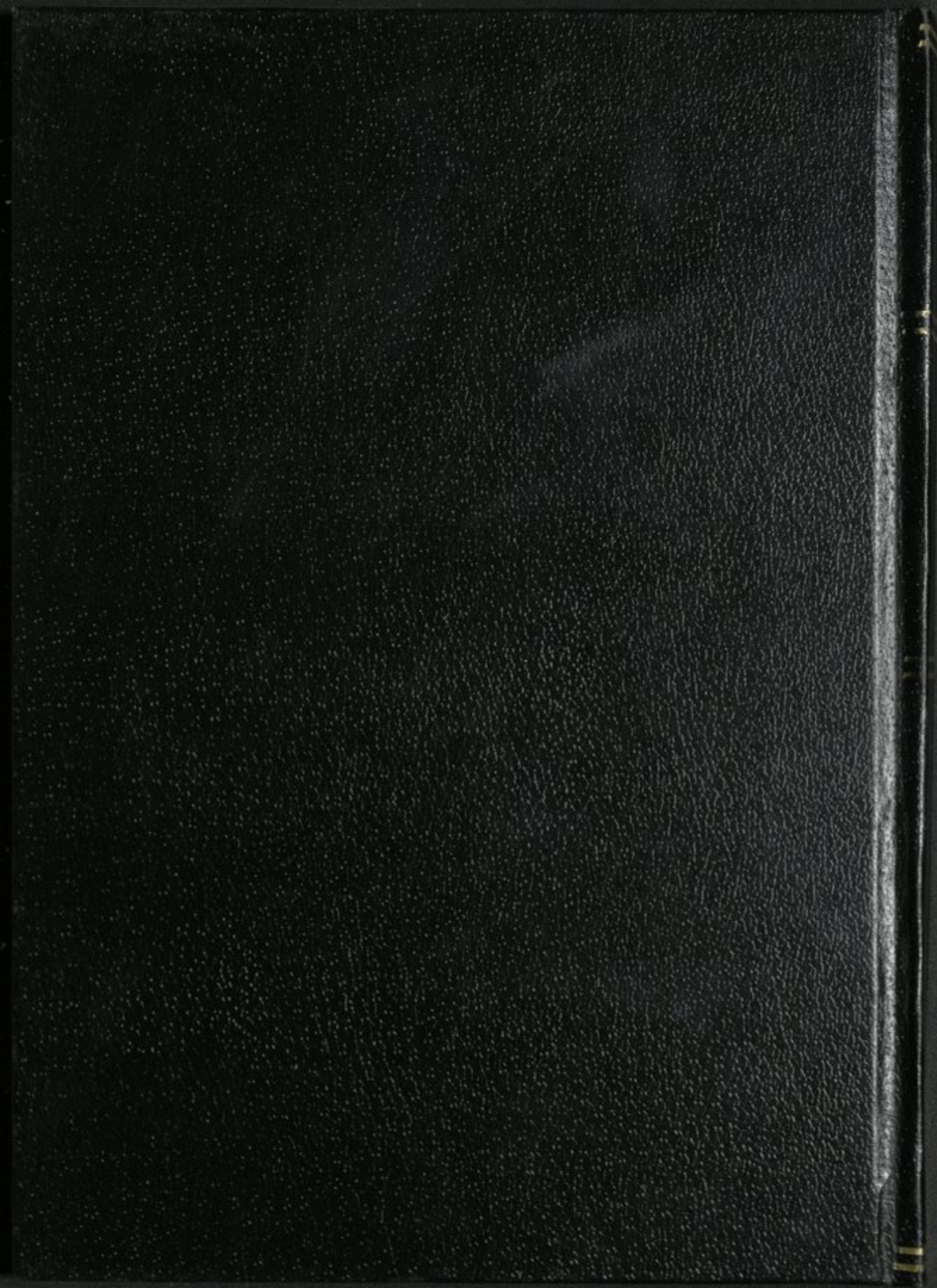


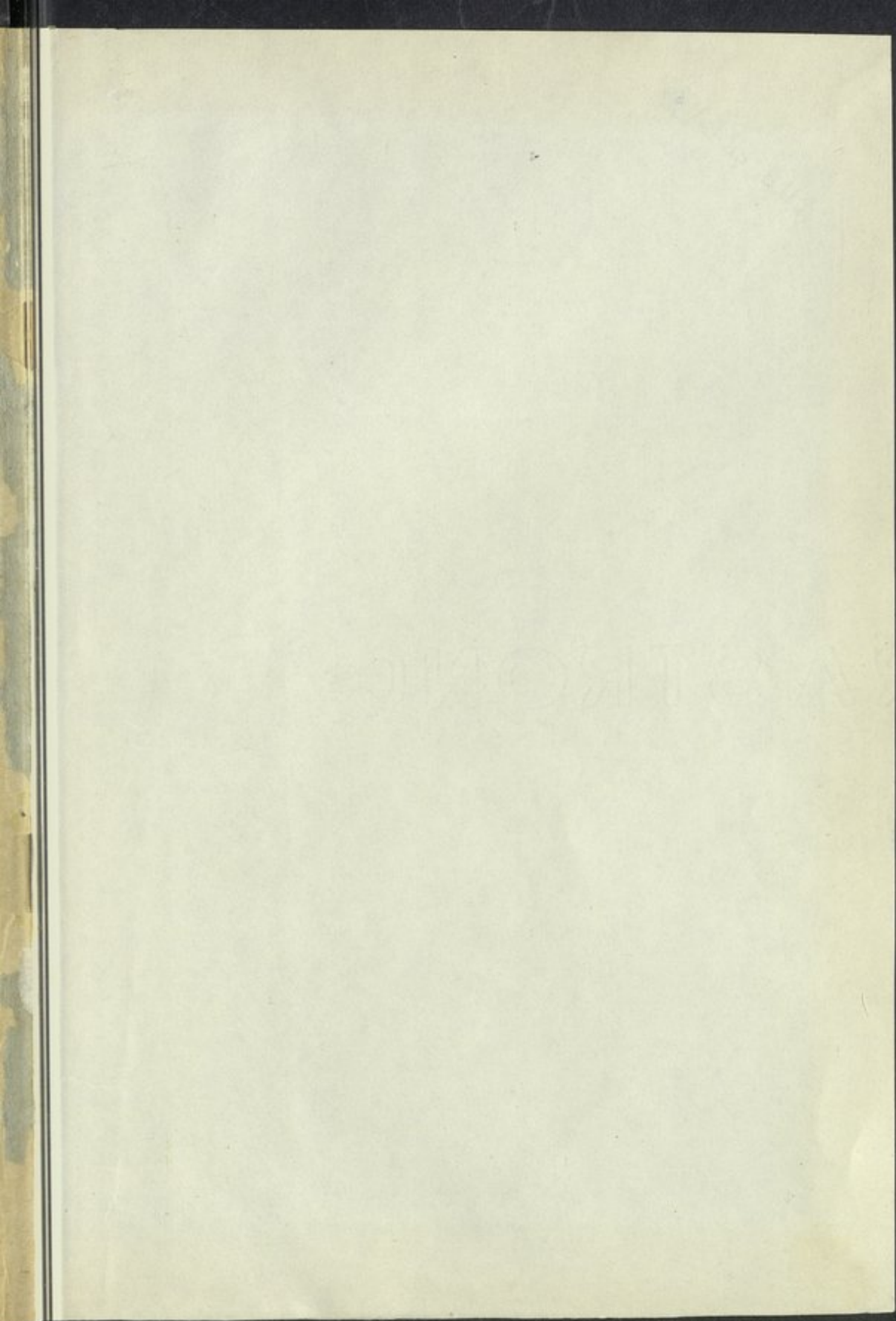


RAB-357

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY



١٩٥٢
١٤٧٤
١٤٧٤

دار الكتب
العلمية

297.74

K456tA

c.1

تَذْكِرَةُ الدُّعَاةِ

مكتبة الطبع والنشر

دار الكتاب العربي

محمد حلمي المنباوي

« إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا »
[قرآن کریم]

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٠ م

» الثانية » ١٩٥١ م

» الثالثة » ١٩٥٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الله أكبر والله الحمد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، أفضل الداعين إليه على بصيرة ، والمجاهدين فيه بإحسان ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

« وبعد » فقد طالعت هذه التوجيهات ، بل المحاضرات في أساليب الدعوة وتكوين الدعاة ؛ فأعجبت بها ، وهششت لها ، وشممت فيها بوارق الإخلاص والتوفيق إن شاء الله ، ودعوت الله تبارك وتعالى أن يجعلها نافعة لعباده ، موجهة لقلوب الناطقين بكلمته ، والهاةفين بدعوته .

وليس ذلك غريباً على كاتبها وملقنها ، الأخ الداعية المجاهد ، الأستاذ بهي الخولي ؛ فهو بحمد الله صافي الذهن ، دقيق الفهم ، مشرق النفس ، قوى الإيمان ، عميق اليقين ؛ أحسن الله مثوبته ، وأجزل مكافأته ، وبوأنا وإياه منازل من أحب من عباده ، فرضى عنهم ورضوا عنه ، « أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » آمين ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

مصنع البنا

الفقيه إليه تعالى

القاهرة } المركز العام للاخوان المسلمين
في غرة رمضان سنة ١٣٦٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه .

أما بعد : فقد طلب إلى بعض إخواني المضلاء ، أن أتحدث إليهم في بعض الوسائل التي تبلغ بهم أن يكونوا دعاة إلى الله عز وجل ، في صفوف الإخوان المسلمين ، وراق لهم أن يسموا أنفسهم « كتيبة الدعاة » ؛ وقد هممت أن أعتذر لأن تلك منزلة لا يرشحني لها علم ولا موهبة ؛ ولكنني عدت فقلت : آخذ بحسن الظن كما أخذوا ، والله يسلك بي وبهم ما يشاء . وسرنا في الطريق معاً ، فكانت تلك الأحاديث التي أقدمها اليوم للقراء ، أو التي يقدمها هم ؛ فهم الذين أرادوني على طبعها ، والإنفاق عليها من أموالهم الخاصة ، ونشرها بين الناس ، وتقديمها لمن لم يشهد إلقاءها من الإخوان .

وأنا أعتذر سلفاً لكل قارئ عما لا يرضيه في هذه الأحاديث ، فما وجدت من زلة فاسترها يا أخي ، وما وجدت من قصور أو تقصير فأنت جدير بغض الطرف عنه .

ليس كتاباً للخطابة

وإني أقرر من الآن أنه ليس كتاباً يعرض للخطابة ، فيستوعب قواعدها العلمية ، ويستقصى أصولها الفنية ، ويبني على تلك القواعد ما يريده العلم ، ويفرع من تلك الأصول ما يوحى به الفن ، ويجد فيه الراغبون ما يشبع رغبتهم ، ويعتق عقولهم وقلوبهم ؛ إنما هي نظرات في كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتجارب خاصة ، عرضت لي في ميدان دعوتنا العظيمة ، ولفئات قبست فيها من عبقرية أستاذنا المرشد أعزه الله ، عبقرية الروحية والعقلية . فاقرأها على هذا يا أخي إن أردت قراءتها ، وأسأل الله أن يشرح لها صدرك ، وأن ينفعك ببركة ما أحاط بها من حسن القصد بدءاً وختاماً .

الفرق بين الداعية والخطيب

على أنى لست آسفاً إذ أخرج هذه الأحاديث غير مستوعبة لقواعد الفن وأصوله ، بل إننى راض غاية الرضا ، فما قصدت أن أتحدث بها إلى خطباء ، أو راغبين في تعلم الخطابة ، وإنما قصدت أن أتحدث إلى دعاة يرغبون أن يدعوا إلى الله عز وجل .

والداعية غير الخطيب . . . الخطيب خطيب وكفى . والداعية مؤمن بفكرة ، يدعو إليها بالسكتابة ، والخطابة ، والحديث العادى ، والعمل الجدى في سيرته الخاصة والعامة ، وبكل ما يستطيع من وسائل الدعاية . فهو كاتب وخطيب ، ومحدث وقوة ، يؤثر في الناس بعمله وشخصه . . . والداعية أيضاً طبيب اجتماعى يعالج أمراض النفوس ، ويصلح أوضاع المجتمع الفاسدة ؛ فهو ناقد بصير ، يقف حياته على الإصلاح إلى ما شاء الله . . . وهو رفيق ، وصديق ، وأخ للغنى والفقير ، والكبير والصغير ، ومن هذه الصفات تشيع المحبة في قلبه ، وتندفق الرحمة من عينيه ، وتجري المواساة على لسانه ويديه ، وهذا ضرورى جداً للداعية ؛ وهو من مواهب الروح والجنان ، لا من صفات البلاغة وملكات اللسان . . . والداعية قائد في محيطه ، وسياسى في بيئته ، وزعيم لفكرته ومن يتبعه في ناحيته . وكل هذا لا تنهض الخطابة وحدها بمحقوقه ، فلا بد له من التأثير النفسانى ، والهيمنة الروحية ، والانصال بالله ، واستعانة العقل بما حصل من تجارب التاريخ وأحوال الناس .

ولست بهذا أعرض من قدر الخطابة وضرورتها للدعوة ، وإنما أبين بعض صفات الداعية ، لتستبين طبيعة هذه الأحاديث التى سيقى للدعاة ، لا للخطباء ، كما سترى إن شاء الله في فصولها القادمة .

أوربة روحية

واعلم يا أخى أن كل ما ذكره في هذه الأحاديث عن الدعوة والداعية ، والخطابة والخطيب ، إنما تقصد به دعوة الإخوان المسلمين ، ودعاتهم وخطباءهم ، وما يتصل بمحيطهم . وحين تقصر الكلام على هذا ، فقد قصرناه على المعنى الصادق للدعوة والدعاة ، والخطابة والخطباء ؛ فإنها دعوة الحق للتصل بأسرار الوجود ، وقوانين الحياة الظاهرة والخفية ، للمادية والروحية ؛ وكفانا اطمئناناً إلى هذا أنها دعوة الله ، والله هو الحق ، وله دعوة الحق .

ولهذا سيجد القارىء في هذا الكتاب فصولا تلم بأودية روحية ، وآفاق نفسية ،

بعيدة عما ألفه الناس في كتب الخطابة والدعاة . . . سيجد فصولا لا تحدثه عن حركة الخطيب وإشارته ، ولا عن صوته ونبرته ، ولا عن طبيعة جسمه وأوصاف قامته ، فذلك في رأيي أخرى أن يوجه إلى تمثلي الصالات ، وخطباء المسارح ؛ أما أن يوجه إلى « دعاة » يراد لهم أن ينشئوا أمة أو يساعدوا على إنشائها ، وأن يبنيوا دولة أو يساعدوا على بنائها ، فلا . . . إنه القول الفصل ، وما هو بالهزل . والآن لا تقام بالتهريج ، ولا تنهض بالحركات المصطنعة المتكلفة .

لقد حاولنا في بعض فصول هذا الكتاب أن نلم مع القارئ بأودية روحية وآفاق نفسية ، نريد بهذا أن يهتدى إلى فطرته ؛ فالفطرة هي المستودع الإلهي ، أو هي « الصندوق » السري الذي خبأه الله في كيانتنا ، وأودعه ذخائر النجاح ، وعدد الصلاح والإصلاح ، وقوانين الحياة الجادة للمهية ؛ فمن هدى إلى أسرار فطرته فقد هدى إلى الخير كله ، وإلى الحق كله ؛ وهدى إلى الهوائف الملهمة التي تصيح به من أعماق نفسه ، أن يفعل كذا ، وأن لا بد من كذا وكذا ، حتى يتم كل نقص في نواحي رسالته ، وحتى تقوم هذه الرسالة على جادة عملية لا نظرية . . . أي على السنن الفطرية الواقعة التي يقوم عليها شأن هذا الوجود .

خطابة وخطابة

فإذا قرأت بعد هذا يا أخى كلاماً لا يتناول نماذج الخطابة التي ألفها الناس في حفلات السياسيين والانتخابيين ، وتسكريم الموظفين وغير الموظفين ، فلا تظن أننا تركنا شيئاً نفيساً ، أو أهملنا ركناً له قيمة في عالم الخطابة والدعاة ؛ فإن أكثر ما يجري في هذه الحفلات كلام زائف ، وأساليب تهريجية ، يقصد بها التعمويه والنفاق تارة ، أو الإثارة الوقتية لشعور الجماهير تارة أخرى .

هذه واحدة . . . والأخرى ، أن هذه الحفلات لا تتناول الباب من الحياة ، وإلا ما دخلها الزيف والتهريج ، فالغايات التي ترمى إليها تافهة ، بل ساقطة في كثير من الأحيان ، وما يقال فيها من الكلام لا وزن له ولا خطر ؛ فإذا أنت سألت نفسك بعد شهود حفلة من الحفلات ، أو بعد سماع خطيب مفوه من الخطباء : إلى أي مثل أعلى دعانا هؤلاء ؟ أو أي ناموس عملي من نواميس الحياة الجادة كشفوا عنه ، وصوروه لنا وحشونا عليه ؟ إذا سألت نفسك وكنت ناقدًا نافذ البصيرة بريثاً من الهوى ، أجاك ضميرك الحر النزيه : لا شيء أولاً ، ولا شيء ثانياً ، ولا شيء أخيراً ؛ لأن ذلك كله أقيم للأشياء ، وهذا الخطيب المفوه ، الذي ملك الأسماع ، وأطلق الألفاظ بالتصفيق ،

هو من الصنف الذى ينعتة الإنكيزر « بالقدرة على قول لا شيء » ؛ لهذا أهملنا التحدث عن مناهج هؤلاء .

وأرأى مضطراً إلى استطراد لا توجه مقدمة كتاب ، ولكن بوجه المقام
فقد كنت أحدث بمعنى ما تقدم مع بعض الناس ، فقال أحدهم : إذاً لنسا أن نفهم
أنكم معشر الإخوان قد اتخذتم لكم طريقاً دينية تعزل السياسة ، وما إليها من انتخاب
وتكريم ونحوها ؟

فوقفت قليلاً أمام هذه النظرة الضيقة ، التى كثيراً ما تعترض الإخوان فى مواطن
كثيرة ، وتريهم أن الرسالة وإن كانت قديمة فإن الناس فى أشد الحاجة إلى بيانها
وفهمها من جديد ، على وجهها الصحيح القديم ؛ ثم استرسلت مع السائل
المعترض أقول :

لست بهذا أنفى عن الإخوان أنهم لا يقيمون حفلات سياسية ، أو انتخابية
أو تكريمية ، فذلك كله من صميم أغراضهم ، غير أنهم لا ينحون فيه نحو غيرهم ؛
حفلاتهم بريئة من النفاق دائماً ، لا يقصدون بها إلا وجه الله ، وهمهم لا تنفك معقودة
بنواصى أشرف المثل العليا ، وكلامهم — والله الحمد — كلام له قدره فى سمو المعنى ،
وعفة اللفظ ، وقوة الحق . فإذا أنت سألت نفسك عقب حفلة من حفلاتهم ، أو سماع
خطيب مفوه أو غير مفوه من خطبائهم : إلى أى مثل أعلى دعانا هؤلاء ؟ أو أى
ناموس عملى من نواميس الحياة الجادة كشفوا عنه ، وصوروه لنا وحثونا عليه ؟
وكنت ناقدًا نافذ البصر بريثاً من الهوى ، أجابك ضميرك الحر الزهيه : إنى وزنت
ذلك كله بالقسطاس الذى لا يعترف إلا بلباب الحقائق ، فإذا هو أمر ثقيل خطير ،
يستمد من روح الأمر الثقيل الخطير ، الذى نعتة الله فى بحر الدعوة الكونية الكبرى
بقوله : « إِنَّا سَمَلْتِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » شتان ما حفلات وحفلات ! وشتان
ما أغراض وأغراض ، وكلام وكلام ! فهناك خطيب يكلمك فى الوطن ، ورضا الوطن ،
ويطلب إليك أن تبذل من أجل وطنك ، وتعمل لوجهه ، وتعلم العلم لرفعته ، أو تفعل
كذا وكذا فى سبيله ؛ فإذا كنت خالياً من كل مؤثر يجعلك تتملق الخطيب اتقاء شره ،
أو ابتغاء بره ، أو لأنه أغدق عليك من فضله ، وأسدى إليك من معرفته . . . إذا
كنت خالياً من كل هذه المؤثرات ونحوها ، بدا لك الخطيب مخلوقاً جافاً تافهاً ، إذا
حرك مشاعر الجماهير ، فإنه لا يثير إلا ما هو ظاهرى فقط ، مما لا يتصل بعقل رصين ،
أو عاطفة تذهب إلى المكنونات الكريمة فى أعماق الفطر الكريمة ؛ ذلك أن الوطن

وحده شيء جامد أصم ، ودوران الخطيب حوله أشبه بدوران الوثني حول وثنه ،
إن دار دوران المقلدين فهو جامد جاف ، وإن دار دوران المصدقين فهو مبطل ضال
وفي كلتا الحالتين لا يشير في نفس أهل البصائر المستنيرة غير الرثاء والإشفاق .

الوطنية الربانية

حقاً إن الوطن وحده شيء جامد وثني ، ولكنك إذا تتبعت معانيه ألفتها ترجع
إلى بعض غرائز الإنسان ، فإذا أنت هذبت هذه الغرائز ، وسموت بها إلى مستوى
الإنسانية الفاضلة ، فقد وصلتها بالعزة الصحيحة ، والحرية الكاملة ، والإيثار النبيل ؛
وتلك صفات مما يحبه الله ، لأنها من صفات الفطرة التي فطر الناس عليها . فإذا نحن
تكلمنا عن الوطن منفصلاً ، فتلك هي الوطنية اليابسة الجافة الخرساء ، التي لا تثير
مشاعر العقلاء ؛ وإذا أنت وصلته بأصوله الفطرية ، فقد سموت به إلى أشرف
مقامات السمو ، وجعلت خدمة الوطن لوناً من ألوان عبادة الله عز وجل . . .
واستطردت أقول :

اعلم يا أخى أن الغرائز الإلهية في الإنسان ، أشرف غرائزه ، وأعظمها ، وأبعدها
غوراً في فطرته ؛ فهي باقية فيه لا تزول ، وهي موصولة بكنوز عبقريته الأصلية ؛
فإذا أنت عمدت إليها ، وأثرتها باسم الله ، فقد أثرت أسباب العمل الباقي ، وأطلقت
هما جبارة ، تستمد قواها من المعين الذي لا يقوم له شيء في الأرض ولا في السماء ،
معين قوة الله سبحانه وتعالى .

فالوطنية إذاً ليست غاية ، وإنما هي غريزة أصلية تتصل بكثير من المعاني الجليلة
في المرء ، وهي بهذا الوصف إحدى الأسباب الوثيقة التي تربطه بالله عز وجل ، فإذا
تكلم للتكلم ، وهو يفهم هذا الفهم ، ألفتته ينفوس إلى أعماق النفوس ، فيحركها
إلى أشرف الغايات ، وينبه فيها أئمن الشاعر ، ويبعث منها أقوى الهمم والعزائم ، فيظل
السامع يسمع في سكون ، ويميد في هدوء ، ويتجدد في لذة ، ويحيا في قوة ، وهذا
هو الذي يجده الناس في حفلات الإخوان المسلمين ، ولم يخطئه أحد ممن سمع محاضرات
فضيلة أستاذنا المرشد العام .

وهذا النوع من الخطابة والدعاية هو الذي نخفل به وحده ، لأنه يفيض من النبع
الأصيل في فطرة الإنسان ، فسواء اتصل بالوطن والوطنية أم لم يتصل ، فهو الكلام
الحق ، وهو المنهاج الذي لا تنصب الموازين لسواه .

وهذا قال السائل المعترض : « إن السياسيين ووطنيون مؤمنون بالله ، وهم يعبدون الله بالعمل الصالح للوطن وليس لأحد أن ينكر عليهم هذا الإيمان » .

فقلت له : يا أخى ، إن دعوى السمو بالوطن إلى الله ميسورة لكل دعى يدعيها ؛ وهذا من ظلم الناس لأنفسهم وللحقائق ، فما أهون ما يدعى أحدهم هذا الفهم للوطنية ! وما أهون ما يقولون جدلاً : إنهم يرقبون الله في الوطن ، ويجعلون العمل له ضرباً من العبادة الخالصة ؛ ولا غرو فقد أبطل هؤلاء الصلاة ، وسكنوا عن المنكرات واستباحة المحرمات ، وراحوا يقولون : التقوى في الصدور ، فمن أخلص قلبه من الأحقاد والأغيار ، وسلم الناس من أذى لسانه ويده ، فهو المتقى ، أقام الصلاة أو لم يقمها ، شرب الخمر أو لم يشربها ، تبذل بالمحارم أو لم يتبذل . . . أقول : لقد ادعى هؤلاء في الدين هذه الدعوى ، وزعموا أنهم أقرب إلى الله من كثير من الصالحين ؛ فإذا كانوا بهذه الجرأة على دعوى التدين ، فهم على دعوى الوطنية الربانية أجراً ، وما أسهل ما يجرونهما على ألسنتهم في غير اكتراث ولا فهم ! .

إن الوطنية الربانية شعيرة من شعائر الله ، وحب الوطن من الإيمان ، والدين وحدة كاملة بحلاله وحرامه ، وأمره ونهيه ، وشعائره التي تنتظم وجوه الحياة والعبادة كلها ، فمن أبطل شيئاً من ذلك فقد مرق من دينه ، وفسق عن أمر ربه ، ولو ملأ الدنيا جهاداً في سبيل الوطن والوطنية ، وهتافاً للاستقلال والحرية ، وهذا حق اليقين ، « وَاتَّعَلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ » ، « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ » ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

فعلى من يدعى الوطنية الربانية أن يقوم بالشعائر كلها : عليه أن يقيم الصلاة فهي صلب الصلاة بالله عز وجل ، وعليه أن ينزه مجالسه وأنديته واجتماعاته عما حرم الله كالخمر والقمار وتبرج النساء ، وما شابه ذلك ؛ وأن يكون في سيرته الشخصية ، وحياته الخاصة ، كإرسام الله المؤمنين من عباده ؛ وأن يعلن الغيرة ، بل يعلن الحرب على كل باطل يغضب الله . وكل منكر يستعلن به الجهلة في كل مكان ؛ وعليه أن يعمل لوجه الله ، لا لرياء الناس ولا لخير المغانم الذاتية ، وأن يجعل الوطن ميداناً للجهاد في سبيل الحق . . . عليه أن يجعله ميداناً يتقرب فيه إلى الله بطيب الأعمال ، لا وثناً تقرب إليه السماء ، وتنتهى إليه الهمم والآمال ، ودعوى تجرى على اللسان ، دون أن يتحقق بها القلب ، ويصدقها العمل ؛ فهذا هو الباطل الذي يجب ألا يركن إليه عاقل ، وهو

الروح الحبيث الذى يمحى البركة ، ويحبط العمل ، ويجعل صاحبه تافه الفكر ، فارغ القول ، غير جدير بالنظر والالتفات .

الرجل الربانى

واعلم يا أخى أن كل إنسان — كائناً ما كان — ينطوى على مناجم إلهية من العبقريات العظيمة ، وأمداد من العزائم والهمم ، وكنوز من الفضائل التى تنضج وجه الحياة ، وتزدان بها الإنسانية ؛ ولا سبيل إلى إثارة هذه المناجم النفيسة إلا أن تثيرها باسم الله العلى الكبير ، فاسم الله وحده هو مفتاح هذه الكنوز الربانية للعلقة ، ولا يضع الله هذا المفتاح إلا فى يد العبد الربانى الذى يتخلق بصفات الربانية الفاضلة ، يجاهد نفسه حق المجاهدة ، ويقمع هواه فى غير هواة ، فيفضى بذلك إلى ما شاء الله من بطولة وتوفيق ، « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »

وأنت واجد تفسير ذلك كله بصورة عملية واقعية فى تاريخ العُمرِّ الميامين الذين خَرَجَهم رسول الله ، وصاغهم بعين الله أبطالاً ؛ فتحوا أقطار الأرض ، لأنهم فتحوا قبل ذلك أقطار النفوس ؛ وأضاءوا الدنيا بنور الحق ، لأنهم أطلعوا شمسهم قبل ذلك فى حنايا الصدور ؛ وأسعدوا البلاد بنعمة العدل والحرية والإيثار ، لأنهم بثقوا بِنَايَعِهَا فى خفايا القلوب ؛ وانبعثوا إلى تخليد الباقيات الصالحات من الأعمال والأخلاق واللبادى . ؛ فأتوا من ضروب البطولات النفسية والمادية ما يدهش الألباب ، ويعجز الأبطال ويشبه الأساطير ، لأنهم انبعثوا بهمة لا ترى لها متعلقاً دون عرش الله عز وجل ؛ فلو كان الإيمان عند الثرى لنالته رجال من هؤلاء ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .
أين هذا يا أخى من شأن أولئك المطموسين ، الذين ضلوا السبيل ، ورأوا أوروبا تهتف بالوطن والوطنية ، والعنصرية والقومية ، فقلدوهم تقليد القروء ، وأخذوا يكررون ألفاظاً ليس لها مدلول فى قلوبهم ولا عقولهم ، حتى غدوا بهذا التقليد فارغين تافهين ، لا قيمة لأعمالهم ولا لأقوالهم ؟ .

لا أذكرى إلا هؤلاء

ولست بهذا أذكرى الإخوان المسلمين ، فهم أبعد من أن يزكوا أنفسهم ، وهم يقرءون فى كتاب الله عز وجل : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونُ أَنْفُسَهُمْ ، يَلِيَّ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » ، « فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » .

ولست أزكى لهم منهاجا ، فهم لم يأتوا بجديد ، إنما هو منهاج قديم زكاه الله عز وجل وأمر بالدعوة إليه إلى يوم الدين : « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » . ولا فضل لهم إذ يدعون إلى هذا للمنهاج الإلهي ، فذلك فضل الله عليهم ؛ و « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » .

ولست أزكى لهم قولاً ؛ فهم لا قول لهم إلا ما كان قائماً بحق هذه الدعوة ، وافيّاً بأغراضها ، آخذاً من معين كتابها ، وسنة رسولها صلى الله عليه وسلم .

وقد زكى لهم الله كل ذلك : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

ولا تعصب

وبعد ، فهذا يا أخى ما عندنا وما عند الناس ؛ ونحن مؤمنون كل الإيمان بأن ما عندنا هو الحق الذى لا حق غيره ، وما عداه فهو الباطل الذى لا يؤبه له ولا يوزن بميزان ، فليس بعد الحق إلا الضلال ؛ ولهذا أهملناه ، فلم نعرض له بقليل ولا كثير ، فلا تجعله حجة علينا فى شيء ، فالباطل لا حجة له ؛ وفى هذا القليل الذى نذكره عن دعوة الحق وأساليبها غناء عن الكثير الذى عندهم .

وسوف يعرض لك فى أثناء هذه الكلمات ما يوهم ظاهره أنى أتعصب للإخوان المسلمين ، فاعلم أن ذلك لم يدر بخلقى ، كما أنه لا يدور بخلد أحد من الإخوان ؛ نعم أنا أتعصب للإخوان ، ولكن باعتبارهم فكرة فى الحق ، لا باعتبارهم هيئة خاصة ذات صبغة معينة ، فنحن فكرة ، ولسنا هيئة ، ففكرة واسعة هائلة ، أوسع من السماء والأرض ، لأنها روح من أمر الله ، فليس لنا أن نضيّقها بحيز مقدر ، أو صبغة معينة . . . والمدعوون إلى تمثلها وتمثيلها هم أفراد الإنسانية كافة ، هكذا أراد الله ، فليس لنا أن نحصرها فى عدد مقرر ، أو هيئة محدودة . فنحن براء — والله الحمد — من مذمة التعصب للصور الظاهرة ، والميادين الضيقة ؛ وما قد يُفهّم أنى أتعصب فاحمله على هذا الوجه يا أخى ، فهو تعصب للحق المبين ؛ تعصب من يؤمن بأنه على الحق لا محالة ، ومخالفه على الباطل لا محالة ؛ تعصب من يفهمك مقدما ، أنه غير

مستعد بحال من الأحوال لأن ينجاز إلى رأى لك تخالف به جوهر هذه الدعوة ،
أقمت عليه البرهان أم لم تقمه ، أخفتمه بما تحشد من الحجج أو لم تفحمه ، لأنه غير
مستعد لأن يقبل رأى بشر ما فيما قضى الله عز وجل فيه بحكمه .

هذا هو إيماننا بدعوتنا ، يسميه بعض الناس — جهلاً — تعصباً ؛ وقد أسميناه
تعصباً بمجاعة وجدلاً ، وأسأل الله عز وجل أن يثبتنا وإياك على الحق ، وأن ينير
بصائرنا به ، وأن يجعلنا من جنوده العاملين ، إنه قريب مجيب !

المؤلف

الباب الأول

فقه الدعوة والداعية

الفصل الأول

قضية بين فهمين

الإسلام الحنيف هو الدعوة العالمية الكبرى ، التي بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتكون نظام الإنسانية الكامل في حياتها الروحية والمادية ، في كل زمان ومكان .

هذه قضية واضحة ، بل حقيقة جلية كالشمس ، لا يأتينا الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، يستعلن وضوحها في البصائر ، حتى لتختل في كيانها محل الضرورة الفطرية ، أو البديهية التي لا تحتاج إلى دليل . . . ولكنها مع هذا غامضة مبهمة لدى بعض المسلمين ، حيث تبدو له هذه الحقيقة ، مجموعة من الأفكار الصدئة ، والنظم البالية ، ويرى القامعين بها قطيعا متخلفا عن قافلة الإنسانية ، لا يسير أسلوب الحضارة ، ولا يلين لأوضاعها ، فإذا أحسن أحدهم الرأي فيك ، ظنك متعصبا إسلاميا ، طوعت له حماسته أن يغالى في قيمة الأشياء . .

هذان فهمان متناقضان لهذه الحقيقة : فهم يقبلها ويقرها ، وآخر ينكرها ويردها ، فأى الفهمين أحق بالقبول والتقدير ؟

لا نريد أن نقطع بجواب الآن . ونريد أن نقرر حقيقة مقطوعا بها ، وهي أن هؤلاء ليسوا أعظم منا ذكاء ، ولنا أقل منهم فطنة ، فإذا فاقونا في هذا أو فققناهم ، فليس بالتقدير الذي يفصل بيننا وبينهم ، ويقنعنا وإياهم على طرفي هذا الفارق العظيم . . . ونريد أن نقرر حقيقة أخرى ، وهي أنا — والله الحمد — بصدد المجاهدة لكي نحتفظ بمشاعرنا الإلهية حية يقظة ، نزعم أننا بلغنا الغاية من ذلك ، ولكننا بصدد المجاهدة التي نحاول بها أن نكون بمنجاة من طغيان الموجة المادية على مشاعرنا الإلهية ؛ أما هم فليسوا يدعون لأنفسهم مثل هذه المجاهدة ، بل هم جد راضين ، إذ تعمروهم المادية بما تعمروهم به من

حلو ومر وخير وشر ... وأنت بعد هذا جدير بأن تعرف علة ما بيننا وبينهم من التناقض في فهم الحقيقة التي عرضناها آنفا .

محور الخلاف

هذه النقطة هي محور الخلاف ، ومركز التحول والافتراق ... إن هؤلاء ، في حالة ركود روحي ، طغى عليهم تيار مادية المادة ، فغمر مواهبهم الربانية ، فأصابها بخدر أو جمود ، وهبأت أن تصل إلى إقناعهم بمكان الإسلام كعقيدة ونظام ، مهما أوتيت جدلا وعلمًا ، ما دمت تخاطب هذه الحاسة المعطلة فيهم ؛ فقرأهم يستمعون إليك وهم لا يفقهون ، وينظرون إليك وهم لا يبصرون ، « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » ولسنا نقصد أنهم لا يفهمون لأن عقولهم متبلدة ، بل هم لا يفهمون لأن قلوبهم وهي مركز المسكات الإلهية معطلة عن الفهم بما شغلها وألهها .

أجل . إن فهم هذه الرسالة وقبولها منوطان بيقظة الوجدان الإلهي في الإنسان ، لا بالفهم العقلي ، والمنطق الذهني فقط ... وإن العربي الذي تحمس للعقيدة ، وبذل في سبيلها ما يملك ، وآمن بها لدرجة الفناء فيها ، ما فهمها وقبلها إلا أنه ذو وجدان ذكي مرهف ، وكيان عصبي فطري يقظ ، ووعي روحي مهيا لأمر الله . وما كان العقل وحده ليعشق الرسالة هذا العشق الذي استغرق مشاعره كلها ، حتى أتى على حب الأوطان والآباء والأبناء .

مادية الفكر والعاطفة

لقد ألحت المدينة الغربية على قلوب هؤلاء ، كما ألحت على قلوب أهلها ، بمتعتها الحيوانية ، وشهواتها الحسية المطلقة من كل عنان ، المزينة بكل المغريات ، وحجبت عنها جمال الربانية ، حتى غدت غليظة قاسية ، لا يتحرك هواها إلا للمادة وما يدور حولها ، بما يراوده ترف البدن ومتعة الجوارح .

وألحت على عقولهم بطرق من البحث الآلي ، التي يقف عندما تقرره المقاييس والتجارب والموازن والمنابر في معامل الكيمياء ، وقاعات التجارب العملية ، دون أن يعترف بعد ذلك بما يقال إنه وراء المادة ، بل يعده ضرباً من الهذر ، الذي لا يحمل بالعقل أن يقف عليه ، وألحت كذلك بعلمها الجافة ، ومنطقها المادي ، وتهكيرها

الآلى ، فلم يملك أحدهم إزاء هذا الإلحاح ، وهو منساق في تيارها الجارف ، إلا أن يستسلم فاستسلم ، وإلا أن يسلم بصدق ما تفرضه عليه من حياة قلبية وعقلية فسلم ؛ ولكن لا تسليم المسكوه ، بل تسليم المقتنع الذى يرى بعينه المقدمات موصولة بنتائجها والأسباب بمسبباتها ، ويرى كل شىء فى الأفق من حوله يوحى إليه ، ويقنعه بأنه فى الوضع الطبيعى المعقول حتى غدا آليا فى تفكيره ، آليا فى عواطفه ... هؤلاء قد سيطرت عليهم هذه الحضارة السماء فألفوها ، وأشربتها قلوبهم ، وأغرموا بأسلوب متعتها السهل ، واطمأنوا فى إعجاب إلى ثمرات تفكيرها ، ولا يستطيع كلام من أفق غير هذا الأفق أن يقتحم إلى قلوبهم وعواطفهم ، ليترج بها ويستقر فيها ... ولقد ساقهم تفكيرهم المادى إلى ضرب خطر من الإلحاد ، فهو بإنكاره ما وراء المادة قد رفض أن يعترف بحجة نار ، وبعث ونشور ، وحساب جزاء ، وعذاب ونعيم فى القبر أو بعد القبر ، فراحوا معه يظنون أن عمر الإنسان موقوت بهذه الأيام التى يقضيها فى حياته الدنيا ، وأن القبر إن هو إلا الخاتمة الموحشة لهذه الدنيا الناضرة الجميلة ، فإن لم يبادر باغتنام أوسع ما يمكن من مغانمها ومتعها وشهواتها ، ذهب محروماً إلى الفناء الأسمى حيث لا رجعة فى زعمه ؛ فأفرغه هذا المصير ، وأقبل به على الشهوات العاجلة فى نهم يشبه الجنون ، لا دين يردعه ، ولا أدب يحجزه ، ولا يطبق أن يذاد عنها بنصيحة أو قانون .

أفترى هؤلاء ، أو من أخذ إخذهم خليقين ، أن يستمعوا إليك ويقبلوا عليك ، حين تتحدث إليهم بروح الرسائل السماوية ؟ أترى فى قلوبهم وعواطفهم وحياتهم النفسية متسعاً لما تدعو إليه ؟ إنك فى واد وهم فى واد آخر ؛ وهذا هو ما يباعد بينك وبينهم ، « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » .

ولا تظن أنهم لا يفهمون معنى القرآن ، بل هم يفهمونه ولكن بعقولهم ، أما قلوبهم فلا تسيعه ولا تقبله ، وهذا هو المراد بفقہ القلوب حين يرد فى كتاب الله عز وجل ، فقد يسيع كثير من هؤلاء أن تقول لهم : إن الله هو خالق هذا الكون ، وهو الذى وهب لنا الحياة ، وهو الحقيق منا على هذا بالشكر والثناء والتعظيم ... وقد يسيعون أن تقول لهم إن الإنسان جسم وروح ، ويجب أن يكون للروح مطالبها كما للجسم مطالبه ؛ وإن الإنسان السكامل هو الذى يقبل على ناحيتهما كليهما بالعدل

في توزيع الحقوق ، فلا يجوز على إحداها ليعطى الأخرى ... وقد يسيغون أن تقول لهم : إن أفضل حضارة للناس ، هي ذلك النظام العادل الذي يهيئ للإنسان أسلوباً من الحياة يعيش فيه عادلاً بين روحه وجسمه ...

وقد يسيغون أن تقول لهم : إن رسالة تجيء لتحقيق هذا النظام عملياً ، لدى رسالة الحق الباقي ، وقانون الوجود كله ، وهي الرسالة التي تعصم الإنسانية من الزلزل والشطط ، ومن المسخ الذي يجلب عليها التخريب والتدمير ، والشقاء النفسي المجدب .

العقل المنطقي والعقل العاطفي

قد يسيغون ذلك كله ، ولكنهم يسيغونه « بالعقل المنطقي » لا « بالعقل العاطفي » والعقل المنطقي يسيغ ما يسيغ في ركود وقبول سلبي ، أما العاطفي فيسيغ ما يقبله في حرارة وحركة وقبول إيجابي ؛ وإنما تحتاج الرسالة من الرسائل — حق الأرضية منها — إلى أن تفهم على هذا الوجه الأخير ، فالعقل العاطفي هو الذي يفتح لها آفاق النفس ، ويصل بها إلى قرار الفطرة ، ويمكن لها في حبات القلوب ، وبها يُسَرُّ إلى الأعصاب يقظة وعزيمة ، ويشيعها في الدماء نشاطاً وحيوية ، فيصبيغ صاحبها بصيغتها من جميع أقطاره الظاهرة والباطنة ، فتبدو ألوانها في أعماله ، وأقواله ، وأفكاره ، ونواياه ، واتجاهاته ، وعواطفه ، وأهوائه ، فإذا هي قد ملكته ولا يملكها ، وسخرته لمشيئها ولا يسخرها ، فيحيا لها منفعلاً بخواطرها ، غيورا على حرمتها ، مجاهداً لإعلاء مبادئها ، باذلاً في سبيلها ماله . وراحته ، ووقته ، ومواهبه ، ودمه ، ونفسه ، سعيداً بذلك غاية السعادة ، وراضياً به تمام الرضا ؛ وهذا الفهم هو المعروف لدى علماء التوحيد بأنه التصديق القلبي . وهيئات أن يؤتي العقل المنطقي هذه الثمرة الباهرة ، والقوة القاهرة .. فالمسألة على هذا ليست مسألة الذهن الذي يفهم أو لا يفهم ، والعقل الذي يصدق أو لا يصدق ، وإنما هي مسألة القلب الذي يرضى ما يقال أو يبحده ، ويبحث له أو يرفضه ، « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُنَا الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ » .

والآن نعود إلى تساؤلنا الذي طرحناه أول هذه الكلمة : أي الفهمين أحق بالقبول والتقدير ؟ وما نظن أنا بحاجة إلى القول بأن الحق قد وضع ، وأن أكثر هؤلاء المنكرين علينا ، لا ينكرون شيئاً ترده عقولهم ، بل يعرضون عما تنكره قلوبهم . وهذا شر ما يبطل به إنسان من تناقض ، وشر منه أنه يرضى به ، ولا يسعى إلى تغييره .

الفصل الثاني

ذبذبة بين غايتين

في أخبار الأدب المشهورة ، أن الخطيئة هجا الزرقان بن بدر رضى الله عنه فقال :
دع المسكارم لا ترحل لبعيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
فهاج وماج ، وأرغى وأزبد ، وشكا الأمر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
رضى الله عنه ، فسأل عمر حسان بن ثابت ، وهو شاعر رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، أن يبين له قيمة الهجو في هذا الشعر . ولم يكن ذلك جهلا من عمر بمرأى
السلام ؛ فأجاب حسان بما معناه : الأمر أخش من الهجاء ، وإن أقذع الهجاء
لأهون من هذا بكثير ، وإنه لدنس صبه عليه لا تقوم به كرامة . فقصى عمر بحبس
الشاعر في سجن مظلم .

والقارىء لا يرى في هذا الكلام ذكراً للآباء والأمهات ، ولا تعريضا
بالأعراض والسوءات ، ومع هذا كانت منزلته في الهجو ما قرر حسان رضى
الله عنه . لم يقل الخطيئة للزرقان ، إلا أن يقعد عن طلب معالى الأمور ، ولا يحشم
نفسه تحصيل المسكارم التى تشرف بها النفوس ، فإن همته لا تتعلق بشيء من ذلك ،
وإنه إذا كلف نفسه مشقة في هذه السبيل فقد أعنتها ، وكلفها ما ليس من طبيعتها ؛
إذ لا يليق به إلا أن يركن إلى الطعام واللباس ، فليس يصلح إلا لهذين ، ولا مأرب
لهمة إلا فيهما ؛ أو قال له بالتعبير العصري : إن مثلك الأعلى الذى تعيش له ،
ولا تصلح لغيره ، هو الاستغراق في شهوة الطعام والشراب .
وفي هذه القصة معنيان بارزان :

الأول : أن الخطيئة كان خيرا بالحياة ، وأنها ذات وجهين أو غايتين ، غاية
خسيسة يعيش عليها الأدياء ، وغاية شريفة يحيا لها الفضلاء ؛ فالأولون يرون سعادتهم
لذة المظم والملبس وكفى ، والآخرين يجدون لتحصيل زادهم من الفضيلة ، ومتاع
نفوسهم من الخير والحق ، وهذا هو ما كانت تقوم عليه الحياة فعلا في ذلك العهد
العمرى الزاهر .

أما المعنى الثانى الذى يبرز في هذه القصة : فهو أن شعور الرأى العام كان شديد

الحساسية بالفارق العظيم بين الغائيتين ، فكان أحدهم يسمو بهمته أن تنضم في مطالب المعدة وترف البدن ، ويفزع أن يوصم بين الناس بهذه الوصمة القاسمة ؛ وإلى مكان هذا الفزع سدّد الخطيئة ضربته القاسية إلى غريمه ، أو صب عليه دنسا لا تقوم به الكرامة ، على معنى ما قال حسان رضى الله عنه .

١ — غائتان إحداهما دانية النال ، والأخرى بعيدة المدى .

٢ — حساسية مرهفة في الشعور ، تصد عن الغاية الأولى ، وتثير أشواق العزائم إلى الأخرى .

وهاتان هما دعائتا الحياة الفاضلة يا أخى : اعتراف بغائيتين ، وحساسية تعقر الأولى وتمجد الأخرى ، والناس بخير ما سلت لهم هاتان الدعائتان . . . هذا منطق الفطر المستقيمة ، والعقول السليمة ؛ فهل هذا هو ما تقوم عليه أساليب الحياة في حضارتنا المادية السائدة ؟

لك أن تزن اهتمام الناس ، فماذا ترى ؟ هل تراهم يهتمون ويقبلون على مطالب الغاية العليا ؟ أم تراهم يهتمون بزينة الملابس والمساكن ، ولذائد الطعام والمشرب حتى العاجز منهم لا يمنعه أن يخرج على الناس في زينة ما إلا أنه لا يجد ما ينفقه ، فهو لا ينفك يمد عينه وقلبه إلى ما يتمتع به غيره من زهرة الحياة الدنيا .

حولك طوائف من صغار الموظفين وكبارهم ، وطوائف من التجار والأطباء والصناع ومن يسمون رجال الأعمال ، فسائل نفسك : أى مثل أعلى تهفو إليه قلوب هؤلاء ؟ أى فضيلة تتناجى بها ضمائرهم في محيطهم العملي وخارجه ؟ أى أسلوب من أساليب الحياة الرفيعة يستغرق تفكيرهم بالليل والنهار ، فهم يدعون إليه ، ويبدلون الجهد لتحقيقه ؟ بل قف في ميدان كبير بمدينة كبيرة أو صغيرة ، وتأمل من يمر بك من رجل وامرأة ، وفقى وفتاة ، وسائل نفسك فيم يفكر هؤلاء ؟ أى شيء يشغل الآن قلوبهم ، وتسبح به خواطرهم ، وتسعى إليه أرجلهم ؟ هل شيء غير المال ، والملبس والمطعم ، والأفكار التافهة ، والنزوات الفارغة الوضيعة ؟ هل شيء غير مأرب البدن المباشرة ، ومطالب النفس الحيوانية الباطنة والظاهرة ؟

لقد يجلس إليك أحد هؤلاء فيحدثك بنعمة الله عليه : ماذا أريد من دنياي ؟ إني والله الحمد أسكن حسنا ، وآكل حسنا ، وألّس حسنا ، ولا مأرب لي من دنياي غير هذا ، وهل يأخذ ابن آدم من دنياه إلا أن يعيش هذه المعيشة المريحة المحترمة ؟ ترى لو أنك قلت لصاحبك : إن هذه غاية معيية ، أكان يغضب عليك غضبة الزرقان ،

ويشور بالجريمة إلى الحاكم ؟ أيفعل هذا وهو الذى حدثك به وأظهر ارتياحه إليه ؟ أيفعل هذا وهو يرى الجمهور يقيس الناس بمظاهرم ، لا بشرف معادتهم ، يقيسهم بما تحصى لهم الخزائن من الأموال ، لا بما تحمد لهم الإنسانية من كريم الفعال ؟ لا . . . إنه لا يغضب ، ولا يشور إلى الحاكم ؟ فإذا غضب فلأنك عبت عليه منهجه ، وخالفت رأيه ؟ وقد ينقلب أستاذ متفلسفاً يسفه لك رأيك ، ويرميك بأنك لا تفهم حقائق الحياة ، وأنت خيالى غير عملى ؟ أى أنه يغضب لأنك لم توافقه على ما يستحسنه ، يغضب فقط لدنياه الطامعة الكاسية ؟ فإذا كان أستاذك الفيلسوف ممن لا يزالون يحسنون الظن بالدين — مضى يخطط فى تأويل كتاب الله على غير هدى ، واستعدى عليك الحجة من مثل قوله عز وجل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » ؟ إلى آخر ما لديه من جهل وسفسطة ، وسوء فهم لمقاصد آيات القرآن الكريم . . . والعجيب أنه إذ يتحمس للطيبات من الرزق ، لا يجد فى نفسه خلجة واحدة من حماسة ، لما ورد فى القرآن الكريم عن الغايات التى تتعب فى نيلها الأجسام .

لقد تقرر فيما سبق من هذا الفصل أن للحياة الفاضلة دعامتين ، واعترافا بغايتين ، وحساسية فى الشعور تحقر الأولى منهما وتمجد الأخرى ، فأين مواقع هاتين الدعامتين فى عقول الناس ، وحياة قلوبهم ، ومظاهر حياتهم ؟

لست أكتعك أنى أجد الاعتراف بالغايتين مسلما به لدى الجماهرة العظمى من الناس . . . نعم ، وليس فى هذا مناقضة لما تقدم ، فإن ما يلقاك به صاحبك ، أو فيلسوفك السابق من إنكار ومخالفة — إنما هو جدل بغرض ينجم حين تأخذه العزة بالإثم لعب تدنقسه به ؛ وهى آفة تلحق الناس حين لا تستقر عقائدهم على قرارها ، فيظنون مذبذبين مترددين بين مختلف الاتجاهات .

بسمعوره والسكن

تحدث إلى الناس فى مزايا الدين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، واضرب لهم الأمثال ، وقص عليهم القصص من سير هؤلاء الأبطال المؤثرين ؛ وتحدث إليهم بأخبار أولئك الذين آمنوا بالله واتخذوه مثلهم الأعلى ، فكان أحب فى جوانحهم من الأوطان والأموال والأهل والأبناء ، فهجروا الوطن هجرة إلى الله ، وفارقوا العشيرة والأبناء سعيا إلى رضوانه ، وبذلوا الأموال رخيصة هينة ، لأنهم وجدوا

ما عنده أئمن من كل متاع ، حتى ليلقى أحدهم ماله كله في سبيل الحق لا يبق لأبنائه درهماً واحداً ، وهو مع ذلك سعيد جذلان ، يجد في قلبه حلاوة الإيمان ، يقول لمن سألته عما تركه لأبنائه : لقد وكلتهم إلى ثروة أعز من كل ثروة ، لأنني وكلتهم إلى الله ورسوله وهو يتولى الصالحين .

حدثهم عن جنود الله الذين أقاموا معالم الحياة الفاضلة ، بإقامة العدل الحازم الحاسم ، وتحقيق معاني الأخوة في الله ، والتضحية في سبيل الحق أينما كان ، والثورة على مظاهر الباطل أينما وجد ، والمساواة التي تتكافأ بها دماؤهم وحقوقهم ، وتتفاوت من ورائها بالتقوى منازلهم وأقدارهم .

حدثهم عن هؤلاء الجنود ، الذين جعلوا هذه الحلال كلها حقائق عملية لا نظرية ، حقائق ليست من الواقع المحسوس صوراً درجت بها على الأرض حيناً ، فكانت بهجة الحياة ، ونور بصارتها وأبصارها تحدث في ذلك كله أو بعضه ، تجدهم يصغون إليك ويشاركونك الإعجاب بهذه الحلال ويفيضون الثناء الضافي المعطر على أصحابها رضوان الله عليهم ؛ ومعنى هذا أنك إذا تجنبت في حديثك مثيرات الجدل ، ألفتهم يعترفون بالغايتين : الدنيا والعليا ، يذمون الأولى ويمجدون الأخرى . . ولكن ما وراء ذلك ؟

هل هناك محل له في القلب ، أم هي قضايا يستحسنها العقل ، ويتحرك بها اللسان ؟ هل هناك شوق في القاب يهيم بمحاسن هذه المثل العليا ، ويطيّر بصاحبه إليها في كل واد ، لا يبالى ما يصعبه من ظمأ ، أو نصب ، أو مخصة ، ولا ما ينفق من نفقة صغيرة أو كبيرة ، إرضاء لأشواق قلبه ، وتحقيقاً لزينة حسه ونفسه (١) ؟ .

هل هناك محل لهذه الأشواق ، أم أن شهوات المادية طغت على منابت هذه الفضائل في القلب فطمستها ، ولم تبق مجالاً لغيرها ؟ .

فضائل مرعومة

وما أريد أن أسرع بجواب هذا التساؤل ، قبل أن أعرض لفضائل يزعمون أنها قائمة في الغرب حيث مصادر هذه الموجة المادية ؛ فهناك إحسان ومحسون ، وهناك إيثار على النفس ومؤثرون ، وهناك مساواة وحرية وعدل ، وهناك شجاعة وإقدام ،

(١) لا أقصد بزينة الحس متعة البدن من طعام ولباس ، وإنما أقصد أن حب الفضيلة لا يشبع منها أنها صفة محبوبة في نفسه وكفى ؛ بل لا بد أن يراها قد لبست صورها في عالم الحس والواقع ، ولا بد أن يكون له مجهود إيجابي وأثر عملي في تحقيقها ، فتسر برؤيتها عينه ، وتساعد بها حواسه كما ساعدت به نفسه .

وجرأة على المخاطر واقتحام ، وبذل للدم والنفس ، وتضحية بالجهد والوقت بل بالعمر كله ، في غير منفعة خاصة . . . هناك هذا وغير هذا مما نعلم أنه من فضائل النفس ، ومتاعها الشريف النبيل ؛ فكيف نسرف إذن في ظلم هذه الموجة المادية ؟ إن هذا — حتماً — جدير بالتفات من يتهم هذه الموجة ؛ وغير جميل أن يتهمها ثم يغضى عما يزعمون من جمالها .

الواقع — يا أخى — أن هذه الموجة الطاغية ، أو هذه المدنية الزائفة ، أعظم من أن تنجب مثل هذه الفضائل النفسية العالية ؛ فما كان للشر أن يثبت إلا شرا ، وما كان للبطل أن يلد إلا باطلا : « وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَسِداً » . وتلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . . . فما هذه الفضائل التي يزعمونها إلا زهرات سامية لهذا الثبت النكد ، في تلك الأرض الحبيثة ؛ زهرات ليس لها من خصائص الزهر إلا لونها وشكلها ؛ أما رائحتها ، ورحيقها ، وعجبرها ، فكريه سام خبيث . . . أجل ، فإن ما تراه ليس له من حقائق الفضائل إلا سماتها الظاهرة ، وصورها المحسوسة ؛ أما غاياتها فباطلة ، وبواعثها فغير كريمة ، ومنابعها فسطحية ليست من أعماق الطبع الأصيل .

تزييف ما لدى القوم من فضائل

الفضيلة حق يا أخى ، والحق حق في كل زمان ومكان ، لا يتغير بزيادة في جوهره ولا نقصان ؛ فإذا رأيت إنساناً يتحمس للحق والدود عنه في موطن من المواطن ، ثم رأيت يخذله أو يحاربه في موطن آخر ، فما أظنك ترضى أن تصفه بأنه من عشاق المثل العليا ، وما أظنك تردد في الشك في حقيقة موقفه الأول . وهؤلاء قوم يزعم الناس أنهم يقدسون الحرية في بلادهم ، والحرية حق ، فلو أنهم يقدسون هذا الحق كما يزعمون ، لا طردت مظاهر التقديس في كل مكان في داخل بلادهم وخارجها ؛ فلا يجدون ضعيفاً إلا أعانوه ، ولا خائفاً إلا أمنوه ، ولا ذليلاً إلا أعزوه ، ولا مستعبداً إلا سعوا في حريته ؛ أما أنك تراهم يحرسون عليها في بلادهم ، ثم تراهم في الخارج حرباً على حرية الشعوب الضعيفة ، ينكون بطلائها ، والمجاهدين في سبيلها ، فيشردونهم ، ويسجنونهم ، ويقتلونهم فذلك من أبشع الرذائل ، ولا يمكن أن ينسب إلى فضيلة من الفضائل .

لقد قلت سابقاً : إن محب الفضيلة يراها دائماً زينة حسه ونفسه ، فلا يغنيه أنها

صفة معنوية محبوبة في قلبه ، بل لابد أن يرى صورها العملية في عالم الحس والواقع ؟
فهل ترى من المنطق المطرد ، أن يناهض هذا الجمال ، ويطارد أنصاره ، ويعمل على
إخفات صوته ، وطمس معالمه ؟

إذا أردنا الخير لأنفسنا فلنكن شجعانا صرحاء ، نسمى الحق حقاً والباطل باطلاً
ولو أجمع الناس على خلافنا ، وحسبنا أن تتركز عقائدنا على الحق ، وأن يتركز الحق
في عقائدنا ، وأن نعتز بأنفسنا ، ونجهر بما نعتقد أنه حق ، وحسبنا كرامة أن نكون
غير مقلدين ولا مترددين ؛ أما أن يبدو لنا وجه الحق فنشيع عنه ، ولا نجد الثقة
في النفس لتقبله ، لا شيء إلا لأن الناس لا يعتقدونه ، فتلك منزلة الغناء والهباء ،
لا يرضى بها إلا سقط المتاع من بهائم الإنسان والحيوان .

فلنقل إذن : إن هذه فضائل زائفة ، ولنجهر به في ثقة ويقين ، ولو ملأ الناس
الدنيا بغنائهم ومجيدهم لهذا الزيف ، فإن الأذن التي تسمع لحن غنائهم هي التي تسمع
في الوقت نفسه أنين المستضعفين ، لما يلقون من ذل وعنت وشقاء .

وتريد أن تذكر ما عندهم من عدل ؟ أم تريد أن تذكر المساواة ! أم أنت في غنى
بعد ذلك عما يكشف لك رذائل هذه الفضائل ؟ .

أخلاق هي محالب وأنياب

ليست هذه فضائل إذن ، إنما هي مواضع شككية ، يسير بها نظام جماعتهم ،
تواضعوا فيما بينهم عليها ليتم تعاونهم . . . تعاونهم على ماذا ؟ تعاونهم على إشباع أنانيتهم ،
وإمتاع حواسهم وجوارحهم ، التي لا تعرف حداً تنتهي إليه في الإشباع والإمتاع . . .
تعاونهم لا على البر والتقوى ، ولكن على الإثم والعدوان ! فلو أنهم لم يصطنعوا العدل
مثلاً فيما بينهم ، وظلم بعضهم بعضاً ، لانقرط عقد جماعتهم ، ولرايت أنانيتهم التي يأكلون
الناس بها الآن ، تنقلب عليهم فتناً كلهم ، وتنشر الضعف والفساد في صفوفهم ؛ حقيقة
عدلهم أنه « نظام صناعي » لا خلق نفسي أصيل .

والداعي إلى المساواة واللواصة والصدق ونحو هذا ، هو نفس الداعي إلى العدل ؛
هو الحرص على أن يظل تعاونهم وئيق العرى ، فإن هذا التعاون هو وسيلتهم
إلى السطو ، هو الخلب ، هو الناب الذي يعطون به على الفريسة التعسة .

وقد اشتد هذا الحرص حتى استفاض بأنانيتهم ، فخرج بها من حدود الأنانية
الفردية ، إلى الأنانية الجمعية ؛ فالرجل يهب لجماعته ، أو لأمته ، أو لقومه ، جهوده

وتأييده وعواطفه ، لأنها تعمل لشخصه ، فهي جهود عائدة عليه ، مردود خيرها إليه ؛ فهو إذ يحب الجماعة إنما يحب شخصه ، وممته ورفاهيته ، واستعلاؤه في الناس وعلى الناس . . . وتضخم حب نفسه في الجماعة ، وحب الجماعة في نفسه ، فكان ماتفتوا به من وطن ووطنية ، أو عنصرية وقومية ، وكان مارددوا أبناءه من تضحية بالمال ، واقتحام للمخاطر والأهوال ، وبذل للنفوس والأرواح ، مما سقناه في قائمة فضائلهم المزعومة .

مناسر اللصوص

حذار يا أخى أن تغتر بظواهر هذا الجنون الوحشى ! وسل نفسك دون أن نخدعها : في سبيل أية غاية يبذل هذا المخاطر روحه ؟ إنه لسعادة أمته بلا مراء . وهنا أطلب إليك أن تخطو الخطوة التالية فتسأل : من أى سبيل تسعد أمته ، إذا لم تسعد على حساب الضعفاء من الأمم والشعوب ؟ لقد طلبنا منذ قريب أن نكون أقوياء ، أقوياء في التحديق في هذه الصور ، لتبين حقائقها فنسميها بأسمائها .

أسألك الصراحة يا أخى : هل ترضى للرجل أن يعدو على آخر ، فيظلمه ويحرمه ، ويسلبه حقه في الأمن والحرية ؟ إن كنت لا ترضاه له ، ولا تقبله منه ، فإنك لن تشرح له صدرك إذا ارتكبه أمة من الأمم . . . أى أنك إذا استنكرته من ذلك الأنانى الصغير ، فأنت له من الأنانى الكبير أشد إنكارا . خبرنى بربك : أى فرق بين منسر من اللصوص يقطعون الطريق على المارين أو يغيرون على الغافلين ، فيسلبون هؤلاء وهؤلاء أمنهم وأموالهم ، ليسعدوا بها أزواجهم . . . أى فرق بين هذا المنسر وبين أمة تصنع هذا الصنيع نفسه ، مع تفاوت في بعض الأساليب والوسائل ، لا في الغايات والأهداف ؟ إن الأمر لا يعدو أن يكون تدرجا بالأنانية من حيزها الصغير إلى حيزها الكبير ، وتطورا بالجريمة من حالتها الفردية إلى حالتها الجمعية ، ومسحا للملكات النفس وفضائلها ليسهل تسخيرها في مطالب هذه الأنانية العمياء .

فما التضحية ، والتفدية ، والإقدام ، والشجاعة ، والمخاطرة — إلا أسماء يطلقونها على صور الجنون الوحشى ، حين ينطلق الرجل لتحقيق غاية من غايات قوميته ووطنه أو — بعبارة أصح — أنانيته الكبيرة ووثنه .

حين ننظر بعين الحقيقة

وما نحسب الظن يذهب بك إلى تمني هذه الأنانية الجمعية ، حيث ابتلينا نحن في بلادنا بالأنانية الفردية ، فالشر شر كله ، ولا فضل له ولا خير فيه ، وحين ننظر إلى الأمر بعين الحقيقة العليا ، يبدو لك الساعى إلى الإنم بمفرده كالساعى إليه في جماعة ، بل قد يبدو لك الفرد أقل بشاعة في أنانيته من الجماعة ، فإن الأنانية الكبيرة جعلت الشعوب والأمم والدول ، في حالة تنافس مستمر ، وعداء شديد ، وتربص دائم ؟ فبعد أن كان الأفراد ينافس بعضهم بعضا زاد الشر ، فعدت الأمم والشعوب على ما نشاهد الآن من تخريب المدن ، والحصون ، والمرافق ، وإبادة ملايين البشر . . . فهل ترى للشرق أن يتمنى لنفسه مثل هذه الأنانية ؟ يقول قصار النظر : نعم . وتقول : لا . إنا نرجو للشرق والغرب شيئا غير هذا كله ، سنذكره عما قريب إن شاء الله ؟ وهو الذى يدعو إليه الإخوان المسلمون . ويجهدون لتحقيقه .

عود على بدء

وبعد : فقد كنا نقول منذ قريب : إن للحياة الفاضلة دعائيتين : (١) اعتراف بغايتين (٢) وحساسية في الشعور تحقر أولاهما وتصد عنها ، وتمجد الأخرى وتخفز العزائم إليها . ولقد ادعينا أن أكثر الناس يقبلون هذه الحقيقة قبولاً نظرياً ، ثم تساءلنا : هل لهذه الحقيقة وتر مشدود في القلب ، تنبعث عنه العزائم الراجبة في الفضيلة والبطولة ؟ وأظن أنى ألتقى مع كل قارى ، على أن أوتار القلب التى تهدف إلى الغاية العليا ، وتقذف إليها بشبه الهمم والعزائم ، هى أوتار ضعيفة محمولة . . . وسوف تبقى هذه الغاية منصوبة معطلة ، لا تحظى من الإنسان إلا بالقبول السلبي ، وسوف يظل الإنسان موزعاً بين الغايتين ، مذبذباً بينهما ، ناظراً بعقله إلى الحسنى ، مربوطاً بقلبه إلى غيرها ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . .

الفصل الثالث

إلى العلاج

وبعد فقد وضعنا لهذا الباب عنوان « فقه الدعوة والداعية » ، وما أردنا به أن نشرح ما هي الدعوة ، أو ما هو الداعية ، وإنما أردنا مسألتين كبيرتين :
الأولى : أن نبين أن العلة الكبرى التي تتسلسل منها علل المجتمع كله — هي المادية في جميع صورها وأشكالها المادية التي حلت في القلوب ، فعلقها بعبادة المال والشهوات والأهواء المختلفة .

نريد أن ننص على هذه العلة الكبيرة ، التي أورثت الإنسانية هذه القلاقل المضطربة في كل صقع ، والعداوة والبغضاء في كل قلب ، والحروب المخربة المدمرة بلا انقطاع ؛ وهم مع ذلك لا يلتفتون إليها ، وإذا التفتوا لا يجدون العزيمة للتخلص منها . وكل داعية يجب أن يعرف هذه الحقيقة ، مسلماً كان أو غير مسلم ، مادام قد صحت عزيمته على أن ينقذ الإنسانية ويسعدها ؛ وما حسن أن يخطط الداعية في علاج مسألة ما على غير هدى ودراية ، وإن علاج أى مسألة على غير هذا الأساس ، فهو علاج ميثوس من نجاحه ، وكل ما يبذل فيه من جهد — إنما هو امتداد للداء ، وتأخير للشفاء . فليرجع الداعية للمسلم كل ما يعرض له من فساد في أوساط المسلمين ، أو غير المسلمين ، إلى هذه العلة الكبرى ؛ وليعالج ما هو بصدد بعد ذلك معالجة الفطن بما يجد في كتاب الله عز شأنه من طب وشفاء .

أما الداعية غير المسلم : فإننا ندعوه إلى التوراة والإنجيل والقرآن ؛ نعم فليأخذ أيضاً من القرآن إن خلصت نيته في استنقاذ الإنسانية ، فليأخذ منه ما تهديه فطرته إلى أنه صالح ، وإننا على يقين من أنه سيجده كله صالحاً ، وليضرب بأوهام العصبية عرض الحائط ، فما حسن في العقول المتحررة المستنيرة أن يدع الإنسان مريضه يسير إلى الذبول والفناء ، ويرفض ما يقدمه له جاره من الدواء الشافي ، لا لشيء إلا أنه يستسكف أن يعترف بفضل دواء الآخرين :

الثانية : أن نبين أن حياة الرسالات منوطة بالعقل العاطفي والتنفيذ العملي ؛ وذلك يصدق حتى على الرسالات الأرضية ؛ وبدون هذا العقل تظل الرسالة سطوراً

مطمورة في مجلداتها ، وأفكاراً راكمدة في أذهان أصحابها . فالنازية مثلاً ظلت فلسفة باردة تقرأ في الكتب وتدرس في الجامعات ، حتى تلقفها وجدان هتلر فعلى بها وفار ، ونهض ينادى في حماسة وقوة وثقة ، حتى أخذت قلوب الشعب تنهياً لرسالة هذا الزعيم الجديد ، وتنتقل بالتدريج إلى ما يشاء ؛ وساعدته ظروف الزمان والسكان حتى صارت النازية عقيدة راسخة ، يقاتل الشعب في سبيلها ، رغم ما فيها من حماقة وسخافة .

أصول كيرانه

ونخرج من هذا بأصلين كبيرين : أولهما أن الداعية يجب أن يشعر بأن دعوته حية في أعصابه ، متوجهة في ضميره ، تصيح في دمايته ، فتعجبه عن الراحة والدعة إلى الحركة والعمل ، وتشغله بها عن نفسه وولده وماله ... وهذا هو الداعية الصادق ، الذي تحس إيمانه بدعوته في النظر والحركة والإشارة ، وفي السمة التي تختلط بعماء وجهه ؛ وهو الداعية الذي ينفذ كلامه إلى قلوب الجماهير ، فيحرك عواطفهم إلى ما يريد من أمر دعوته .

ولا نقصد بهذا أن يكون الداعية رجلاً مهرجاً ، يصطنع الحماسة ليلعب بحماسة الجماهير لأتفه الغايات ، ويشير مشاعرهم إثارة مصطنعة ، فذلك شأن الدخيل المدعى لما ليس فيه ، بل نريد الصنف المفقور على يقظة الطبيعة ، الذي يتكلم فتتكلم أسرار الدعوة في ألفاظه ونبراته ، وهو إذ يفعل ذلك لا يثيرهم إلى باطل ، بل يهيئهم لقبول الحق الذي يألفه العقل والفطرة ... وإذا كان هذا لازماً للرسالات الأرضية على ما فيها من سخافة وحماقة ، فهو ألزم للإسلام ، لأنه رسالة الحق الخالص ، وبين الحق وفطرة الإنسان نسب ، فكلاهما من روح الله ؛ فإذا أثرت حماسة قلب المرء إلى حقائق هذه الرسالة ، رأيت فطرته تسرع إليها إسراع الأليف إلى أليفه في غير إنكار ولا تردد ، وتقبل عليها في معرفة وثقة ويقين ، بل في لذة وشوق وحنين « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ » ، يقولون رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . ذلك بأن الحق مسطور بقلم الله في كل فطرة والفطرة السافرة التي لارين عليها إذا سمعت الحق يتلى في أي وجه ، أحست أنه صدى أحاديثها ، وصورة ما هو مكتوب في أطوائها ، « بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » .

فإذا رأيت نفسك يا أخى راكد العاطفة ، منطقي الحاسة لرسالتك ، أو إذا وجدت من نفسك أنك تقبل علينا لتكون خطيباً ، يعجب الناس ببلاغتك ، فأعلم أنك — على الحالين — في حاجة إلى فهم جديد لديك ، هو الفهم العاطفي ، والتصديق القلبي ؛ هو الإيمان القوى الذى يشغل ذهنك بدعوتك في كل لحظة ، فتذكرها في نومك ويقظتك ، وعلى طعامك ، وبين أهلك ، وفي حلك وسفرك ؛ وفي كل مجالسك ، إذا قصدت إنساناً بالدعوة ، وإذا سألته أو عاديته فلها ، وإذا فرحت أو حزنت فمن أجلها ؛ وبالجملة تكون هى المسألة الأولى الحاضرة لديك في كل وقت من أوقات حياتك ... هى صلب الحياة ولها وصميمها ، وأمور عيشك على هامشها وأطرافها ، ولا تنظر هذا كثيراً عليك ، فأنت داعية ولست مدعوا ، وشتان ما حال هذا وذاك .

أقبل على دعوتك يا أخى هذا الإقبال ، واصطنع لها هذا الاهتمام ، وتكلف في صدق أن تكون لها ، واغمر نفسك في محيطها . وأكثر الاتصال برشدها وقادتها وأنصارها ، فإنك لا تلبث أن تكون كذلك إن شاء الله ، كالسيف إذا شجته صاحبه زايله صدؤه ، وصار مرهقاً بتاراً .

هذا الأصل هو ما يتعلق بالكلام عن الداعية . . أما الأصل الثانى فهو ما يتعلق بالدعوة .

فما هى الدعوة مجردة عن التعريف الفنى والحد الاصطلاحي ؟ هى نقل أمة من محيط إلى محيط ، تلك هى مهمته ، وفيها يندرج مجمل منهاجه ومفصله ، ومن ظنها غير ذلك فقد جهل نفسه ورسالته .

الدعوة والإصلاح

هناك جماعات تظن الإصلاح مدارس تنشأ ، وجامعات تقام ، وترعا تحفر ، ومصححات تبني ، ومصارف تدبر المال ، ومصانع تسد حاجة البلاد ، إلى آخر ما هنالك مما يدور على ألسنتهم ، ويشيع من أنديةهم وصحفهم ؛ وليس هذا من الإصلاح فى شيء ، إنما هو ضروريات حيوية ، يجب أن يسار إليها مع منطق الحاجة الاجتماعية ، أما أنها هى الإصلاح والإنقاذ فلا أرايت لو أن إنساناً رأى غريقاً جاثراً أشرف على الفرق ، فشرع يبحث له عن طعام يسد به جوعه ، ماذا تكون نتيجة حماقة هذا الإنسان ؟ وماذا تكون نتيجة حماقته لو أنه ترك المريض ومرضه فلم يستدع له الطبيب ، واستدعى معلماً يعلمه الحساب أو شيئاً من هذا القبيل ؟ ! !

ماذا أغنى الاهتمام بالترع والجسور والمدارس والمصانع والمسارح والصحف وغيرها في أوروبا؟ ماذا أغنى الاهتمام بهذا — والروح مريض ، والاتجاه القلبي فاسد؟ ماذا أغنى ذلك غير الاضطرابات والقلقل ، والمبادئ التي تقوم ثم تزول ، والحروب التي تنطفئ ثم تستعر إلى ما شاء الله ؟

أيها الداعية ، أنت بصدد أمة ، بل بصدد إنسانية تعيش في محيط آسن خائق ، ومهمتك أن تنقلها إلى المحيط العذب الفسيح الهنيء ، من محيط المادية إلى محيط الربانية ، من محيط قلبي إلى محيط قلبي آخر ، ثم أنشئ لها بعد ذلك ما تدعو إليه ضرورة الحياة الجديدة .

فأقبل بقوة على غرضك ، واجمع له عزيمتك ، ودبر له خطتك ، واستفت رسالتك دائماً فيما تريد عمله ، فإن أفتتكت بطبع كتاب فاطبعه وانشره ، وإن أفتتكت بفتح مدرسة فافتحها ، ولا تظن هذا يناقض ما حملنا عليه سابقاً ، فإنك تفتحها وتنشرها لنقل التعليم من محيط إلى محيط ، ونقل القلب من حال إلى حال .

الدعوة والكتابة

وهناك كتاب يظنون أن الإصلاح مقالات تكتب ، أو تؤلف ، فتصف لنا ما في القرب من علم وسياسة ، ونظام وحرية ، وأسلوب خاص في الاستمتاع بلذائذ الدنيا ، فإذا كتبوا أو ألفوا أو نشروا ، ظنوا أنهم أدوا رسالة ، وخدموا أبناء وطنهم . وهذا الصنف قد يعجبك ويدهشك بكثرة اطلاعه على ما للقوم من علم وفلسفة ، وأوضاع اجتماعية وسياسية ونحوها ؛ قد يدهشك بهذا . . . أما أن هذا هو الرسالة الواجبة عليه لوطنه فلا .

اقرأ مقالة له أو كتاباً ، فإذا أحسست أنه ينقلك من محيط إلى محيط ، ويكشف لقلبك آفاقاً روحية جديدة ، ويهدي إليك نفسك أو بعض نفسك ، ويدعوك في قوة وإيمان إلى الربانية الشاملة التي تهيب لك حياة صالحة سعيدة ، فيها للقلب حقه ، وللبدن حقه ، فهو داعية فطن خبير ؛ أما إذا قرأت فلم تجد إلا إنساناً يتحدث ليسليك ، أو ليعرض عليك بالقلم ما يصح أن تراه في السينما أو الصحف المصورة ، أو ليطالعك على نوع ثقافته وكثرة معارفه ؛ إذا قرأت فلم تجد إلا هذا ، فاعلم أن صاحبك يبعث مطموسة ، لأن علمه لم يفتح له بصيرة ، ولم يفقهه بحقيقة ما يحتاج إليه في النهوض والإصلاح ؛ إنه ظن أن ما عند القوم هو المثل الأعلى لما تنشده الإنسانية من حضارة ،

وهذا جهل محض ، لا يزيله أن يستكثر صاحبه من معارف القوم ، أو يصطنع من أساليب معيشتهم ، فإنه بهذا لا يزداد إلا إمعانا في ضلاله وضلالهم .

عبيد يتقنونه بمجد سادتهم

ولو أنه وثق بنفسه واعتز بشخصه ، وأخذ ما تعلمه أخذ الناقد المحض ، لاستبان له الحقائق ، ولأهدى لأمنه خيراً كثيراً ؛ ولكنه ألقى بكل ذلك عن كاهله ، وألقى وجوده وإرادته ، وأسلم نفسه لسادته يملأونها بما يشاءون ، ويفرغون منها ما يريدون .. وهذا شر أنواع الاستعباد ، لأنه الفناء التام للشخصية ؛ ومن هنا تجد صاحب الثقافة الألمانية يتغنى بألمانيته ، وصاحب الفرنسية يمجّد فرنسيته ، ومن تعلم في إنجلترا فالإنجليز مثله الأعلى ، وهكذا ... وحسبك من هؤلاء جهلا وضلالة ، بل عمى وبلادة ، أن أحدهم لا يشرع قلما يعيب به على سادته أنهم يستذلون الضعفاء ، ويحتلون أوطانهم ويستأثرون بثرواتهم ؛ بل إنه لا يكف عن التغنى بما يتوهم له من مزايا ومآثر ، فما رأينا — مثلا — كاتباً ذا ثقافة فرنسية أعلن على فرنسا حربا بيانية على احتلالها تونس والجزائر ومراكش والسنغال والصومال ، وما إلى ذلك من أقطار تأتي فيها من المأسى الإنسانية مالا يطيقه ضمير الحر الأبى الكريم . هل تراه وقف يرسل النداء الحار من أعماق قلبه ، ويسب صواعق غضبه على هؤلاء الأنانيين الغلاظ ؟ لا ؛ إنه يعمى عن ذلك كله ، ولا يرى إلا محاسن سادته وأسائده ، وما تفيض به بلادهم من حياة الإباحة والمجون ... وإني أدعوك يا أخى إلى أن تشك في علم هؤلاء وفهمهم وإنسانيتهم ، فإن الذى لا يفهم رسالته لا يعول عليه ، والذى يخذل الخير لا خير فيه ، و « الساكت عن الحق شيطان أخرس » ، كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا النوع من الكتابة الذى لا ينقلك من محيط إلى محيط ، بل ينقلك ويمعن بك في محيط الحضارة الآلية السماء . لا ينبغي أن يكون نهجك في الكتابة ، وهؤلاء الكتاب يجب أن تعرف منذ الآن زيفهم وحقيقة جهلهم ، فلا تعرفنك ألقابهم وشهرتهم ؛ ولكن همك الأول من قلمك أن تنقر به على قلب ليستيقظ ، وتنفض منه في نفس لتهب وتنهض ، وتعلم به باسم الله ما لاتعلمه الكتب والمدارس ... اذكر دائماً أنك قائد ، وأنتك طبيب ، واذكر دائماً أن مهمتك الكبرى هي إحياء الضمائر ، وإثارة الهمم إلى المثل العليا .

الدعوة والوعظ

وأريد للداعية أن يعرف أن نهجه في الوعظ هو نفس نهجه في الكتابة ، وأن مهمته في الحالين هي مهمة الأنبياء ؛ هي تغيير ما بنفوس الناس حتى يغير الله ما بهم من فساد ، وكل وعظ لا يبلغ هذا الهدف ، أو لا يرمى إلى هذه العاية ، فهو جهد ضائع ، وعمل باطل .

لا يكن كل همك يا أخي أن تتظرف بالنكت اللبقة ، والفكاهات البارة ، ليقول الناس إنك مجدد في الوعظ ، وعند هذا تنتهي مهمتك ؛ ولا يكن همك أن تسلي الجمهور ، وتقضى معه ساعة في حديث لا يرمى إلى هدف ... لا تسكن كذلك الذي يقبل على الناس في حذر وخفة ، فلا يسهم إلا مساً رقيقاً ، كأنما يخشى عليهم أن يتكسروا ، فيسوق لهم من قصص التاريخ ، وحكايات السابقين ، وأسباب زول آيات القرآن الكريم ، مالا صلة لبعضه ببعض ، ومالا يؤلف بمجموعه موضوعاً ذا غرض معين ، وهدف مقصود ... لا يريد بما يسوق إلا أن يجلس الناس من حوله فيستمعوا له ، ثم يخرجوا وقد أسعدهم بوقت قضاء معهم في مؤانسة ، ومتعة عاطفية بريئة ... هذا وعظ سلبي لاشأن لك به ، ولا مقام له في رسالتنا . إن رسالتك تقتضي أن تدخل على مشاعر جمهورك في حكمة ، فتحرك وجدانهم ، وتستثير عواطفهم إلى الله . فإذا تأتى لك ذلك ، ولانت نفوسهم لقولك ، فاصنع منهم ما تشاء صناعه ؛ أبني لهم عن غرضك ، وابعث بآمال قلوبهم إلى ما تحب أن يصلوا إليه ، فإنهم مستحيون لك إن شاء الله .

أيها الأخ . حذار الوعظ الجاف الذي لا حياة فيه ، وحذار الوعظ الركيك للمفكك الذي لا غرض له ، وحذار أن تقف موقفاً وأنت لاتنوي أن تخرج منه بصيد ... أنت صياد ماهر فاطرح شبكتك ، وانقل ما يخرج لك منها إلى محيط آخر ، محيط الإخوان المسلمين ، محيط دعوة الله ورسوله .

قد يكون الوعظ السلبي ضرورياً في وقت ما ، ولكنه على كل حال ضار في أوقات النهضة ، وإرادة التخلص من الفساد العام ... فإذا استوت النهضة على أمر الله ، وتخلصت الأمة من الفساد ، جاء دور الوعظ السلبي الذي يحذر ويزجر ويمنع ، لا الذي يشير ويغير وينقل ... وتكون مهمة الواعظ حينئذ أشبه بالطبيب الذي يقوم على رعاية الجسم السليم بالوقاية ، وبأخذ بالحكمة الطبية المعروفة : « الوقاية خير من العلاج » .

أيها الأخ ، هذه هي الدعوة ، وهذا هو الداعية ، وهكذا الفهم ، فافهم دعوتك به ، والله يؤيدك بروح منه ، ويهدينا وإياك سواء السبيل !

الباب الثاني

مزاج الداعية

نقصد بمزاج الداعية ما يلزمه من عدة عقلية ، وروحية ، ونفسية ؛ فلا بد له من :

- ١ — عقلية واقعية تصويرية ، لا نظرية .
 - ٢ — حياة روحانية يحياها فيما وراء المادة ، على أن تكون روحانية اجتماعية ، لا تعزل الناس ، ولا تدع الأخذ بالأسباب ، فذلك من الجهل بقوانين الله وسننه .
 - ٣ — طبيعة إيجابية تنفيذية ، لا سلبية .
- وقد تكون هذه العدد واضحة قوية في مزاج الداعية فهي طبيعة لديه ، وقد لا تكون كذلك ، فعليه أن يحاول كسبها بالتجربة والممارسة والبران ، فإنه لم يحرم نصيبه الكسبي منها إن شاء الله .

الفصل الأول

العقلية الواقعية

قلنا إن مهمة الداعية ، هي نقل الأمة من محيط إلى محيط . وليس هناك ما هو أصعب مراساً من الإنسان ، فهو كثير المراء والجدل ، سريع الانتفاض والعصيان ، شمس لا يسلم زمامه إلا لهواه ؛ ومن هنا ترى مهمة الداعية شاقة . فقد يكون نقل جبل أسهل على المرء من توجيه إنسان إلى خطوة واحدة يكرهها ؛ ولكن ما أطوع الإنسان لنداء قلبه إذا ناداه إلى خير أو شر ! وما أصبره على ما يصيبه حينئذ من مشقة الجهد ، ونفقة المال ! بل ما أجمل ذلك وألذ له ... القلب هو القوة العجيبة التي تسخر هذا العاصي العنيد في مشيئتها ، وهذا من حسن حظ الإنسان ، فإن الداعية الحكيم يستطيع أن يركز جهده وانتباهه في مخاطبة هذا القلب ، ومحاولة إرضائه والنفوذ إليه ، حتى إذا امتلك عنانه ، قاده في رفق ورضا وسرور ، إلى الإصلاح الذي يرجوه له ...

كيف نخاطب القلب

ولكن كيف نخاطب هذا القلب ؟ وبأي أسلوب نعرض عليه المعاني الربانية ؟ هناك من يعرض معانيه عرضاً نظرياً محضاً ، لأم له إلا أن يستوعب المقدمات والنتائج ، والعلل والمعلولات ، والأسباب والمسببات ، ويتعمق في التفكير التجريدي ، ليحيط بالكميات والجزئيات ، ومختلف الفروض والحقائق ، فاحذر أن تكون مثلهم في مخاطبة الناس ، فهو منهاج لا تحرك به الجماهير ، ولا تثار به النهضات ، ولا يصلح في الخطاب الخاصة الخاصة من أرباب الفلسفات ، الذين يعيشون في أبراجهم العاجية كما يقولون لا يؤثران عملياً في الحياة ولا تؤثر فيهم ، بل لا يصلحون لها ولا تصلح لهم ، ويقيني أن الفلسفة ضرب من شذوذ الفكر ، يطوح بصاحبه بعيداً عن تيار الحياة ... إنما الرجل كل الرجل ، والعاقل حق العاقل ، هو الذي يواجه الواقع العملي ، ويصلح بسنة الله ما شذ عن سنة الله ، في بساطة لا تعقيد فيها ولا تكلف .

أسلوب الله في عرصه الحقائق

إن هؤلاء يجانبون سنة الوجود ، ألا ترى أن الله عز شأنه حين عرض علينا الحقائق والمعاني والفلسفات ، عرضها عرضاً عملياً محسوساً ، ولم يعرضها عرضاً نظرياً ! فقد رتبته مثلاً لم يحدثنا عن كنهها ، وكيفها ، وكمها ، وعن أسرارها الخفية ومعانيها التجريدية ؛ بل عرضها عرضاً سافراً في مخلوقاته ، فأنت تراها في البحر والجبل ، والزهر والشجر ، والشمس والقمر ، ونحو ذلك مما تقع عليه العين ؛ وفي هذا العرض العملي مقنع لإدراكها ، والشعور بها .

ولم يحدثنا عن فلسفة الموت والحياة ، بل ساق ذلك فيما نراه كل يوم من مواليد ووفيات ، وتطور بين الميلاد والوفاة ، فما عليك إلا أن تنظر وتتأمل ، وتدرس ثم تعتبر . ويرى الله — والحق فيما يراه — أن في هذا القدر كفاية ، إذ لا تنسع طاقتنا العقلية لأكثر منه ، ولا يتعلق نفعا المادى والروحى بما وراءه .

وغرائز الإنسان : حبه للبقاء ، ورغبته في العلو والاستثثار ، وميله إلى الزوج ... هذا وغيره صفات أو قوى مستترة في كيانه ، فهل أنزل الله لنا في ذلك كتاباً فلسفياً يشرحه شرحاً عميقاً ، ويحيط بحقائقه أوفى إحاطة ؟ نعم أنزل فيه كتاباً ولكنه كتاب الطبيعة ... كتاب الحياة التي تشرح أسرار الإنسان كل يوم ، بل كل ساعة ، بل كل دقيقة ؛ فكل أعمال الإنسان إن هي إلا تفسير لقواه وغرائزه المستكنة فيه .

ضرورة الأساليب التصويرية

فهؤلاء المتعلقون بالنظريات المعنة في الفروض ، يفسدون أنفسهم حين لا يسارعون قوانين الحياة ، ثم يحاولون أن يفسدوا على الناس نظام طبيعتهم السهل .

وأنت تريد أن تهتدي عن رذائل ، وتصد عن حضارة فاسدة ، وتريد أن تدعو إلى فضائل ، وتهتدي إلى حضارة صالحة ، فاتبع سنة الله في عرض المعاني ، واعرض دعوتك في صور عملية ، تمشى على قدمين ، وتسعى على الأرض ، وتؤثر في الناس ، فذلك سبيلك الوحيد ، إلى بث الحياة في القلب ، والحركة في العقل . وحين تدب الحياة والحركة في الإنسان : قلبه وعقله ، فقد حيا الحياة التي ترجوها له .. وإياك ومنهج النظرين ، فإنه يمل الناس ويصرفهم عنك .

أما الأساليب التصويرية التي تدخل على القلوب بدعوتك فنذكر منها ما يأتي :

أولاً — القصة

تمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة ، فتعرض لك الأشخاص ، وحركاتهم ، وأخلاقهم ، وأفكارهم ، وانجاسات نفوسهم ، ويثبثهم الطبعية والزمنية . تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم ؛ فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال ، ومضيت مع الحوار والنقاش ، عرفت ما يستكن في النفوس من طباع ، وما يهيجس فيها من خواطر ، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم ، وضقت ذرعاً بذوى النفوس المظلمة والوسائل الملتوية ، حتى لكأنك تراهم رأي العين ، وتسمع منهم سمع الأذن ، وتعاشرهم وتحيي بينهم . وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها ، فغريزة حب الاستطلاع ، تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بشغف القصصى البارع ، استشرافاً لمعرفة ما خفي من بقية الأنباء . والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوصل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب ، فهي بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم في صورة عملية حية ، تحرك الوجدان وترفع بعض المشاعر ، وهي بالميزة الثانية : ميزة التنبه والتقبل ، تجعل النفوس أوعية مفتوحة ، يصب فيها الداعية ما يشاء فيباغ القرار .

فاستمسك بذلك يا أخى فهو من سنة الله ، والله عز شأنه قد سنه في القرآن الكريم فقص على رسوله أحسن القصص ، وضعنه خير التعاليم والمواعظ ، تثبيتاً له ولأئمة على الحق : « وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِيهِ فَوَأَدَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »

وخير القصص كله ، قصص القرآن الكريم — شرح الله صدرك له ، وأتار بصيرتك بما فيه وإلى ما فيه — لقد أحكمت به عروة العقيدة ، واكتملت نظام الأخلاق ، واشتدت به أركان الحضارة الإسلامية ، فكانت أوفى وأكمل الحضارات ...

مثال من قصص القرآن

ونحن نسوق لك مثلاً قصة سليمان ومملكة سبأ ، ولا تؤاخذني إن قصر بي العجز عن الإحاطة بمرامها القيمة البعيدة ...
إن هدهداً كشف لسليمان عليه السلام ما عليه مملكة سبأ من الشرك والضلال ، فبعث إليهم سليمان أن يسلموا الرب العالمين ؛ فحاولوا استرضاءه عنهم بالمال ، فلم تغنهم المحاولة شيئاً ؛ فقد رفض المال وأوعدهم ، وأنذرهم جنوداً لا قبل لهم بها ، وحينئذ نزلوا على حكم سليمان ، وجاءوه مسلمين .
وفي هذه القصة يقرر الله تبارك وتعالى القواعد الأصلية ، للمادية والروحية ، التي لا بد منها لقيام الدولة النموذجية الفاضلة على النحو الآتي :

١ — قوة وعلم

يقوم الملك العظيم على دعامتين كبيرتين أصيلتين هما : القوة والعلم فالقوة : تجمع قوة الأبدان ، وكثافة الجنود المدربين ، ووفرة الأسلحة والآلات . والعلم : هو نور العقول والقلوب ، وهو وسيلتك إلى معرفة قوانين الوجود وسنن الطبيعة ، لتسخير ما يمكن تسخيره منها في منافع الدولة ، وهذا هو العلم النافع ، هو العلم بالله عز وجل .

هذا أصل صالح من أصول الدولة ، ذكره الله عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه : « قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . » ولكن الله عز شأنه لم يقف بنا عند حد الترسيم والوصف النظري لمقومات الملك ، بل ذكر لنا ملكاً عملياً ، ودولة نموذجية ، لئلا نرى هذه الصفات حقائق ماثلة للعيان ، في معالم ملكها الشامخ ، فنحتذى حذوها على بسيرة ، فإن لم نبغ هذا المثال — ولن نبغعه^(١) — فلنحقق منه ما تنسج له الطاقة .

(١) ملك سليمان عليه السلام لا ينبغي لأحد من بعده ، كما ورد في القرآن الكريم .

القوة في قصة سليمان

إن الله عز وجل يريد لنا ملكاً عملياً ، فذكر لنا هذه الصفات مجردة ، ثم أوردنا محققة في ملك سليمان ، لنكون عمليين في بناء المجد ، لا كلاميين ولا نظريين .
فما القوة هنا ؟ وما كثافة الجند ؟ اقرأ معي قول الله عز وجل : « وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ — من كثرتهم وتزاحمهم — يُوزَعُونَ » يدفعون حفظاً لنظامهم ، وإبقاء على تنسيق صفوفهم ، فلا يتقدم المتأخر ، ولا يتأخر المتقدم . وهذه الجنود الكثيفة التي لم يعرف لها مثيل في تعدد أجناسها تبعث الرعب في جميع الآفاق ، حتى لا يدخل الوجل في قلوب النمل فضلاً عن غيره ، فإذا « أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

الذرية :
٥ حتى إذا أنشأ

ويعرف سليمان هذه القوة من جنده ، ، وأنها لا يقف لها شيء في الأرض ، فيرد هدية ملكة سبأ بقوله : « ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

أرأيت — يا أخى — الجند مصوراً هذا التصوير الرائع ، في مثل هذا الكلام اليسير اللوجز ، وهو تصوير لم يدع ناحية من نواحي الجند إلا ألم بها : كثرة العدد ، النظام ، عظمته بتعدد الأجناس فيه ، إقناؤه الرعب في قلوب المخلوقات حتى اليسير منها والتي لا قصد للجنود إلاها ، وكونه جنداً غالباً مظمراً على أعدائه في كل المواطن ، فبارك الله رب العالمين ، وما أجل شأن القرآن الكريم !

العلم في قصة سليمان

ثم أين العلم في هذه القصة ، وأين رسالته التي أداها للدولة ؟ اقرأ معي قول الله عز وجل : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ، وَقَالََا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ — ميراث نبوة وعلم — دَاوُدَ » .

الذرية :

٥ وقال يا أيها الناس

وهذا العلم الذي أشار الله إليه ، يفسره سليمان بأنه هو اللغات وسائر أنواع العلم في قوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وَأَوْثَقْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » .

فأما منطق الطير وغيرها ، فإنك تراه في حوارهِ المعروف مع الهدهد كما سيأتي ،
وتراه كذلك في فهمهِ ما قالت النملة التي أنذرت ذوبها بجنده ليدخلوا مساكنهم .
وأما ما عدا اللغات من سائر أنواع العلم ، فهو قوله : « وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » .

ونرجو أن تتأمل قوله عز وجل : « إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » فسيأتي بعد
قريب تفسير هذا الفضل بأنه هو العلم ، معترفاً به على لسان سليمان الشاكر الذاكر
عليه السلام .

وأما ثمرة هذا العلم العملية في الدولة ، فهي السيطرة على قوانين الطبيعة وقواها
المختلفة . ليسخرها أهله في منافع الدولة كما تقدم ، وهو ما تصوره قصتنا فيما يأتي :
لما أيقن أهل سبأ وملكتهم أن سليمان عليه السلام ليس ممن يعملون للمال ،
وأنه لابد أخذهم بالبأس الملاحق إن لم يسلموا ، خرجت الملكة في وفد كبير ذاهبة إليه ،
فلما كانوا ببعض الطريق ، أراد عليه السلام أن يحدث آية تدهش القوم ، وتلين قلوبهم
للإيمان ، فقال لجنوده وفيهم من أرباب القوى العجيبة ، وأهل العلم بأسرار الوجود :
« يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ
الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ؛ قَالَ
الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . . .
فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ : هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي » . أرايت الذي عنده علم من
الكتاب كيف يسخر علمه لمشيشة الملك العادل ، والإمام الفاضل ، والنبي الصالح ؟ . .
وهذا الذي عنده علم من الكتاب هو ممن تفضل بهم الله على سليمان ليكونوا في خدمة
ملكه ؛ فلما تحقق فضل الله بتسخير هذا العلم عملياً ، اعترف به فقال : « هَذَا مِنْ
فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ،
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ » .

وفضل الله كما تراه هنا : هو القوى العلمية بدون شك ، فإنك تقرأ في هذه السورة :
« وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا » وتقرأ في سورة أخرى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ
مِنَّا فَضْلًا ، يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ، وَأَلْمَأْلَأْ لَهُ الْفِجْدِيدَ » ؛ فسبحان الله العظيم ،

مسخر الأسرار للعاملين في الأرض بطاعته ، المؤيدين لسلطانه فيها ، « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » .

وحسبنا هنا هذه الحادثة شاهداً لتسخير العلم والقوى الطبيعية ، فهي وحدها كافية لتصوير المراد ، وإلا فإنك تجد تسخير الطبيعة لملك سليمان في آيات أخرى : « وَاسْلُمَانِ الرَّبِّحِ ، غُدُوها شَهْرٌ ، وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ، وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ^(١) وَمِنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذْقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ ، وَتَمَاثِيلَ ، وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ، وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ » .

هذا شأن العلم والقوة في هذه القصة ، وقد شرحته لنا بأوفى بيان وأكمله كما رأيت .

٢ - رسالته

ولا بد للدولة من رسالة مجيدة تسعى لتحقيقها ، وتصرف إليها قوتها وعلمها ، فما هذه الرسالة ؟ هل هي اتساع الملك وكثرة المستعمرات ، والاستيلاء على أراضي الضعفاء ؟ هل يرتاح ضميرك أن تكون هذه اللصوصية وهذا الفساد في الأرض رسالة مجيدة ؟ إن علم الله أرفع من أن يسخر لمثل هذه المخازي والمآسي ، وإن الله عز وجل أرفع من أن يرسم لأولياته مثل هذه الغاية الشريرة الآثمة . . . إن الغاية الفاضلة التي يجب أن تعيش لها الدولة الفاضلة وتعمل جاهدة لتحقيقها ، غير ناظرة إلى شيء سواها ، هي توحيد الله عز وجل ، وجمع الناس على الإيمان به وحده ، وتطهير الأرض من كل رجس وشرك ، حتى تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله . . . يجب تحقيق ذلك بكل الوسائل ، يجب إقامة النظم السياسية ، والتشريعية والعملية ، التي تكفل استقرار الناس في ظلال هذه الغاية ، فإن استقر ذلك بالتي هي أحسن فيها ونعمت ، وإن استعصى الأمر على الوسائل السلمية ، فليتنزع بالتي هي أحسن أيضاً ، وليس أحسن في هذه الحالة من القوة المسلحة . . . فمن أنزله السيف على أمر الله

(١) عين القطر : عين تفيض بالبحاس المذاب .

فهو معنا : له مالنا . وعليه ما علينا ، وإلا فلن نكف عن أعداء الله ، حتى تطهر الأرض من رجسهم : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » ، « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

تلك هى الغاية التى يجب أن تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة ، وقد أثنى الله على المسلمين ، وشهد لهم أنهم عاشوا لها لتطهير الأرض من الرجس ، ولتثبيت دعائم الإيمان بالله ، فقال عز شأنه : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » ، وأثنى على القائد الصالح القوى صاحب سورة الكهف ، الذى آتاه من كل شيء سبباً ، أثنى عليه لأنه وجه قواه لتعذيب أهل الشر ، وتشجيع أهل الإيمان ومعوتهم : « قُلْنَا: يَا آدَمُ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا » ، فوضع لقوته دستوراً صالحاً يعذب عليه أو يثيب : « أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » .

وهذا حسن فى موضعه بالغ غاية الحسن ، لأن الله عز شأنه ، أراد مجرد التقرير ، تقرير هذه الغاية والنص عليها ؛ أما حين أراد تصويره عملياً فقد أقامه لنا فى قصتنا الحالية ، فى منتهى الشرح والتفصيل ، ومنتهى الإيجاز والإعجاز ؛ اقرأ قوله تعالى حكاية عن المدهد : « إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ — سبأ — وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّتْهُمْ غَنِ السَّبِيلِ فَيُتِمُّ لَا يَهْتَدُونَ » وهذا ضلال فى العقيدة ، وضلال فى العمل ، يفسدان على الدولة غايتها ، ويقودانها إلى شر المصير . . . وهل صلاح الحياة ، إلا عقيدة صالحة ، وعمل صالح ؟ . .

وبعد أن بين المدهد فساد هذه الدولة ، عقيدتها وأعمالها ، استمر فى بيان

العقيدة الصالحة ، التي يجب أن تعيش عليها الإنسانية أفراداً وجماعات : « أَلَا يَسْجُدُوا
لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » : ونرى سليمان عليه السلام - وهو رئيس الدولة
الأعلى - يعمل لهذه الغاية نفسها ، وفق ما يحكيه الله عن الهدد ، فيرسل إلى سبأ
بهذا الكتاب الموجز الحكيم ، يدعوهم إلى الإسلام لله : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ : وَإِنَّهُ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَائْتُونِي مُسْلِمِينَ »
ويصر سليمان على أن ينزلهم على حكم الإسلام ، فيهدد ما يهدد بالقوى المسلحة الجبارة ،
حق تقول ملكتهم في النهاية : « رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ » ..

ألا ترى - يا أخى - أن هذه الدولة الكريمة قد عاشت حقاً عاملة لهذه الغاية
الكريمة ؟ أو لا ترى أن هذه الغاية واضحة جميلة ، في النسق التصويرى المحكم الذى
ساقها الله عز وجل فيه ؟

٣ - إجماله الرئيس الأعلى ، وعنايته بكل شئ ،

والحقيقة الثالثة في هذه القصة - تبين لنا أن من تمام نظام الدولة أن يكون
رئيسها الأعلى عالماً بغايتها ، مؤمناً بها ، عاملاً جهده لها ؛ هذه واحدة ، والأخرى
أن يكون يقظاً ومتنبهاً ، متعهداً لشئون رعيته صغيرها وكبيرها ، حازماً في محاسبة
المسؤولين ، فإن لم يكن كذلك انحل التناسق في قوى الدولة ، وانقرط عقدتها ؛
وهذا كلام لا غبار عليه ، ولا تردد في قبوله ، فلا نطيل في الاستشهاد له من كتاب الله ،
ولنتعمسه مصوراً في قصتنا أبداع تصوير : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ
أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ » ... ألا تراه عليه السلام معنيا برعيته ، يتفقدهم ولا
يهملهم ؟ والذي يعنى بتفقد الطير ، لا يفوته أن يتفقد ما هو أهم منه ، وذلك استقصاء
كامل في رعاية نواحي الدولة ، والعناية بأمرها ... ثم ترى يقظته العجيبة ، وفطنته
الحساسة ، إذ يفتن إلى غياب هدهد ، وسط هذه الألوف ، بل الملايين من الخلائق
المحشورة له ، فيقف متسائلاً : « مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ »

وهذا مثل أعلى في يقظة الحس ، من العسير — إن لم يكن من المستحيل — على بشر عانى أن يدركه ، ولكنه من الأمور اليسورة لنبي من أنبياء الله ، ينظر الأشياء بنور بصيرته الملهمة ، لا بنور بصره فقط ، وهو على كل حال مثل أعلى في اليقظة ، ينسبه الله عز وجل ، ليحذيه كل من ولى من أمور الناس شيئا .

وانظر إليه بعد هذا ، كيف يهتم بغياب المهدد ، ويسأل عنه ، ويتوعدده بالعقوبة الصارمة ؟ خبرني بربك ، ما قيمة هدهد في هذه الجيوش الجاررة ؟ ما غناؤه إذا حضر وما مضرتة إذا غاب ؟ .. لكن هو القائد الحكيم يا أخى ، يرى أن لكل شئ رسالة صغر أو كبير ، ولكل جندى عملا لا يؤديه غيره ، فإذا غاب أو أهمل ، اختل التناسق في العمل ، وأدركه الاضطراب والخلل ؛ ومن هنا يعظم في صدر القائد الحساس ، ما يقع من جرائم الغياب أو التقصير ، فيكون حازما في مؤاخذه أصحابها ، مؤاخذه تحمل العذاب الشديد ، وتعتمد على عقوبة الإعدام : «لَأَعَذَّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ ، أَوْ لِيَآتِيَنِّي بَسُلَاطَانٌ مُبِينٌ» . وفي المجال قول كثير ، وتعليق مستفيض ، ولكننا نكتفي بالإشارة إلى أن الله عز وجل اختار لنا من يقظة سليمان هذا المثال ، ليعلمنا أن الندى يهتم بصغار الأمور هذا الاهتمام ، يكون بكبارها أشد رعاية واهتماما ، وأن الذى يحاسب الحساب العسير الحازم ، على ما قد يبدو تافها ، لا يمكن أن يفرط في المؤاخذه على الأخطاء الجسيمة .

نم هولم يأخذ اعتذار المهدد قضية مسلعة ، بل وضعها موضع التحقيق والاختبار ، فقال : « سَنَنْظُرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » .

وأما إيمانه بالغاية ، والعمل لها ، وعدم الركون إلى غيرها ، من مال أو نحوه ، فيتجلى لك من أول القصة إلى آخرها ؛ فليس له هدف إلا الله ، وتسخير كل شئ لله ؛ وحسبك منه انصرافا عن كل ما عدا الله ، أنه سخر برسل بلقيس ملكة سبأ وبهديتهم ، وقال هذا القول الذى يصور إعراضه عن المال ، وتهكمه بأهله أصدق تصوير : « فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ « مَتَّحِكَا : « أُمِدُّوْا نِي بِمَالٍ ، فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ، فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

ولقد روى الله تبارك وتعالى عن صاحب الكهف ما يشبه ذلك : « قَالُوا : يَا ذَا

الْفَرَائِنَ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، قَهْلَ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ؟ قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ « مِنْ الْمَالِ قَاعَيْنَوْنِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » .

٤ — إيمانه أفراد الشعب برسالة الرسول

ورابعة نقلها من هذه القصة ، ولا بد من النص عليها : أن كل فرد من الرعية يجب أن يؤمن بغاية الدولة ، وأن يجند نفسه لها ؛ وكل ماضى مما قرناه يصبح عديم الجدوى ، إذا شذ أفراد الرعية ، فاتجهوا إلى غير هذا الاتجاه ؛ وأنت ترى المهدد يعز بواجبه ، ويقول في ثقة للمؤمن العامل لغايته العليا ، مخاطباً سليمان وهو حاكم الجن والإنس : « أَحْطَطُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ! وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ . . . » إلخ ؛ ومن حق خطاب المهدد بهذه اللهجة العجيبة أن تتأمله وندرسه ، لنرى أنه ليس خطاب المهمل المذنب المضطرب ، وإنما هو خطاب الذى رضى عن نفسه ، واطمأن إلى أداء واجبه ؛ فهو لا يعبأ أن يخاطب أعظم مخلوق بلغة الحق القوى ، ولو كان هو سليمان ، حاكم الإنس والجن .

يأيها الناس ! يأيها الشباب ! اعرفوا واجبك ، واسعوا في صدق إلى غايتكم ، فإن أمة لا يساوى رجالها هدهداً لهى أمة من الغناء والهباء ، وإن أمة هدهدها خير من رجال لهى أمة مقعدها في السماء ، فوق هامة الجوزاء .

وماذا بعد هذا في هذه القصة يا أخى ؟ فيها أن فساد العقيدة والعمل — كما رأيناها في دولة سبأ — لا يخلق إلا رجالاً لا عقول لهم ولا حمية ، من هذا الطراز الذى جمعه بلقيس لتستشيرهم فيما نزل بها من خطاب حسيم ، فلم يكن عندهم من غناء ، إلا أن قالوا : « الْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » ؛ وما جمعهم لهذا ، وإنما جمعهم لتقول لهم : « مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى أَشْهَدُونَ » ، فلم يسعفوها برأى تستأنس به ؛ وهذا ضرب من الرجال لا تقوم به دولة ، ولا تنبت إلا عقيدة زائفة ، ونظام من العمل فاسد مضطرب . . . فالعقيدة العقيدة أيها الإخوان !

نحن في هذه القصة أمام أربع معان دقيقة خطيرة ، لا تقوم دولة عظيمة إلا بها :

(١) قوة وعلم (٢) رسالة مجيدة (٣) إيمان الرئيس الأعلى وتفقد — فى انتباه —

كل شيء (٤) إيمان أفراد الشعب بغايتهم ، وشدة إخلاصهم لواجهم . . . خبرني يا أخى ، لو أن قصصاً من الأفذاذ النوابع ، أراد تصوير هذه المعاني الجليلة ، أكان يعرضها عليك في مثل هذه القوة ، وفي مثل هذا الوضوح الذى يفوق ضوء الشمس في شدة جلالة ، أو كان يعرضه عليك في مثل هذا القدر الوجيز من البياض الرائع المعجز ؟ !

ولسنا بصدد إعجاز القرآن فنحدثك عن إحكام التعبير ، ودقة التركيب ، وسداد مراعى الإرشادات ؛ أو نحدثك عن خلود المعاني ، والقوانين الصحيحة التى ضمنها الله هذه القصة ، فهو نوع من أسرار الإعجاز ؛ إذ لا يلتفت إلى هذا النظام الكامل للدولة العظيمة بشر . . . لا يحيط به إلا الله الذى خلق كل شيء وأحاط بكل شيء علماً : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟ » وصدق الله العظيم : « قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً » .

وأقول : لسنا بصدد إثبات شيء من هذا الإعجاز القرآنى ، وإنما بصدد طبيعة القصة ، في عرضها للمعاني الدقيقة عرضاً مصوراً في حوادث عملية ؛ ونحسب أن قد قمنا في تحليل هذه القصة بقدر يكفى للاقتناع بما قصدنا إليه .

والآن نسوق لك القصة بأكملها في نسقها الإلهى المعجز ؛ قال عز شأنه في سورة النمل : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ، وَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ . وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . وَخَشِرَ سُلَيْمَانُ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِى النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ : يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا ، وَقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالدِّى وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِى رَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ . وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ : مَا لِى أَرَى الْهَدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِى سُلْطَانٌ مُبِينٌ .

فَكَتَّ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَقَالَ : أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ
يَقِين . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .
وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . قَالَ : سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . اذْهَبْ
بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ . قَالَتْ : يَا أَيُّهَا
الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيم . إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيم ، أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَائْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَتْ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي
مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون . قَالُوا : نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ
شَدِيدٍ ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ . قَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا
قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ
إِلَيْهِمْ بِهَدْيَةٍ فَنَاطِرَةٌ يَوْمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ . فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ
بِمَالٍ ؟ قَالَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ
إِلَيْهِمْ ، فَلَتَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلِنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ
صَاغِرُونَ . قَالَ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟
قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي
عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِين . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ
أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ،
لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ . وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ
فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيم . قَالَ نَسْكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ

مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ : أَهَكَذَا عَرْشُكَ ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ . وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ . إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ . قِيلَ لَهَا : ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ، وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ، قَالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ فَوَارِيرَ ، قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وأنت ترى في القصة بعد تلاوتها الآن ، أن فيها غير ما قدمنا لطائف دقيقة ، كالنص على حقيقة الاستعمار ، وسوء عاقبته على الذين يحل بهم في قوله تعالى : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » وأن هذا ديدنهم في كل زمان ومكان : « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » فلا ينفكون عنه . . .

وترى فطنة في بلقيس ، وتوقد ذكائها في إدراكها معنى الاستعمار ، كما ترى هذا الدكاء في تريثها ، واختيار حقيقة سليمان ، فإنها لم تحاول أن ترشوه بالمال ، وإلا كانت غبية ، وإنما حاولت أن تختبر حقيقته ؛ فإن كان بمن يعملون للمال فقد أسكتته الهدية ، ورضى بما يدفع له من خراج . وإذا كان من أرباب العقائد والإيمان بما يدعوها إليه في خطابه ، فسوف يرد الهدية ولا يقبل إلا السيف ؛ فإذا تبين لها ذلك كان حقاً عليها — وهي العاقلة الذكية — أن لا تتردد في مبايعة هذا المؤمن ، فذلك مقتضى الحكمة . . .

وهو الذي قد كان كما ترى في القصة . . . ومحاولة الاختبار تلجها في قول بلقيس : « وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ، فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ » ، فقولها : فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ، يضع يديك على رغبة الاختبار الذي قصدت إليه . . . وتلمح هذا الدكاء أيضاً حين عرضوا عليها عرشها ، وقد نكروها ، فغيروا معاملها بالزيادة والنقصان ، وقالوا لها : أهكذا عرشك ؟ فلم تقل : إنه هو ، لأنها تركته وراءها في بلادها ، والمسافة بعيدة ، ولكنها في الوقت نفسه لم تقل : ليس عرشي ، لأنها تراه بكثير من معامل وصفاته . . . ولم تقل : لا أدري ، لأنه غباوة وبلادة ذهن ؛ فخرجت من هذا السؤال المخرج ، بهذه الإجابة الكيسة اللبقة ، التي ما كان يصلح للموقف غيرها . . . فقالت : « كَأَنَّهُ هُوَ » .

وترى في القصة غير هذا كثيراً من اللفتات اللبقة الدقيقة ، تتركه آسفين خوف الإطالة والإملال .

فعليك بقصص القرآن يا أخى ، وادرس أغراضه ومعانيه ، واجعله من وسائلك في تبليغ دعوتك ، فإنه يسفك بما لا يسفكك به قصص آخر .

الفصل النبوى

ومن القصص الذى يجب أن تستعين به قصص رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو قصص كان يختاره عليه السلام من تاريخ السابقين ، ليشرح ما يريد من العانى بالأمثلة الحية الواقعية ؛ وهذا القصص يأتى فى المرتبة بعد قصص القرآن الكريم ، ولنسقى لك مثلاً منه :

الإيمان بالله وحده ، أو العقيدة الصالحة ، تحيا وتنتشر بما يأتى :

١ — الثبات عليها ، واحتمال أنواع الأذى فى سبيلها .

٢ — التضحية من أجلها بما يملك الإنسان من جاه ومنصب ومال ، أو رفض ما يعرض عليه من هذا .

٣ — أن يلجأ صاحب العقيدة إلى أنفع الحيل ، وأجدى الوسائل فى نشر عقيدته وتثبيتها ، ولو كلفه هذا تقديم حياته ثمناً له . . . هذا معنى جميل ، أو قل : إنه حقيقة جميلة من حقائق الحياة التى لا شك فى صدقها . . . ومن الحقائق الصادقة أيضاً أن الله عز شأنه ، إذا علم من أوليائه هذا التجرد له ، والصدق فى الإيمان به ، منحهم من الأسرار ما تحرى لهم به بعض الكرامات بإذنه .

هاتان حقيقتان ، بل قانونان من القوانين التى يطرد عليها نسق الحياة الصحيحة ؛ فمن تحقق بمعانى الولاء فقد استقام على سنة الله ، وكتب الله لرسالته النجاح فى الدنيا ، وأسعده بالفوز فى الآخرة ؛ ولكن أترى هذا الكلام يبلغ أعماق القلوب بمجرد تقريره هذا التقرير ؟ لا . . . لا بد من شيء غير التقرير ، يشرحه ويصوره أبين التصور ؛ ولقد كفانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثوة هذا ، فاختار لنا من قصص السابقين ما يقرره ويصوره .

روى الإمام مسلم فى صحيحه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : قد كبرت فابعث إلى غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه ، فكان فى طريقه — إذا سلك — راهب ، فقعده إليه ، وسمع كلامه ، فأعجب به ؛ فكان إذا أتى الساحر من الراهب وقعد إليه ،

فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحر فقل :
 حبسنى أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر ؛ فبينما هو — الغلام —
 كذلك إذا أتى — مر — على دابة عظيمة — حيوان مخيف — قد حبست
 الناس ، فقال : اليوم أعلم : الساحر أفضل أم الراهب ؟ فأخذ حجرا فقال : اللهم
 إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة حتى يمضى
 الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس ؛ فأتى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أى
 بنى ، أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت
 فلا تدل على ؛ وكان الغلام يرى الأكمة والأبرص ويداوى الناس من سائر
 الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمى ، فأناه بهدايا كثيرة ، فقال : ماههنا
 لك أجمع ، إن أنت شفيتنى ، فقال : لا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله . وهذا منتهى
 اعتراف المرء بعجزه وإقراره بفضل الله القادر على كل شيء ، وهو من مستلزمات
 الإيمان بالله . « ثم قال الغلام — الذى لا يبغي لنفسه مالا — فإن أنت آمنت بالله ،
 دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه الله ؛ فأتى الملك ، فجلس إليه كما كان يجلس .
 فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال : ربى ، قال : أولك رب غيرى ؟ قال : ربى
 وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ؛ فجىء بالغلام ، فقال له الملك :
 أى بنى ، قد بلغ من سحرك ما تبرى الأكمة والأبرص ، وتفضل وتفضل ؟ قال : إني
 لا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ؛ فجىء
 بالراهب ، فقيل له . ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار ، فوضع المنشار في مفرق
 رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه « وهذا ثبات على العقيدة ، واحتمال لأشد أنواع الأذى
 في سبيلها . « ثم جىء بجليس الملك ، فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع
 المنشار في مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه « وهذا علاوة على ما تقدم ، تضحية بجاء
 المجالسة الملكية ، وما إلى المجالسة من مال ونحوه في سبيل العقيدة . « ثم جىء بالغلام
 فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل
 كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغت ذروته ، فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه ؛
 فذهبوا به ، فصعدوا الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل
 فسقطوا « ، وهذا من كرامة أولياء الله عليه . « وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك :
 ما فعل أصحابك ؟ قال : كفناهم الله ؛ فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه
 في قرقور — سفينة صغيرة أو كبيرة — فتوسطوا البحر ، فإن رجع عن دينه ،

وإلا فاقدفوه ؟ فذهبوا به ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ؟ فانكفأت بهم السفينة ففرقوا » ، وهذا من الكرامات أيضاً . « وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . . . »

وهنا فتح الله للشاب باب حيلة ، أو وسيلة جميلة . ليباغ بها الناس جميعاً دعوة الإيمان ، ويجعلهم يتحولون عن شركهم وعقيدتهم الفاسدة ؛ نعم هى حيلة فيها هلاكه المحقق ، ولكنه يرى أن سعادته أن ينشر عقيدته بالوسائل الناجعة ، بل يرى أن حياته الحقيقية وسعادته الكاملة ، أن يتطوع ، فيقدم نفسه للقتل ، ما دام يثق أن من وراء ذلك حياة العقيدة ؟ فانظر ماذا قال الشاب للملك : « إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به ، قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبى على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتى ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : باسم الله رب الغلام ، فإنك إن فعلت ذلك قتلتنى » . هذه هى الوسيلة ، فقد أراد الغلام أن يعرض على الناس مشهداً من مشاهد الإيمان بالله ، من مشاهد قدرة الله الذى باسمه يستطيع الملك أن يقتل هذا الغلام العجيب ، الذى لم تفلح الوسائل في قتله ، فإذا رأى الناس هذه القدرة ، عرفوا أن رب الغلام الذى آمن به ، هو الرب الذى لا إله غيره ؟ وقد تحقق ما أراد الغلام ، فإن الملك النبى الحقود ، لم يظن إلى أن جمع الناس ليشهدوا قتل الغلام ليس في مصلحته ، « فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع يده في صدغه في موضع السهم ثبات ؟ فقال الناس : آمنا برب الغلام . فأنى الملك ، فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذر ، قد آمن الناس . . . فأمر بالأخدود في أفواه السكك حفرت ، وأضرم النيران ، وقال . من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها ، أو قولوا له : اقتحم . . . ففعلوا ، حتى جاءت امرأة ومعها صبي ، فتقاعست فقال لها الغلام : يا أمه ، اصبرى فإنك على الحق » . وبعد : أفرأيت هذا الاختيار النبوى لهذه القصة القوية التى صورت ما نحن بصده من الفضائل أروع تصوير ، وأثرت به في الضمائر أبلى تأثير ؟ .

إذن ؛ ليكون القصص من أساليبك التى تلجأ إليها في شرح وتثبيت تعاليمك ، بل وبعث الناس على التحقق بها عملياً ، فإن القصص — كما رأيت — من سنة الله في كتابه ، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قصص مخترع

ولقد فطن السابقون إلى هذه السنة القصصية ، فوعظوا بقصص القرآن ، وقصص رسول الله ، واخترعوا قصصاً من ابتداعهم ، إدراكاً لل غاية التي ينشدونها ، وهي جمع الناس على الإيمان بالله والدار الآخرة .

ونحن نسوق إليك مثلاً من هذا القصص الموضوع ، ليكون نموذجاً لك تحتذي به ، إذا كنت ممن يستطيعون ابتكار القصص ، أو تجمع ما يشبهه .

الرجل يعمل العمل لا يبتغي به إلا وجه الله عز وجل ، فيمده الله من حوله وقوته ، مما يغلب به كل ما يعترضه ، والآخر يعمل العمل رياء الناس ، أو سعياً لمال أو منفعة مادية ، فلا يكون له من الله مدد ، إذ يتخلى الله عنه ، ويكله إلى نفسه ، فيكون مغلباً غير غالب . . .

وهذا قانون من قوانين الله عز وجل ، إذا عمل بمقتضاه جند الله فهم الغالبون لا محالة ، ولو قامت ضدكم كل قوة في الأرض ؛ ولكن كيف يتصور العقل هذا المعنى ؟ وكيف ينبض له القلب ، إذا لم يكن له صورة ترينا مكانه في حياة الناس ؟ لقد وضعوا له قصة فقالوا :

كان في قرية من قرى بني إسرائيل ، شاب صالح عابد ، وكان في القرية شجرة غريبة الأطوار ، تظهر لها أحوال توهم الناس أنها مباركة تمتاز بأسرار وعجائب ؛ ففتنوا بها ، وأخذوا يتقربون إليها ، ويمنحونها من التعظيم والتقدیس ماحقه أن يكون لله تبارك وتعالى ؛ فغضب الشاب لهذا الشرك ، وعزم أن يقطع الشجرة ، فيخلص الناس من شر الشيطان الذي يقودهم إلى النار ؛ فأخذ عدته ومضى ، وبينما هو في الطريق ، عرض له الشيطان ، فقال له : إلى أين أيها الشاب ؟ قال : إلى هذه الشجرة ، قال : وما حاجتك بها ؟ قال : أقطعها ، قال : ولم ؟ قال : لأن الناس فتنوا بها ، وعبدوها من دون الله — والشاب هنا صادق النية في العمل لوجه الله لا يبتغي شيئاً لنفسه — فقال الشيطان : لا ، لن تستطيع الوصول إليها ، وإنني أمنعك من هذا ، وأمسك بتلابيب الشاب ؛ فغضب الشاب ، وأمسك الشيطان ، ورفع بين يديه كما ترفع الريشة ، وطرحه على الأرض ، وبرك على صدره ، وضيق عليه الحناق ، حتى احتبست أنفاسه ، وكادت روحه تزهق ؛ فأخذ الشيطان يستعطف الشاب ، ويتلطف إليه بالكلام اللين ، ويعتذر ، ويرجوه أن يعفو عنه ، ويغفر له خطأه ؛ وظل يتوسل ويتدل ، حتى رق له الشاب وخلي سبيله . . . وهنا أخذ الشيطان

هذه الشجرة

يتودد إلى الشاب ويقول له : يا سيدي ، ما كان قصدي أن أمنعك عن قطع هذه الشجرة ، وإنما كنت أريد أن تركها يوماً أو يومين ، لأن لي مأرباً فيها ، فإذا قضيت مأربي منها ، لا يهمني بعد ذلك أبقى أو قطعت ، وأنت الآن وشأنك بها ، إن شئت قطعها ، وإن شئت أبقيتها . . . إنك أحسنت إلى ، ففوت عني ورددت على حياتي ، ووهبت لي عمري من جديد ، فإذا رأيت أن تضاعف متك ، وفصلك عني ، فاترك لي هذه الشجرة يوماً أو أكثر ، حتى تنتهي حاجتي منها ، ولك إن فعلت ذلك أن أعطيك ديناراً عن كل يوم ؛ وما زال الشيطان يدخل على الشاب بهذه المداخل اللينة ، حتى مال إلى إبقاء الشجرة ، وقال في نفسه : وماذا علي لو تركتها بضعة أيام لأخذ بضعة دنائير ، ثم أقطعها ؟ . . . وافق الشاب مع الشيطان على إبقائها بضعة أيام ، نظير دينار عن كل يوم ، ومضى كل إلى شأنه . . . وفي اليوم التالي جاء رسول الشيطان ، ودق الباب ، وأعطى الشاب — وكان فقيراً — ديناراً ، ففرح به . وافق منه على نفسه وأمه ، واشترى لحماً وسمناً وخبزاً وفاكهة ؛ وفي اليوم الثاني جاء الرسول بالدينار الثاني ، فاشترى كسوة لنفسه ولأمه . . . وتوالت الأيام وتوالت الدنانير ، وركن الشاب إلى النعم للمادي ، وأغضى عن الشجرة التي تعبد من دون الله . وفي يوم من الأيام ، اقتطع الرسول ، وانقطع الدينار ، فأخذ الشاب ينتظر طول نهاره ، فلم يجد الانتظار شيئاً ، فقال في نفسه : لعل صاحبي في سفر ، أو لعله في شيء ألهاه عني ؛ ثم رقب الدينار في اليوم التالي ، فلم يجد الرسول ، ومضى اليوم الثالث ، والرابع ، كل ذلك والشاب يلتمس المعاذير لصاحبه ، ويعمل نفسه بالأباطيل ، حتى مل الانتظار ، ويئس من زيارة الدرهم والدينار . . .

وهنا فقط ذكر أمر الشجرة ، وقام يقطعها نكايه بصاحبه الذي قطع عنه راتبه العزيز ؛ فأخذ عدته ومضى إليها ، فقابلها صاحبه ، فقال له : إلى أين أيها الشاب ؟ قال : إلى هذه الشجرة التي يعبدها الناس من دون الله ، فأقطعها لأنك قطعت عني الدينار اليوم — هنا تجد الشاب قد تغيرت نيته ووجهته ، وأصبح يعمل لا غضباً لله ، ولكن غضباً للدينار — فقال الشيطان : هيهات هيهات ، لن تصل إليها وسأمنعك ، وأمسك بتلابيب الشاب ؛ فأمسك الشاب بالشيطان ، وحاول أن يرفعه كما رفعه بالأمس القريب ، فأحس أنه أثقل من جبل ، ورفع الشيطان بين يديه كما ترفع الريشة ، وطرحه على الأرض ، وبرك على صدره وضيق عليه الحناق ، حتى احتبست أنفاسه ، وكادت روحه تزهق ؛ فأخذ يستعطف الشيطان ، ويتلطف إليه بالكلام اللين ،

ويعتذر ، ويرجوه أن يعفو عنه ، ويغفر له خطأه ؛ ويتوسل ، ويتذلل ، ويعطى على نفسه العهود والمواثيق ، أنه لن يعود إلى قطعها أبداً . وقبل الشيطان تذله وتضرعه وعهده أن لن يعود إلى قطعها ؛ ولكنه أبى أن يتركه إلا بعد أن قبل شيئاً آخر ، هو أن يفعل للشجرة مثل ما يفعل سائر الناس لها ، من الكفر عن طيب خاطر .

فلما خلى عنه ، جعل الشاب يشكره ، لأنه رد عليه حياته ، ثم سأله : إني لأعجب لأمر غريب ؛ لقد كنت في يدي كالريشة بالأمس فغلبتك ، أما اليوم فقد كنت أثقل على من جبل ، وكنت في يدك كالريشة ، فما سر هذا ؟ فقال الشيطان للشاب : لقد كنت بالأمس غاضباً لله عز وجل ، فوهب لك الله هذه القوة الجبارة التي صرعتني بها ، وأنا الذي أصرع الجبارة ، أما اليوم فأنت غاضب للدينار ، فسلبك الله قوتك وتخلى عنك ، ووكلك إلى الدينار ، وليس للدينار حول ولا قوة يمدك بها ، فغلبتك ؛ ففجّل الشاب ونكس رأسه .

أيها الأخ : لقد وجدت القرآن يدعو إلى الله ، ويسوق من القصص ما يتضمن تعاليم هذه الدعوة ، ووجدت الرسول العظيم صلوات الله وسلامه يفعل ذلك ، ووجدت السلف الصالح يهجون هذا النهج في تصوير التعاليم تصويراً قصصياً ؛ فليكن بهذا ، واستمسك به ؛ فإنك تأخذ بسبب من النجاح إن شاء الله .

ثانياً — ضرب الأمثال

المثل قول واضح ، موجز ، حكيم ، ينتصب صدقه في العقول ، فيألفه الناس ، ويجرى بينهم ، ويشيع في أحاديثهم .

والناس من قديم الزمان يجدون في طبائهم الميل إلى الاستشهاد بالمثل ، فقد يكون أحدهم بصدد حال يحكيها أو يسميها ، فيحضره مثل يشابهها في المعنى ، فيستشهد به ، لا لأن الكلام يزيد به صدقاً ، بل لأن النفس تستأنس بالمثل ، ويلتصق في جوانبها ضوء من وضوحه ، وجمال حكمته ، فما أسرع ما تنفرج جوانب النفس عن ثغرة يتعاقق فيها معنى المثل القديم ، ومعنى الحديث الجديد ، ثم تنطبق عليهما في تزاوج ووثام ، فإذا بالحال التي كانت تحكي قد استقرت لدى السامعين في رضى وقبول واطمئنان . ويسمى هذا بضرب المثل .

ونحن نوصيك — أيها الأخ — أن تحرص على ضرب المثل في الاستئناس لدعوتك ؛ نوصيك أن تستكثر من أمثال العامة وغيرهم ، وأن تجعلها في يدك مفاتيح

صدق تفتح بها مغاليق النفوس ، أو ثغراتها المنورة ؛ أرأيت لو تحدثت إلى الناس أن يقبلوا على الله في رفق لا شدة فيه ، فيأتون من أمره عز وجل ما استطاعوا ، دون أن يشعروا على أنفسهم بالغلو والإفراط ؛ وأخبرتهم أن هذا هو المنهج الطبيعي المأمون الذي يبلغون عليه غايتهم ، فإن الغلو في صيام النفل ، وحجر ما أحل الله للمؤمنين من طيبات ، والمبالغة في إحياء الليل بالصلاة والاستغفار والضراعة ، هذا وغيره قد يورث النفس مللاً فتنتكس ، وتصد عن الله ؛ أو قد يصيب الإنسان من هذه الشدة مرض يوهن جسمه ، ويعكر عليه صفوه ، فيقطعه عن الصلاة ، ويعمره أن يجد لذتها ؛ أما الاعتدال والتوسط في أمر ، فهو الخط الذي لا ملل معه ولا انقطاع . . . أقول : أرأيت لو تحدثت إلى الناس بهذا ، ماذا يكون سرور العامة حين تستأنس بالمثل الذي يجري على ألسنتهم : « كشكار دائم ولا علامة مقطوعة ؟ » . والكشكار : هو النخالة أو السن الحشن ، والعلامة : هي الدقيق المصفي ؛ ومعنى هذا أن السن الحشن الذي يجيء باستمرار ، خير للمرء من الدقيق المصفي الذي يأتي مرة أو مرتين ، ثم ينقطع . . وهذا مثل يضرب في تفضيل القليل الدائم على الكثير المنقطع ؛ وأنت إذ تضرب هذا المثل ، تشبه العبادة اليسيرة التي يستمر عليها الإنسان في غير كلفة بالكشكار ، وتشبه العبادة المفرطة في الغلو التي لا يلبث صاحبها أن ينقطع عنها بالعلامة المقطوعة .

ضرب المثل حركة تجدير ونشيط

فضرب المثل ، إنما هو تشبيه حالة ما ، بأقرب الأمثال شهاً بها ، وأكثرها ماثلة لها ، وهو تشبيه يحدث في النفس حركة التفات بارعة ، يلتفت بها المرء من الكلام الجديد إلى صورة المثل المألوس ، فيلمح ما بينهما من التشابه أو التطابق ، فلا يلبث أن يتلقى الأمر الجديد بمزيد من القبول والارتياح ، ويجري ذلك كله في أقل من لمح البصر . . . وهذه الحركة النفسية البارعة ، لها ما لساها الحركات من تجديد وتنبيه وتنشيط ، علاوة على أن المثل يمتاز بجلالته ، ورشاقة موقعه في النفس ، وطرافته التي تجدد ، ولا تبلى مما ترى أثره يبرق في وجوه السامعين ونظراتهم وثغورهم ، أو على الأقل مما يشعر السامعين بأن سرارهم تبسم له وتمش .

قال ابن المقفع : إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، وآنى للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث . وقال إبراهيم النخعي : يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية .

هذا الشأن المثل أيها الأخ هو الذي يحملنا على أن نوصي الداعية به ، بل هو ما يجعلنا نراه ضروريا للداعية الجاد الغيور ، الذي يريد أن يمهّد لدعوته سبيلها إلى النفوس ، وأن يفرش لها هذه السبيل بالأزهار والرياحين . . .

ألوانه ضرب الأمثال

١ — وقد ذكر صاحب العقد الفريد في طائفة الأمثال المروية عن أكنم بن صيفي : « لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ » ، فإذا صح ذلك ، فهو — إذا — مثل ساقه الله في القرآن الكريم . . . قال أحد الإخوان : أيكون الكلام الجاهلي قرآنا ؟ فقال له صاحبه : هذا مثل ، والمثل حكمة ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها ، فهو أحق الناس بها ، ولا يضير الحكمة أن يجريها الله على لسان حكيم جاهلي ، وقد ينطق الله بعض عباده بعبارات مما ادخرها لبعض أنبيائه ، ثم يأتي بها الوحي على ما نطقت به من قبل .
وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يورد الأمثال المروية في حديثه مع الناس ، ولا يرى بذلك بأساً .

٢ — وقد اجتمعت ميزات المثل في بعض عبارات القرآن الكريم ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجرت بذلك على الألسنة ، وزادت بها ثروة الأمثال وشرفت ، مثل قوله عز وجل : « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » وقوله : « هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ » .

وقد أورد السيوطي في «الإتقان» طائفة كثيرة من العبارات القرآنية التي جرت أمثالا بين الناس ، فليطلبها هناك من يشاء .

ومن العبارات النبوية التي صارت أمثالا قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » و « إن المنيب لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » ، ومعناه أن المسافر الذي يغد السير بما فوق طاقة دابته ، قد يهلك دابته من العنف ، فينبت — ينقطع — في الطريق ، فيخسر خسارتين ، فلا هو قطع المسافة ، ولا هو أبقى على دابته ؛ وقد قاله عليه الصلاة والسلام لرجل اجتهد في العبادة حتى غارت عيناه .

٣ — ومن ضرب الأمثال ، أن تشبه امرأة دقيقا خفيا ، أو به بعض الخفاء ، بأمر حسى مما يمهده الناس في حياتهم اليومية ؛ وهذا النوع ورد بكثرة عظيمة في القرآن الكريم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فما ورد في القرآن قوله تعالى : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا »

هذه صورة من الصور التي تجري تحت سمع الناس وبصرهم ... الماء ينزل فيسيل في أودية الأرض ، فيجري في كل منها بقدر ، فيطفو على وجه السيل زبد كثير ... ولكن ما المراد بهذه الصورة ؟ ... إن الله عز وجل لا يريد ظاهر معناها ، فإنه يذكر في آخر الآية : « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ » و « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » . فما مضرب المثل هنا ؟

جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة ، إلخ ... ورسول الله صلى الله عليه وسلم أحق من نأخذ عنه تفسير القرآن العظيم ، وهو في هذا الحديث يشبه ما نزل به الوحي من الهدى والعلم بالمطر ؛ ولنا على ضوء هذا التفسير النبوي أن نرى الآية القرآنية أو المثل القرآني الذي نحن بصدده ، مؤلفاً من العناصر الأربعة الآتية :

١ — قد جاءنا من الله علم وهدى ، مثله كمثل الغيث المبارك .

٢ — والذين جاءهم هذا الهدى والعلم ، كالأرض التي ينزل عليها الغيث .

٣ — وهذا الهدى الإلهي يجري في بواطن أهل وأعماق قلوبهم ، كما يجري الغيث في أعماق الأرض وأوديتها ... وقلوب الناس تقبل من هدى الله وعلمه بحسب طبيعتها من الضيق والسعة ، كما يقبل كل واد من أودية الأرض قدراً من الغيث ، يناسب سعته أو ضيقه .

٤ — وكل ما مضى ليس هو لب العبرة في المثل ، إنما لب العبرة ما ذكره الله سبحانه في قوله : « فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » ... والزبد رغوة لينة ، ذات فقائيع تظهر على وجه الماء ، ثم لا تلبث أن تذهب جفاء ، تاركة تحتها الماء الصريح النافع ... وذلك تمثيل لحال الحق والباطل ؛ فالباطل في تفاهته وسرعة زواله كرغوة الزبد ... والحق في أصالة وجوده ، وعموم نفعه ، كالسقاء الذي لا حياة للوادي بدونه : « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ »

هذه عناصر المثل ، ولك أن تتوسع في الشرح بما لا يخرج عن أصول هذه العناصر ، فتقول :

١ — إن الله عز وجل شأنه لما أنزل من السماء ماء ، فجعل منه كل شيء حتى في عالم المادة ، اقتضت حكمته أن ينزل للأحياء الروحية مابه حياتها وغذاؤها . وكل إنسان يأخى يتألف من جسم ظاهر وسر باطن ، فما كان من الحكمة ، واطراد نظام الخليقة ، أن ينزل الله للأجسام مابه تحيا وتغتذى ، ثم يهمل شأن الروح ، الذى هو كل شيء في هذا الكائن الحى ؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ! وهذا القول الذى قبله البدائه ، وتسيغه العقول ، يبيد شبهات الملاحدة الذين ينكرون النبوات ، ولا يتصورون نزول الرسالات من السماء .

وهذا الذى أنزله الله للقلوب والأرواح ، مقابل الماء الذى أنزله للأبدان ، هو الوحي الذى أنزله على رسوله من لدن آدم أبى البشر ، إلى خاتمهم وإمامهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا الوحي روح القلوب ، وسر حياتها ، فإذا لبسها ، وتسرب فيها ، حيت ، واستنارت ، وأشرقت ، وأدى لها ما يؤدى الماء للأجسام . وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك بقوله الكريم : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ » .

وقد يبدو في هذا الكلام كثير من الغموض ، فإننا نرى الماء بأعيننا ، ونعرف بالتجربة والملاحظة أثره في حياة الإنسان والحيوان والنبات أما هذا الذى أنزله الله لحياة القلوب والأرواح فما هو ؟ . . . إننا لا نستطيع أن نراه بأعيننا ، ولا أن نلمسه بأيدينا ، وهذا ما يعجزنا أن نتصور له صورة ما ، أو كيفية ما .

ونحن إذ نقرر هذا الغموض لا نحاول أن نعرض له بما يحلوه ، فليس ذلك في طوق بشر ، وقد رأيت أن الله سبحانه أسماء روحا في قوله : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » . ولا سبيل إلى الكشف عن حقيقة الروح مرسله في أجسام الكائنات ، أو مضمرة فيما أنزل الله من وحي على رسوله صلى الله عليه وسلم ولهذا الغموض نفسه ضرب الله هذا المثل ، وعرض ذلك السر علينا ممثلاً في صورة ما ندركه بحواسنا من الأرض والمطر والنبات والثمر . . .

ولو كانت حواسنا ومداركنا العادية تسمو إلى شيء من ذلك لأشار الله تعالى إليه ، أو لعرضه علينا عرضاً عادياً ، لا مجاز في ألفاظه ولا تمثيل
ليس هذا السر يا أخى هو الكلام الذى تقرأه فى المصحف الكريم ، وإنما هو الروح المستكن فى ذلك الكلام .

هذا يحمل ما يقال عن العنصر الأول من عناصر هذا المثل ، ويمكن أن يقال فى العنصر الثانى :

إن حياة النفوس فى هدى الله عز وجل ، ولا حياة لها بغيره ، كما أن حياة الأرض فيما أنزل الله لها من الماء ، ومحال أن تجد الأرض رياء تحيا به فى غير هذا الماء . . .
لا تجده فى ذهب ، ولا فى فضة ، ولا هواء ، ولا نار ، ولا غير ذلك ، إنما تجده فى الماء فقط . . .
فالذين يطلبون أن تحيا نفوسهم بغير ما أنزل الله ، من مدنيت زائفة ، أو علوم خالية من الروح ، أو يظنونها تحيا بكثرة ما يجمعون من عرض الدنيا ومتاعها .
إنما يضربون فى الوهم ، بل يخبطون فى أودية الموت ؛ إذ لا موت إلا فيما يطلبون ، ولا حياة إلا فيما يعرضون عنه : « أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وسوف يظل هؤلاء التعساء أمواتا غير أحياء ، ماداموا بعيدين عن مصدر الحياة الحق ، كما تظل الأرض الميتة ميتة ، إلى أن تمسها رحمة الله بالغيث المبارك قهت زربو ، ويشيع فى ظاهرها وباطنها بركات الحياة وأسرارها .

والله عز وجل ينادينا نحن الغافلين : « اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » ؛ وما يقصد الله أرض القلوب والنفوس ، فإنه عز وجل يذكر قبل ذلك مباشرة : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ؛ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . . . » إلخ .

ونستطيع أن نمضى فى الاستشهاد لهذا المعنى بالكثير من آيات القرآن الكريم

التي وردت في إحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، وهي آيات مسبوقة أو ملحقة بما يس حياة النفوس ، وزكاة القلوب ، ولسكننا نخشى الإطالة بهذا الاستشهاد .
وليست هذه الحياة طاقة حيوانية ، تسرى في الأعضاء والأوصال ، فيتحرك بها المرء كما يتحرك كل حيوان . . . وإنما الحياة التي نعنها طاقة روحية ، تسرى إلى كائن روحي في سرأثرنا غير منظور .

وهذه الطاقة لا تتعلق بالطعام والشراب تعلق الطاقة الحيوانية ، وإنما هي سيالات خفية مستكنة فيما أنزل الله من وحي ورسالة ؛ فإذا سرى شيء من تلك السيالات العلوية إلى هذا الكائن اهتز وخفق ، وانتعش ، وحلت به الحياة . . . وإلا فهو حطام هامد لا حياة فيه ، مهما بدا على هيئة صاحبه من نضارة وقوة .
وهنا نحب أن نتساءل : ما علامة تلك الحياة إذا سرت في هذا الكائن الروحي ؟ .
إن للماء حين يختلط بالأرض ويمشي في أديمها سر الحياة ، أنثراً مشاهداً ملموساً نعرفه في الزرع والثر ، إنما لهذه الحياة التي نتحدث عنها من علامة تعرف بها ؟ .
نعم لها علامات وردت في القرآن الكريم ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي مجموعة كريمة من المشاعر والوجدانات ، لم تكن له من قبل ، وإنما نسوق إليك طرفاً قليلاً منها ، على سبيل المثال لا الحصر :

١ — أن يشعر بعبطة ورضى عن حظه في الحياة . . . فليس للكم القليل أو الكثير حساب في غبطته ورضاه ، إنما هو سر نبع في وجدانه ، من عالم غير عالم الكميات التي يحصرها الحيز ، أو يحصنها العد ، أو يقدرها الكيل والميزان : فهو سعيد مغتبط بغير سبب من أسبابنا المنظورة .

٢ — أن يشعر بيسر ما يلقي عليه من أعباء الحياة ، وخفة ما يزاول من عمل : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً » . لأنه لا يعمل في تلك الأعباء بطاقته الحيوانية وحدها ، بل بمدد من الطاقة الروحية التي حلت في كيانه كذلك . . .

٣ — أن تتلاشى في نظره الفوارق الاجتماعية ، الناشئة من تفاوت الناس في المال ، والمنصب ، والمهنة ، والولد ، ونحوها ؛ وتترأى أقدار الجميع له متكافئة ، في وحدة تسوى بينهم في الحقوق والواجبات الاجتماعية . . .

٤ — يحل في نفسه شعور يبعث الرذيلة ، في أي صورة من صورها ، وازدراء أهلها أيّاً كانوا ، وحب الفضيلة في كل صورها وألوانها ، والارتياح إلى أهلها حيناً وجدوا .

٥ — لكل إنسان نفس تجيش بمختلف الرغبات ، والأهواء ، والشهوات ،

نحو المال كـل ، والملابس ، والشارب ، ونخامة المنازل ، ونخامة الفراش والأثاث ، وألوان الترف والرواء ، وعزة المناصب ، والجاه والمال ، والأبناء والزوجات والعشيرة ونحوها ؛ وإليه وردت الإشارة في القرآن الكريم بقوله سبحانه : « زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ » . . . هذه الميول والأهواء ، وتلك الرغبات والشهوات ، ماذا يكون شعور المرء نحوها ، إذا حل فيه سر الحياة التي تحدث عنها ؟ . . . إنه يشعر نحوها بحالة تشبه « الشبع » ؛ فإذا التمس حظاً من طعام أو شراب التمس في غير نهم ولا شره ، التمس وهو يبغي لبدنه ما يقيمه وبقيته ، دون سعى إلى لذة ، أو قصد إلى شهوة ؛ وإذا لبس لبس ما حضر وما تيسر أداء لحق البدن ، دون تأثر بما تطمح إليه نفسه ، من تلفت الناس إلى زينته ؛ وإذا عرض له لون من ألوان الشهوات التي أشار إليها الله سبحانه في الآية الكريمة أو نحوها ، وجدت وجدانه مشغولاً بحالة تشبه « الشبع » ؛ سمها الزهد ، أو سمها عزوف المهمة عنه ، أو سمها ما شئت ، بحيث لا يغيب عن ذهنك أنها حالة تشبه الشبع تعترى الوجدان ؛ لأن واردات الحياة التي حلت في كيانه الروحي ، أتت له بألوان من الأذواق ، والطرب ، والنعيم ، واللذة ، انطفأت إلى جانبها ورخصت كل متع الحياة الحيوانية ، وأهوائها ورغباتها الصغيرة ، الوضيعة ، وأصبح الوجدان مشغولاً بالوارد العميق الجميل ، الذي لا ينقطع له مدد من عالم الحفاء ؛ وفي هذا الوارد أو نحوه كان يقول الإمام ابن تيمية : إنه ليمر بي أوقات يرقص فيها القلب من الطرب ، فأقول لو أن أهل الجنة في مثل ما أنا فيه ، إنهم إذا لقي عيش طيب .

٦ — تحدثنا إليك بخمسة من هذه الواردات التي يجدها المرء في نفسه حين يحل سر الحياة الإلهية في كيانه الروحي ؛ ونستطيع أن نقول إن من أظهر علامات تلك الحياة أن ترى صاحبها في سيرته العامة والخاصة ، مفسراً لهذه المشاعر تفسيراً عملياً واقعياً ، يخرجها من حيز السر المختلج في الضمير ، إلى حيز الأوضاع المقررة ، والأمور المشاهدة ، والمعاملات الجارية ؛ تفسيراً يلبسها حللاً من الواقع ، ويرسلها مثلاً علياً ذات كيان يعتك في الحياة ، ويترك آثاره العميقة في مختلف النفوس ؛ وهو في كل ذلك لا يوافق ولا يرائي ، أو لا يستطيع أن يوافق ولا يرائي ، لأنه منفعل بسر وجداني يسخره وينهضه ، فلا يستطيع معه إلا أن ينهض وأن يعمل ، راضياً به كل الرضى سعيداً به غاية السعادة .

ليست الحياة على هذا صراعا في الشر يحرق بين شياطين البشر ؛ نعم وليست شيئا يحرك تلك التماثيل الآدمية الفارغة هنا وهناك ، فيصدم بعضها بعضا أو يقع عليه ويعظمه ؛ وليست هي تلك الجثث التافهة التي تلبس الحرير والصوف ، وتقذف في أفواهها الطعام والشراب ؛ إنما الحياة حياة النفوس النامية ، والمشاعر الكريمة التي تربو بإذن الله ، أو هي حياة هذا الكائن الخفي الذي يحيا ، وينمو ، ويعظم في خفايا النفوس ، دون أن تراه العيون ؛ وهذا الكائن الخفي هو كل شيء في حياة الأفراد والأمم ، فهو مصدر العلم في الإنسان ، ومصدر الحياة والقوة ، ومصدر الكرامة والحرية والعزة ، ومصدر كل خلق نبيل كريم ؛ ولا حياة لهذا الكائن إلا بما أنزل الله من الهدى والعلم .

هذا الكائن الخفي الباطني المبارك ، هو الزرع الطيب الذي ينبت في أرض بشرتنا ، ويسقيه ما أنزل الله من أسرار الحياة في القرآن الكريم ؛ وهذا الكائن الخفي ، هو الذي نبت قديما برعاية رسول الله صلى الله عليه وسلم في بشرية الصحابة ، حين سقيت وهي مينة بوحى الله العظيم ، فاهتزت وربت وأنبئت هذا الزرع الباطني ، وما زال يكبر ويفلظ ، ويشدد ، ويعلو ، حتى قوى أمره ، وطاب أكله وثمره ، فوصفهم الله عز وجل : « كَرَزَعٌ أُخْرِجَ شَطَأُهُ فَأَزْرَهُ فَأُسْتَعْلَظَ فَأُسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » .

هذه هي الحياة — يا أخى — لا حياة أوروبا وأمريكا التي يشتهيها الجهلة في كل مكان . . .

إن هذه البلاد الطاغية الكافرة ، ليس فيها في الحقيقة أناس ، إنما فيها مرده من الشياطين ، يسكنون هذه الأجواف الفارغة من أجواف الآدميين ، فالصورة صورة إنسان ، والجوف يقيم فيه شيطان يحركه بالشر وللشر ، ويسعى به جنديا للفساد والحرب في كل واد ؛ ألا تراهم مخربين مدمرين ، لا يبنون إلا لهدموا ، ولا يتخرعون إلا ليهلكوا ، ولا يستعدون إلا ليطشوا بالضعفاء ، ولا يستغنون إلا ليطغوا في الأرض ، ويكثرُوا فيها الفساد وليس هذا من الحياة في شيء ؟

ويمكن أن يقال في العنصر الثالث : إن الأدوية تختلف سعة وضيقا ، فأعظمها شأنا أكثرها ماء ، وأبعدها عمقا واتساعا ، وأصلحها لإمداد الأرض بالماء ؛ وثمره ذلك كثرة الثمار والأشجار على جانبيه ، وامتداد الحقول والبساتين من حوله ، وأن تهوى إليه أفئدة الناس .

وكذلك الناس تتفاوت قلوبهم في تقبل أمر الله ، فمنهم من يمتلىء ويتضلع ويتقبل الكثير الغزير الذي يغمر آفاق نفسه الرحبية ، ومنهم من يقبل دون ذلك ، أولاً يتسع لما يتسع الأول . . . وعلى هذا تتفاوت أقدار الناس ، فأعلامهم قدراً إنما هو أكثرهم إحاطة ووعياً لما أنزل الله ، وأعظمهم إفاضة على العباد من نفحات نفسه وحسه ، وأقدرهم على إشباعهم بروح الله . . . وثمرة ذلك أن تينع شجرة التقوى في القلب ، وتستفيض دائرة الهدى والخير من حوله ، وتهوى أفئدة الناس إلى منهاجه والافتداء به .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرح بكثرة أتباعه ، ويفخر بهم ، ويحث على أن يتكاثروا .

هذا ، ولكل واد طاقة يتقبل الماء بقدرها ، فإذا أمد بما فوق طاقته كان طغياناً ، وتخريباً ، وتدميراً ، وإتلافاً .

وكذلك لكل نفس طاقة تقف عندها في تقبل هدى الله وعلمه ، فإذا أراد المرء أن يحمل فوق طاقته ، تمزق بالجنون ، أو الهزال ، أو المرض ، أو الشك : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .
فإذا أريد أن يحمل الوادى أكثر مما يحرى فيه ، فلا يكون ذلك إلا بالأسلوب الطبيعى المأمون ، فيقوم أصحابه بعملية حفر وتطهير ، وتعميق وتوسيع ؛ وكذلك أودية القلوب لا تتسع ولا تعمق ، إلا إذا فعل لها صاحبها ذلك ، صاحبها لا غيره ، وما صاحبها إلا الله عز وجل ، فقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أزاغها وإن شاء أقامها ، « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . . . »

والوادى قبل أن ينحدر إليه السيل ، يكون جافاً ، به كثير مما حملت إليه الرياح من التراب والأرواث والقش ، وقطع الخلقان والجلد ، وما شابه ذلك ، فإذا جاء السيل كسح ذلك كله ، وطهر جوف الوادى منه ، ورفعته إلى وجه الماء ليطرده ، ويقذف به إلى الخارج ؛ وكذلك هدى الله إذا جرى في قلوب العباد طهرها ، وأزال ما فيها من أكدار الطبائع ودنسها ، فلا يبقى شيء منها في قرارات القلوب ، بل تطفو متخذة سبيلها إلى الزوال السريع . .

نعم سيحل في القلوب وجدان جديد مبارك ، فيه كثير من الأسف والندم على ما مضى من حياة الإثم والغفلة ، والأسف والندم من أكبر وسائل التطهير والإفلاع عن الذنوب . . وعلى صفحة هذا الوجدان تطفو صور ما كان من صفائر وكبائر ،

كما يطفو غشاء السيل من أرواث وقش وخلقان ... ولا تزال تلك الصورة البشعة تنير
اشمزاز صاحبها بمرآها القدر ، وتضاعف له من حمد الله على نعمة الوارد الجديد ، حتى
تغيب عن خياله ، ويتخلص منها وجدانه ، كما يتخلص السيل من غشائه الذي يطفو
فوقه إلى حين ...

وفي هذا إشارة دقيقة حكيمة إلى حظوظ الشيطان في النفوس البشرية ، قبل أن
يجرى فيها وحى الله فيروها ويطهرها ، فإن بكل نفس حظاً خبيثاً للشيطان ، تنبعث
منه الظلمة والشرور ؛ والنفوس المحرومة يزيد بها حظ الشيطان وأكداره ، ويكثر
فيها ما تلقى إليه الشهوات والأهواء الباطلة من رجس وذنس ، ويرين عليها ما تسكب
من ذنوب وآثام ، فإذا أرسل عليها فيض من رحمة الله عز وجل أرواها وطهرها ، وأعاد
عليها نعيمها وبهجتها ... وقد كانت نفوس صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك
في الجاهلية . كانت أودية فيها كثير أو قليل من جهل الجاهلية وأوزارها ، فلما هبط
عليها وحى الله صارت أودية الهدى ، وأوعية العلم والحكمة .

تلك سنة الله لا يحيد عنها ؛ في كل نفس حظ للشيطان قليل أو كثير ، لا يطهر
منه الوادي إلا إذا جرى فيه الهدى والعلم الإلهي . وحسبك أن تجد شاهدا لهذا
في تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بما تقرأ من حاله في الجاهلية والإسلام ...
بل إنا نقرأ في كتب السيرة والحديث أن الله عز وجل طهر قلب رسوله صلى الله عليه
وسلم من حظوظ الشيطان ، بما أرسل من الملائكة الذين شقوا قلبه الشريف ،
واستخرجوا منه المضع الخبيثة ، وملأوه إيمانا وحكمة أكثر من مرة ، قبل النبوة وبعدها ،
وفي طفولته ورجولته ، فامتاز صلى الله عليه وسلم بأن الله طهر واديه الطاهر ، وبالع
في تطهيره ، ليجري وحى الرسالة الطهور في الوادي المبارك الطهور ، ويلتقي ما نزل
به جبريل من النور بما ينبثق في جنبات الوادي المستنير من النور « نُورٌ عَلَى نُورٍ
يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

وهذه الإشارة الدقيقة تخرج منها معارف قيمة من معارف علم النفس ، وطبيعة
تكوينها واستعدادها لتقبل الخير والشر ، وهي مباحث نفيسة ، لسنا بصدد بيانها ...
ونستبسط من هذه الإشارة أيضا منافع جليلة للذين يرجون فضل الله ، ولا يقنطون
من الإصلاح والتوبة ؛ ففي كتاب الله ما يشفي صدورهم ، ويظهر أقدارهم ؛ فعليه
جدامة النظر فيه ، والارتواء من معانيه .

زبد وباطل

وهذا الزبد الذى يحتمله السيل ما هو ؟ وما موقعه فى هذا المثل ؟ أما الزبد فهو رغبة لينة ذات فقايع تظهر على وجه الماء حين يتخلل مسام الأرض ، ويتسرب فى ذراتها وشقوقها ، أو حين يمحضه الجريان بين جانبي الوادى ، أو حين يضطرب لسبب من الأسباب ... ولا يلبث أن تنشق فقايعه ، وتذهب رغبته إلى لا شيء .

وأما موقعه فى هذا المثل فهو صورة دقيقة عرضها الله سبحانه ، ليمثل لنا موقع الباطل فى هذا الوجود إلى جانب الحق الأصيل : « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ : فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » .

وقد علمنا مما مضى أن الله ضرب الماء مثلاً للحق ، وشبهه به ... ومثل قلوب الناس أو طبيعتهم البشرية حين يسرى فيها نور الحق والهدى ، والأودية حين ينطلق فيها السيل ... وهو يتم عناصر المثل بهذا الجزء الأخير الذى يشبه فيه الباطل برغبة الزبد الهش الحائر فوق الماء .

الزبد وعناصر تكوينه

وهنا نتساءل : لقد عرفنا أن الزبد رغبة طارئة ، ولم نعرف بعد من أين جاء ، وما أصله ؟

تساؤل يكشف لك تفاهة الباطل وهوان شأنه .

ليس الزبد عنصراً من عناصر الماء ، ولا هو يمت إلى طبيعته بصلة ، وكل شأنه أنه يوجد -- إن وجد -- على سطحه ! فكيف يتكون -- إذاً -- وما أصله ؟ ... هل هو شيء أصيل يمت إلى عناصر الأرض بصلة ؟

كل ما يمكن قوله فى هذا المقام أنه ظاهرة عارضة تتألف على وجه الماء من غازات متنفخة ، وهباء لا يؤبه له ، يجتمع بعضه إلى بعض ، ويؤلف بينه ليونة يستعيرها من الماء ! أفترى فى ذلك شيئاً لله وجود يعتد به ؟

(١) ليونة أو طراوة مستعارة من الماء ، وليست أصيلة فيه ، لا تلبث أن تتبخّر فيتبخّر معها كل شأن له ، فإذا هو لا شيء ! وكذلك شأن الباطل يحاول أن يستر نفسه بطلاء مستعار من الحق ، يحسب به أنه على شيء ، ولكنك إذا تمثلت أن فقاعة

الزبد حين تستعير من ليونة الماء إنما تستعير لشيء ، أدركت مبلغ ما يستعير الباطل من الحق ليستر به نفسه أمام الناس ، ويدعم به وجوده ، وأدركت تبعاً لذلك هو أن الباطل في هذا الوجود ، وضيعته التي لا يماثلها إلا تفاهة الفقاعة المتطايرة الضائعة .

(٢) وهباء لا يؤبه له ، يجتمع بعضه إلى بعض ، ويؤلف بينه ليونة يستعيرها من الماء . . . كلام لم نجد سواء لدينا في التعبير عن حقيقة هذه الظاهرة الملققة من لاشيء ، ونخشى معه أن يظن ظان أن هذا الهباء الذي اجتمع بعضه إلى بعض صار شيئاً ؛ فليرجع القارئ الكريم إلى حفنة كبيرة من رغوة هذا الزبد — لا إلى فقاعة واحدة — ثم لينظر ماذا يبقى في كفه من الهباء المجتبع ، حين تتطاير عنه ليونة الماء ، ثم يحده في كفه من ذلك فهو العناصر التي قام بها وجود هذا اللاشيء ! وليقس على هذا المثل الهباء ، أو العناصر التي تؤلف كيان الباطل في هذا الوجود .

الباطل في نظر أهل الحقائق

وحين ترسم هذه الصور في أذهاننا ، لانستطيع معها أن نتصور للباطل من فائدة أبداً ، ولا من قوة تمسك له وجوده ، إلا بمقدار ما نتصور من ذلك في زبد الماء .

فإذا تقرر لديك هذه الحقائق ، وعى من اللباب الذي لا يتطرق إليه الشك ، ففد استقر في ذهنك وفي بصيرتك نور قوى واضح ، تميز به حقائق الأشياء ، ولا تنخدع بظاهرة من الظواهر ، وسهل على أهل هذا النور أن يدركوا أن منازل الباطل ومكافئته في ميدان من الميادين ، لانتكفهم من الجهد أكثر مما يتكفون في إزالة جيش من الزبد على وجه الماء ! ! ولا تسألني يا أخي كيف ذلك ، ولكن سل نفسك أين أنت من هذا النور الذي ندرك به حقائق الأشياء ، وماذا حققت في نفسك من شرائط أهله ، فإنك حينئذ تغني عن الإجابة ، وتدرك أن بقاء هذا الزبد الرابي ، أو الباطل السكيف ، مرهون بالأیدی التي يقذف الله بها عليه فتدمغه ؛ ثم وجدت هذه الأیدی ، واستعلنت أنوار الحق في بصائرهما ؛ كان هوان الباطل عليها كهوان الزبد على من يلعب به بعصاه ، أو يطؤه بقدمه ، أو ينفخه بفمه ، أو يلاشيه بكفه .

وعلى ضوء هذا المعنى نجد أنساً كبيراً حين نقرأ في كتاب الله سبحانه :
 « لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، ثُمَّ مَا لَهُمْ
 جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » فما ينقلبون إليه من سوء المسير في القيامة ، فهو إلى
 الله وحده ، وأما سوء مصيرهم في الدنيا ، فهو ما يغرينا به سبحانه بقوله :
 « لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ » فإن ما تراه من بسطة السلطان ،
 وكثرة المستعمرات ، وانتشار مناطق النفوذ ، إن هو إلا زبد لا يضحك إلا في أفتدة
 الأغرار من أطفال الرجال ، أو الرجال الأطفال ؛ فدونك هذه الرغبة ، فإنها
 لا تثبت لشيء ، وهو إغراء حلومؤنس ، لا يعترف معه المؤمن الحق بعقبات ،
 « فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا : لَاطَاقَةٌ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ،
 قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتِ فِئَةً كَثِيرَةً
 بِإِذْنِ اللَّهِ ! وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » . . . وليس من شأننا في هذا المقام
 أن نمضي في الاستشهاد بكل ما ورد في القرآن الكريم عن التهوين من شأن
 الباطل ، من حيث هو قوة وجند ، أو متعة وزينة ، أو سيرة وعمل ؛ فبحسبك
 أن تستحضر دائماً في ذهنك ذلك التصوير القوي الجلي المسائل في قوله سبحانه :
 « فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » فإنه كفيلاً أن يجعل من كل آية إطاراً يتبدى
 فيه كل ما للباطل من معالم التفاهة .

أهواء الباطل وغازات الزبد

وبعد ، فهل تكلمنا عن حقيقة الزبد ؟

إننا يا أخى لم نفرغ بعد من ذلك ، وإن مابق منه لهُو أهم من كل مامضى ! !
 بقيت تلك الغازات التي لولها ما ربا الزبد ، ولا تجمع من الهباء ذلك اللاشئ ؛
 فما هذه الغازات ؟

يقول العلم إنها غازات ، تكونت من عفونة أجسام تحللت ، وفسدت ببعض
 عوامل التحلل والفساد .

تبارك شأن الله في دقة التحليل ، وروعة التصوير ! !

نعم فهذه الغازات العفنة المتجلفة ، يقابلها في المثل أهواء المرء وشهواته وزنواته الرخيصة ، فإذا كانت الغازات هي العامل الأساسي لتكوين الزبد وما إليه من يعاليل ونفاحات ، فإن أهواء المرء وشهواته ، وتعلقها بهباء من حطام الحياة الدنيا ، هي العامل الأساسي لوجود كل باطل في هذه الأرض .

ولكن أى شيء في الإنسان ضربه العفن ، وأدركه التغير والفساد ، حتى صعدت منه تلك الغازات ، أو تلك الأهواء والشهوات الفاسدة ؟

نعم يا أخى ، لاشيء في الإنسان أدركه العفن ، أعنى أنه لم يطرأ عليه عفن جديد ، فقد جاء بالعفن في جبلته الأولى مذ خلقه الله من ماء مهيئ ، وطين منن ، وحمأ مسنون متغير الرائحة . فإذا رأيت في أهواء الناس تفاهة وضعة ، فرجعها خسة الطين ، وتفاهة الماء المهيئ . . . وإذا رأيت فيها ما هو قدر يركم الأنوف برائحته الكريهة ، فرده إلى الأصل الممكنون في الحمأ المسنون . . . وهل خلقنا الله سبحانه ، من هذه الطينة التي تحمل المهانة والتفن ، إلا ليكون لذلك أثره فيما يتمرغ فيه بعض الناس من نقص ، وضعة ، وهوان وإثم ، وضلالة ؟

ولا شك أن من رحمة الله أن الماء المتجدد الطهور في الوادى يأتى على مضار ذلك العفن فيخففها ، أو يزيلها كأن لم تكن ، فلا تكون مصدر إيذاء لأحد ، لا برائحتها الكريهة ، ولا بجزائيمها القاتلة . . . هذا شأن الماء في الوادى ، فأى شيء ذخره الله لتطهير أودية الناس من عفن بشريتهم ، وما تنزى به طباعهم من أهواء فاسدة وشهوات ؟

وأحب قبل الإجابة عن ذلك أن نلاحظ أننا في كل ما كتبنا لم نخرج عن عناصر المثل الذى ضربه الله قيد شعرة ؛ فنحن ما فتئنا — مذ بدأنا الكلام عنه — نتناول الأشياء والنظائر ، ونقدس بعضها على بعض ، مستهدين ما أودع الله هذا التصوير المعجز من دقة وإحكام ، ولهذا لانجد مشقة في الإجابة عما تساءلنا عنه الآن ، فالله سبحانه منذ خلقنا من طينة زهيدة ومنتنة ، تداركنا بفيض طاهر من روحه القدسية ، نفخه في أوديتنا ، وأقره في سرائرنا ، وجعل إليه حياة ما فينا من موات ، وزكاة ما لدينا من دنس ، وطهر ما فينا من عفن ؛ ولأمر ما صار هذا السكان الطينى أهلاً لأن تسجد له الملائكة في الأزل البعيد ! .

على أن الله سبحانه لم يكتف بإقرار تلك الفطرة النورانية في سرائر الناس ، بل أمدّها على مدى العصور والأجيال بمدد من نوره وهدهد ، فيما أنزل على أنبيائه ورسله ،

وهو الذى يشير إليه المثل بقوله : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا »
وهو الذى يؤدى لأوديتنا ما يؤديه الماء للوادى من تطهير ووقاية .

خصائص النقص فى طينة البشر

ولقد عرفنا أن الزبد رغوة ، أو مظهر تافه لانتفع منه ، ولا قوة له ، ولا استقرار ولا بقاء وعرفنا كذلك سبب هذه الظاهرة ، ولا يعيننا هنا أن نذكر نوع الغازات التى يتألف منها الزبد ، ولا كيفية التحلل والعفن الذى يسببها ، وإنما يعيننا مرأى المثل الكريم العميق ، يعيننا ما ترمز إليه هذه الغازات من أهوائنا وشهواتنا ، والعفن الذى تتصاعد منه . . . حقيقة هذا العفن أنه الأوصاف التى تصف لنا بدقة طبيعة الطينة التى خلقت منها بشرتنا .

ونستطيع أن نتجنب الإمعان فى الفلسفة والفروض ونواجه الواقع فنقول : إنها طينة ميتة ، تحتاج إلى الماء لئلا تدب فيها الحياة ، أو إنها بشرية سلبية محض ، ليس فيها صفة واحدة من صفات الإيجاب والفاعلية ، فهى ضعيفة لا قوة لها . . . ذليلة لاعزة لها . . . فقيرة لا غنى لها . . . خسيسة لا قدر لها ولا نفاسة . . . جاهلة لا علم لها . . . خالية خاوية من كل فضل لا امتلاء لها بشيء . . . فإذا عسى أن تكون طبيعة هذه الطينة ؟ أو هذه الجبلية التى اشتق منها الإنسان ، إلا أن تكون طبيعة سلبية لا تنطوى على شيء البتة من معانى الإيجاب وخصائصه ؟

الموت المعنوى وحقيقته

هذا الخلو أو هذا الافتقار العادم ، هو طبيعة هذه الطينة ؛ وهو المراد بالموت للمعنوى حين يرد فى القرآن الكريم وليس من ذات تزهدت عن كل صفات السلب ، وقامت بها كل صفات الإيجاب ، إلا ذات الله سبحانه . وإلى هذا المعنى الدقيق يشير عز شأنه فى القرآن بقوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ : أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » . . . فقراء من حيث كل شيء ؛ من حيث العلم ، والقوة ، والعزة ، وأسباب النباهة والرفعة ، إلى آخر ما أثنى به سبحانه على ذاته ، وبث فى فطرنا سر التطلع إليه والشوق إلى تطلبه .

أسواقنا إلى الكمال ، وكيف نرتد أهواء مرهلكة

وهذا كلام يرفع لبصائرنا لونا من البحث فى صفات الله لئلا يصدده ؛ وإنما نحن بصدد ذلك السلب المحض الذى جعل طبيعة لنا ؛ ذلك السلب الذى يترك فى طبيعة المرء شعورا

فطرياً عميقاً ، بالنقص والحلو والافتقار . . . شعوراً قد لا تدركه حواسه الظاهرة السطحية ، ولكنه في غفلة الباطن أشد ما يكون انفعالا ؛ فعلى غير وعى من المرء يجد نفسه منهوماً بأمور هي التي نسميها الأهواء والشهوات .

فقد ينهم — مثلا — بجمع المال جمعاً لا ينظر فيه إلى سد ضروراته وحاجاته ، ولا ينظر فيه إلى أنه عدة للحق ، أو قوة على العدو ؛ وإنما هو منهم ووله عميق ؛ أو صدى الهتاف الفطرى في الطينة التي لا تملك غير الافتقار . . . فالمسكين لا يجمع لسد ضرورة ، وإنما ليواجه نداء ذلك الحلو الذي تستغيث منه جبلته . . . ولكن هيهات أن يقوم المال بسد مثقال ذرة من ذلك ، إذ لا يملكه إلا الله سبحانه ، فصفاته الموجبة وحدها هي رى هذا الظمأ ، وشبع هذا الجوع ، وغنى هذا الفقر ، وجبر هذا النقص ، وحياة هذا الموت ؛ ولذا نرى المسكين في جمعه لا يقف عند حد ، ولا يشعر بشبع لأنه يرتوى من غير مصدر ، كالطفل الجائع الذي لم يمتد إلى ثدى أمه فالتقم إصبعة ؛ فما عسى أن يذهب ذلك من ظمئه وجوعه ؟

قد ينهم بالمال ، وقد ينهم بمطالب الترف وأنواع الزينة . . . أو يؤخذ بحب الثناء وعلو الذكر . . . أو يذهب مع الأنانية والرغبة في الاستئثار . . . أو يمضى مع نزعة الغلبة والقهر والتفوق على الأقران . . . أو ينطلق بمجده وراء غير ذلك من النزعات التي يسف فيها ، أو يعلو بغير الحق . . . وقد يتورط أثناء هذا في كثير من الأخطاء والمظالم والآثام . . . وقد ينجى على نفسه وعلى غيره من عباد الله شر الجنایات ، وقد تضيق جنایاته وقد تتسع تبعاً لما له من سيطرة ونفوذ في هذه الأرض . . . وقد يكون المعتدى فرداً وقد يكون أمة . . . وقد تكون الجرائم مادية ظاهرة ، وقد تكون معنوية باطنة كذلة الجبن ، وخسة الملق والرياء ، وغرور السيادة أو وهم الألوهية . . . أو قل على سبيل الإجمال : يتورط في أخطاء الشراة ، وصغائر التفاهة ؛ شراة قارون وماوراها من جمع وكثر وشح . . . وتفاهة فرعون إذ لم يكفه أن يقول للدلائل أنا ربكم الأعلى ، فراح يطلب أسباب السماء ليبسط عليه أوهام ألوهيته المضحكة .

ينهم المرء بكل هذا أو بعضه ، مدفوعاً . . . بماذا ؟ . . . هو لا يدري لماذا ، ولكنه يجد فيه لذة ، ومتعة ، وهوى ، وشهوة ، وحسبه ذلك . . . أما لماذا هو منبعث ، أو ما هي الحوافز التي تبعثه وتسخره ، فمردّه إلى طبيعة السلب المحض ، أو الافتقار العاجز المحروم ، الذي ينشد الرقعة لحسته ، والقدرة لعجزه ، والسكال لنقصه ، والعلم لجهله ، والامتلاء لحلاوه ، والجدة لفقره ؛ فكان له صوت استغاثة أزلّى يدوى في

أعماق الوعي الباطن ، لاتسمعه أذن صاحبه ولا يلتفت إليه ذهنه ... إنه استغائه كائنه الروحى الذى يبسط كفيه إلى ماء الحياة على قرب منه فلا يبلغه ؛ ولكن صاحبنا بدلا من أن يواجه هذه اللفظة بمصادر الرى الحق ، واجهها بما لاغناء فيه .

حقيقة الأهواء والشهوات ، أنها أحلام الجبلة المحرومة تطفو إلى وعى الطفل النائم المسكين ، فيقبل على إصبه لا يدري حقيقة مايفعل ، فإذا كان بين العاملين عمل الطفل الصغير ، وعمل الطفل الكبير — مشابهة فى ذهاب كل منهما إلى غير نتيجة وصورته إلى الهلاك فإن بينهما فرقا شاسعا يعطفك على ذلك النائم الصغير الذى لا إرادة له فيما يفعل ، ويستثير مقتك لذلك الذى يعرض باختياره عن الخير لنفسه كأنما يمقت أن تنال منه شيئا : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُبَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » .

حيرة أمام العلم الرافض

يا أخى ، إن معركة الحق والباطل ، هى معركة الوجود كله ، وإن مركز من يعرض لشرح ألوان هذا العراك ، لمركز كثير المزالق والمضايق ، والخرج والمشقة ؛ ولذا أرائى فى حيرة بالغة وعجز شديد ، ماذا آخذ من معانى هذا المثل الخطير ، وماذا أدع ؟ إننى أمام أعماق مخوفة لا أرى لها قرارا ، فهى تمتد بأسرار الحق والباطل حتى تجاوز أسوار عالمنا هذا المادى إلى عالم الآخرة ؛ وليس لنا بعد ما قدمناه إلا أن نلوذ بآيات الكتاب المبين ، نقف عند مدلول ألفاظها ، أو نطمح بالنظر إلى مراعى إشاراتها ، كلما حدثتنا عن الحق والباطل ، فإن ما قدمناه من نور هذا المثل كاف لأن ندرك على ضوئه أهداف كل آية .

لقد تحدث القرآن عن الهوى الذى يورد صاحبه موارد الهلاك ، وتحدث عن الجهود الضائعة التى يحسبها الظمآن ماء ، وتحدث عن الأخبرين أعمالا ، وتحدث عن الذين يعذبون بأموالهم وأولادهم فى الحياة الدنيا . . . وحماقة أهل الهوى ، وحصافة أولى الأبواب . . . وذلك الذى كان ميتا فأحياه ، وأولئك الموتى الذين لا يسمعون . . . والغيث الذى أعجب الكفار نباته ، والزرع الذى أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع . . . تحدث عن ذلك كله ، وعن غيره مما يصرفنا المقام عن الاسترسال إليه ، وإنى لأحسب أن هذا المثل الكريم عدسة مباركة ، تكشف لأبصارنا وبصائرنا كثيرا من الحقائق ، إذا نحن نظرنا من خلالها إلى كل آية .

وبعد فتهاة الباطل والزبد تلتقيان في ثلاث :

الأولى : أن كلا منهما ظاهرة عارضة ضائعة الأصل والنسبة ، ليس لإحداها ما يجعلها ذات وجود أصيل يعتد به .

الثانية : أن كلا منهما شيء لا نفع له ، ولا ثمرة ينتهى إليها .

الثالثة : أن كلا منهما سريع التحول والزوال ، لا استقرار له ولا دوام .

وليس في وسع أحد أن يرسم في ذهنك أصالة الحق وفتهاة الباطل ، كما رسم لك القرآن وصور . وليس في وسع أحد كذلك أن يبعثك على احترام الحق وتمثيل جلالاته ، إلى جانب الاستخفاف بالباطل وتصور ضآلته ، كما فعل هذا التصوير الرباني المعجز ! فلا تطمع أن أمذك أو عمدك غيرى بشيء في ذلك ؛ فقد وصف الناس الباطل قديما وحديثا ، وفيهم العالم والجاهل ، والفيلسوف وغير الفيلسوف ، فما منهم أحد ألم بفلسفته ، وحقيقته ، في سر وإيجاز ووضوح ، كما ألم الحق تبارك وتعالى في كلامه الحكيم .

الهفوات من لوازم الطبع البشرى

وكل ما قدمناه خاص بالزبد الراني ، والباطل الكشيف الذي يطفو في أودية قلوب الناس ، ومحيطات دنياهم الواقعية ، فيجذب عنهم الحق ، ويزين لهم ما هم عليه ، وذلك شأن كثير من الناس . وبقي شأن فريق آخر . . . بقي أن المؤمن حين يتملى واديه بوحى الله والحكمة لا يخلو أمره من هفوات تافهة فارغة ، تطفو في محيطه الظاهرى ، ثم لا تلبث أن تزول ، ويبقى من بعدها المعين النافع — كما هو — فياضا بمعانى الحق والخير . . . وهذا من طبائع النفوس ، فقد أراد لنا عز شأنه أن يكون من شأننا الخطأ والنسيان ، وأن يكون في طبيعتنا ما يربطنا بالحياة الدنيا ، ويعقلنا بها ؛ ومن هنا كانت الذنوب لازمة من لوازم بشريتنا ، كما أن الاستعداد للترقى والتطهر سر من أسرارها كذلك ، فقد ألهم الله كل نفس فجورها وتقواها ، وترك إلى العبد أن يزكها بالتقوى ، أو يدسها بالفجور ؛ ولكن مهما ترقى بالتقوى ، وصفت بالمراقبة ، فإنها لا تتخلص دائماً من هفوات الطبع ، وقفاقيع الدنيا ، فلا بد من حصول شيء من ذلك ؛ فالقلب لا يفتأ الدهر معرضاً للتقلبات ، كالوادی المائج الذي تنقلب فيه المياه ، ومن شأن هذا القلب ، أن يحدث على الوجه قفاقيع فارغة . وقد شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم القلب فقال : « مثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا » ، فهل ترى يشور الغليان دون أن يطفو فوقه زبد ؟ وزبد

القلوب هنا هو المحفوات كما تقدم . . . وإلى هذا كله أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « والذى نفسى بيده لو لم تذبوا للذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون فيغفر لهم » .

وليس في نفوس البشر نفس سمت فوق ما سمت نفس مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع هذا فقد جاءت السنة ، بأنه صلى الله عليه وسلم نظر إلى علم ثوبه — نقشه وتطريزه — وهو في الصلاة ، فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال : شغلنى عن الصلاة ! . . . وروى عنه عليه السلام أن خاتماً من ذهب كان في يده ، فنظر إليه وهو على المنبر ، ثم رمى به ، وقال : « نظرة إليه ونظرة إليكم » وكان ذلك قبل تحريم الذهب . . . بل قد جاء في الحديث الشريف ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « . . . وإنه ليغان على قلبي » ، والعين الغيم . قال صاحب المصباح في معنى الحديث : إن هذه كناية عن الاشتغال عن المراقبة بالمصالح الدنيوية ، فإنها وإن كانت مهمة ، فهي في مقابلة الأمور الأخروية كاللهو عند المراقبة .

فهل ترى هذه الحطرات التي تطفو في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تؤثر في واديه ؟ وهو عليه السلام وادى الأودية الربانية ، ومحيط المحيطات الإلهية ؟ ألا ترى كيف كانت هذه الحطرات تزول سريعاً بالتفاته صلى الله عليه وسلم إليها ، فيرمى بالثوب والخاتم ، فيذهب كما يذهب الزبد جفاء عن وادى النيل ؟ .

وبعض المؤمنين كثير الزبد — عفا الله عنهم وغفر لهم — . وبعضهم قليل الزبد وقليل ما هم ، « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَ »

هذا يا أخى ما وسع الجهد أن يستخرجه من هذا المثل العظيم ، ولئن عجزت عن استخراج الكثير مما فيه ، ففي هذا القليل الذى عرضته مقنع ، يقنعك بسعة علم الله في القرآن الكريم ، وامتداد آفاق كلماته وبعد أغوارها .

وبعد :

فإن هذه المعانى الكثيرة العظيمة ، قد ظهرت واضحة في سطر واحد من كتاب الله ، فكيف تمت هذه المعجزة ؟ سر هذا في المثل الذى أحكمه الله ، وساق فيه ما شاء من العلم والحكمة ، والله يضرب الأمثال للناس « وا لله بكل شيء عليم » .

الرسول يضرب الأمثال

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأن هذا السنن ، ويضرب كثيراً

من الأمثال ، يشبه فيها الأمور المعنوية الخفية بأمر محسوسة ، تقربها للأذهان بل تسكاد تظهرها للعيان .

ونحن نسوق منها على سبيل التمثيل ما يأتي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله سبحانه وتعالى أمر يحيى بن زكريا صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، أن يعمل بها ، وأمر بني إسرائيل ، أن يعملوا بها ، وإنه كاد أن يبطئ بها . فقال عيسى عليه السلام : إن الله تعالى أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، فإذا أن تأمرهم وإما أن آمرهم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتنى أن يخسف بى أو أعذب ؛ فجمع الناس فى بيت المقدس ، فامتلاً المسجد وقعدوا على الشرف ، فقال : إن الله تبارك وتعالى أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن . وأمركم أن تعملوا بهن :

١ — أولاهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ؛ وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ^(١) فقال : هذه دارى وهذا عملى ، فاعمل وأد إلى . . . فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده ! فأيكم رضى أن يكون عبده كذلك ؟

٢ — وإن الله يأمركم بالصلاة ؛ فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ، مالم يلتفت .

٣ — وأمركم بالصيام ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة « جماعة » معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه ؛ وإن ريح الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك .

٤ — وأمركم بالصدقة ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فأوثقوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفدى نفسى منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم .

٥ — وأمركم أن تذكروا الله تعالى ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعاً ، حتى أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم . . . كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى . وهو حديث جليل ، رواه الإمام أحمد والترمذى . وأنت ترى أن كلاماً من توحيد الله ، والصيام ، والصدقة ، وذكر الله ، قد فسر بمثل يوضح معناه ، ويبين ما فيه من الخير والنجاة للإنسان .

فتوحيد الله ، أن تفرد به بما في قلبك من حب ، وخوف ، ورجاء ؛ فالإنسان إنما يتصرف في حياته بوحى هذه العواطف الكبيرة الأصيلة ، وما يتفرع منها ، فإذا جعلها الله وحده فقد صار كله لله : عمله ، وطعامه ، وكلامه ، وصلاته ، وحياته ، ومماته ؛ وهذا ما يريده منا الله وما خلقنا إلا له ، وهو معنى التوحيد ، وما خلق الله لك هذه العواطف الثلاث إلا لتمدها نحوه كالحيوط المباركة ، فنصلك به ، وتعلقك بمقامه عز وجل . . . فإذا أنت صرفت هذه العواطف عن الله ووجهتها لغيره — لا قدر الله — فقد وضعت الشيء في غير موضعه ، وسخرت نفسك لغير خالقك ؛ وهذا عين الجحود والجهل والعمى ، وهو الذى فسرهُ المثل تفسيراً واضحاً بقوله : إن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله ، بذهب أو ورق ، فقال له : هذه دارى وهذه مزارعى أو بساتينى أو مصاعى وأعمالى . فاعمل فيها ثم احمل الثمر إلى دارى ؛ فجعل العبد يعمل ثم يحمل الثمر إلى دار غير دار سيده ! فأى الناس يقبل أن يكون عبده أو خادمه كذلك ؟ . . . فإذا كان أحدنا لا يرضاه ، فأولى ثم أولى أن لا يرضى الله لعبيده أن يهبوا لغيره عواطفهم ، وأعمالهم التى هى ثمار هذه العواطف . . . وهو مثل مقنع ، يشرح الصدر ، ويستقر بعقيدة التوحيد على قرار مكين .

والصيام ، هو حبس النفس عن شهواتها الظاهرة والخفية ، الحسية والغنوية . . . وصرف همها إلى ما هو خير ، وهذا هو الصيام الفاضل الكامل . ومن فوائد هذا الصيام أنه يترك فرصة للمشاعر الكريمة فى الإنسان أن تنمو وتزدهر . فكل منا يتعهد فى ذاته نفسين : نفساً رديئة تحب السوء وتأمُر به ، وهى التى ذكرها الله فى القرآن الكريم بقوله حكاية عن امرأة العزيز : « وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » ؛ وغذاء هذه النفس الذى تنمو به وتسمن ، هو شهوات الطعام ، والشراب ، والنساء ، والمال ، والجاه ، وما تجر إليه هذه الشهوات من رذائل وصغائر . . . وهى رذائل تتراكم مخلفاتها فى هذه النفس فتزيدها قدراً ودنساً ، كما تتراكم مخلفات الطعام فى المعدة والأمعاء ، فتكسبها من نتن الريح ما هو معروف ؛ ورحم الله أبو العاتية إذ يقول :

كيف إصلاح نفوس إنما هن قروح ؟
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا بين جنبه فضوح (١)

(١) أى مفتضح ثم رائحته عن ذنوبه وسيئاته ، أو بين جنبه فضيحة تكشف أمره .

أما النفس الأخرى ، فهي النفس الطيبة الزكية المطمئنة ، وهي التي تحب الخير والحق ، وتأمر به ، وهي التي ذكرها في القرآن الكريم ، وناداهم إليه بقوله الحكيم : « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي » ؛ وغذاء هذه النفس من السماء لا من الأرض ، ومن الله لا من الشيطان ؛ ورأس هذا الغذاء ذكر الله عز وجل ؛ فيه حياتها ، وقوتها ، وطيبها : « أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » ، وهو غذاء ليس له مخلفات كريهة ولا أخلاط فاسدة ، إن هو إلا طيب على طيب ، ونور على نور ، وهناء يرق بها الضمير ويشف ، ونفحات من رياض أنس الله عز وجل ، تفرح وجوده ظاهرا وباطنا ، وتعجل له أرواح الجنة وهو ما زال في قرار الحياة الدنيا .

أقول : إن كلاً من راع رعى هاتين النفسين ؛ فإذا رعى النفس الرديئة وأهمل الطيبة ، سمحت الرديئة وهزلت الطيبة ، وصار إنساناً رديئاً ؛ وإذا أعمل الرديئة ورعى الطيبة واستوصى بها خيراً ، ضعفت قوة الرديئة وانحل سلطانها عنه ، فصار إنساناً طيباً كريماً ؛ وما الصيام يا أخى إلا انصراف عن رعى الحيثة ، والنفات إلى التوسعة على الطيبة .

فهاتان النفسان تتراحمان في كيانه ، وتتوزعان جهده وتقسمانه ، فمن الناس من يعدل بينهما وهو النمط الأوسط ، ومنهم من يميل إلى إحداها فنتمو على حساب الأخرى .

والصيام الذي هو حبس النفس عن شهواتها الظاهرة والخفية ، فرصة طيبة للتضييق من مرعى النفس الرديئة ، ليتسع المجال ، ويغلو الجو للنفس المطمئنة ، فتأخذ نصيبها وهي آمنة من المزاومة العنيفة ، والتضييق الشديد ، فتزكو وتطهر ، ويعبق طيبها فيتخلل اللحم ، والدم ، والعظم ، ويجعل كل شيء في صاحبه طيباً ، حتى ليكون خلوف فمه — أي نفسه للتغير — أطيب عند الله من ريح المسك ؛ ولكن لا يدرك ذلك إلا أهل البصائر . فإذا كان الرجل في جماعة من الناس ، نفهم من نفسه بالكلم الطيب ، والعمل الصالح ، والخلق الفاضل ؛ وهذا كله ما يجعله المثل بقوله عن الصيام : « فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة ، معه صرة فيها مسك ، فكلمهم يعجب أو يعجبه ريحه ؛ وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

أما الصدقة — وهى البذل مما يملك الإنسان فى سبيل الله — فإنها معالجة يحاول بها المرء أن يتخلص من شح نفسه ؛ والشح سلاسل تغل يد الإنسان إلى عنقه ، فتظل مقبوضة عن الخير ، محبوسة عن المشاركة فى سبيل الله ، وفى ذلك هلاكه وخسارته . . فالشح غل من أغلال الشياطين ، يسلطه على التعساء من الناس ، « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ » بالصدقة « فَأُولَئِكَ نُمِمْ الْمُفْلِحُونَ » الذين افتكوا أنفسهم من قيود العدو ، وافتدوها بما يملكون ، بعد أن أشفروا على الهلاك — وإلى هذا أشار المثل فقال : فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فأوثقوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفتدى نفسى منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم .

وذكر الله : هو مادة حياة النفوس ، وعماد قوتها . . . والشيطان — وهو أعدى أعداء الإنسان — لا يفتأ يمتاح لصرفه عن الله ، فيوسوس له بالشر ، ويزين له الشهوات ، فإذا انقاد له ، فقد نبى الله ونسيه الله ، وانقطع عنه مدد الحياة الإلهية . فهزل قلبه أو مات ، وغدا لا حول له ولا قوة ؛ والقلب الميت أعجز من أن يجد صاحبه بذرة من ذلك . . والحياة فى القلب ، ليست نبضاً يذب ، أو دمماً غزيراً يفد إليه أو يخرج منه ، إنما الحياة كل الحياة هى ليوته لمعانى الخير ، ورقته لأنوار الحق ، وشوقه إلى الفضائل الروحية المطهرة ، فإذا حى هذه الحياة ، عاش صاحبه جندياً مجاهداً للخير والحق والفضيلة طول حياته ، يستمد من ليوته شدة على أعوان الشر ، ومن رفته صلابة على جند الباطل ، ومن شوقه غضباً وكرهية لأنصار الرذيلة ، وليس هناك حياة غير هذه الحياة ، إلا حياة الأموات الذين يحصون فى الأحياء ظلمات أو جهلاً ، والقلب الحى يستمد سر حياته بل سر بطولته من حضور الله فيه ، وليس أبغض إلى الشيطان من هذا ، فهو لا يكف لحظة عن استدراجه بعيداً عن مصادر الحياة ، بما ينسبه ذكر الله عز وجل . . والإنسان هو قلبه الحى ، فمن لا قلب له فهو هيكلاً فارغاً ؛ لا يقام له وزن فى الدنيا ، ولا فى الآخرة . لهذا اقتضت رحمة الله عز شأنه أن يلفتنا إلى خطره علينا ، وأن ينادى فىنا بالفرار منه إلى حصن الأمان ، إلى ذكره عز وجل : « ففروا إِلَى اللَّهِ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ تَذِيرٌ مُبِينٌ » ، وقال فى حديثه القدسى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : « أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت شفتاه بى » . . ومن كان فى معية الله فهو القوى الغالب ، الذى لا يقف لقوته عدو ، ولو اجتمعت له الإنس والجن ، وذلك قوله عز وجل فى الحديث القدسى : « إن

عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه^(١) » فإذا كانت هذه المعية الشريفة تسكبه كل تلك القوة ، فأولى ثم أولى أن تكون عصمة وحرزاً له من كل شيطان أو إنسان يبغيه بسوء . . . وهذا المعنى هو الذى يشرحه المثل بقوله : « فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعاً ، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى » .

هذان مثلاً أحدهما من الكتاب ، والآخر من السنة ، وبقي أن نورد مثلاً من الأمثلة التى لا يمكن أن نسمو إلى هذين القامين الكريمين . . . هبك وقفت تقرر ما شرع الإسلام من عقوبات عادلة ، وحدود رادعة حازمة ، تقطع الشر وتستأصل الجريمة ؛ ثم بدا لك أن ترد على السفهاء الذين يعترضون بأن فى بعض هذه الحدود قسوة وهمجية ووحشية ؛ فلا عليك أن تقول ما قاله أحد الإخوان فى هذا المقام : إن الطبيب الحكيم ، عليه أن يعالج مريضه بما يقطع عنه المرض ، ويكفل له الشفاء والصحة ، فإذا اقتضى العلاج أن يسقيه الدواء المر سقاء ، فإن لم يسقه فهو طبيب خائن لمريضه . . . وإذا اقتضى العلاج أن يفتح بطنه ، أو يشق عضواً من أعضائه ، فمن السفخافة أن نسمى ذلك قسوة ووحشية ، إن هو إلا الرحمة التى تسوق إلى المريض المسكين قوته وسعادته . . . وإذا اقتضى العلاج أن يبتز الطبيب إصبعاً أو ذراعاً أو نحو ذلك إنقاذاً لحياته ، فالحكمة كل الحكمة فى المسارعة إلى هذا العمل ، الذى ظاهره القسوة والألم .

فإذا كان ذلك كله لا اعتراض عليه ، بل توجبه المصلحة ، فكيف يسوغ فى عقول المعترضين أن يعترضوا على المشرع الحكيم ، الذى يستأصل بتشريعه جذور الشر والفوضى ؟ . . . وهل المشرع إلا طبيب ؟ : ذاك يعالج أمراض المجتمع ، وهذا يعالج أمراض الأجسام ؟ . . . إن مهمة الطبيب أن يشفى مريضه من علته ، وأن يضع له أفضل القواعد الصحية التى يتبعها فى طعامه وشرابه ونومه ورياضته ، حتى يعيش دهره معافى . . . وكذلك المشرع ، مهمته أن يشفى المجتمع من علته ، وأن يضع له أفضل القواعد الاجتماعية والسياسية والمالية ونحوها ، مما تستقيم عليه المعاملات ، ويستقر به الأمن على الأعراض والأموال والدماء .

وكما أننا نقيس نجاح الطبيب بدرجة شفاء المريض وانتظام صحته ، يجب أن نقيس نجاح المشرع بمقدار ما ينال المجتمع من هذا الشفاء .

(١) كفؤه ومنازله .

وكل ما يطلب من الطبيب أن لا يلجأ إلى الدواء المر إلا حين لا يجد غيره ، وأن لا يلجأ إلى بتر الأعضاء أو شقها إلا بعد اليأس من طرق العلاج الأخرى . . . وكذلك المشرع ، كل ما يطلب منه أن يقسو على غرائز المجتمع ، مادام إرضاء هذه الغرائز لا يلحق ضرراً بالمصالح العامة أو الخاصة وأن لا يعنف في اختيار العقوبات ، إلا عند ما يرى أن العقوبات السهلة غير كافية لقمع شهوات الشر ، ومحقق رغبات العدوان الأثافي — وهذا نفس ماسنه المشرع الإسلامى أو طبيب المجتمع الإنسانى ؛ فقبل أن يضع حد السرقة مثلاً ، قرر لكل محتاج حقه فيما تجبیه الحكومة من المال ، الذى هو مال الله ؛ فإذا تعطل من العمل أضعفته الدولة بما يعينه ، إن عجزت عن تدبير عمل له ؛ وإذا نزلت به مصيبة في نفسه أو ماله ، وجب على الحكومة أن تقدم له الذهب والفضة ؛ وإذا أدركته الشيخوخة فأقعدته عن العمل ، ففي بيت المال — أى خزانة الدولة — حقوقه مذكورة له لمثل هذا اليوم ؛ فإذا توفى وترك ذرية ضعافا فقراء لا كافل لهم ، فالإمام — أى الحاكم — ملزم بتدبير أمرهم ، حتى يغنيهم الله من فضله .

هذا هو روح التشريع في هذه المسألة . . . فإن عجز المال عن الوفاء بمطالب المحتاجين من المستحقين ، فلتجتمع لهم الدولة بقوة القانون ، أو بقوة السلاح ، من القادرين ما يسد حاجتهم . . . فأى اعتدال أرضى للنفس من هذا ؟ فإذا جاء المشرع بعد ذلك كله وقال : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ » كان هذا عين الحكمة ، ومنتهى العدل . . . ويستبين لك عدالة هذا التشريع ، واعتداله ، إذا وضعت إلى جانبه أن إحدى الدول أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، اشتتت فجعلت الإعدام عقوبة من يسرق الرغيف .

وهذا الروح الحكيم ، هو ما يطالعك في كل شرع يشرعه الإسلام ، وفي كل عقوبة يقررها ؛ فهو يسن لكل غريزة حقوقها الطبيعية بقسطاس معتدل ، لا يعنتها بالحُرمان ، ولا يملقها بالعلو والإشباع . . فإذا أرضاها بالحلال ، إرضاء موسعاً فيه ، فقال مثلاً في الزواج : « فَإِنْ كُنِجُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنْ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » أقام عقوبة الجلد أو الرجم ، لكل من يقع في جريمة الزنا .

فإذا أردنا أن نعرف نجاح مشرعنا ونجاح مشرعهم ، فلنسأل ماذا أشبع تشريعنا من الفقراء ، وماذا أشبع تشريعهم ؟ وإلى أى حد نجح مشرعنا في قطع دابر السرقة وإلى أى حد نجح مشرعهم ؟ ... ولنسألهم : لقد عالجتا طهارة الأعراض وعالجتماوها ، فهل تظنون أنكم بلغت في حسم الشر ، وتطهير المجتمع ، وحل أزمت الزواج ، ما بلغناه ؟ .. هل تستطيعون أن تقولوا : نعم ، وجيوش الشبان والكهول العاطلين من الزواج ، يحدثونكم بما يلقون من شبع وري ، فيما يبذل لهم من حرمان وأعراض وهم آمنون ؟ هل تستطيعون أن تقولوا : إن شرعكم وعقوبتكم نجحت في قمع زوات الشر ، وإلزام الرعاء السخفاء حدود الاعتدال والعفة ؟ ..

إذاً هو مشرع خائب أو خائن ، يجب أن يضرب وجهه بتشريع ، كالطبيب الخائب أو الخائن ، يجب أن يضرب وجهه « بروشته » الدواء إذا هو عجز أو فرط في علاج مريضه .. إننا لا نريد إلا مجتمعاً صحيحاً معافى من العلل ، فأينما علاج كفل لنا ذلك في حزم وحكمة ، فهو الشرع الواجب الاتباع ، وإلا كانت الفتنة والفوضى ، « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأَعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ... أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » .

بهذا المثل الذي تشبه به المشرع بالطبيب ، وتحمل عمل كل منهما وتقيسه بالآخر ، تبلغ بمعناك قرارة القلوب ، وتقطع كل حجة لمكابرة أو مغرور .

ومن قبيل ضرب الأمثال سياق الحوادث للعبرة ، وهو غير القصة ، فالقصة تسوقها لتعرض بها معناك ، وتثبت فيها تعاليمك ، فيعينك النمط القصصى على توضيح مرادك ، وإظهاره حياً مؤثراً في صورة عملية ؛ أما سوق الحادثة للعبرة فلا يراد به ما يراد من القصة ، وإنما يراد به الاعتبار بالخاتمة ، ردعا للقلوب عما هي عليه ، أو تحذيراً لها وإنذاراً ؛ وهذا النوع من ضرب الأمثال تتعلمه من القرآن الكريم ، فقد ساقه الله عز شأنه في مواضع كثيرة منه .

فالكفر بنعمة الله ، وعدم القيام بحقوقها ، يعقب زوالها ، والعيش من بعدها عيشة ضنكا . هذه سنة من سنن الله في خلقه ، نقرأها في القرآن ، وترى مصداقها في شئون الحياة .

ولقد قال عز وجل : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ؟ » وقال : « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ . . فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

وقد كان العرب يعرفون دولة سبأ ، وما كانوا يتقبلون فيه من نعم ، ويعرفون حادثة السيل المشثومة ، التي أثلقت أرضهم ، وخربت ديارهم ، وفرت جمعهم ، وشتتهم في أنحاء الجزيرة العربية ، يطلبون عيشها الحشن ، في رمالها المقفرة ، حتى ضرب بهم المثل ، فقيل لكل جمع يتفرق : « تفرقوا أيدي سبأ » ؛ كان العرب يعرفون ذلك ، فساقه الله عز وجل في هذا المقام الذي قرره ، تحصيلا لعبوته فقال تعالى : « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ : جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ؛ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ » .

وهذا النوع من ضرب الأمثال شائع جداً بين الناس ، وهو من مألوفهم في النصائح والمواعظ ، فلا نطيل بذكر أمثلة له ، ففي حوادث الأفراد والأمم مادة عظيمة لمن يطلبه ؛ غير أنه يلاحظ أنه كلما كانت الحادثة قريبة العهد ، أو حاضرة في الذهن ، كانت أعظم وقعاً ، وأبين عبرة .

ومن قبيل ضرب الأمثال القصص الرمزية ، وهي قصص يضعها مؤلفها ولا يريد ظاهري معناها ، بل يريد معنى مستورا يكشفه بعد الانتهاء منها ، أو يشير إليه قبل البدء فيها ، ونحن نوصي به كثيراً ، فقد يكون الداعية في مقام لا يحسن فيه التصريح ، فيسغه مثله القصص الرمزي بمراده . . . هذا إلى أن فيه طرافة وتجديداً للنشاط النفسى . . . وقد يغرب المؤلف قليلا ، ويظالمك في قصته بشيء

من الأوضاع الشاذة غير المعقولة ، فتعذب القصة ، وتفيض طرافتها حلاوة ، فتقبل عليك العقول بأزمته ؛ فإذا انتهت ، وشرعت تحل العقدة ، وتوضح الرموز ، لمعت الأنوار في العقول والقلوب ، واستفاض الرضى عن معنك في النفوس . . . كيف وقد فسرت الشيء بالشيء ، وأصبح ما كان غير معقول من الأوضاع الشاذة معقولا ، وشاهدا على أن الإنسان يقيم في حياته على كثير من الأوضاع غير المعقولة وهو لا يشعر ؛ فإذا استكشف السامع تلك المناقضة في نفسه ، عجب لحاله ، وكنت أنت له الرائد الموفق في هذا الاستكشاف .

وإننا نسوق لك هذا المثل الرمزي نموذجاً لهذا النوع من ضرب الأمثال بعد التمهيد له بما يأتي :

أكثر الناس يغترون بزينة الحياة الدنيا . فيصرفون إليها جهودهم وتفكيرهم ويجمعونها ، ويثمرونها ، ويستغرق هذا الجمع والتشجير أوقاتهم وعواطفهم ، فلا يفكرون في الآخرة ولا يعملون لها شيئاً ؛ فبينما ترى دنياهم عامرة بالعمل وبالزينة ترى آخرتهم خراباً موحشاً مفزعاً ، وهذا من سوء رأى الإنسان ، وفساد تدبيره ، وغفلته عن مصيره الذى سيصير إليه لا محالة . . . هذا معنى حق ، ولكنك إذا سقته مجرداً كما سقناه الآن ، يكون ضعيف الأثر في قلوب الغافلين . . . ولقد قرأنا هذا المعنى في موعظة لأبى حازم الواعظ الزاهد المشهورة ، فقد سأله سليمان بن عبد الملك فيما سأل : « يا أبا حازم . لماذا نخاف الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم ، والإنسان يفزعه الانتقال من العار إلى الخراب » قرأنا هذا المعنى في هذه الموعظة فكان له أثر عميق في النفوس ؛ ولكن هل ترى هذا الأثر العميق يبلغ عمق الأثر الذى تبلغه القصة الرمزية التالية ، حين تعرض هذا المعنى نفسه ، في أسلوبها الجذاب ؟ .

قالوا : كان من عادة مملكة من الممالك ، أن تولى عليها ملكاً لمدة ما ، سنة أو نحوها ، ولكنهم يشترطون على من يقبل الملك والتعظيم به ، أن يسيروا به في نهاية المدة إلى صحراء مجربة لا ماء فيها ولا زرع ، ثم يجعلونه في هذه الصحراء ، لا طعام معه ولا ماء ، حتى يموت من الجوع والظما ، وفي هذه الصحراء الصامتة الموحشة .

ومر بهم يوماً سائح غريب ، فرآهم في حيرة ، وهرج ومرج ، فسألهم عن أمرهم فقالوا : لا نجد من يقبل أن يكون ملكاً علينا ، لم يقبل ذلك أحد من الوطنيين ولا من الأجانب ، فهل تقبله أنت ؟ فقال الرجل ولم لا ؟ وهل يرفض الملك عاقل ؟

فقالوا له : أنعرف ماذا نشترط على من يتولى هذا الملك ؟ وماذا تكون عاقبته ؟ فقال : وماذا تشترون ؟ قالوا : نشترط كذا وكذا ؛ فهت الرجل ، وسكت قليلا وقال : أو ما عندكم غير هذا ؟ قالوا : هو ذلك فقط .. فأطرق وفكر ودبر ، وكان عاقلا أرييا ، ثم رفع رأسه وقال لهم : قد قبلت ...

أقبل الرجل على مملكته يدير شأنه بسياسته الحكيمة ، ويقيحه على سنة العدل ، ففرح به الناس ، وانتظمت أحوالهم . واتسعت ثروتهم ؛ ولكنه مع ذلك لم يلبه الملك وأبهة السلطان عن مصيره الأسود الذى ينتظره فى الصحراء المقفرة ، فأخذ يعمل جهده لتعمير هذه الصحراء ؛ فأوفد إليها المهندسين ليخططوا فيها حدائق وبساتين وقصورا ، وأرسل إليها العمال والآلات والمواشى وكل ما هو ضرورى لإنجاز هذه المهمة ... وما أسرع ما تم ذلك ، فشقت الأنهار والترغ ، وجرت إليها المياه العذبة ، وغرست الأشجار الجميلة ، وأقبل الفلاحون يزرعون مختلف الزروع ؛ وقام للملك هناك قصر جميل ، وقصور أخرى لمن يحبون الإقامة هناك ، حتى صارت الصحراء بذلك جنة فيحاء .

ومضت الأيام والناس يجهلون ما صنع الملك بالصحراء ، وانتهت المدة ؛ فأقبلوا عليه وقالوا : قد انتهت مدتك أيها الملك ، فتفضل إذا إلى مصيرك بالصحراء ، فأجابهم فى ثقة واطمئنان ، ورضى وابتسام : نعم . . . وعجب الناس لثباته إذ لم يضطرب ، ولم يزغ بصره من الأملع ؛ وساروا به نحو الصحراء وهم فى عجبهم هذا لا يدرون سر اغتباطه وسعادته ، إلى أن بلغوا الصحراء ، فأراعهم إلا البساتين ، والحدائق ، والزروع ، والدور قائمة وسط هذا النعيم البهيج ، فدهش الناس ، وأقبلوا على الملك يسألونه : ما هذا ؟ فقال لهم : إن من تولى الملك قبلى شغلته لذته العاجلة ، عن أن ينظر فى مصيره الذى ينتظره فى النهاية ، أما أنا ، فلم تشغلنى اللذة العاجلة ، عن بشاعة المصير المحتوم ، فدبرت له ما دبرت ، حتى إذا انتقلت ، انتقلت إلى مقام جميل ، فيه النعيم الجزيل .

هناك فرح به أهل المملكة : وقالوا له : أيها الملك العاقل ، أنت الرجل الحكيم الذى لا يصلح أن يتولى أمرنا غيره ، فارجع إلى العرش ، فإننا بك مستمسكون . وإنك لترى فى هذه القصة بعض أمور غير معقولة . تكفل الخيال بتحسينها ؛ كاشتراط أهل المملكة ، على من يتولى الملك ، أن ينزل عنه فى وقت معين ، وأن يصير إلى الصحراء لا محالة ، فهذا من العجب بمكان لا يصدق العقل ؛ ولكن ، ألا

ترى أن كلا منا سوف يترك هذه الحياة الدنيا وزينتها يوماً ما ، في أجل محدود ؟ وأنه صائر إلى وحشة القبر لا محالة ؟ فلم يكون هذا أقل عجباً من حال الملك الذي ينقل من أبهة الملك إلى وحشة الصحراء ؟ ألسنت ترى مطابقة كل حال منها للأخرى ، بما يشرح الصدور ، ويفتح عقل الإنسان على أمور عجيبة ينساق في تيارها وهو غافل عنها ؟ إنه يكشف الغطاء ، ويزيل الغفلة ، فما أحوجنا إلى الكثير منه ! ولسنا نريد أن نمضى في تحليل بقية هذه القصة الرمزية فهي واضحة .

تستطيع أن تجعل الكثير من القصص الخرافية قصصاً رمزية ، إذا أنت أحكمت اختيار ما يطابق مرادك ؛ وقد أعجبني من هذا ما قرأته لتلستوى ، الفيلسوف الروسى المعروف ، فى أحد كتبه . . . فقد حمل على الأغنياء الذين استأثروا بحكم البلاد وخيراتهم ، ومضى يتدفق فى حملته ، ويبين أن هؤلاء المترفين لا عمل لهم فى الحياة ، فهم يعيشون كلا على الطبقة الفقيرة . . . هم الطبقة العاجزة ، والفقراء هم الطبقة العاملة ، ومع هذا فالخير والسلطان لهم ، والفقير والحرمان والذل لغيرهم ؛ ماذا يقدم هؤلاء للحياة ؟ إن الحياة جد وعمل وكفاح ، واستخراج للرزق من شقوق الأرض ، أو من بين المطارق ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد ، ومن عمل أكل من عمل يده ؛ فأى عمل يعمل هؤلاء للترفون وهم يمسون ويصبحون فى أعطاف النعيم ؟ إن أحدهم يقضى نهاره فى الترهل والكسل ، واللهو واللعب ، ويقضى ليله فى العبث والمجون ، والسمر القبيح وغير القبيح . . . فأى شيء من هذا يسمى عملاً ترضاه الحياة ؟ أى شيء من هذا يفلح الأرض أو يطرُق الحديد أو يشمر المال أو يحلب الثروة ؟.. فيا عجباً لهؤلاء الكسالى ! كيف حصلوا هذا المال الوفير ، والخير الكثير والسلطان النافذ ، وهم لا يعملون شيئاً .

إن الحياة ضئيلة أن تمنح خيرها إلا للعاملين . . . ولكل واحد من أبناء الحياة رسالة يؤديها إليها : رسالة من العمل المثمر ، والجهد الإيجابى الذى يدفع عجلتها إلى الأمام ، والقوة التى ينفخها فى كيانها من روحه . . . ثم هى تمنحهم أجورهم بعد ذلك ، مقابل ما يمنحونها من قوة وحياة ؛ تمنحهم بقدر ما يمنحون ، فأكثرهم حظاً منها ، أكثرهم عملاً لها ؛ فما جدوى هؤلاء العجزة على الحياة ؟ وأى رسالة أدوها إليها غير الكسل والقعود ، والعطرسية على عباد الله العاملين ؟ . . . ترى هل اختل قانون الحياة ، فأضحت تمنح العجزة والكسالى ، وتحرم العاملين الدائبين ؟ إن قانون الحياة لا يتخلف ، وليس للعاجز إلا أن يعيش على عطف العاملين

المجدين ، وفضل ما يجودون عليه به . . . إذا فكيف عكست الأوضاع ؛ ففدا
الفقر والعري والجوع والضعف من نصيب العاملين . واتقل المال والأمر والنهي
والتحكم إلى جانب المتبطلين القاعدين ؟

ليت هؤلاء المقعدين إذ قعدوا عن العمل ، وانحازت إليهم الثروات والخيرات
والسلطان ، حمدوا لأهل العمل فضلهم ، ورعوا لهم حقوقهم فأكرمهم وأعزهم ،
وكسومهم وأطعمهم ، ليت ! وهل ينفع شيئاً ليت ؟ إن القوم على عجزهم وعقوقهم
للحياة ، لم يكتفوا بقبول وضعهم الشاذ ؛ فراحوا يلهبون ظهور العاملين المساكين
بسياط الحسك ، ويضيقون عليهم الخناق بقبضة السلطان ، ويحترقونهم ، ويرهقونهم
بما ورثوه عن آبائهم من تكبر وطغيان . . . فلم يبق منهم إلا عيون غائرة ، ووجوه
شاحبة ، وبطون جائعة ، وأجسام مهددة بالتعب والمرض . . . لقد استوى هؤلاء
العجزة والكسالى على أكتاف أهل العمل المجدين ، فاستمرءوا الركوب ؛ وخشوا
أن يلقيهم هؤلاء الضحايا عن كواهلهم ، فأحكموا القبض على أعناقهم ، وهددوهم
إن أبدوا حركة تمرد أن يخنقوهم ، ففضى على هؤلاء التعساء أن يشقوا بمصيبتهم
إلى ما شاء الله . . . !

قال الفيلسوف كلاماً شبيهاً بهذا ، أو قريباً منه لا أذكر نصه ، وحين بلغ هذا الحد
من القول ذكر قصة خرافية من خرافات كتاب ألف ليلة وليلة ، أجاد الاستشهاد بها
فقال : إن مثل هؤلاء العجزة القعدين مع ضحاياهم كمثل ما جاء بألف ليلة وليلة من أن
شاباً قوى البنية ، صحيح البدن ، رحيم القلب . كان يمشى في مرج واسع جميل ، فر
بقزم عليل ، خائر القوى ، مهزول الجسم ، دقيق الذراعين كأنما هما ذراعا قرد ، نحيل
الساقين كأنما هما قطعتا جبل لا تقويان على حمله ؛ فلما بصر بالشاب ناداه ، وأخذ يشكو
له مرضه وجوعه ، ويلين له القول ، ويرجوه أن يحمله إلى مكان عينه له ، لأنه لا يقوى
على السير ، فرق له الشاب ، وحمله على كتفيه ، فما إن استوى عليه حتى لف ساقيه
النحيلتين حول عنقه ، وقال له : أيها الشاب ، عليك أن تحملني الدهر ، تذهب بي
وتجنيء وأنا على كتفيك ، ونمضي إلى الشجر فألقم منها الثمار وأنا على كتفيك ، وترد
بي الأنهار فأشرب من مائها وأنا على كتفيك . . . لا أريحك لحظة ، ولا أعطيك فرصة
ترتاح مني ؛ وحذار أن تحاول التخلص من شأنك هذا ، فإني أخنقك وأقضى عليك
ثم ضغط بساقيه على عنق الشاب ضغطة ذهلتة ، فأطلق صيحة هائلة من حلقه الخنوق ،
وانعقد الدم في وجهه ، وجحظت عيناه ، وجعل يتوسل إلى القزم أن يخلى له سبيل

الهواء ، وله عليه ما يشاء ، بخلافه . وقضى الشاب المسكين وقته يحمل هذه المصيبة على كاهله ، لا يشرب إلا إذا أذن له قزمه ، ولا يأكل إلا ما يفضل له من طعامه ؛ حتى انهد جسمه ، وتعب عيشه ، وصاقت به الدنيا ، وصاحبه لا يبالي ما يصيب هذه المطية الذلول من شقاء .

ومن قبيل ضرب الأمثال ما يضعه الوضاعون من الحكم والحكايات على ألسنة الطيور ، وأنواع الحيوان ؛ وهذا النوع يعظم من شأن الحكمة في نفس السامع ، لصدورها من مصدر لا يجيد من الكلام ما هو حكمة أو غيرها . ولقد حكوا الكثير من هذا نسوق إليك واحدة منه :

زعموا أن رجلا صاد قُبَّرة — والتبَّرت نوع من العصافير — فقالت له : يا هذا ، ماذا تصنع بي ؟ فقال : أذبحك فأطبخك فأأكلك ، فقالت : إني لا أؤمن ولا أعنى من جوع ، خذ لك أن تدعى وأعلمك ثلاث خصال نفيسة ، وهى أجدى عليك من أكلى ؛ فأما الأولى فأعلمكها وأنا فى يدك ، والثانية إذا صرت على هذه الشجرة ، والثالثة إذا صرت على الجبل فقال : هاتى ، فقالت : لا تأسفن على ما فاتك . نخلى عنها ، فلما صارت فوق الشجرة ، قالت إذا : سمعت بأمر لا يقبله منطق العقول فلا تصدق أنه حصل أو سيحصل ، ثم طارت إلى الجبل فقالت : يا شقى ، لو ذبحتني لوجدت فى حوصلى درة زنها عشرون مثقالا . . . « أى ثلاثون درهما » $2\frac{1}{4}$ أوقية فعض الرجل على شفتيه ندما وأسفا ، ثم سكت قليلا وقال : هات الليلة فقالت له : يا مسكين ، لسرعان ما نسيت الاثنين ، فكيف أعطيك الثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تأسفن على ما فاتك ؟ وهما أنت ذا تأسفن على ما فاتك ؟ وقلت لك : إذا سمعت بأمر لا يقبله منطق العقول فلا تصدق أنه يحصل ، أو يكون ، وهما أنت ذا تصدق أن فى حوصلى درة وزن عشرين مثقالا مع أن عظمى ورشى لايزنها .

وهذا يبين لك بعض طباع ابن آدم الذى يستحسن الحكم استحسناء عقليا فقط ، حتى إذا كان فى ميدان التجربة ، والحياة العملية ، غلبت عليه موازين الطمع ، ونسى منطقته وحكمته . . .

ثالثا — الالتفات إلى الآثار

ومن خصائص العقلية العملية ، ذات التفكير الواقعى ، أن تقف على الآثار والأطلال والخلفات ، لا وقوف الجامد الغافل المغلق ، بل وقوف الحى ،

التنبه ، ذى الوجدان المتحرك اليقظ ؛ فيناجى الآثار ، ويستخبرها ما فعل الليل والنهار ، ويكلف خياله أن ينصب سرادق هذه الحياة الماضية ، وأن يقيم معالمها وينفخ الحياة فى أصحابها . . . وأن يقف منهم بعد ذلك بمرصد يرقب حركاتهم ، ويستمع إلى كلماتهم ، وبدرس معاملاتهم ، ويتأمل اضطرابهم بين مختلف العواطف الخيرة والشريرة ؛ فإذا استوى له كل ذلك ، ونبض به قلبه ، وحسب نفسه فى حياة قائمة حقاً ، ذكر أن الدين يراعى الآن ، إن هم إلا أموات قد صاروا إلى البلى ، ومضوا مع الزمن إلى حيث لا يعلم إلا الله . . . فيرق ، ويلين ، ويخضع ، وكأنما انزاح عنه ألف غطاء وحجاب .

أيها الآثار ، حدثينا عن أحبائك ! ماذا كانت قلوبهم وعواطفهم وهم ينشئونك ؟ أكانوا غافلين عن الموت ، سارحين فى لهوهم وآمالهم ، أم كانوا ذاكرين مشعرين فى سفرهم إلى الله . . . ؟

أيها الأحياء ، إن هذه الآثار تخبركم أن أصحابها مضوا إلى غايتهم ، وهم أشد ما يكونون تعلقاً بالحياة ، وإنكم كما سافروا لا محالة مسافرون ؛ فتزودوا لسفركم هذا بتقوى الله عز وجل ، واحذروا أن تسافروا إليه وأيديكم صفر من كل خير .
ليكن الوقوف بالآثار شديداً بهذا أو أحسن منه ، يذكرنا بالحياة والموت — وكفى بالموت واعظاً — ويذكرنا بالله عز وجل ، وما يُجرى من تصاريق القدر على خلقه فى كونه العجيب .

إنك يا أخى داعية ، مهمتك الأولى إيقاظ القلب ، وإحياء مواته ، ومثل هذا الوقوف يصل بك إلى غايتك . . . لا تقف لتدرس هذه الدراسة الجافة ، فنقول : إنهم كانوا يستعملون من أدوات المطبخ كذا وكذا ، وكان لهم من أدوات الزينة كيت وكيت ، وكانوا يقصرون الملابس أو يطيلونها ، ويوسعونها أو يضيقونها ؛ كانوا يحرقون بالحراث الذى نحرث به ، وكانت طقوس عبادتهم تشابه طقوس العبادة عند أمة كذا ، إلى آخر ما يجرى عليه أسلوب الدراسة العصرية ، ثم ينتهى الدرس أو الرحلة ، والطالب مغلق لم يستفد غير رسوم ميتة .

وقد نبئى بمكابر يمارينا بأن الدرس عند العصريين لا ينتهى عند الحائمة الجافة التى نتصورها ، بل يمتد نطاقتها حتى يشمل تصاريق القدر ، وحتى يتقلب النظر بين العابر والحاضر ، استخلاصاً للبرة ، واستحياءً للقطرة ، فنقول له : هذا ما نحب ونرجو أن يكون كذلك إن شاء الله .

ولسنا نقصد آثار السابقين القدماء أو المحدثين فقط ، بل نقصد كل أثر ولو كان أصحابه أحياء ، فأثرى السابقة ، وآثارك الماضية ، وآثار غيرنا من المعاصرين ، في كل منها واعظ يتكلم ، لا يسمعه إلا القلب الذي يريد أن يفهم ويتعلم ، في كل منها سطر من قضاء الله ، يتلو عليك آية من كتاب الوجود المتغير المتبدل ، إذا أصغيت إلى وحيها ، وأحسسته يتخلل شعاب نفسك ، ويرطب جوانبها بخنين الذكرى إذا أصغيت وأحسست ، ثم ترجمته للناس في لباقة وخشوع ، ألفت القلوب ، وأحييت المشاعر ، وأثرت البصائر .

ولست هنا بصدد التحدث عن الوقوف على الآثار لكل من يعنيه الوقوف على الآثار ، بل أورد منه بعض ما يتصل بمهمة الداعية فقط ، فلا تطالبني بكلام جامع مانع ، يشبع الأدباء والشعراء ، ويعجب علماء الآثار ورجال التاريخ ونحوهم فلسنا نحب للداعية أن يدرس قواعد وفنوناً ، إنما نريد له أن يلين قلوباً ، ويشير شجوناً . . . وفيما أوردناه سابقاً إشارة خاطفة ، تشير إلى الطريق .

وقد تعلمنا هذا الوقوف على الآثار ، والتأمل في سطور الأيام والليالي ، من القرآن الكريم ، من الكتاب الجليل ، الذي يشرح لكل داعية إلى الله أفضل وسائل الدعوة إليه عز وجل .

فترى الله يندبنا إلى السياحة في الأرض ، والتأمل في آثار الماضين وذكرياتهم ، فيقول : « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » .

ويرسم لنا منهاج التأمل فيقول : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلَهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

وزيد في العبرة عز شأنه ، فيأمر بصفة خاصة أن تتأمل آثار أولئك الذين أنزل عليهم عذابه ، لما فسقوا عن أمره ، فأهلكهم وتركوا مساكنهم من بعدهم خلاء : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ بِطَرَاتٍ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » وكم في قوله تعالى : « فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ » كم فيه من عبرة تلين القلوب والنفوس .

وتكسر النفوس للحى الوارث الباقي ، فسبحان من يرث الأرض ومن عليها ، وكل إليه راجعون .

ويشير الله إلى المساكن والقصور والآثار ، لكي يقف التأمل وقفة ينجحها ، أو ينجح أهلها الذين عمروها ، ثم خلفوها وراحوا : « فَسَكَّانٌ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبُيُوتٌ مُعْتَطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ، أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا .. ؟ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَسَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ . »

بل إن الله سبحانه ، ليدكر أن هذا التأمل هداية ، وبلغتنا إلى تحصيل الآيات من الديار التي نمشي خلال مساكنها الخاوية الصامته ، فكلم في صمتها من عظة لمن يسمع : أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ .. إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ! ! أَفَلَا يَسْمَعُونَ ؟ » .

ويبين لنا عز شأنه أن هؤلاء الذين أصبحت منازلهم خاوية من بعدهم ما حاق بهم غضب الله إلا لأنهم عاندوا ، ومكروا لإحباط أمره سبحانه ، وإن المؤمنين الذين كانوا يعاشرون هؤلاء ويساكنونهم ، قد أنجاهم بما آمنوا وكانوا يتقون ؛ وهذا أبلغ في العبرة ، وأكمل للموعظة : « وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ، فَتِلْكَ يَبُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا .. إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَلْمُونَ ؛ وَأُنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » .

وأخيراً ترى أن الله عز شأنه ، يجعل هذه الآثار في مقام الوعظ البليغ ، ويجعلها حجة على العاقلين ، حين ينزل بهم عذابه : « وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، نُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ، أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمُ مِنْ زَوَالٍ ؟ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ، وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ، وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ

لِزُلُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ، فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ»
 وكثيراً ما يصرح الله سبحانه بأسماء هؤلاء السابقين وخطاياهم ، فذكر الأثر
 مقروناً باسم صاحبه وخطيئته وعقوبته ، أبعد غوصاً بالموعظة في أعماق القلب ؛ وإليك
 نبأ قوم لوط على سبيل التمثيل : أُرسل لوط عليه السلام إلى أهل سدود (شرق
 فلسطين ، مكان البحر الميت الآن) وقد كانوا يقطعون السبيل ، ويأتون في ناديتهم المنكر
 فكان من أمرهم ، بعد أن أُنذرتهم رسولهم ، أن أمطرهم الله مطر السوء ، وزلزل
 الأرض بديارهم ، فجعل عاليها سافلها ، وظلت آثارهم باقية ، نقص نبأهم المعتبرين . . .
 وفيهم يقول الله عز وجل : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْ تَوَسَّمٰى » ، نعم في ذلك آيات
 للمتوسمين ؛ وأى آيات . . . كم يقرأ تلك القصة قارئ من المجريين ، فيداخله
 الشك والعياذ بالله في صحتها ! فاعلم يا أخى أن ذلك حق كل الحق ، وفيه العبرة كل
 العبرة ، فقد دمر الله هذه القرية بما أمطر عليها ، وبما زلزل بها ، وفي مكان هذا
 الزلزال انشقت الأرض فحدثت البحيرة الصغيرة التي تسمى الآن بحيرة « لوط » أو
 « البحر الميت » وهي تسمية قديمة ؛ فهؤلاء الصرعى تحت أنقاض قريتهم ، سرى اسم
 الموت منهم إلى البحر الذي غمر أما كنهم بمائه ، وظلت بقايا الأنقاض على شاطئه ،
 تطالع المارين بما كان من أحداث خطيرة في تلك القرون الخالية . . . قال الإمام
 ابن كثير^(١) في تفسيره : إن الله أهلكهم بأنواع من العقوبات ، وجعل محلتهم من
 الأرض بحيرة منتنة قبيحة للنظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مقيم ، يمر بها
 المسافرين ليلاً ونهاراً . . . ويقول أستاذنا العلامة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار
 في كتابه قصص الأنبياء طبعة سنة ١٩٣٢ ص ٩٣ : وأعتقد أن البحر الميت المعروف
 الآن ببحر لوط أو بحيرة لوط ، لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث ، وإنما حدث من
 الزلزال الذي جعل على البلاد سافلها ، وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعائة
 متر . . . ثم التفت إلى ما يقوله الأستاذ بعد ذلك رحمه الله . وقد جاءتنا الأخبار
 في السنتين الماضيتين « سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ » بأنهم اكتشفوا آثار مدن
 قوم لوط على حافة « البحر الميت » وصدق الله العظيم ، « إن في ذلك
 لآيات للمتوسمين » .

ولقد أظننا بعض الشيء ليقوى يقين المؤمن بما يقول الله عز وجل شأنه ، وزول
 شك الضعيف الملحد . . . والآن فلنمض في سبيلنا الذي رسمه الله لنا من التأمل في

ديار هؤلاء الهالكين ، فكان العرب يرون هذه الديار المدمرة في سفرهم إلى الشام ،
ذهابا وإيابا ، قال عز شأنه : « وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ،
أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ؟ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا » . . « وَإِنَّ لَطُوطًا لَعِنَ
الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ تَجَنَّبَا وَآهَلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَايِرِينَ ، ثُمَّ دَبَرْنَا
الْآخَرِينَ ، وَإِنَّا لَنَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ، وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ » . . .

وحادثة لقوم آخرين ، نسوقها على سبيل المثال أيضاً : هي حادثة قوم عاد ، أصحاب
الأحقاب في جنوب جزيرة العرب . فقد أهلكهم الله بالريح العقيم ، « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ ، وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَفَرَى الْقَوْمُ فِيهَا صَرَغِي ، كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ
نَخْلٍ حَاوِيَةً ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ؟ »

لم يبق من هؤلاء البائدين إلا مساكنهم ، كانت تترامى للعرب الرحل والمسافرين ،
ولكنها طمرت الآن تحت الرمال ، بما سفت عليها السواقي ، فلعل الله يقيض لها من
يكشف عليها ، قال عز وجل عن العذاب الذي أرسله عليهم : « فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا
مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ ، قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا . . . بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ،
رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ، فَاصْبَحُوا لَا يَرَى
إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ » وهذا شاهدنا من الآية : « كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ »
ولقد خاطبنا الله عز وجل بما يصح أن نخاطب به نفوسنا في كل وقفة على مثل هذه
الآثار ، فقال : « وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا إِنَّا مَسَكِنًا كُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا
وَأَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كَانُوا
يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » ويقول عز وجل بعد
هذا بقليل تكميلاً للعبارة : « فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ؟
بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ، وَذَلِكَ إِنْكَامُهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْقِلُونَ » .

أرأيت يا أخى هذا النهاج الكامل ، الذى يقرره الله ليكون دستورنا في النظر
إلى الآثار ؟ أرأيت منهاج مثله يحيط بأطراف الموضوع وخطواته هذه الإحاطة ؟ لقد

سنة الله لسيد الدعاة ، ولكل داعية من بعده ، فكان عليه السلام يرى أن الوقوف على آثار الظالمين دون تأمل تمور به نفس الإنسان فيخضع قلبه ، وتتدى عيناه . . . يرى أن الوقوف الجامد الخالي من العبرة ، يجلب سخط الله وغضبه ؛ وهذا من صميم الحق ، فلا نطيل بشرحه والبرهنة عليه ، فتأمل فيه ينكشف لك وجهه . . . وكان عليه السلام يستن بهذا السنن الإلهي ، ويعلم أصحابه كيف يقفون على الآثار .

خرج عليه السلام إلى غزوة تبوك ، وفي الطريق إليها تقع مدائن صالح أو ديار ثمود ، وهي بيوت منحوتة في الصخر ، كما ورد في القرآن الكريم ، ونحن نعرف شأن هؤلاء ، قبل أن يبعث إليهم صالح عليه السلام ، وبعد أن بعث ، ونعرف عصيانهم لنبيهم وتمردهم على حكم ربهم ، حتى أرسل عليهم صاعقة ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جامعين .

ولما اقترب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ديار ثمود — وهي لا تزال ظاهرة إلى اليوم — ثارت ذكرى الظلم والظالمين بنفسه ، وهي ذكرى بغضة ، فسجى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته ، وقال : « لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون ، خوفا أن يصيبكم ما أصابهم » .

ولسنا نرى وصفاً أبلغ في الدلالة على الوجدان المرهف ، والطبيعة الحية ؛ بل لسنا نرى عملاً أعظم دلالة على حساسية الشعور من فعله صلى الله عليه وسلم ، « سجى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته » .

إن التعاليم حية ، بل حارة قوية في قلبه عليه السلام ، فهو غير محتاج إلى مشهد ينبه قلبه ، حاشاه . . . إن المشهد يقع من قلبه صلى الله عليه وسلم كما يقع المشهد من عين أحدنا ؛ فانظر إلى السرعة الحافظة ، التي تدرك بها عينك جمال الشيء أو قبحه ، فتنتشرح له في الحال أو تسمثر . . . وانظر إلى السرعة الحافظة ، التي ترى بها وجه حبيبك فتنبسط إليه ، أو وجه عدوك البغيض فتقبض لنفورك منه . . . وليس أبعض إلى قلب رسول الله من وجه الظلم والظالمين . والكفر والكافرين ، فما إن وقعت عين رأسه ، وعين قلبه ، على مشاهد ثمود ، حتى ثار وسخط ، واستعاذ بالله ، وسجى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته . . . فيالله لهذه النفس الحية ، البالغة ذروة الحياة والإحساس .

ولسكن أصحابه ليسوا كهيئته صلى الله عليه وسلم ، فهم محتاجون إلى التذكير ، وهو يخشى عليهم أن يلفتهم الإعجاب بهذه البيوت والقصور المنقورة في الصخر ، عن

العبرة والتأمل ، فتقسو قلوبهم ، فإذا قست ، كانوا أهون شيء على الله وعلى عدوهم . قال لهم : « علام تدخلون على قوم غضب الله عليهم » ؟ فناداه رجل فقال : نعجب منهم يا رسول الله ؛ فقال عليه السلام : « ألا أنبئكم بما هو أعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم ، وما هو كائن بعدكم . . . استقيموا وسددوا ، فإن الله عز وجل لا يعاب بعذابكم شيئاً ، وسيأتي الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً » ، وأهاب بهم جميعاً : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذيين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، لا يصيبكم ما أصابهم »

والحق يا أخى أن هذا تعليم سام جداً ، فإن الأثر العجيب إذا كان لظالم وأعجب به الإنسان : فقد أعجب بالظلم من حيث لا يدري ، وأدخل على قلبه الفساد والجحود وهو لا يشعر ؛ وما الإنسان إلا قلبه الحى ، وضميره النير الذكى ، فإذا فقد ، هان شأنه فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً ؛ فانظر يارعاك الله إلى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على حياتنا ، وبقطة بواطننا . . .

يا قوم : من يريد الحياة فليتعلم أسرارها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والالتفات إلى العهود السابقة وما كان للمرء فيها من ذكريات ، أمر من طبيعة الإنسان ، فلنوجه هذه الطبيعة وجهتها النافعة . . . فإذا ذكر هذه العهود أو أماكنها فليجعل الذكري حياة لقلبه ، ورجوعاً إلى ربه . . . فإذا كانت خيراً فهي خير ، وإن كانت شراً وفسوقاً ومجانة ، اعتصر الخير منها أسفاً وتوبة ، وكان منها له حياة . . . وإن كانت لا من الخير ولا من الشر ، فليقارن بين حاله اليوم وحاله بالأمس ، ثم ليخرج منه بعبرة .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، رعى وهو صبي إبل أبيه الخطاب ، فى بعض شعاب مكة ، وكان عمر الصبي يرى نفسه حيناً على أبيه ، لأنه كان غليظاً عليه يؤذيه ويتعبه . . . ودارت الأيام ، وانبثق نور الدعوة المحمدية ، ودخلها عمر ، ثم هاجرت الدعوة إلى المدينة ، فانتقل إليها عمر . . . ودارت الأيام والأعوام أيضاً ، وانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرقيق الأعلى ، وأبو بكر من بعده . . . ودارت الأيام دورة ثالثة ، فإذا الإسلام مبسوط الرقعة مرفوع الراية نافذ الكلمة ، وإذا عمر سيد الناس جميعاً ، وأمير المؤمنين ومدبر أمرهم بعد صاحبيه . . . ونسى عمر شعابه القديمة والإبل التى كان يرعاها هناك . . . وذهب مرة إلى مكة للحج فى رفقة من أصحابه ، فإذا به فى إحدى جولاته ، يرى نفسه فى هذه الشعاب ، وإذا بقلبه الذكى المرهف يقف فجأة ،

ويتذكر عهود صباه في هذه المرامي المجيدة ، ويذكر ما كان من شأنه للمعمور بين أقرانه
الرعاة المعمورين ، وما صار إليه اليوم من علو السلطان ، ونباهة الذكر ؛ فيعجب
لتصريف الله التي تقلبت به بين الأمس واليوم هذا القلب ، ويصل به العجب إلى عمق
العبرة ، فيقول لصحبه : « لقد رأيتني في هذه الشعاب أرمي إبل الخطاب ، وكان
غليظاً يدثبني .. ثم أصبحت وليس فوق أحد . » ولا يجد تصويراً يصوغ به مشاعره
الرطبة إلا أن ينشد هذا البيت من الشعر :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد

من هذا يأخى ترى ضرورة الحرص على الاستفادة من ذكر الآثار ، واستحضار
الذكريات ؛ ونسأل الله توفيقاً في ذلك ، نبليغ به ما نريد ، فإنه يحتاج إلى فطنة وكياسة
وطبع حي متأثر .

رابعاً - النظر إلى صور المعنويات ، وآثارها المحسوسة ، وأوصافها

وهذا مظهر رابع لحصائص العقلية العملية ، التي تخاطب الناس بلغة الواقع ، فعلى
الداعية حين يتكلم عن الفضيلة والرذيلة ، والخير والشر ، والحق والباطل ، وما إلى
ذلك ، أن يتجنب ما وسعه التجنب تحليل هذه المعنويات ، والتكلم عن معانيها التجريدية
وفلسفتها النظرية ؛ وأن يكف عن الجري وراء الفروض والتخمين ، وأن يكتفي
بتناول صور هذه المعنويات ، وآثارها العملية ؛ فذلك هو الذي يراه الناس ويعقلونه ،
وهو الذي يحسه الناس ويتأثرون به ، وهو الذي تتقرر به عواقبهم في دنياهم وأخراهم .
أما أن نصدع رءوسهم بالبحث عن الأخلاق مثل : ما أصلها ، وكيف تكونت ، فهذا
ما لا شأن لعامة الناس به ، ولا يتوقف عليه نفع لهم في الدنيا ولا في الآخرة .. فحسبهم
من الخلق الأصيل أن يروا حسن أثره في القلب ، وطيب ثمره في عالم الواقع .

ونحن نتعلم هذا من القرآن الكريم ؛ فانظر مثلاً حين أراد الله عز وجل أن
يتحدث عن صفات فاضلة ، تخلق بها قوم فاستحقوا رضاه ، لم يذكر أصلها وفصلها ،
كما تذكر كتب الأخلاق ، بل سن لنا ذلك السنن الواضح ، الذي يفهمه كافة
الناس ، فأظهرها لهم في صورة عملية واقعية ، فقال : « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ
يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ
لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا

كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاعَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا
وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . . . وَالَّذِينَ
لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
لَمْ يَحْزِنُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا
وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا
وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا »

وإنك لا ترى في هذا الكلام للشرق ، شيئاً يكبد الذهن ، أو لفاً ودوراناً يورث
السأم والملل ؛ بل تراه كثير المعاني ، سامي الحقائق ، شديد الظهور ، يزاحم ضوء
الشمس في الوضوح والجلال ، حتى ليخيل للجاهل أنه ليس شيئاً لقربه من البديهة ،
وهو في الحقيقة كل شيء في بابه .

ولست أريد أن أحلل هنا هذا السياق الجميل ، الذي تجلّت فيه هذه الفضائل تجلّياً
عملياً ، في مشية أصحابها ، وكلامهم ، وصلاتهم في ليالهم ، ومناجاتهم لربهم ، والقصد في
معيشتهم ، والكف عن العدوان والشهوات المحرمة . . إلخ ولكي أريد أن أنس على
أن هذا السياق ، له من قوة التأثير ما ينهض الإنسان ، ويحمله على الاقتداء بهذه النثل
العملية الفاضلة . . وذلك من أسرار الإعجاز ، التي لا طاقة للعقول بالتحديق في آفاقها ،
فضلا عن سبر أغوارها وأعماقها . . .

وطبيعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أشرب هذا التعليم الحكيم ، وطبع
على هذا المنهج القويم ، فلم يعمد في تعليم أصحابه إلى أنواع الفروض والتخمين ، بل سار
على النهج العملي الذي سنّه الله تعالى . . .

ومن طرقه عليه الصلاة والسلام في هذا ، أن يشير إلى الهيئّة الظاهرة للعيان ،
أو يقف عليها ويستنبط منها ما يريد ؛ ومن أمثلة ذلك ، أنه كان يكرر في أحاديثه المعنى
السامي ، الذي يدور حول تقدير الرجال بقيمهم النفسية ، لا بصورهم الظاهرية ، وكان
يقرر هذا تقريراً عملياً يبلغ به قرارة اليقين ، ويطيب له خاطر الفقير والمسكين . . .
مر به يوماً رجل ، فقال لرجل عنده جالس معه : ما رأيك في هذا ؟ فقال : رجل من
أشراف الناس ؛ هذا والله حريّ إن خطب أن يزوّج ، وإن شفع أن يشفع .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم مر رجل آخر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيك في هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، هذا رجل من قراء المسلمين ؛ هذا والله حري إن خطب ألا زوج ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال لا يسمع لقوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا » .

ونلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يختار للمقارنة رجلين متماثلين في المظهر فقراً أو غنى ، ولو أنه فعل وقارن بين فقيرين ، ثم حكم بأفضلية أحدهما على الآخر ، لكانت المقارنة كافية لتثبيت المعنى ، وكذلك لو قارن بين غنيين ؛ ولكنه عليه الصلاة والسلام قارن بين غنى خبيث باطنه وحسن ظاهره ، وبين فقير طاب باطنه وهان مظهره ؛ وتلك من اللفظات النبوية الدقيقة ، التي من شأنها أن تظهر تلك المفارقة الشاسعة بين هذين الطرفين . . . وقال في هذا المعنى يوماً لأبي ذر : أنرى كثرة المال هو الغنى ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : فترى قلة المال هو الفقر ؟ قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : « إنما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب » . . فهذه أسئلة ألفها الرسول على أحد تلاميذه ، وقد أجاب التلميذ على قدر ما يعرف ، فذكر له المعلم الأعظم صلوات الله عليه ، الحكم الصحيح في الغنى والفقر ؛ ولكن أراه اكتفى بهذا ؛ لا ، بل إنه مضى في أسئلته الحكيمة المثيرة لرواكد النفس . . قال أبو ذر : فسألني عن رجل من قريش ، هل تعرف فلانا ؟ قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : فكيف تراه ؟ قلت : إذا سألت أعطى ، وإذا حضر أدخل ؛ قال : ثم سألتني عن رجل من أهل الصفة ^(١) . فقال : هل تعرف فلانا ؟ قلت : لا والله ، فما زال يحليني ويبتعته حتى عرفته ، قال : فكيف تراه ؟ قلت : هو رجل مسكين من أهل الصفة ، قال : « فهو خير من طلاع الأرض من الآخر » .

وفي كتب السنة ما يفيد أن هذه المقارنة تكررت بصور مختلفة لتقرير هذا المعنى نفسه .

ومما يمثل به لما نحن بصدد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق يوماً ، والسوق هو الدنيا مصغرة ، هذا يبيع ، وهذا يشتري ، وذاك ينادى على سلعته ، وآخر مقبل ، وغيره مدبر ، ولكل امرئ شأن يغنيه ، فهذا يحدث نفسه بريح ، وذلك يتعنى أن يظفر بسلعة رخيصة . . فأراد عليه السلام أن يبين لهم قدر الدنيا التي أقبلوا عليها هذا الإقبال ؛ وكانوا قد علموا من قبل أن متاع الدنيا قليل ، وأنها

(١) الصفة : جانب من جوانب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقم به فقراء المسلمين الذين لا مساكن لهم .

لا تزن عند الله جناح بعوضة ، ولكن هذا تعليم يقرر القواعد والأحكام العامة تقريراً تجريدياً ؛ فأحب عليه السلام أن يقرره اليوم لهم عملياً ، وهم في زحمة الدنيا ، ووسائل الإيضاح بين أيديهم . . . مر عليه السلام وهو بالسوق يتحدث أسك (١) ميت ، فقال لمن حوله : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ! وما نصنع به ؟ قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً لكان عيباً فيه أنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : « والله ، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » .

وكما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم المعنى السابق في أساليب متعددة من المقارنة العملية ، قرر هذا المعنى بالوقوف مرات متعددة على مثل هذه المناظر التي تعافها النفس . ومن طريقه عليه السلام في تجلية المعاني الدقيقة الخفية ، أن يلفت النظر إلى ما لهذه المعاني من آثار محسوسة في القلب ، لا تخفى على الإنسان . . .

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما الإثم ؟ وما الإيمان ؟ وما البر ؟ . . . هذه أسئلة عن معان دقيقة خفية ، يطلب بها أصحابها تعريفاً وافياً عن حقيقة ما يريدون ، فهاذا أجاب الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

تري لو سئل عن ذلك أحد الفلاسفة ، أو أحد حملة الإجازات العليا من الجامعات الكبرى ، فبأي شيء كانوا يجيبون ؟ . . . أما حامل الإجازات العلمية فكان يذهب إلى بطون الكتب ، ليستخرج منها أقوال العلماء ، ويقارن بينها ويفاضل ، ثم يخرج لك بحث يظنه يرضى ويشفي ؟ وأما الفيلسوف فيعرفه لك تعريفاً تجريدياً ، يزيد الأمر غموضاً عليك ، وقد يفضل فيملاً الأفق من حولك تحليلات وتعليقات ، وفروصاً وتخمينات ، مما يخرج منه وأنت تشعر كأنك لم تتصل بشيء . مما سألت عنه ، بل وأنت نادم على أنك سألت . . . ولكن انظر يا أخى إلى إجابة سيد العارفين ، وقدره المعلمين صلى الله عليه وسلم :

الإثم : « إذا حاك في نفسك شيء ، فدعّه » . . . « الإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطالع عليه الناس » .

الإيمان : « إذا ساءت سميتك ، وسرتك حسنتك ، فأنت مؤمن » .
قال وابصة بن معبد : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا لا أريد أن أضع شيئاً من البر إلا سألت عنه ؛ فقال لي : اذن يا وابصة ، فدنوت منه ، حتى مست ركبتي ركبتيه ؛ فقال لي : يا وابصة ، أخبرك ما جئت تسأل عنه ؟ قلت : يا رسول الله أخبرني

قال : جئت تسأل عن البر والإثم ؛ قلت : نعم نجتمع أصابعه الثلاث ، وجعل ينكت بها في صدري ، ويقول : « يا وابسة ، استفت قلبك : البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ؛ والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفوك » .

وما أحب أن أعلق هنا بشيء ، لأنني أريد أن تسائل نفسك عن مبالغ رضاك ، واطمئنانك إلى سداد هذه الإجابة ، التي تصل بينك وبين هذه المعاني بصلات قلبية وثيقة ... فعليك يا أخى بهذا النهج الفطرى العملى ، فإنه نهج يُعرض عن كل ما لا تأثير له في الموضوع ، ويتناول ألوان الأحاسيس التي هي ثمر ذلك كله ، والتي ينبعث الإنسان بقوتها إلى البر أو الإثم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « في القلب لِمَتَان : لمة من الملك ، إبعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه ، وليحمد الله ؛ ولة من العدو (الشيطان) ، إبعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، ونهى عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعد بالله من الشيطان الرجيم ؛ ثم تلا قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم »

جزى الله عنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو أهل له ، بل ما الله أهل له . أى نفس هذه يا أخى ! ؟ ... اقرأ الحديث ، بل اقرأ كل ما سبق من أحاديث ، وخبرنى : ماذا أراد لنفسه منا ؟ إنها كلها لنا ، فقد وقف حياته يعلمنا ويظهرنا ، ويذود الشيطان عنا ، ويحرص على سعادتنا ، ويقول في صدق وحنان : « إنما أنا منكم كالوالد من ولده » ماذا أخذ رسول الله لنفسه ؟ لقد خرج من الدنيا ودرعه العزيزة مرهونة عند يهودى على حفنات من شعير ... !

لا نقرأ إلا تعاليم للحقائق ، وتوجيهاً للخير ، وإيقاظاً للمسكات القلوب ، ونلح من خلال ذلك ومن وراء ذلك — قلباً يفيض حناناً ، ورحمة ، وحرصاً على سعادتنا حرصاً عميقاً نشهده في كل كلمة ، ونحسه في كل عمل ، كأشد ما يستغرق الرجل في خير أبنائه . صلى الله عليك يا رسول الله صلاة دائمة وسلم تسليماً كثيراً ... !

ونقول مرة أخرى : أى نفس هذه ... ؟ ! إنك تراه يا أخى يعلم هذا التعليم العجيب وهو يحرص على تحذيرك وتنبيهك . فللقب جانبان ، في كل جانب لمة — واللة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن مسترسلاً إلى اللبك ليقترب منه — إحدى اللتين بيد الملك ، والأخرى بيد الشيطان . فهما يتجاذبان القلب من هاتين اللتين ، ولكل

جذبة منهما خواطر في الصدر ؛ فجذبة الملك تبعث خطرات الخير وتصديق الحق ياذن الله ، وجذبة الشيطان تبعث خواطر الشر وتكذيب الحق والشك فيه . أرأيت يا أخى هذا التنبيه العجيب وهذا التعليم السديد ، الذى يحيلك إلى أعماق نفسك ، ويلفتك إلى الانتفاع بتحليل خواطرك ؟ فمن وجد خواطر الخير فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله عليه ، ومن وجد خواطر الشر فليفر إلى الله مستعيذاً به من الشيطان الرجيم : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

وإننى يا أخى أدعوك معى إلى الاستغراق فى الإعجاب التام بجمال التعليم ، وبجمال الرحمة فى قلب النبي صلى الله عليه ، فرحم الله عبداً أدام الإصغاء إلى هوائف قلبه ، فما كان من هوائف الخير استجاب له وأمضاء وأنفذه ، وما كان من هوائف الشر قمع بالمجاهدة والتطهير والفرار إلى الله سبحانه وتعالى .

وصف هذه المعانى بأقرب أوصافها العملية التى تبين أو تمثل حقيقتها ، على أن يكون هذا الوصف مرغباً أو منفراً ... فالذى يسأل الناس مثلاً إنما يريق ماء وجهه ، وأكرم شئ على الإنسان وجهه ، فانظر كيف يصور رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة تصويراً يصد عنها وينفر منها .. قال عليه الصلاة والسلام : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى تلقى الله تعالى ، وليس فى وجهه مزعة ^(١) لحم » وقال : « إنما المسائل كدود ^(٢) يكدح بها الرجل وجهه ، فمن شاء أبقي على وجهه ومن شاء ترك » . وقال على كرم الله وجهه : قلت للعباس : سل النبي يستعملك على الصدقة — أى من الأمراء الذين يشرفون على جبايتها ويأخذون أجراً عليها — فسأله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما كنت لأستعملك على غسالة ذنوب الناس » ، وهذا الوصف حق ، توصل إليه النبي عليه السلام بملاحظة معنى قوله عز وجل : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا »

وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل ينام كل الليل حتى يصبح ، فقال : « ذلك رجل بال الشيطان فى أذنه » .

وذلك أن الذى لاتحذنه نفسه أن يقوم من الليل ، فيصلى ، ويستغفر ، ويدعو الله عز وجل ، إنما هو رجل غافل ، محجوب عن حقيقة الخير ، جاهل بأوقات المغانم ؛

رجل يسخر به الشيطان ، ويبول في أذنيه الفارغتين ، استهزاء بغفلتهما عن نداء الله في الثلث الأخير من الليل : « هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ .. » إلى آخر الحديث القدسي المعروف . . فنعوذ بالله من الغفلة عن ذكره بالليل والنهار .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الجمعة — أى صلاتها — حج المساكين » ، وهو وصف صادق يلم بحقيقة الجمعة من هذا الوجه خير إمام ، فالمساجد بيوت الله ، والسكبة المشرفة بيته عز وجل ، ولكنها تمتاز بأنها أعظم البيوت قدراً وبركة . : فالحج إلى المساجد يوم الجمعة لزيارة الله ، كالحج إلى زيارته عز وجل في بيته المعظم ، مع مراعاة أن الفرق بين حج المساجد وحج البيت الأكبر ، كالفرق الشاسع بين حرمة هذه المساجد العادية وحرمة بيت الله الحرام . . لكن الله عز وجل بفضل وكرمه يطلع على المساكين من عباده ، الذين تقعد بهم حالهم عن الحج الأكبر ، فيكتب لهم عن كل جمعة يؤدونها ثواب حجة كاملة ، فطوبى للمساكين ، عيال الله في الأرض ، وأولى الناس برعايته وحمايته ، فاللهم ارحمنا برحمتك إياهم ، واجعلنا منهم ، واحشرونا في زميرهم تحت لواء رسولك الكريم .

ومن حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارتعوا في رياض الجنة ! قالوا : وأين رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر . . . فاغسوا وروحوا في ذكر الله ، وذكره أنفسكم » .

وقد قدمنا في كلمة سابقة أن ذكر الله تفحات تنزل من رياض ملكوته ، تعجل للانسان أرواح الجنان وهو في قرارة الدنيا ، وكان بعض الصالحين يقول : من أحب أن يستوطن الجنة وهو في الدنيا ، فليستوطن مجالس الذكر ؛ ويقول بعضهم في هذا : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة . وهذا كله مأخوذ من الوصف الحقيقي الذي أبان به عليه السلام حقيقة الذكر .

ويقول عليه السلام : « إن المؤمن يُضَيُّ (١) شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في السفر » وما نرى وصفاً أصدق ولا أبين من هذا الوصف ، الذي بشرح اجتهاد المؤمن في سفره إلى الله عز وجل ، فإنه سفر يبادر فيه بالطاعات ، والباقيات الصالحات ، ويتحصن فيه بدوام الذكر ، فلا يجد شيطانه فرصة لا قبض على عنانه ، وتحويله عن غايته . ولكل إنسان شيطان يلزمه من مولده إلى مماته ، كما يقول عليه السلام ، وشيطان المؤمن الجاد في سببه ، يلهث من وراء صاحبه حتى يلحظه الضنى والهزال ؛ وليس أطيّب لقلب المؤمن من هذا الوصف ، ولا أبعث منه على مضاعفة الجِدِّ والحذر .

(١) يضنيه ويلحق به الهزال .

هذه يا أخى أحاديث تتناول وصف بعض الرذائل ، ووصف بعض الفضائل ، سقناها على سبيل التمثيل لأسلوب الدعوة إلى الله ، وهو الذى وضعناه عنواناً للمظهر الرابع من مظاهر العقلية العملية ، فى صدر هذه الكلمة . وهى أوصاف كما رأيتموها تمتاز بميزتين أصليتين : الصدق التام فى بيان الحقيقة ، وإثارة شعور البعض أو الرضى إثارة قوية تنفر من الرذيلة ، أو تستحث الهمة إلى الفضيلة ؛ وحذار يا أخى أن تظن أن هذه أوصاف وضعت كيفما انفق ، بقصد الترهيب والترغيب فقط ، هيئات هيئات إن هذا شأن البشر العادى ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا ينطق عن الهوى ، ولا يحدث إلا بميزان ، فهو الوصف الصادق الذى يقتضيه الحقيقة ، ويضعها بين يديك .. وحذار مرة أخرى ، أن تظن فى هذه الأوصاف شيئاً من إرادة التمثيل والمجاز ، كما يظن بعض ضعاف العقول أحياناً ، فإن مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من جلالة القدر بحيث ينتهى مثلى ومثلك ومن هو أكبر منى ومنك عن أن يقتحم حرمة ، فيؤول كلامه ، ويصرفه عن ظاهره بغير موجب ؛ ولو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الظاهر من لفظه ، لكان فى التشبيه ، وضرب الأمثال ، وأنواع الاستعارات ، وغير ذلك من ألوان البيان العربى ، ما فيه الكفاية لبيان مراده . وقد ساق رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من مراده فى تشبيهات ، وضرب أمثال ، واستعارات وكنائيات ، حين رأى المقام يقتضى ذلك ؛ فكن على هذا يا أخى فى تفهم كلمات الرسول ، وتفهم كلام الله عز وجل ، فهو أبقي على عقيدتك ، وأئزله لعرضك ودينك .

أقول هذا ، حتى لا يترك أحدنا لنفسه الجبل على الغارب ، فيصف الفضائل بما يشاء من الأوصاف الحسية التى تخلو فى بيانه الصناعى ، ويصف القبائح بما يرضاه الفن الدارج .. لا ، إننا نصف الحق ، فعلياً أن نستقى هذه الصفات من المصدر الذى تعلمنا منه الحق .. الكتاب والسنة ؛ فإذا عدوتهما لحفك الخطأ ، وظهر التناقض فى كلامك بعد قليل .. هذا شأن الورعين فعليك به ، والزم منهاجهم فى كل وصف تريد أن تقرب به حقيقة من الحقائق إلى أفهام الناس وقلوبهم .

ولنضرب لك مثلاً من كلام السلف تنسج على منواله ، إن شاء الله ؛ فمثلاً يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : شيطان المؤمن مهزول ؛ وهو وصف يأخذ من معين الحديث الذى سقناه منذ قريب .. ويقول فى هذا المعنى نفسه قيس بن الحجاج : قال لى شيطانى : « دخلت فىك وأنا مثل الجزور^(١) فصرت الآن مثل العصفور ، قلت :

(١) الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى .

ولم ذاك؟ قال تذيبني بذكر الله . . . فهي محاورة تصور ما بين المؤمن وشیطانه ، بحيث لا تعدو ما أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك .

وهالك مثلاً آخر ، وهو يأخذ من معنى الحديث الذى يصف الصدقات بأنها غسالة ذنوب الناس .

قال أسلم مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما : قال عبد الله بن الأرقم : دلى على بعير من العطايا ، استحمل عليه أمير المؤمنين — أى يطلبه من أمير المؤمنين ليحمل عليه أثقاله ويقضى مآربه — قال أسلم : فقلت له : نعم ، هذا من إبل الصدقة . . . وهنا عف عبد الله بن الأرقم عن هذا الجمل ، لأنه كان يرجو جملاً من الغنائم ، أو بما شرى أو حبس للصالح العامة ، فقال لأسلم يصور له زهده فى جمل الصدقة : أحب لو أن رجلاً بادناً فى يوم حار ، غسل ما تحت إزاره ورفقيه ^(١) ثم أعطاكه فشربه ؟ قال أسلم : فغضبت ، وقلت : يغفر الله لك ، لم تقول لى مثل هذا ؟ قال : فإنما الصدقة أوساخ الناس يغسلونها عنهم .

هؤلاء يا أخى كانوا ينظرون إلى كلام رسول الله بالمنظار المكبر ، أستغفر الله ، بل بالمنظار الذى يرى المعانى على حقيقتها كبيرة عظيمة ، منظار القلب المتدبر الواعى ، ثم يأخذون من قلوبهم ما يشاءون ، فيتصرفون فيه على ما رأيت .
وقد يأتى شئ من هذا القبيل فى باب مصادر الداعية إن شاء الله تعالى ؛
جمعنا الله وإياك على الحق الذى اجتمعوا عليه إنه قريب مجيب !

خامساً — مقابلة الخفايا المغيبة بأحوال ربنا العملية :

قد وصف الله لنا أحوال الجنة والنار ، ووصف الحساب والميزان ، ووصف عرض الناس عليه ، وما يكون من حسرة يومئذ وندامة ، ووصف زلزلة الساعة وما لها من هول شديد ، وتحدث عن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، ووصف العرش والكرسى ، وذكر اللوح والقلم ، وذكر غير ذلك من حقائق لاشك فى وجودها ؛ ولا شك فى أننا لا نستطيع أن نبصرها أو نحسها لأننا لم نجهز بالمدارك التى تدرك هذه الحقائق العليا ، كالذى يولد فاقد حاسة الشم مثلاً ، فلا يستطيع أن يجد ما للعطر والسك والزهر من ريح طيب ، لأنه لم يجهز بالحاسة المختصة بإدراكه ؛ فإذا أراد الله عز وجل أن يطلع أحداً من خلقه على شئ من هذه المغيبات ، كان ذلك بغير

حواسنا العادية . . . يرفع عنه الحجاب فيرى ما شاء الله أن يرى : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا » .

وقد جاءت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مفصلة لما أجمل القرآن الكريم من هذه الحقائق الغيبية .

وهذا باب خطير ، لو أحسنا عرضه على الناس حتى أحسسته قلوبهم ، ومثلته نفوسهم ، لأنقذنا الإنسانية من شر مستطير ، ولفتحنا لها بإذن الله أبواباً تنفذ منها إلى سعادة الدنيا والآخرة ؛ فإن الناس أصيبوا بالغفلة عن معادهم ، وكثير منهم أصيب بالشك فيما بعد الموت من حياة وحقائق ، وأصيب بغير ذلك من إنكار الجن والملائكة وكل ما يقال عنه إنه وراء المادة ؛ وهذه الآفات التي أدركت أكثر الناس حجبهم عن خير كثير ، أو عن الخير كله ، وجعلتهم لا يؤمنون إلا بالمادية المادية وما فيها من المتاع الأدنى ؛ فهم يتنافسون فيها كالمساعير ، ويتقاتلون عليها كالجهانين ، ويذهبون في هذا التنافس والتقاتل إلى أبعد مدى من الشناعة . . . إلى مدى تحسب معه الوحوش أقرب إلى الإنسانية منهم . . . « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » .

إذاً ، فلندع هؤلاء إلى الإيمان بالغيب الذي جحدوه ، ولندعهم إلى الإيمان بما بعد الموت من حياة وحقائق ، حتى تعود إليهم إنسانيتهم ، وسلامهم وسعادتهم .

والمدار هنا على حسن عرض هذه الحقائق . . . فيجب أن تعرض عرضاً يلبس بها القلوب لمسا ، فتفيق فجأة ، أو تفيق بالتدريج . . .

في الناس أقلية يزعمون أنهم خاصة أهل الفكر ، فهم يحتاجون إلى أن تعرض عليهم هذه الحقائق في أساليب علمية ، وقضايا منطقية . فلتدع هؤلاء بمنطقهم إذا استطعت ؛ أما الجماهير فمن أقرب الوسائل إلى التأثير فيهم ، أن تعرض كل حقيقة من هذه الحقائق ، بعد أن تختار لها ما يقابلها من أحوال دنيانا العملية ، فتعرض الحقيقة وشبهها ، وتعتقد بينهما شبه مقارنة ، فإن هذا مما يفتق لها أغلفة القلوب ، وينفذ بها إلى سويدائها . . ونوصي هنا بكثرة التذكير وتلاحقه ، فإن طول الأمد ينسى ، فتنسى القلوب .

وقف أحد الإخوان مرة يتكلم فقال : إن ملكا عظيما أراد أن يحدث في ملكه منصبا خطيرا ، هو منصب النيابة عنه في ناحية هامة من ملكه ، فاستشرف لذلك كبراء المملكة وأمرائها ، وأخذ كل منهم يبدى من التلميحات ما يكاد يصرح برغبته في تولي هذا المنصب ؛ وفيما هم كذلك فاجأهم الملك بأنه سيختار شخصا ليس في حساباتهم ، شخصا من عامة الناس لا يؤبه لشأنه ، وكلفهم أن يقرؤا له بالتعظيم ، احتراماً لأمر الملك واختياره إياه ؛ فنزل الجميع على إرادة الملك طائعين ، إلا شخصا أكل الغيظ قلبه ، وملاً الكبر نفسه ، فأبى أن يقر لهذا الوضع - في زعمه - باحترام أو تعظيم ، وعصى أمر الملك ، فطرده الملك من نعمته ، وأعلن عليه غضبه ، فاغتاظ هذا المطرود وأخذ يقول : سوف ترى ما يحصل من هذا الذي قدمته على ؟ سوف أتجيب إليه وإلى أبنائه حتى يحدوا جيلك ، ويتعدوا عنك ، ويكون أكثرهم معي على ما يغضبك ، فأخرجهم من كرامة قريتك ، وعزة الجاه بك ، و ..

وكان الملك رحيماً بهذا الرجل وذريته ، فأخذ يرسل إليهم ، يذكرهم عداوة هذا الخبيث المطرود ، ويغذرهم منه ، وينهاهم أن يطيعوه في شيء ، وينذرهم بأن العاقبة إذا أطاعوه ، لن تكون إلا الطرد من عزة المنصب ، ونعمة الملك ، إلى حيث الهوان والشقاء .

ومضى الأخ يقول : والعجيب أيها الإخوان ، أن هذا الشخص الذي ولي المنصب الخطير ، وذريته من بعده ، سرعان ما نسوا عداوة هذا العدو المبين ، فصاروا أكثرهم يعرض عن تحذيرات الملك ، ويستمع إلى حلاوة حديث عدوه ، وإنها لحلاوة فيها السم النافع ، فإذا مال أحدهم إليه ، ظل يستدرجه حتى يوقعه في غضب سيده ، فيكون من المطرودين .. فهل هذا من العقل والحزم ؟ وهل هو من الإقرار بحميل الملك وشكر نعمته ؟ هل من العقل والحزم ، أن يتقاد هؤلاء إلى عدوهم اللدود ، الذي طرده الملك بسببهم ؟ هل من العقل والحزم أن يقتربوا منه ، فضلا عن أن يطيعوه في شيء . يغضب سيدهم وولى نعمتهم ؟ ..

قال الأخ : أيها الإخوان ، إذا كنتم تعجبون لهذا الشأن أو تستبعدون حدوثه ، فاعلموا أنه قد حصل فعلا ، وأننا نحن الواقعون في هذا الذي نستبعد .. فإن الملك العظيم هو الله عز وجل ، والمنصب الخطير هو منصب النيابة والخلافة عنه في هذه الأرض ، وكبار المملكة هم ملائكته الذين قال لهم : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » ، فكأنهم استشرفوا للمنصب ، وأحبوا أن يؤثرهم الله به ،

وأرادوا أن يشيروا من بعيد في أدب جم ، إلى استحقاقهم هذا الشرف ، فقالوا :
 « أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ »
 وهل يكون جديراً بهذا المنصب إلا من يصلح له ولا يفسده ؟ فكأنهم يشيرون
 إلى خصوصياتهم العالية التي ترشحهم لهذا الأمر الخطير ، وانظر إلى قولهم :
 « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » ، فأجابهم الله عز وجل : « إِنِّي أَعْلَمُ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

وأعلن الله حقيقة الشخص المختار ، فإذا هو .. قبضة من تراب الأرض لا أقل
 ولا أكثر ، وأمرهم أن يعظموه لأن الله عظمه ورفعهم ..

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ
 وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ؛ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ،
 إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ
 أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ؟ أَسْتَكْبَرْتَ ؟ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ؟ قَالَ :
 أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ : خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ، قَالَ فَاهْرُجْ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ،
 وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ا » .

هذه يا إخوان قصتنا مع هذا العدو اللدود ، يقصها الله علينا ، فماذا كان من
 شأننا معه ؟ لقد وقعنا فيما كنا نستبعده ونستنكره من الرجل وذريته ، وما هذه
 الدرية إلا نحن ، وما الخطأ الشنيع إلا خطؤنا نحن .

لقد نار العدو فقال : « رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
 وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » ، « ثُمَّ لَا تَجِدُ فِيهِمْ
 مِنْ أُيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
 شَاكِرِينَ » .

فانظروا يا إخوان ، إلى مدى ما بلغ حرص هذا الشيطان على إهلاكنا وإخراجنا
 من رحمة الله ! كل هذا لعداوته وحقدته الذي لا يطفئه إلا أن يكبتنا على وجوهنا
 في نار جهنم ، وهيهات أن يطفأ هذا الحقد ، أو تذهب هذه العداوة ! .

وكان من رحمة الله بنا أن نهنا إلى هذا العدو وحذرنا من كيدته : « يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ » ، « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » ولفتنا إلى الحرص على عزة الخلافة ، وحذرنا أن نحرف إلى موالاة هذا العدو فيقول : « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بَلْئَسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » وصور لنا حقه الذي لا يهدأ ، فذكر أنه لا يزال بفريسته . يستجرها بعيداً عن الله ، حتى تقع في قبضته ، فيسومها الحرمان من الرحمة والكرامة ، ثم يبكيها أخيراً في نار جهنم ؛ فإذا بلغ أمنيته وقف يتشفي بمنظرها وهي تحترق في نار السعير ، ويصب في أذنها من التهم والسخرية ما يقطع القلب غيظاً وألماً : « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ : إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ؛ فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوَا أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُضِرِّ حُكْمِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُضِرِّ خِيٍّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

وأخذ الأخ يتكلم عن غفلة الإنسان عن رسالته في خلافة الأرض وما فيها من عزة وكرامة ؛ ويتكلم عن غفلته عن عداوة الشيطان الرجيم ، الذي لا أرب له إلا أن يهلكنا ، ويتكلم عن غفلتنا عن تحذير الله وإنذاره ؛ حتى انتهى بوجوب الخروج عن هذه الغفلات كلها ، والإقامة على الحذر والحشية والتنبه .. أي الإقامة على ذكر الله وشكره .

وليس هذا النوع من قبيل ما تقدم في ضرب الأمثال ، فإن ما سقناك هناك ، إنما هو خاص بتشبيه حال العنويات ، بحال تناسبها من الواقع ؛ أما هنا ، فقارنة بين أمور واقعة فعلا في عالم لا نراه ، وأمور تشبهها بعض الشبه تقع في عالمنا للظهور ؛ والقستان اللتان ذكرناها الآن ، ليستا من نسج الخيال — نستغفر الله — فإن إحداها حصلت فعلا في الملأ الأعلى ، والأخرى مما يقع أو مما يجوز وقوعه في عالمنا . وبهذه المقارنة نقيس الغائب بالحاضر ، حتى تنقشع عن القلب حالة الغموض والإبهام التي تحيط بهذه السمعيات ، فيشاهدها القلب حتى لكان الإنسان يراها رأى العين ، كما يقول سيدنا حارثة رضى الله عنه في الحديث المشهور : يا رسول الله عزفت نفسي

عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظلماتُ نهاري ، حتى لسكأنني أرى عرش رب بارزا ،
وكان الجنة عن يميني ، والنار عن يساري ، والصراط تحت قدمي .

ومما نسوقه على سبيل المثال أيضا ، أن من عادة الملوك الحكماء أن يكافئوا أهل
الجد والإخلاص ، الذين يعملون غير ناظرين إلى جزاء مادي . . .

هؤلاء الصادقون الذين يرضون سيدهم ، يكونون من نفسه في المحل الرفيع ،
فإذا قدموا عليه يوما ، أفاض عليهم كرامته ، وتلقاهم بما يشرح صدورهم ، وأمر
حاشيته « والتشريفاتية » أن يدخلوا عليهم ، بالترحيب بهم ، والاحتفاء بمقدمهم ،
والتسليم عليهم ؛ هذا الذي يحدث في الدنيا ، يحدث خير منه لدى ملك الملوك
عز وجل . . . اقرأ معي قوله تعالى : « وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ،
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ
السَّيِّئَةَ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ : جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ
وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

وفيض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في توضيح حال هذه الكرامة بقوله :
« إن أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون ، الذين تسد بهم الثغور
وتستقي بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول
الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : إيتوهم ، فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان
سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفأمرنا أن نأتي هؤلاء ، ونسلم عليهم ؟ فيقول : إنهم
كانوا عبادا يعبدوني ، لا يشركون بي شيئا ، وتسد بهم الثغور ، وتتقي بهم المكاره ،
ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فتأتيهم الملائكة عند ذلك ،
فيدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

هذان أمران : أحدهما غيب من غيب الملائكة الأعلى ، والآخر مما يألفه أهل
هذه الدنيا ، ولكن المقارنة بينهما تسر القلوب ، وتبعث النفوس على الانشغال
بحقائق هذا الغيب .

ولا تظن أننا ذكرنا في هذه المقارنة كل ما يجب أن يقال ، إنما فتحنا الباب ،
وأشرنا إلى الطريق فقط ، وما عليك إلا أن تستعين بلباقتك في إتمام المقارنة ،
فأمامك مثلا أن ملوك الأرض لا يلتفتون إلا إلى تسكير أهل الثراء والوجاهة ، ممن

يتظاهرون بالإخلاص والعمل ، ولكن الله عز وجل لا يقيس بهذا المقياس ، فالمعول عليه عنده حقائق القلوب ومعادن النفوس ، حتى ليكون أول من يدخل الجنة من خلقه « الفقراء المهاجرون . . . إلخ » ؛ وأمامك غير هذا مما لا نطيل بذكره فهو واضح .

ويذكر الكثير من إخواننا ، أن حضرة صاحب الفضيلة المرشد العام للاخوان المسلمين ، يعظ الناس بوعظة من هذا القبيل ، فيذكر^(١) أن أحدنا إذا كانت له قضية وجاءه إعلان من المحكمة بموعد الجلسة ، فإنه يشتغل بأمر هذه القضية فلا يغيب لحظة عن باله ، فيستشير أهل العقول الناضجة ويشرع في إعداد المستندات ، وتوكيل المحامي واختيار الشهود ؛ فإذا كان يوم الجلسة ، مضى إليها وهو متفعل بشقى الأحاسيس ، كل هذا وقد يحكم عليه — إذا حكم — بغرامة مالية ، أو سجن شهور أو سنوات . فإذا حكم عليه ، كان أمامه فرصة يرفع فيها أمره إلى محكمة أعلى هي محكمة الاستئناف فإذا حكمت عليه ، رفع أمره أخيراً إلى محكمة النقض والإبرام . . . ومع هذه الفرص تراه يوم الجلسة كثير الوسواس والخاوف .

يقول الأستاذ المرشد : إذا كان حالك يا أخى فى هذه القضية التافهة على ما نرى ، فكيف وأنت مدعو إلى قضية كبرى ، إعلان الدعوة فيها القرآن الكريم ، والمحضر الذى يعلنك بالمحاكمة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموعد الجلسة يوم الفصل ، ومكانها الساهرة ، والقاضى ليس بشراً من البشر ، بل هو رب العزة والجبروت ، فهار السموات والأرضين ؛ وشهودك منك وعليك ، وهم لسانك ويداك ورجلاك وجلدك — والحكم أخيراً لا تقض فيه ولا إبرام ، لأنه حكم القاضى الذى لا يضل ولا ينسى ، ولا غرامة هنا ولا براءة ، وإنما هنا نار وقودها الناس والحجارة ، أو جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

كل ذلك يستشهد له فضيلة الأستاذ — رحمه الله وأعزه — بالقرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وما نحسب إلا أن هذه الأمثلة قد جلت لك حقيقة ما نريد .

(١) نحن هنا نلخصها فى إيجاز فقط وإلا فهى مسهبه رائعه .

سادس — النظر في آيات الله في الرفاق ونعمه السابقة على الناس

نعمته :

يا أخى ، ها هو ذا الكون أمامك ، تملؤه آيات الله سبحانه في السماء والأرض ،
وها أنت ذا تنظر إليه بعينيك ، وتصغى إليه بأذنيك ، وتذوق طعمومه بفمك ، وتشم
روائحها بأنفك ، وتسير في فخاجه برجليك ، وتعالج مواده بيديك ؛ فأنت متصل به ،
وهو متصل بك ، لا ينفك أحداً عن الآخر .

هذه حقيقة لا تقبل للراء ، فهي من الأمور الواقعة تحت الحس ، وإدراكها
من البديهيات التي لا تقبل الجدل . . .

فأنت إذ تقول إني أرى سماء وأرضاً ، وشمساً وقمرًا ، وجبالاً وأنهاراً ، وزرعاً
وأنعاماً وناساً ؛ أرى ذلك كله ، أرى شخوصه ، وأسمع أصواته ، وأشم روائحها ،
وألمسه ويغتنى ، وأتسرب إليه ويتسرب إلى — حين تقول هذا ، إنما تعبر عن شيء
ملسوس ، واقع تحت حسك وحس الناس جميعاً . . .

ماذا فسرنا من الكون ؟

ومن حقنا أن نجعل هذا الكلام مقدمة لنتيجة منطقية مترتبة عليه ، هي أن الإنسان
لا بد أن يكون قد أحاط بهذه الأشياء التي اتصل بها واتصلت به ، وتسرب إليها
وتسربت إليه ، فأشبعها نظراً وتأملاً ، حتى لامس أسرارها وعرف أقدارها . . .
أليست هي أول شيء طالعه في هذا الوجود ؟ ومعرقها أول بديهية حلت في خزانة معارفه ؟
لا نطلب إليه أن يحيط بها إحاطة علمية ، على المعنى الفني الاصطلاحي ، فهذا جد
عسير ؛ إنما نطلب أن يحيط بها إحاطة عاطفية ، فتتفقد إحساسات قلبه في هذه
المشاهدات ، حتى تستشعر عظمتها وجلالها . . . هذا ما يرتبه بل ما يرتبه المنطق
على المشاهدة الساذجة الأولى . . . فهل سائر الإنسان هذا المنطق ، فترقى في نظره
إلى الوجود ، مبتدئاً من النظر الأولى السطحي ، إلى النظر الشامل النافذ ،
التيثر لعواطف الإعجاب ؟ أم أنه اكتفى بالنظرة العابرة الغافلة . ووقف لا يتقل
قدماً عن قدم ؟

طفولة الإنسانية

إنه رأى السماء وهو طفل ، ويرى السماء الآن وهو رجل ، فهل تغير نظر الرجولة عن نظر الطفولة ؟ .. إنه رآها وهو طفل ، شيئاً أزرق يغطي الدنيا ، فهل تأمل فيها وهو رجل ؟ ... هل تأمل في سعة أقطارها ، وامتداد أرجائها ، وعظمة خلقها ؟ ... هل حاول أن يمد يده إليها ، لينظر حقيقة عجزه عن أن يناها ؟ ... هل فكر في أن يقارن بين ما يصنعه هو بيده ، وما يصنع الله في هذه السموات الهائلة الرائعة ، لينكشف لقلبه خطورة هذه الآية الضخمة المعجزة ؟ ... هل حدق بعين قلبه في هذا المخلوق الجليل العجيب ، باحثاً عن خالقه المقتدر العظيم ، الذي يصنع ما تراه العيون ، وهو مستتر بلفظه عن العيون ؟ ... هل نظر إليها هذا النظر وهو رجل ؟ أم ظل ينظر كما كان وهو طفل ؟ ... لا مرأى أن نظر الرجل إلى السماء ، وإلى غيرها من آيات الله لا يعلو نظر الطفل . . . فالرجل من هذه الوجهة طفل كبير ، لم يتقدم في نظره إلى الوجود تقدماً يذكر . . . بل إن الإنسانية في تاريخها الطويل ، لم تتقدم في هذا المضمار تقدماً يسمح لنا أن نقول إنها غادرت به طور سذاجتها الأولى وطفولتها النافلة اللاهية .

الإنسانية بين نظرة ونظرة :

إن تقدم الإنسان الصحيح ، مرهون بالانتقال من النظر الساذج ، إلى النظر القوى الفاحص ، الذي يفتح عين صاحبه وقلبه على روعة الآية التي ينظر إليها ، ويبث فيه الانفعال بما فيها من أسرار الله وحكمته .

في هذا الانتقال تقدم الإنسانية وكاملها ، فإن النظرة عنوان صاحبها . أو عنوان حياته الباطنية : فإذا كانت نظرة جامدة فهي عنوان الباطن الجامد ، والشعور الحامد ، والقلب الميت ؛ وإذا كانت نظرة قوية حية ، فهي آية الباطن القوى الحى ، والوجدان المنفعل المباد ، والقلب اليقظ الفياض بمختلف المشاعر الكريمة . . . وما حياة الإنسانية إلا حياة هذا الباطن وقوته ، وما كاملها إلا تقدمه نحو العواطف الربانية الحيرة ، وإذا قال قائل غير هذا ، فهو بمعن في الضلالة والحبل .

فانظر يا أخى إلى الإنسان وغفلته ، بل وبلادة مداركه الباطنة . . ينظر إلى السماء وينقل طرفه في أنحائها ، فلا تحرك فيه إحساساً من أحاسيس الرهبة والجلال . . وينظر إلى الشمس مسخرة في السماء ، فلا يتقطع وجدانه إعجاباً بها ودهشة لشأنها . . بل ينظر إلى هذا وغيره كأنه لا خطر له ، بل كأنه لا وجود له .

إنه الإنسان الطفل ، وإن بلغ من العمر ما بلغ !! وإنها الإنسانية الأولى ، وإن قطعت من الأجيال والأحقاب ما قطعت ... نعم هي الطفولة التي تقتضيك أن ترى لصاحبها وتعطف عليه ؛ الطفولة التي لا تفهم إلا ما يدور في محيطها الصغير ، وتنفض يدها معرضة عما يدور بين الرجال ذوى المواهب الكبار ... انظر إلى الطفل يرى رجالا يتحدثون في شأن ما ، فيسمع كلامهم ، ولكنه لا يفقهه ولا يروقه ، فيعرض عنه فإذا رأى أطفالا يلعبون ، أو يتحدثون أسرع إليهم ، وفهم عنهم ، وذاب فيهم وفرح بهم ... وهؤلاء الرجال — أستغفر الله ، بل الأطفال الكبار — يعلن فيهم ماركوني : أنه سيد زرا في إيطاليا لينير به مصباحاً في استراليا ؛ فيعجبون ، ويجعلون هذا النبأ حديث مجالسهم ، وسمرا نديتهم ، وكلهم تمجيد لهذه المواهب ، وتكريم لقدرة مخترعهم الكبير ... بينما السماء تظل عليهم كل ليلة ، بما لا يحصى من ملايين المصاييح لامتصباح واحد ، ينيرها الله عز شأنه بغير زر ! ... مصاييح تضيء ولا زيت لها ! وتنير ولا كهرباء فيها ! فأى النبأين أحق بالإعظام ، وإطالة التعجب والاهتمام ؟ ولكنك ترى الأطفال الكبار ، لا يعيرون مصاييح السماء لفئة واحدة ، ولا يجعلون لها في أحاديثهم ساعة من ليل أو نهار ... ذلك أن هذه الكواكب المظلة من علياء سموات الله ، تحدث عنه أحاديث العظمة والجلال ، وهي أحاديث لا يفهمها إلا كبار الرجال لا كبار الأطفال ! .

مرصده يجب أنه يزول :

وإن تعجب يا أخى ، فاعجب لبقاء الإنسان طفلاً وعوامل النضوج مزدحمة في فؤاده ، تنتظر وقفة واحدة على آية من آيات الله تتأثر بروعتها ، فإذا هي تتحرك وتجيئ وتبعث الحياة والنمو في قلبه ... وإن تعجب كذلك فاعجب لهذه الإنسانية ، التي تقضى أعمارها ، تحت سماء باهرة الآيات ، معجزة المشاهدات ، وفوق أرض ضخمة الجبال ، جليلة البحار رهبة الصحارى والقفار ، حافلة بأسرار الله فيما خلق من نبات وحيوان وجماد ... وهي مع ذلك تضى ذاهلة ، كأنها لاتعيش تحت شيء ، ولا فوق شيء ! ... ولو أن هذه الآيات التي تملأ الآفاق أمر خفي ، أو يحتاج إلى كد ذهن ، لالتسنا لها للعاذير في هذا الإعراض ، بل في هذا العمى . ولكنها أشياء بارزة للعيان ، شاخصة للحواس ، تعرض المرء في كل وجه ، وتفرض نفسها عليه في كل وقت .

أليس من العجيب أنه تخلص من كل ذلك ، فلم يلتفت إليه ، ولم يتأثر به ، بل أليس

من المحزن المؤلم ، أنه لم يتخلص منه إلا لانطباس باطنه ، وامتلاء وجدانه بالكشافات
للظلمة الثقيلة ؟

إن هذه البلادة ، وهذه الغفلة ، هي مرض الإنسانية الشائع ، إذا مرض به القلب
فسد وأظلم ، وماتت مشاعره فلا تتأثر بشيء من آيات الله ... ترى عين رأسه ما تراه ،
دون أن ينطبع على صفحته شيء من هذه المرائي « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ
تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

قال أحد الإخوان : يخيل إليّ أن هذه الغفلة أمر طبيعي ، وليست مرضاً من أمراض
القلوب ، وأن آيات الله في الآفاق ، ليس من شأنها أن تثير العواطف هذه الإثارة .
فقال له صاحبه : لا ، ليس الأمر كما يخيل إليك ؛ ولأضرب لك مثلاً يزيل عنك
كل تخيل فاسد ، فتابعني فيه .

يحلم بعض من ينظر إلى مستقبل الإنسانية بتشاؤم ، أن ستقوم بيوت ، بل مدن
كاملة تحت الأرض ، طلباً للأمان من مصائب وويلات الغارات ... فافرض معي أن
مدينة من هذه أنشئت ، وأن الناس ألفوا العيش في التهوية الصناعية ، والإضاءة
الصناعية ، بعيدين عما على وجه الأرض من نعم الطبيعة وهباتها ... وافرض أن مولوداً
ولد في هذه المدينة وترعرع في ربوعها وميادينها ، لا يرى إلا مصابيح الكهرباء
تضيء بالليل والنهار ، ويرفع بصره إلى سماء المدينة ، فلا يجد إلا سماء من المسلح أو غير
المسلح ، محمولة على دعائم قوية عالية .. واستقر في روع هذا الصبي ، أن الدنيا هكذا ،
وأن طبيعة هذه الحياة تجري على هذا الأسلوب ... وكبر الصبي ، وصار شاباً ، ثم
عرض له يوماً أن يسافر إلى ظهر الأرض ، فسافر ... وهنا أدرك أن تصور
الشاب وهو قائم ، يحدق في روعة السماء وهو ينظر إليها لأول مرة ، ويقارن بينها
وبين سماء مدينته ؛ فهناك سماء تقيد البصر ، قائمة على عمد ، وهنا سماء رائعة ، يسرح
الطرف في آفاقها علواً وانساعاً ، رفعها خالفها بلا عمد ، وأمسكها بلا دعائم .

إن كل حديث يعجز عن تصوير كيان هذا الشاب ، وهو يجيش بانفعالات الدهشة
لهذا المشهد الجليل الرهيب !!! تأمل الشاب وهو ينظر في دهشته إلى الشمس ،
فيراها مشرقة الضياء ، باهرة اللألاء ، تغمر الوجود بفيض أنوارها ... فيستحضر
الفرق الهائل ، بل الآماد الشاسعة ، بين أضواء هذا السراج السماوي العجيب ،
وأضواء مصابيح مدينته الباهتة ... فيرى أن لو اجتمعت هذه المصابيح في قوة واحدة ،
وانحدت طاقتها فكانت طاقة واحدة ، لما بلغت شيئاً مذكوراً في بهرة أنوار هذا

السراج العالمى الوهاج ! وينفعل الشاب ، إذ يرى هذا السراج غير محمول على قائم ولا معلق فى شىء ، كصاييح مدينته . . . ويزيد به العجب ، إذ يراه يجرى فى فضاءه الشاسع ، منتقلا من الشرق إلى الغرب ، فكيف يتنقل ؟ وبأى قوة يتحرك ؟ ومن أين له هذا الضوء ، ومن يدبر له هذا كله ؟ .

ثم تصور حال هذا الشاب ، وقد جن الليل ، وتغير النظر ، وظهرت فى السماء هذه الكواكب الدرية ، تملأ أفطارها فى كل جهة . . . إنه لشيء يذهل الأب ، ويملا القلب حيرة ، ويقطع الأنفاس من الاستغراق فى الدهشة والعجب ! وتصوره حول منتصف الليل . وقد ظهرت له فلقة من النور الوضىء ، فأخذت تفسح ظلمة الليل عن وجه السماء ، وتلقى من نورها الوديع على الأرض الغارقة فى الوحشة والسكون . . . أى نظام هذا ؟ وأى جمال هذا ؟ وأى آيات هذه فى هذا الكون الرائع العجيب ؟

إنك يا أخى لو سحبت هذا الشاب يوما وليلة ، وأخذت ترقب ملامحه الظاهرة ، وتستشف خوالجه الباطنة ، لرأيت حقاً كيف يجب أن ننظر إلى آيات الله ، ولحكمت قطعاً بأن مواطن الناس مظموسة ، حيث لا تتحرك لوحى العظمة فى هذه المشاهد الجليلة المحكمة .

علاج

والآن : هل من سبيل إلى علاج هذا المرض ، فيزدهر باطن المرء ويحيى بالحياة النامية ؟ هل من سبيل إلى إزالة هذا الحجاب الكثيف ، فيتكشف قراع قلب الإنهان فيرى الله فى خلال كل شىء ، كأن له فى كل شىء نافذة ، يطل منها على الملائكة الألى ؟ . وبعبارة أوضح ؟ هل من سبيل إلى ارتقاء الإنسانية وتجاوزها دور الطفولة العاجزة ، إلى حياة الرجولة القوية المدركة ؟ .

نعم ! السبيل ميسرة ممهدة ، ولسنا نكلف لذلك جهداً فى البحث ، ولا مشقة فى التفكير ، وإن كأس الشفاء على أفواهنا ، لا ينقصنا إلا أن نرتشفها هنيئاً . نعم ! لا ينقصنا إلا أن ننظر لكل شىء أمامنا نظرتين فى نظرة واحدة ؟ أما النظرة الأولى فهى نظرة العين الباصرة ، وهى التى لا ترى من الشىء إلا صفحته الخارجية الصماء ؛ وأما الثانية فهى نظرة العين الباطنة ، وهى التى تلقى بعواطفك على الشىء ، وتظل تبحث عن القائم عليه ، والمدبر لشأنه ، حتى تفضى إلى الله سبحانه وتعالى . . . ها نظرتان فى نظرة ؟ وما عليك حين تنظر إلا أن تنبه عينك الباطنة الغافلة ، وتوقظ

كيانك الداخلى الرائد ، فإذا نهتها وأيقظته ، ووصلت الباطن بالظاهر ، والظاهر بالباطن ، فقد وصلت نفسك بالوجود ، وسرت تيارات قلبك إلى ملكوت الله الأعلى ، وهذا عين الحياة ، وكال الرقى والتقدم . أرأيت سهولة هذا العلاج ؟ . إنه علاج ناجح ، بقدر ما هو هين سهل .

اعترافهم وموابه

قد يبدو لسائل أن يسأل كيف تتم الإنسانية بالقصور والطفولة والمرض ، وهى التى تطالع الدنيا كل يوم بمجديد فى العلم والصناعة والاختراع ؟ وهى التى فاقت فى هذه النواحي كل ما سبقها من الأجيال والقرون ؟ .

ونحن لا نحجب فى دفع هذا الاعتراض أن نتفلسف ونعمن فى منعرجات الفكر وملتوياته ؛ بل نحتكم إلى قضية مسلمة من الجميع . . . فإن الناس جميعاً يقولون : العلم نور . . . وثمرة هذا النور أن ينظر به صاحبه حقيقة ما يراه ، أليس كذلك ؟ . . . ونحن لا نكلف هذا العلم أن يكشف لنا الخبوء ، أو يأتينا بمعجزة .

بل نكلفه أن يمد صاحبه بنور . . لينظر السماء التى فوقه ، والأرض ، التى تحته ؛ فإنه لا يبصر منهما أكثر مما يبصر الحيوان الأعجم المطموس .

العلم نور حقاً . . . نور للبصائر لا للأبصار ، فإذا حل هذا النور فى بصرة ما — أبصرت كما تبصر العيون ، وفوق ما تبصر العيون ؛ فخيرنى بربك ، إذا كان عليهم هذا علماً صحيحاً كاملاً ، فأين ثمرته ؟ وأين نوره إذا كانت بصائر أهله لا تبصر من البديهيات شيئاً ؟ . إن قصارى هذا العلم أنه علم الرءوس كيف تفكر فى خدمة الأجسام ؛ علمها كيف تعد الطعام ، وكيف تدبر الأموال ، وكيف تصرف التجارات ، وكيف تصنع الآلات . . . آلات الزراعة جرياً وراء الثمرة ومضاعفة الغلة . . . وآلات القتال ليفتك القوى بكل من يحرز رغيها دونه . . . وعلمهم السياسات كيف يبنونها فى دهاء على جلب النافع واغتنام المصالح . . . وعلمهم الهندسة ، وفورت لهم ماء الرى ، وأصلحت الطرق ، وأقامت العمارات ، وكشفت قوانين الحركة ، فدارت عليها الآلات ، وسددت بها القذائف إلى الأهداف ؛ وعلمهم الطب ، فعالجوا به الأجسام ، وقاوموا جراثيم الأمراض ، وأحاطوا بالبدن بأسباب الوقاية محافظة على سلامته . . . واخترعوا التلغراف والتليفون ، استنجازاً لقضاء المصالح فى أقرب وقت . . . وأجروا الفطار والسيارة تخفيفاً للعناء عن الجسم ، ومبالغة فى إحاطته بأسباب الترف . . . وجاءوا بالراديو وأنواع المخترعات . . . جاءهم العلم بهذا كله ، فما زاد على أنه مسخر لإملاء

الجسم ، ورغبة المعدة ، ووحى الترف ؛ وكل هذا ظلمة في ظلمة ، تسلك الإنسان في محيط الدواب والأنعام ، حين تقصر همها على ألوان الشراب والطعام ... اللهم إلا إذا ادعى لنفسه أنه أحرص على حيوانيته من الحيوان ، وأشد منه شراهة إلى متاع الجوارح والأبدان .

وعلم الله ما نبخس هذا العلم قدره ، فإنه ضرورى لأداء رسالة معينة ، رسالة يخدم بها الإنسان في ناحيته المادية الحيوانية ، وهى ناحية قدسها الدين الحنيف إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لبدنك عليك حقاً ، وإن لربك عليك حقاً » . ولا اعتراض لنا على شيء من هذا ، فهو من أمر الله سبحانه وتعالى ... وإعما الاعتراض أن تزعم لهذا العلم المحصور في هذه الحدود ، أنه مصدر الحياة والنور لمعانى الإنسان العليا ؛ فهو زعم خاطيء يقع فيه أكثر الناس ، فما كان لعلم مسخر لدواب البدن العمياء ، أن يقوم بما ليس من وظيفته ، ويمنع ما ليس في طبيعته ... فمن أين النور لعلم إذا نظر لشيء لا ينظر إلا إلى ناحيته المادية ، يقيسها بوزنها ويستكشف خفايا ذراتها ، ليصل من ذلك في النهاية إلى نتيجة يذهب نفعها إلى الكيان الحيوانى ، ولا يصل منها أثر يذكر إلى الكيان اللعنوى ؟ .. فإذا ترقى الإنسانية بهذا العلم ، فإن ترقى مشهود به في قشرتها الأرضية ، وناحيته المادية فقط ، وهى الناحية الصماء ، التى لا توحى بعاطفة نبيلة ولا شعور كريم .

فساد الحضارة الغربية

حضارة الغرب إداً ، وعلمها ، وكل ما فيها ، أعجز من أن تمد باطن الإنسان بما يحويه ، ويصله بالوجود ؛ وبعبارة أخرى ، أعجز من أن تمد قلبه بنور يرى به لباب الوجود ، وحقائق الحياة ... لقد خلت حضارة الغرب عملياً من كل منهاج ووسيلة لإيقاظ الضمائر ، وتنمية الحواس الباطنة ؛ لأنها لا تعترف بكيان الإنسان الباطنى ، وما له من خصائص فياضة بالخير والكرامة ، وتفترضه حيواناً مغلق الباطن كالآلة الصماء ... فكيف تبلغ الإنسانية رشدها وتعال حظها من النور والعلم الصحيح ، ما دامت تجهل أن الرشد فى القلوب لا فى اللغات ، وأن النور فى البصائر لا فى الأبصار ؟ ... لقد قلنا : إن تقدم الإنسانية الصحيح ، مرهون بالانتقال من النظر الساذج إلى النظر الفاحص ، الذى يفتح عين صاحبه وقلبه على جلال الآيات التى ينظر إليها ، ويث فيه الانفعال بما فيها من أسرار الله وحكمته . قلنا هذا ، لأنه السبيل السهل إلى تغذية الكائن الإنسانى المستكن فى باطن

الإنسان ؛ أو هو العصب القوى ، الذى يصل هذا الكائن بمصادر حياته السماوية . . . وخالو هذه الحضارة من كل منهاج عملى ، أو عناية جدية تبعث الإنسان على حسن التأمل فى آيات الله — جعل هذا العصب ضامرا أو مبتورا ، وترك هذا الكائن النبيل الكريم ، يعانى فى باطن صاحبه عزلة عن الحياة ، وحرمانا من النور والغذاء . . . وما نحسب هذا الكائن قد سعد يوماً ما ، بمثل ما سعد فى الحقبة النورانية ، التى أتاحها له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومحبته الأبرار رضوان الله عليهم ؛ ولكنه ما كاد يهتأ بها ، حتى خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فأصابهم نكسة ارتدوا بها أطفالا ؛ وكان الظن بهذه الحضارة العالمة ، أو حضارة النور كما ينعنونها ظلما ، أن تلتفت إلى مصدر الرشاد فى الإنسان ، ومنجم العبقريّة فيه ، وأن تحسن الانتفاع به ؛ ولكنها ضلت على علم ، فلم تلتفت لغير الكائن الحيوانى ، الذى يخرج من التراب ، ويعود للتراب ، ويتغذى من التراب .

إلى الرابعة

لعلك أدركت الآن يا أخى ما يطلب منك ، وأنت داعية إلى الله عز وجل ؛ يطلب منك أن تطيب للانسانية ، فتبعتها بكل ما تستطيع من حيلة وبيان على النظر العميق ، فى ملكوت السموات والأرض . . .

كتاب منشور

وإنا لا نستطيع أن نتصور داعياً عملياً ، يدعو الناس إلى الله ، دون أن يلفتهم إلى ما يحيط بهم من آثاره سبحانه وتعالى ، فهى شواهد الدالة عليه ، للتحدث عنه بأوضح بيان ، وأفصح لسان . . . ولقد سردنا فيما سبق بعض المنازع العملية التى تنزع إليها العقلية الواقعية فى دعوتها إلى الله ؛ وفى رأى أن الانتفات إلى آيات الله ونعمه ، أقربها جميعاً إلى القطرة ، وأيسرها سبيلاً إليه سبحانه . . .

فهذا الوجود الذى أمامك ، هو كتاب الله المنشور . . . وهذه الكائنات العجيبة التى تملؤه ، هى سطور حية تقرأ فيها قدرته سبحانه وحكمته وعظمته . . . فإذا وقع نظرك ، أو سمعك ، أو يدك على شئ ما ، فقد وقع فى الحقيقة على مستودع خطير لحكم الله وأسراره .

ومن جميل تقديره سبحانه ، أنه جعل مطالعة هذا الكتاب ميسورة ، للعالم والجاهل ، والقارىء ، والأعمى . . . فما على المرء إلا أن ينظر ، أو يسمع ،

أو يلمس .. إلخ ، ثم يفكر فيما وقع عليه حسه تفكيراً عقلياً وجدانياً ، فإن هذا التفكير ، يسيل من القلب أحاسيس رقيقة ، تتسرب خلال هذا الشيء ، ثم تمتد في تسربها حتى تلامس الكثير من حكم الله فيه ؛ فإذا بلغت هذه الدرجة ، فقد وصلت ما بينه وبين الله سبحانه ، وانفتح له الملكوت الفياض بالسيالات الروحية ، فيهنز القلب ، وتخشع النفس ، وتفيض العين ، ويستثير الطبع ، فإذا بالإنسان في هذه اللحظة ، قد صار قبضة من نور الله عز وجل ، قلبه نور ، ولحمه نور ، وعظمه نور ، وفوقه وتحتة وخلفه وأمامه ، كل ذلك نور على نور .

ولا عجب فإن من يسبح في ملكوت الله ، إنما يسبح في عالم النور الذي يتخلل كل مادة ، ويمزق كل حجاب .

فإذا أحس الإنسان بقلبه يخلج ، وبدنه يرتجف ، ودماغه يفيض ، فليعلم أنه قد فهم سطرا من كتاب الوجود ، فإن ثمرة التأمل أن تنفذ إلى بعض الحكم ، وفي الحكم عبرة ، والعبرة إشعاع رقيق يسطع في القلب ليصله في رفق إلى الله سبحانه وتعالى ... فإذا أفضيت إلى الله وخرت مشاعرك ساجدة ، خاشعة باكية ، بلغت من أسباب الفهم والمعرفة ما لا يبلغه إلا الراسخون في العلم ، ولو كنت ممن لم يقرءوا كتاباً ، أو يجلسوا إلى أستاذ في جامعة أو مدرسة .

الداء والدواء

فاحرص على هذا المنزع يا أخى ... واعلم أن القرآن الكريم تكفل لكل داعية فرسم له المنهاج ، وشرح له وسائل العلاج ، بعد أن بين له المرض وظواهره .

١ — فالمرض هو انطاس الكائن الباطني للإنسان ؛ وفساد حواسه بحيث لا يبصر ولا يسمع ، ولا يفقه شيئاً ، فيغدو به صاحبه في حكم الأموات ، وإن أضافه فن الإحصاء ظمناً إلى الحياة والأحياء ، « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ؛ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ » .

والمدار كله على أن يصح هذا الكائن الكريم وتسلم له حواسه ؛ أما حواس البدن فليس عليها معول كبير : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

فلكل شخص عينان : عين ظاهرة هي عين رأسه ، وعين باطنة هي عين نفسه ،
والعين الظاهرة لا ترى من الشيء إلا صورته السطحية ، وهي أمر تافه لا قيمة له ،
يتعلق باللون ، والحجم ، والشكل ، والنوع ، والجنس ، ونحوه . أما العين الباطنة
فتدرك حقيقته ، وحقيقة كل شيء هي حكمة وجوده وسر خلقه ، والعبرة التي تريك
أصابع الله سبحانه وتعالى في تكوينه وتدبيره والقيام على حفظه ، وهنا يشف الشيء
أمام هذه العين ، فتطَّلَع منه على الله عز وجل ، فإذا وجدت الله يا أخى وجدت
كل شيء : وجدت الحياة ، ووجدت النور والعلم ، ووجدت الثروة والغنى ، ومن
وجد كل هذا في قلبه لا يضيره ما فاتته من الدنيا ... أما إذا حجب عنه ، فلن يغنيه
قليلاً أو كثيراً أن تكون عينه الظاهرة أقوى العيون ، وأذنه أسمع الآذان ...
فليست المسألة صوتاً يسمع أو شجراً يرى ، فذلك ما تراه الأنعام وتسمعه .. وإلى هذا
تشير الآية الكريمة . . « وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ
إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٍّ بُسْكُمُ يَعْمَى فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ » .

قال الإمام ابن كثير : أى مثلهم فيما هم فيه من العمى والضلال والجهل كالهداب
السارحة ، التي لا تفقه ما يقال لها ، بل إذا نعى بها راعيها ، لا تفقه ما يقول ولا
تفهمه ، لأنها تسمع صوته فقط . . ويقول الإمام الزمخشري : ومثل داعيهم إلى
الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ، ودوى الصوت من غير
إلقاء أذهان ولا استبصار ، كمثل الناعق بالهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناعق وندائه ،
الذي هو تصويت بها وزجر لها ، ولا تفقه شيئاً آخر ولا تعي ، كما يفهم
العقلاء والعون .

حقيقة المرض على هذا صمم يصيب الكائن السكامن في المرء ، وعمى وبسكم
يتركه في ظلمة ولا حركة به ، وهو ما تجمله الآية الكريمة : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا
صُمٌّ وَبُسْكُمُ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »
٢ — أما ظواهر هذا المرض ، فهي كما يصفه الكتاب العزيز : الإعراض عن
التأمل فيما تقع عليه الحواس ، والاكتفاء بالنظر العابر ، والسمع الظاهر ، فيرى
الإنسان الشيء وكأنه لا يراه ، تبدو له روائع الآيات والآثار ، فلا تحرك روعتها ،
ولا تثيره رؤيتها ، لأنه لا يدرك بالعين الثيرة . . فيمضي كالراقد الذي يفتح عينه وهو
نائم ، على نحو ما يصف الشاعر الحكيم :

يا ناظراً يرنو بعيني راقد ومشاهداً للأمر غير مشاهد

وإلى هذا يشير قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ » وقوله سبحانه : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

٣ — أما العلاج الناجع لهذا العمى ، بل لهذا الموت ، فهو — كما وصف القرآن أيضاً — التأمل في آيات السموات والأرض ، وفي أنفسنا ، وما أُنشِئ علينا من نعم ظاهرة وباطنة ، على ما أشار إليه عز وجل بقوله : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ، وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » .

نعم : فالتأمل هو الذى ينقل صور المشاهدات من الحس الظاهر إلى الحس الباطن ، فيتم التفهم والتأويل والمقارنة والتعليل ، وهذا معنى حياة الباطن وسمعه وبصره . .
فإذا لم يكن تأمل لم يكن شيء من هذا ؛ فالتأمل هنا يقوم بمهمة عصب الإبصار في العين الظاهرة ، فإن رؤية الأشياء لا تتم بمجرد انعكاس صورها على شبكية العين ، بل لا بد من انتقال هذه الصورة بواسطة العصب البصرى إلى مركز الإدراك والوعى ، وهو المخ ؛ فإذا انقطع هذا العصب أو أدركه تلف لا تتم الرؤية ، ولا يصدر المخ حكمه على شيء . . . وكذلك التأمل : فهو عصب الإبصار ، الذى ينقل المشاهدات إلى مركز الإدراك الباطنى ، وهو القلب ، حيث تتم للمشاهدة ، ويسرى رحيق العبرة في البدن كله ؛ فإذا انقطع التأمل بقى القلب مغلقاً ، لا نافذة له يطل منها على عالم الحقائق ، وكان شأن صاحبه كشأن الحيوان الأعجم ، في اقتصراره على رؤية الصورة الظاهرة للأشياء . .

منهاج العلاج

وحين يذكر القرآن أن في السماء والأرض والنفس آيات وشواهد للموقنين لا يكتفى بمجرد الإشارة ، بل يذكر ما هي هذه الآيات ؛ فينص عليها بالاسم أو بالصفة أو الوظيفة ، حتى يبلغ الكلام إلى الأسماع والقلوب ، ويكون السبيل إلى العلاج خالياً من كل غموض . وما نستطيع أن نورد كل آيات القرآن التي ورد النص فيها على هذه الشواهد الربانية ، بل نورد آية واحدة ، على سبيل المثال ، اعتماداً على أنك غنى عن إيراد الكل بمطالعته في المصحف الشريف . . . قال الله عز وجل : « وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ؛ إِنَّ فِي خَلْقِ (١) السَّمَوَاتِ (٢) وَالْأَرْضِ (٣) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (٤) وَالْمَلَكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ (٥) وَمَا أَتَزَلَّ اللَّهُ

مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ (٦) فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (٧) وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ (٨) وَنَضْرِبُ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ « إن في ذلك كله « لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

ولو أن القرآن الكريم اكتفى بهذا الإجمال لكان فيه غناء ، ولكن كيف يكتفى به ، وهو كتاب الإنسانية كما ذكرنا ، جاءها بالرشد والشفاء ؟ ... لقد تناول كل آية من هذه الآيات بالتفصيل ، والتحليل ، حتى ليفتح البصر والبصيرة على مواطن العبرة فيها .

(١) فمن خلق السموات : الشمس والقمر ، والنجوم والكواكب ، وقد ذكر في آياته الكثيرة عجائب هذه المخلوقات السماوية الجميلة الجليلة ، وهي في المصحف في تناول كل قارى ، فلا نطيل بذكرها .

(٢) وتحدث عن الأرض وحدها بتفصيل كاف لاستخراج العبرة .

(٣) وتناول الليل والنهار بكلام خاص .

(٤) واختص الفلك والسفن بمثل هذا ... وأفرد كلا من : (٥) المطر (٦) والزرع

(٧) والدواب (٨) والسحاب . أفرد كل شيء من هذا بنصوص تكشف للمتأمل

آثار رحمة الله ، وإنا نسوق بعض أمثلة لهذا التفصيل صدر سورة « الرعد » :

١ - يقول الله عز وجل في خلق السماء : « الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .. وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ .. لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ » .

٢ - ويقول عن الأرض : « وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ اثْنَيْنِ ... يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

٣ - ويقول عن النبات : « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أُعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ ، صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

وفي صدر سورة النحل طائفة كبيرة من الآيات والنعم ختمها الله بقوله :
« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ويشرح له منهاج النظر إلى نفسه وأخص الأشياء به بمثل قوله : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ
مِمَّ خُلِقَ ؟ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ » ، « فَلْيَنْظُرِ
الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا
فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ، مَتَاعًا
لَكُمْ وَلَأَنْعَامِكُمْ » .

وإني أترك لك أن تجرب بصيرتك وفكرك ، فتأمل وحدك في هذا . . .

النظر إلى الكيف لا الكم

وحين يطلب إلينا النظر في هذا وغيره لا يتركنا ننظر كما نشاء ، نظر الغفلة
والجمود ، بل يرسم لنا منهاج النظر الحق ، الذي ينشئ بيننا وبين الملائكة الأعلى أوثق
الصلات ، في أقرب وقت ، فيعلمنا أن ننظر إلى الكيف لا الكم . . . والكيف
لباب وعبرة ، والكم صور وأحجام . . . والكيف يدرك بالقلب ، والكم يدرك
بالحواس الظاهرة .

انظر قوله تعالى : « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ، كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ، وَزَيَّنَّاهَا
وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ، وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِيرَةً ، وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » ،
وقوله عز وجل : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ؟ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ؟ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ؟ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ؟ فَذَكِّرْ
إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » .

وزيد على هذا ، فيذكر لنا أنواعا من النظر إلى الكيف ، لنقيس عليها ،
أو نفرع منها ، فتارة يفترض لك الفرض ، ويجعلك تسرح فيه بقلبك ، وعقلك ،
حتى تقع على لب العبرة من خلاله : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ

سَرَمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . . مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ؟ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ؟
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرَمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . . مَنْ إِلَهٌ
غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ . . أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟

ونارة يسائلك مساءلة تفتق الحجب ، وتقف بك وجهاً لوجه أمام عرش الله عز وجل :
« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ؟ .. أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ .. أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ؟
أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ .. لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ
تَفَكَّهُونَ . . » تعجبون في ندم وأسف « أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ؟
أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ؟ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ،
فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ . . أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ؟ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ
نَحْنُ الْمَنْشُؤُونَ . . ؟

ثمرة العراج

وأخيراً ، لا يقف الله عز شأنه بمدارك البشر المتأملين عند هذا الحد ، بل يسمو
بهم إلى قطف الثمرة النهائية . . يسمو بهم سموّاً يبعثهم إلى التفكير في معاني الجد
والحكمة الحازمة التي تبدو للدوى البصار في خلق السموات والأرض . . فما
كان الله هازلاً — سبحانه — حين خلق السموات وما فيها من آيات . . وما كان
لاعياً — تعالى شأنه — حين أخرج الأرض إلى هذا الوجود ، إن هو إلا الأمر
الخطير ، والجد الذي لاهزل فيه ، أبرمه الله ، وسلكه في نواميس حكمته . . .
« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . . . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا
بِالْحَقِّ . . . وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ، « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . . لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ
لَدُنَّا . . إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ . . بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذَا هُوَ
رَاقٍ ، وَلَكُمْ الْوَيْلُ بِمَا تَصِفُونَ » .

وهذه ذروة التفكير ، وقمة المنازل التي يحلق حولها الربانيون . . . يسمو إليها

الإنسان حين يهبط بتفكيره إلى قرارة نفسه وأعماق فطرته : « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ؟ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ » .

ومع كفاية هذا التعليم ، فإن الله عز وجل قد ذكر لنا بعض ما يقوله أولو الألباب حين التأمل في آياته . . . لنفيس عليه . . . ولنطمئن إليه ، إذا وجدناه صورة لما في خواطرنا ، وترجمة مسابقة لمشاعرنا : « وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ ، وَالْأَنْعَامِ ، مَا تَرَكَوْنَ : لِيَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ . . . وَتَقُولُوا : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ » .

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ — رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .

هذا طرف من هدى القرآن وطبه لأمراض الإنسان . فهل رأيت بربك هدياً يقارب هذا الهدى ، وينهل من هذا الطب ؟ . . . إنه رحيق الشفاء ، وسر الخير والسعادة ، والنعمة التي بشر الله بها أوليائه ، وأمر بالحمد عليها قبل وقوعها ، إشعاراً بحلالة قدرها ونفعها ، « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » . « سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . . . أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ »

أما الضالون من أهل الشقوة ، فهم بعيدون عن هذه النعمة ، وقد أُنذِرهم الله حجاباً يصرفهم عن التأمل فيها ، ويحرمهم حظ الدنيا والآخرة : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ . . . » إلخ . . . أى يصرف قلوبهم عن التفكير في شأنه سبحانه . . .

مثال تطييفي

والله عز شأنه بعد تقرير هذا العلاج وبيان أثره في شفاء القلوب ، يضرب لنا مثلاً من واقع التاريخ ، ليشرح بأسلوب عملي ، أن الإنسان إذا نظر فيم حواليه من الآيات والآلاء ، نظر التأمل والاستهداء ، زال عنه الحجاب ، ورق قلبه ، وأشرق بصيرته ، فأفضى إلى الله الذي لا إله غيره . . ضرب لذلك مثلاً واقعياً تمت به العظة ، وختمت العبرة أطيب الختام ، ذلك قوله سبحانه : « وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكَوَتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ يَهْدِينِي رَبِّي لَا كُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

نوجيه ونماذج

ونحن نوصي كل داع إلى الله ، أن يدخل هذا المنهاج في حسابه ، ويجعله من عذته وعتاده ، فقد رأى قوة أثره في القلوب ، ورأى أن الله سبحانه ، دعا به للناس إليه . . وما حثهم في القرآن على شيء ؛ أكثر مما حثهم على أن يجعلوا التأمل سبيلهم إلى الحياة ، فعلى الداعية أن يأخذ بما رسم الله ، وأن يفتن في بعث سامعيه على النظر والتفكير والاعتبار ، على حساب ما تهديه إليه قريحته وسليقته .

نماذج

ونحن نضع بين يديك — أيها الأخ — أمثلة مما وعظ به المهتدون ، واحتالوا به لإثارة انتباه الناس ، وتأملهم في عجائب الله .

١ — وعظ سيد الدعاة صلى الله عليه وسلم ، فبسط كفه ، وتفل عليها ، ووضع إصبعه بجانبها وقال : يقول الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم : أتني تعجزى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك ، مشيت في بردين ، وللأرض منك وئيد ،

اجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي ، قلت : أتصدق ، وأنى أوان الصدقة ؟
وتأملك في هذا يعطيني عن شرحه والتعليق عليه .

وعظ الإمام أبو حنيفة ، رضى الله عنه ، يوماً ، وقد حضره قوم من غلاظ القلوب ،
وكانت عظة عملية موفقة . .

أظهر للناس أنه مفكر في أمر خطير ، فلما سألوه عن شأنه قال : إني مفكر في أمر
قد أخبرت عنه : ذكروا لى أن سفينة في البحر موقرة بأنواع المتاجر ، وليس بها أحد
يحرسها ، ولا يسوقها ، وهى مع ذلك ، تذهب وتجيء ، وتسير بنفسها . . وتغرق
الأمواج العظام حتى تتخلص منها ، وتسير حيث شاءت ، من غير أن يسوقها أحد . .
فقالوا له : هذا شيء لا يصح أن تشغل به نفسك ، لأنه لا يقوله عاقل ، ولا يصدقه أحد .
فقال : أيها الناس ، إنكم أنتم الذين تقولون هذا الكلام ، تقولونه بلسان الحال ،
إن لم يكن بلسان اللقال .

فهذه سفينة الموجودات بما فيها من العوالم العلوية والسفلية وما اشتملت عليه من
الأشياء المحكمة ، فهلا تأملتم عجائبها ، وحكمة المصرف لها ، أم أنها تغدو وتروح بغير مدبر
يصرفها ؟ فخشعت قلوب الناس لموعظته ، وأسلم منهم من كان على غير الإسلام .

٣ — ووعظ الإمام الشافعى رضى الله عنه فقال : هذا ورق التوت ، لونه واحد ،
وطعمه واحد ، يأكله الدود فيخرج منه الحرير ، ويأكله النحل فيخرج منه العسل . .
وتأكله الشاة والبقر ، فتلقيه بعرأ أو روثا . . وتأكله الظباء فيخرج منه المسك ،
وهى شيء واحد ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

٤ — ووعظ الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، فقال : ها هنا حصن حصين
(وأشار إلى شيء بجانبه عليه غطاء) ، حصن أملس ، ليس له باب ولا منفذ ، ظاهره
كالفضة البيضاء ، وباطنه كالذهب الإبريز . . فبينما هذا الحصن كذلك ، إذ تصدع
جداره ، فخرج منه حيوان سميع بصير ، ذو شكل حسن ، وصوت مليح ؛ فلما أثار
الإمام أشواق الناس واهتمهم على التطلع . . كشف الغطاء فإذا بيضة مشقوقة ، وبجانها
فرخها الصغير ، الذى خرج منها حديثاً إلى هذه الدنيا . . فسبحان من يخرج الحى من
الميت ، ويخرج الميت من الحى ، وهو على كل شيء قدير !

هذه يا أخى أمثلة فتقت لك من جوانب الموضوع ، وقدمت لك ألواناً مختلفة من
التفكير ، وسيسهل عليك بعدها إن شاء الله ، أن تأخذو حذوها ، وتستقى من معنيها ؛
ونحن هذه الأمثلة بمثال وضعه أحد الإخوان ، قال :

كان أحد العلماء يجلس ذات ليلة بين مريديه ، وهو من أهل البصرة ، فأراد أن يبعث أبنائه وتابعيه على التأمل العميق الذي يسبحون به أو يغوصون في بحار الحقيقة ، فيستخرجون لآلىء المواعظ والعبر .. فأمر بإطفاء الأنوار ، فبدأ المسكان مظلماً موحشاً يلفه الليل بسكونه وهدوئه ، ثم قال : يا أبنائي ، في هذا الظلام الساكن ، نستطيع أن نستنزل من السماء رزقا لأرواحنا ، وحياة لقلوبنا ، فلا تفوتنكم هذه الفرصة ، فليذكر كل منكم في نفسه ماذا كان قبل أن يخلق ؟ وماذا حصل حين أراد الله أن يحيى به إلى هذه الدنيا ؟ ومن أى شيء خلقه الله ؟ ولتتبع الأطوار التي تنقل فيها ، حتى صار رجلا عاقلا ، مدبراً ، قويا ؛ ولتتابع رحلته إلى الموت ، حتى يبلغ الجنة أو النار .

قال الأخ : فسكت المريدون .. وأخذوا يتأملون ، ويسبحون ، ويتنقلون في سلسلة المواعظ والحكم .. وأراد الشيخ أن يعرف أحوالهم في تفكيرهم ، فأخذ يسألهم من آن لآخر : أين أنت الآن يا فلان ؟ فقال أحدهم : أنا الآن نطفة . ثم قال آخر : حين سئل بعد قليل : أنا الآن في القبر . وقال ثالث : حين سئل بعد صاحبه بفترة : أنا الآن على الصراط . وكان الأخ يجري على لسان كل مريد وصفاً تحليلياً لمشاعر التأمل في النطفة ، ولئن هو في القبر ، ولئن هو واقف على الصراط .. وليس يعنيننا أن تنقل لك ما قال صاحب القبر ولا ما قال صاحب الصراط ، فإننا نحن بصدد التأمل في آيات الله الظاهرة لنا ، فننقل لك ما أجراه الأخ على لسان صاحب النطفة : سأله شيخه : أين أنت الآن يا فلان ؟ قال : أنا الآن ياسيدي نطفة ، كرهية الرائحة والنظر ، قطرة من ماء مهين ، أنامل فيها وفي مهانتها وضعفها ، ثم أثقل التأمل إلى نفسي ، وأنا رجل قادر عاقل ، فيروعي الفرق الهائل بيني وبينها : بيني وأنا ماء ، وبينني وأنا رجل ؛ ولا أكاد أصدق أني كنت هذه النطفة يوماً من الأيام ، إنها ياسيدي قطرة ، لو تركت بغير عناية ، لضربها الهواء ، وفسدت ، وأنتنت ؛ فسبحان من حفظني ، حين كنت لا أستطيع أن أحفظ نفسي إنها الآن أمامي ، لانسمع ، ولا تعقل ، فيأعجبا ، من سبب لها العقل لتصير رجلا مفكرا ، ينصب المكائد والحيل ، أو يهر الناس بعلته وغمار عقله ؟ .. ومن سبب لها السمع ؟ ويركب لها البصر ؟ وكيف يتم هذا كله ؟ .. ومن خلال هذا التساؤل انشق لي نور قوله تعالى : « وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون » .

وإن التأمل ليندبني ، حتى يلقيني في تساؤل آخر : ترى لو أمسك الله عن هذه النطفة فلم يهب لها العقل ، فهل تهيب لنفسها ؟ وإذا أمسك فلم يمنحها السمع والبصر ،

فمن يستطيع أن يثبت فيها حقيقة السمع والبصر ؟ . . . وهي أسئلة تشرق على قلبي فتتلو على قوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ ؟ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَنْ هُمْ يَصْدِفُونَ . »

ولقد أخذت تصور الناس جميعا ، عالمهم وجاهلهم ، قويمهم وضعيفهم ، جاءوا فوقفوا حول هذه النطفة ، وأخذ بعضهم يستعين ببعض ، لعلهم أن يركبوا لها أقل عظم من عظامها ، أو أرق عصب من أعصابها ، أو شعرة واحدة من شعرها ؛ فباءوا بالعجز والفشل ، وكأن الآفاق من حولهم تشيعهم بقول الله سبحانه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . » واسترسل بنى التأمل فتساءلت : إذا كان هذا سر الله وصنعه في قطرة واحدة من ماء ميهن ، فكيف سره وصنعه في أفطار السموات والأرض ، إنها لجيج لا يحيط بكنهها إلا من وسع كرسية السموات والأرض ، وهو العلى العظيم . . . وهنا قاطع الشيخ تلميذه وقال : أمسك يا بني ، حسبي هذا منك ، فقد هديت إلى المنهج القويم ؛ والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . . .

وبعد : فقد ذكرنا لك يا أخى بعض الاتجاهات التى تنجى إليها العقلية الواقعية فى تفكيرها وتعبيرها ، وهى عقلية ضرورية للداعية كما ذكرنا فى مواطن كثيرة ؛ فإذا كنت تتمتع بهذا النوع من التفكير ، فاحمد الله عليه ، واسأله المزيد من فضله ؛ وإذا كانت الأخرى ، فقد بينا لك بعض المنازع ، وما عليك إلا أن ترسمها ، وتنهج نهجها وتقيس على مثالها ، وتدرّب عليها ، حتى تكسب لنفسك بعض خصائصها النافعة ، والله لا يضيع أجر العاملين .

الفصل الثاني

الروحانية الاجتماعية

نمزيه

أيها الأخ الكريم : لا تحسبن هذا العنوان بسلك لأوهام غامضة ، أو ظنون سهوى بك إلى أودية مجهولة ، فقد ألف القراء أن يجدوا صعوبة فيما يقرأون عن الروح والروحانية ، وسأماً يصرفهم عن قراءة ما لا يفهمون ، واستقر في أذهان الكثيرين أن الكلام في هذه المباحث ، مخوف بالمخاطر والزلل ، لأن كانتها يطوح بنفسه في آفاق من الظنون والفروض ، ليس فيها معالم للاهتداء ، ألم يقل الله تبارك وتعالى : « وبسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ؟ .

مادة وروح

أقول : لا تحسبن هذا العنوان يطالعك بشيء من هذا ، فإننا قد أردنا به كلاماً هيناً سهلاً ، ومعاني في غاية الوضوح ؛ فالإنسان مؤلف من مادة وروح ، وللمادة نظامها ، وعالمها الذي تعيش فيه ، وللروح خصائصها وعالمها الذي تحيا فيه ، والإنسان — وقد خلقه الله في أحسن تقويم — مطالب أن يكون له حيتان : حياة مادية يؤدي بها ما لبدنه من الحقوق في حكمة ونظام ؛ وحياة روحانية ، يحياها وراء عالم المادة ، يؤدي بها ما لروحه من الحقوق . . فإذا أقبل الرجل على نفسه فقام بحق بدنه ، وحق روحه ، فقد أنصف إنسانيته ، وسأير سنة الله ، وعاش في سلام الدنيا والآخرة .

وإذا جنح إلى إحدى الناحيتين ، وانصرف عن الأخرى فقد ظلم نفسه ، وعرض صفحته لسنة الله (ومن عرض صفحته للحق هلك) ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

فالرجل الذي يعيش عيشة أهل هذا العصر ، مقبلاً على المال ، منافساً على الرغيف ، مستغرقاً في مطالب البدن ، مشغولاً بالجاء الفارغ والمظاهر الخادعة ، مسخرّاً ملكاته العقلية والقلبية لهذا المتاع الباطل ، رجل مفتون عن حقيقة نفسه ، محجوب عن لب

الحياة ، أرادت له سنة الله أن تصله بالعالم الأعلى فانسأخ من هذه الكرامة ، وأنى إلا أن يقطع هذه الصلة .

والرجل الذى يقبل على مطالب روحه فيقضى نهاره صائماً ، وليله قائماً ، وعمره مفكراً ، معرضاً عن طيبات الحياة الدنيا ، فلا يلبس إلا الحشن ، ولا يأكل إلا اليابس الجاف ، لتضعف قواه الحيوانية ، وتعظم على حسابها قواه الروحية ، رجل جاهل أيضاً بحقائق الحياة ، غافل عن سنة الله ، مضيع لحقوق بدنه ، أو مضيع لإحدى ناحيتيه ، وكفى بذلك خسارة وتعطيلاً لأمر الله فيه . . . وقد رووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زار عبد الله بن عمرو بن العاص ، وكانت امرأته تلتطف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : كيف أنت يا أم عبد الله ؟ قالت : كيف أكون ، وعبد الله بن عمرو رجل قد تخلى عن الدنيا ؟ قال لها : كيف ذلك ؟ قالت : حرم فلا ينام ، ولا يفطر ، ولا يطعم اللحم ، ولا يؤدى إلى أهله حقهم ؛ قال : فأين هو ؟ قالت : خرج ويوشك أن يرجع الساعة ، قال : فإذا رجع فاحبسيه على . . . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء عبد الله ، وأوشك رسول الله فى الرجعة ، فقال : يا عبد الله بن عمرو : ما هذا الذى بلغنى عنك ؟ إنك لا تنام ! قال : أردت بذلك الأمن من الفرع الأكبر ، قال : وبلغنى أنك لا تفطر ! قال : أردت بذلك ما هو خير منه فى الجنة ، قال : وبلغنى أنك لا تؤدى إلى أهلك حقهم ! قال : أودت بذلك نساء خيراً ممنهن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله بن عمرو : إن لك فى رسول الله أسوة حسنة ، فرسول الله يصوم ويفطر ، ويأكل اللحم ، ويؤدى إلى أهله حقوقهم ؛ يا عبد الله بن عمرو : إن الله عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً . »

وهذا الحكم الأصيل رسم لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منهاج الحياة السليم الصحيح ، وبين أن الإفراط مذموم ، ولو كان فى إقبال العبد على حياته الروحية ، فإن الله لا يقبل من عبده أن يعطل سنته ، ثم يزعم أنه يعجل إلى مرضاته .

كياننا الحقيقى

فالمرء على هذا مقسم بين واجبين ، مطالب أن يعيش فى عالمين ، مكلف أن يربى فى نفسه شخصيتين . . . ونحن بهذه الكلمة لا نريد أن نحصر على حقوق البدن ، فالناس قد جُسِّوا بها وعموا فيها ؛ وإنما نريد أن ننبه إلى حقوق الحياة الأخرى ، فكثير من الناس يعيش ما يعيش ، وحياته دائرة فى محيط المادة . لا يسرق نفسه

لحظة ليعيش في عالمه الآخر ، ثم يموت دون أن يؤدي لإنسانيته حقاً من الحقوق . . .
لقد قلنا إن للإنسان رسالتين ، رسالة يقوم بها على تربية شخصه الحيواني ، وأخرى
يقوم بها على مطالب كائنه الروحي المستكن في هيكله ؛ وأشرف هاتين الرسالتين
— بلا مرأ — رسالة الكائن الروحي ؛ فالكائن الحيواني ناحية مشتركة بين الإنسان
وكل ما خلق الله من حيوان ، أما هذا الكائن العالى ، فهو السر الذى امتن الله به
على بنى آدم حين قال : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا »

فرسالة الإنسان الجديرة به ، هى واجبة نحو كائنه المعنوى وعالمه الروحي ؛ وبمنطق
هذه القضية ، نستطيع أن نحصى أعمار الناس بما قضاوا في هذا العالم العالى من لحظات ،
ونقيس أقدارهم بالظفر إلى جسامة شخصهم القدسى العالى ، لا شخصهم الذى يجرى
عليه ما يجرى على بهيمة الأنعام .

وكثيراً ما نقرأ أن فلاناً أنعم عليه برتبة (الباشوية) بمناسبة اعتزاله الخدمة ، اعترافاً
بفضل رسالته التى أداها فى القضاء أو غير القضاء ، من مناصب الدولة ؛ فهل أدى هؤلاء ،
— حقاً — رسالة بليغة للحياة ؟ كم يحال إلى المعاش ويعفى من الخدمة أناس ليسوا
من كبار الموظفين ، فلا ينعم عليهم بشيء ، ولا تسكتب الصحف عن رسالتهم شيئاً ؛
فهل الرسالة فى عرف هؤلاء أن يتدرج الإنسان فى مناصب الدولة حتى يبلغ أعلاها ،
فإذا لم يبلغها فهو محقق لا يستحق الالتفات ؟ الواقع أن هذه أوهام باطلة ومقاييس
فاسدة ، فرسالة الإنسان هى رسالته نحو معانيه الإنسانية ، فإذا أداها فقد خدم أمته
وخدم الإنسانية كلها ، ولو لم ينل من المناصب شيئاً ، وإذا أهملها فلا رسالة له ، ولو بلغ
رياسة الدولة ؛ وقد يجتاز الواحد من هؤلاء الستين من عمره ، وشخصه الحقيقى ابن
شهر واحد أو ابن يوم واحد ؛ وقد تراه فيملاً نظرك ، ولو كشف القناع عن قلبك
لرأيت إنسانه الباطن ضعيفاً مهزولاً ، أو لم تجد شيئاً يقام له وزن .

والآن فما معنى أن يعيش الإنسان فى عالمين ؟ وأن يربى فى كيانه شخصين ؟ إن
المعيشة فى هذا العالم المادى معروفة ، وتربية الكائن الحيوانى غير مجهولة ؛ فهى تعهده
بالطعام والشراب والرياضة والوقاية من الأمراض ؛ فما معنى أن تحيا فى عالم آخر ،
وتربى شخصية أخرى لا تراها العيون ؟ كيف تربها ؟ وكيف تغذيها ؟ ومن أين يأتيها
هذا الغذاء ؟

كيف يخطئ المرء في مو نفسه ؟

وهذا تساؤل يفرض علينا أن نقف على النقطة التي يبدأ منها خطأ الناس حين ينظرون إلى الحياة ، أو يذهبون في مذاهبها ، فإذا عرفنا وجه الخطأ وحقيقة الصواب انكشف لنا ما نسأل عنه .

فغذاء الجسم طعام وشراب يخرج من هذه الأرض ، ووسيلة تحصيله اليد والرجل ، والعين ، والأذن ، واللسان ، وما وراء ذلك من ملكات البدن وجوارحه ؛ وغذاء الكائن الروحي جمال من نور وجه الله ، ونفحات تهبط على القلب من رياض أنسه سبحانه وتعالى ، ووسيلة تحصيله من سمواته العلا ، هي سمعه (أى سمع الكائن الروحي) وبصره ، وكل قواه ، وملكاته ومشاعره التي مركزها القلب ...

والإنسان يخير ما ظلت قواه البدنية تسعى في الأرض ، وما بقيت أشواق قلبه محلقة حول عرش الله عز وجل ؛ فإذا هو قصر القلب على غير ما يسر له وحول أشواقه عن أرزاق العالم الأعلى ، إلى متاع العالم الأرضي الأدنى ، فقد قطع عن كائنه الروحي مدد حياته الأصيل ، وسامه أن يتجرع ما ليس من طبيعته ؛ يتجرع ما يخنقه من أهواء باطلة ، وشهوات أرضية فارغة ، فيذبل ويضمحل ، ويظل في هذا المحيط الخائق وصاحبه سارح غافل عنه ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

والنقطة التي يبدأ منها الخطأ هي القلب ؛ ووجه الخطأ هو قصر القلب على غير ما يسر له ، وتسخير أشواقه ومشاعره في تحصيل متاع الحياة الدنيا ، فيضطرب تنافس الناس في الخارج ، ويختل السكيان الباطني للشخص .

ولقد قلنا إن الله زود البدن بجوارحه وملكاته ، لتسعى له في تحصيل زاده من الأرض ، فلو كانت هذه الجوارح غير كافية لذلك لما قصر الله سبحانه عن أن يهب له ما يفي بحاجته ؛ فهل هناك شخص واحد يدعى أن اليد والرجل وسائر الجوارح ومن ورائها ملكات العقل غير كافية ؟ . إذاً فما محل هذه القوى القلبية ؟ وكيف ننزلها من سمواتها العلا لتعمل مع الجوارح جنباً جنب ؟ . وهب جدلاً يا أخى أن قوى القلب خلقت لتعمل مع الجوارح في خدمة البدن ، فأين ما زودنا الله به لخدمة الجاب الروحي الباطني ؟ . . . أين هو ؟ . . هل جابى الله إحدى الناحيتين — حاشاه — وظلم الأخرى ؟ . . هل ذكر الكائن الحيواني فزوده بكل القوى ، ونسى — سبحانه — أن يزود الكائن الروحي بشئ ؟

نريد للإنسانية أن تستقبل أمرها على بصيرة ، فما ظننا الله شيئاً ، ولكن الناس

أنفسهم يظلمون ؛ ونريد للإنسان أن يقدر نفسه بالميزان الصحيح الذى يقدره الله به .. هل نظم البدن إذا أعطيناه كفايته من الدنيا ، وأطلقنا مشاعر القلب لتسعى فى مطالب السكائن الآخر ؟ .. من الإنصاف لأنفسنا وللحقيقة أن نقول : لا ظلم فى هذا ولكن من الإنصاف أيضاً أن نعترف بأن الموازين التى تقرر كفاية البدن غير معلومة ، وأن الخطوط أو الحواجز الفاصلة بين قوى البدن والقلب غير ظاهرة ؛ فما هى كفاية البدن ؟ وكيف نصرف قوى القلب إلى رسالتها الخاصة ؟

والذى أراه أن هذه المشكلة يسيرة الحل ، إذا نحن رجعنا إلى طبيعة الأشياء ، واستفطينا فطرة الله التى فطر الناس عليها ؛ فهل كفاية البدن شئ غير إسعافه بضروراته التى يقوم بها كيانه ؟ طعام يسد الجوع ، ولباس يستر الجسم . . هل يفرض المنطق غير هذا ؟ وهل يطلب العقل شيئاً آخر ؟ .. يقول فقيه الوجود صلى الله عليه وسلم لرجل عما يكفيه من الدنيا : « يكفيك ما سد جوعتك ، وواري عورتك ، وإن كان لك بيت يظلك فذلك ، وإن كانت لك دابة فيخ بها !! » أما أنه لو تكلمت أعضاؤنا لضرعت إلينا أن نكف عن إجهاد المعدة وحشو الأمعاء ، وإرهاق الأعضاء بما هو فوق الحاجة ، فإن سلامتها مكفولة بالضرورى ، أما ما زاد على الضرورى فهو نذير العلة القريبة أو البعيدة . .

ويقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المنطق الفطرى بقوله الحكيم المشرق : « ماملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ؛ بحسب ابن آدم أكيلات يُقمن صلبه ، فإن غلبت الآدمى نفسه ، فثلب لطعامه ، وثلب لشرايه ، وثلب لنفسه » .

هذه كفاية البدن من دنياه ، فكيف تفصل قوى القلب حتى تنصرف إلى رسالتها الخاصة فى عالمها الخاص ، ويزول خطأ البشر فى نظرهم إلى الحياة ... ؟

نستطيع أن نجيب عن هذا إذا نحن عرفنا حقيقة الدافع الذى يدفع الإنسان إلى الاستكثار من الطعام والشراب واللباس ؛ إن الرء لو خلى إلى طبيعته لوقف عند مطالبها ، فماذا يخرجها عن هذا الموقف الطبيعى ؟ لو أنه يأكل ليوذى للبدن ما يقوم به أوده وكفى ، لاستقامت حالته الصحية ، والاجتماعية والروحية ؛ ولكنه يأكل أيضاً لتحصيل لذة الطعام والشراب ؛ ويلبس لا لستر جسمه فقط ، بل لتحصيل أيضاً لذة الاختيال بزينة بين الناس ، فالرغبة فى الاستمتاع عامل ثان يحرك الإنسان إلى هذه المطالب والرغبة إحدى قوى القلب ، ولون من ألوان أشوافه العنيفة القوية ، فإذا دخلت عاملاً ثانياً طغت بقواها الهائلة على العامل الأول ، فلا يكون الإنسان فى هذه الحالات خاضعاً

لقانون طبيعته ، بل خاضعاً لسلطان هذه الشهوة الموحجاء ، فلا يقف عند القدر الذى يقوم به أود البدن ، بل يذهب مع نداء اللذة حتى يعجزه الذهاب .

ومعنى هذا أن الرغبة فى الاستمتاع بالدنيا ، هى الدافع الأكبر الذى يحرك الإنسان إلى متاعها الأدنى ، أو قل : إنه تعليق عواطف القلب وميوله بهذه الأغراض .

إن الدنيا فى منطق الفطرة دار بلاغ ، ولكن تعليق عواطف القلب بها جعلها فى نظر أكثر الناس دار متاع ، والفرق شاسع بين البلاغ والمتاع ؛ فمن اتخذها بلاغاً فقد جعلها وسيلة يبلغ عليها ما يريد من ربه لحياة قلبه ، ومن اتخذها متاعاً فقد جعلها غاية يدور حولها برغبات قلبه ، وهمة نفسه ، وأهواء غرائزه ؛ أى أنه يحشد قواه كلها لدنيائه ، ويحرد حياته الأخرى من كل قوة تسمى فى عمارتها . .

والخط الفاصل بين البلاغ والمتاع ، هو الحد الذى يجب أن تقام عنده الحواجز بين حياة المادة وحياة الروح ، ليسعى البدن فى محيطه آمناً كل تدخل يغير عليه نظام بلاغه وكفائته ؛ ويسعى القلب فى محيطه ، محلقة بمشاعره فى ملكوت الله ، مفيضاً على كيانه الحقيقى غذاء من النور ، وشراباً من ماء الحياة الطهور . .

يجب أنه بحال بين القلب وبين متاع الحياة الدنيا

حقاً إن القلب خلق ذواقاً للجمال ، ويجب دائماً أن تدق فيه أفراس السعادة ؛ والقلب الحى ، هو أكثر القلوب اهتزازاً بنشوة الغبطة ، وأشدّها شوقاً واستشرافاً لترادف نفحات النعيم ... والقلب الميت ، هو القلب الراكد الجامد ، الذى لا حركة به ولا عاطفة . . . هذا كله حق ، وما تلك للشاعر والأحاسيس فيه إلا ليزدق بها حلالة ما يفاض عليه من جمال . . . ولكن من أى أفق يصيب هذا الجمال ؟ أمن الأفق الأدنى الذى يرتع فيه الجسم مع سائر الدواب ؟ أم من الأفق الأعلى الذى يستمد نعيمه وجماله من معرفة الله سبحانه ؟

يجب أن يكون للجسم عالمه ، وللقلب عالمه ، فيسعى الإنسان سعیه البدنى فى حياته الظاهرة ، ويسعى سعیه القلبى فى حياته الباطنة .

ندارك الخطأ بالزهد

فإذا أردنا أن نسمى هذا الفاصل الحكيم ، الذى يقيم المرء بين حياته على صراط مستقيم ، فليس لدينا له إلا ما سماه به أهل المعرفة ، وهو « الزهد » ؛ فمن كان يظن الزهد غير هذا فليراجع نفسه ، فليس الزهد روحانية تكفك عن السعى فى الدنيا ،

وتعزلك عن الناس ، وتجعل نصيبك الحرمان من طيبات الحياة . إنما الزهد ما تقرر فيما مضى .. قيل للزهري : ما الزهد ؟ قال : أما إنه ليس تشيعث اللمة ، ولا قشف الهيئة ، ولكنه صرف النفس عن الشهوة . . وسئل الإمام أحمد بن حنبل : هل يكون المرء زاهدا ومعه ألف دينار ؟ قال نعم ، قيل : وما آية ذلك ؟ قال : آيته أنه إذا زادت لا يفرح ، وإذا نقصت لا يحزن . وقال ابن السكيت : الزاهد هو الذي إذا أصاب الدنيا لم يفرح ، وإذا أصابته لم يحزن . يضحك في الملا ، ويبكي في الحلا ؛ أى يكون مع الناس في مؤانسة وبشاشة ، فإذا خلا بنفسه ذكر الله ففاضت عيناه . .

وسئل سيد العارفين مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال : « أما إنه ما هو بتحرسم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد في الدنيا : أن تكون بما في يد الله أغنى منك بما في يدك » ؛ والزهد ما رسم الله في القرآن الكريم : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » .

هذا هو الفاصل الذي كنا نتساءل عنه منذ قليل ، لتبين عنده معالم الحياتين ؛ فالزهد هو أن تعرف أن الله أراد لك أن تحيا في حياتين ، وأن تثبت وجودك للمادى في حياة المادة ووجودك الروحي فيما وراء المادة ، عاملا في الأولى بقوة بدنك وملكانه وعاملا في الأخرى بقوة قلبك وملكانه ، محاذراً أن تنصرف عواطفك عما في يد الله ، إلى متاع الدنيا .

فيجب أن تأكل من الطيبات ، فما خلقها الله وهو يكره أن تنال منها ؛ بل إنه دعا إليها المرسلين والمؤمنين ، فقال : « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا » وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » ؛ ولكن على أن تؤدى بذلك حق البدن ، فتأكل للوفاء بهذا الحق ، لا للذة والشهوة والمتعة الحيوانية فإن « الذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » . . للنجم زاده ؛ وللقلب زاده : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » .

ويجب أن تلبس ، وأن تتجمل بالجميل والنظيف من الثياب ، فإن الله جميل يحب الجمال . ونظيف يحب النظافة ؛ لهذا يدعوننا عز شأنه : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ » ؛ ولكن لستر الجسم ووقايته ، لا لشهوة الظهور والاختيال أمام الناس . . . وتأمل يا أخى قول الله تعالى : « عند كل مسجد » فإن الذى

يتزين للمساجد ، غير الذى يتزين للأندية والمجالس ؛ والذى يتزين لله ، غير الذى يتزين للناس ؛ والدافع الربانى الذى يحفز إلى التجميل عند العبادة ، هو دافع سام جليل ، لا يدع فى القلب مجالاً لرغبات الرياء والظهور ، فيجب أن يكون الشأن فى اللباس كالشأن فى الاغتسال والنظافة ؛ فالرجل يغتسل وينظف بدنه ، دون أن يخطر على قلبه أن هذا مما يختال به الإنسان ويلفت أنظار الناس إليه ، بل يفعله ليؤدى حقاً لجسمه وكرامته . . سأل رجل عبد الله بن عمر : ما ألبسه من اللباس ؟ قال : « ما لا يزدريك فيه السفهاء ، ولا يعيبك به الحكماء » . .

البس ما طاب لك ، على ألا تسكلف له ، ولا ياتفت إليه قلبك ، واذكر دائماً أن لباس الروح خير وأسهل من كل لباس خلقه الله للبدن : « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ ، وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » .

والحياة تقتضيك أن تزوج وأن تتناسل ، والله عز شأنه شرع لنا هذا ، وجعله من سنة الأنبياء : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » والعقل الحر ، يحكم بأن غريزة الجنس فى الذكر والأنثى ، إنما هى نوع من التكليف الإلهى ، تؤدى به رسالة إلى الحياة ، وليست وسيلة لتحصيل شهوة من الشهوات ؛ فلتنزوج لتنجب ما يريد الله من النسل وكفى ، لا لقضاء اللذة والمآرب من النساء والبنين ؛ وهذا ما يقرره الله تعالى بقوله : « فَالآن بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » . قال الإمام البيضاوى فى تفسير قوله تعالى : « وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » . واطلبوا ما قدره الله لكم وأثبتته فى اللوح المحفوظ من الولد ؛ والمعنى أن المباشر ينبغى أن يكون غرضه الولد ، فإنه الحكمة من خلق الشهوة ، وشرع النكاح ، لا قضاء الوطر . . .

للزوجة فتنة ، وللبنين حلاوة ، وقد يسرى شيء من هذا إلى القلب ، فيفسد على المرء ربانيته ، ويجعله حيوانى اللذة ، وبعيداً عن أخرى يقضى على وجوده الحقيقى ، وحياته التى يقاس بها عمره وقدره ؛ ولهذا يحذرنا الله عز وجل بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » ؛ ويشرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « ليس عدوك الذى إن قتلته كان لك

نوراً ، وإن قتلك دخلت الجنة ، ولكن أعدى عدوك ، ولدك الذي خرج من صلبك ، ثم أعدى عدوك مالك الذي ملكك يمينك » . . .

واسع في الأرض ، واضرب في منابها ، وابغ مافها من فضل الله ، ورزقه وثمره . . . على أن تظل ساعياً بقلبك في ملكوت الله . . .

اعمل في دنياك ، واجمع المال ، ولكن لا يلهينك شيء من هذا عن حياتك الأخرى ، لا يكن غرضك من جمع الحطام أن تكنز الذهب والفضة ، أو تسائر به بين الناس ، فهذه هممة السفهاء الفارغين ، والفتنة التي تدخل على القلوب عبادة المال من دون الله : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » ؛ « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

بهذا يثبت الإنسان وجوده في الحياتين ، ويؤدى رسالته في الناحيتين ؛ ويحقق معنى الزهد الذي تقاصرت عنه همم العاجزين من عباد الشهوات ، فعابوه ، وهو زينة الإنسانية ونظامها الكامل .

صعوبة تحقيق الزهد

ومن الواجب أن نقرر هنا أن تحقيق هذا المنهاج ليس بالسهولة التي تبدو على الورق ، فنحن محاطون بزينة الدنيا ومغرياتها ، من المال والنساء والجاه والأبناء وغيرها ؛ كل هذه فنن تتصافر على إثارة القلب ، وجذب خطامه إلى محيطها المعربد الصاحب ؛ وليس في ميسور المرء أن ينجو من سحر فتنة واحدة منها ، فكيف بهن مجتمعات ؟ هذا إلى أن الإنسان منذ طفولته معيد للذائد حواسه البدنية ، بخنان والديه ، وعطف دوى رحمه ؛ يهدون إليه ويلطفونه ، ويعدونهم ويعنونهم ، فلا يكون ذلك إلا بمضاحكة حواسه ومناغة غرائزه وشهواته ، فيكبر وزمام عواطفه مع زهرة الدنيا . . .

لعلهم فهمهم الحياة الدنيا ؛ فهل يكون من السهل عليه أن يؤتى كلتا الحياتين حقها ، وهو في الدنيا طلاقاً لهذا الرج الضاحك الفائق . . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعترف بهذا ويقرره في حكمة العمل الحبيب : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون » .

فما دام الله مستخلفكم فيها ، فليكن الله مستخلفكم فيها ، كما يعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجب أن نكون عمليين واقعيين أيضاً في محاولة علاجها .

المرء بين الحق والرهوى

ما موقف القلب ، حيال هذه الدنيا التى يصفها رسول الله بأنها حلوة خضرة ؟ .. لو أن الإنسان ميكانيكى التركيب ، لجعل لبدنه زراً خاصاً يدير أعضائه ، وقلبه زراً آخر يديره فى جهة أخرى ، فيستريح ويريح ... ولكن الإنسان كأئن حى ، والحياة سر مستفيض ، لا يضبط بقيود المادة وسدودها ، فما موقف القلب — وهو مركز الحياة ومعين القوى — أمام زهرة الدنيا وشهواتها ؟ ... أتجاهل غرامه وأشواقه ، أم تنزل على حكم الأمر الواقع ؟ ...

ونحب إزاء ما نلتزم من إنصاف ، أن يكون الناس منصفين أيضاً ؛ فهل يريدون أن ينطلق الإنسان فى دنياه مع أهواء قلبه بلا قيد ولا شرط ، أم لابد من قيود وشروط وتنظيم ؟ ...

لو أن القلب كان مركز للنطق وعدة التنظيم ، كما هو مركز الحياة ومعين القوى ، لنظم نفسه بنفسه ، فأخضع قواه الهائلة لمنطقه ، وسيرها فى اتجاه المبادئ التى يستحسنها ، ولكان للانسانية شأن غير هذا الشأن ؛ ولكن الله قضى أن يكون مركز التنظيم بعيداً عن القلب ، متخذاً برج قيادته فى قمة المججمة ، فالقلب مرجل البخار فى قاطرة الإنسان ، والعقل المنطقى قائدها ... فإذا كانت المبادئ التى آمن بها المنطق ، هى التى يسرى رحيهها فى القلب ، فاعلم أن السائق آخذ بزمام قاطرته ، مهيم على توجيه قواها إلى ما يشاء ... أما إذا آمن العقل بمبادئ ، وأشرب القلب بمبادئ غيرها . فاعلم أن قبضة السائق منحلة عن عجلة القيادة ، وأن القاطرة تمشى بلا عيين ، وأن صاحبها ينطلق مع هواء بلا قيد ولا شرط ؛ وهذا شأن الناس جميعاً ، أو شأن أكثرهم فى هذه الأيام .

والعجب من أمر الناس ، أنهم يعيشون منطقيين مع معداتهم ، لأنهم أخضعوا المعدة للعقل ، فإذا أفتاها أن هذه الفاكهة الحلوة سامة ضارة ، وأن هذه القثاء طيبة لا خوف منها ، نزلت على حكمه ، وأخذت بمنطقه ، وآثرت القثاء على الفاكهة ، دون أن تفتتها حلاوتها عن سمومها ؛ ولسكنهم ليسوا منطقيين مع قلوبهم ، لأنهم لم يخضعوا لمشية العقل ، فإذا قيل لها : هذا مبدأ فى الأخلاق جميل ، رفضت أن تكون كالمعدة فى الاستسلام لما يلقى عليها ... فبالت معدة الإنسان تهضم المبادئ كما تهضم الطعام ، إذن لا تنفع بالحيرين ، ولسرى فيه الغذاء ان : غذاء البدن ، وغذاء الروح ؛ ولكن للببادئ معدة أخرى ، هى المعدة العسية والقلب الشموس ... الصدق

فضيلة . والكذب رذيلة ... خبرني بربك : من من الناس يشكر هذه القضية ؟ أى عقل لا يؤمن بهذا المبدأ الجليل ؟ . ولكن أى نفس لا تستثقل الصدق عند ما يعترض المنفعة ؟ وأى قلب لا يستحلى الكذب حينئذ ذاهبا مع الهوى كل مذهب ، منطلقاً بالقاطرة على غير ما يحب السائق ... والإنفاق في الخير فضيلة ، والشح رذيلة ، ما في ذلك شك ، ولكن القاطرة تمشي في غير هذا الاتجاه ، فلماذا ؟ لأن الإنسان في حياته منطقياً مع ما يؤمن به عقله من مبادئ ، أم لأن عقله ومبادئه في واد ، وقلبه وأهواءه في واد آخر ؟

كنا نطلب إلى الناس أن يكونوا منصفين ، فهل يرضون للإنسان أن يحيا هذه الحياة ؟ هل يحبون أن يقول له : إذا ثقل عليك الصدق ، وحل الكذب في نفسك ، فلا بأس ، ما دمت تحصل منفعة شخصية ، فإن الدنيا حلوة خضرة ؟ هل يريدون أن نذم له الصدق ونمدح له الشح ، لأن المال زينة الحياة الدنيا ، والإنسان منذ طفولته معبد محب لها ؟

فإذا سأل سائل : ما موقف القلب من الدنيا الحلوة الخضرة ؟ رجونا أن يضع أمام عينه ، وعقله ، وقلبه ، هذه المفارقة الهائلة ، التي تجعل عقل المرء ومبادئه في واد ، وقلبه وأهواءه في واد آخر ، لعل أن يروعه هذا الشذوذ فيطلب أن يلازم بين هذين الشقين المتنافرين ، قبل أن يحدد حق الحلو والخصر .

الواقع أننا لا نستطيع أن نضع للقلب نظامه ، ونحدد موقفه ، إلا ونحن مقيدون بعلاج هذا الشذوذ .

هذا أول شرط وأول قيد ، أما بلا قيد ولا شرط فلا ... ولكن كيف نعالج هذا الشذوذ ؟ ونزيل هذه المفارقة الواسعة ؟ أيمكن ذلك بنقل العقل إلى وادى القلب ، وإنزاله على حكم أهوائه ؟ أم يكون بنقل القلب إلى الوادى الآخر ، وإلزامه ما للعقل من مبادئ قديمة ؟

لا شك أن المفارقة التي نريد علاجها لا تزول إلا بتقريب القلب إلى العقل ، والملاءمة بين ما في القلب من قوى هائلة ، وما في العقل من مبادئ كريمة .

فإذا عاد السائل إلى تساؤله القديم : ما موقف القلب من الدنيا الحلوة الخضرة ؟ رجونا أن يضع أمام عينه ، وعقله ، وقلبه ، أمرين لازمين :

١ — المفارقة الشاسعة التي تقم حياة المرء على شذوذ غير مقبول .

٢ — ضرورة علاج هذه المفارقة ، بعقد أواصر الألفة بين أهواء المرء ومبادئه الكريمة ؛ أى جعل أهوائه من جنس هذه المبادئ الكريمة .

لابد من التجرد

فلذا اتخذنا من هذين الأمرين قيدا ينظم لنا شأن القلب في هذه الحياة ، ألفينا أنفسنا أمام نهج واحد لا ثاني له ، ولا خير في غيره للمرء ولا كرامة : « هو تجريد القلب من كل هوى يعارض المثل العليا » . . نعم . فإن هذه الأهواء لا تسكتفي بأن تجعل عقل المرء ومبادئه في واد ، وقلبه ومشاعره في واد آخر ؛ بل إنها كثيرا ما تطفئ على العقل نفسه ، فتجرده من مبادئه وأسلحته ، أو تثملها له وتعطلها ؛ ثم تنزله على حكمها ، وتقهره على أن تنظم لها ما هي فيه من باطل وتفاهة وغى . . . وسرعان ما يقبل الوضع الجديد ، ويألفه ولا يرى بأسا ولا حرجا في هذا ؛ لا يرى بأسا ولا حرجا في أن يجمع في حقيقته التناقضات من المبادئ السكرية ، ونزوات الباطل وأهوائه ، ويمشي في خدمة هذه الأهواء كالعبد الدليل ؛ يفكر لها ، وينظم باطلها ، ويمنطق قضايها ، ويعمل في دسائسها ومكائدها بمهارة لا يدخر فيها وسعا ، ولا يألو فيها جهدا على نحو ما تراه الآن شائعا بين الأفراد والأمم . . أى أن هذا الذي كان عليه أن يقبض على أهواء القلب ، ليقود القاطرة إلى الحطة المثلى ، قد قبضت الأهواء على زمامه ، وأثقلته وراءها ليدفع القاطرة من الخلف !! إلى حيث تتردى فيما يصادفها من الحفر ، أو تتحطم على ما يعترضها من عقبات . . فهل لهذه الأهواء العريضة ، إلا أن تجرد القلب منها حتى تسلم لنا حياة الحق بيضاء خالصة ؟ .

ولكن ، ما هي هذه الأهواء ؟ وكيف تجرد القلب منها ؟ . سؤالان يخطران على قلوبنا وعقولنا ، عندما نقف على أبواب هذه المهمة الخطيرة لنشرع في إنجازها . وما حسن أن نبلغ هذه المرحلة ، ثم نسكت عن مواصلة السعى لإتمامها ، قائلين لمن معنا حسبك أن تجرد القلب من كل هوى يعارض المثل العليا . . إننا لا نستطيع أبدا أن نجرد القلب من شيء لا نعرفه ، ولا يمكن أن نشرع في مهمة غير واضحة المعالم ؛ فما هي هذه الأهواء ؟

هذه الأهواء ، هي مجموعة الخواطر والشهوات ، التي لا يمكن أن تورد على قلبك حركة ربانية ، أو نفحة سماوية نورانية . . لا يمكن أن تمنحك شيئا من هذا ، لأنه ليس من طبيعتها . فهي شهوات الجوارح الحيوانية في الإنسان ، وهي جوارح أرضية غير سماوية ، خلقت من الأرض ، ومنها غذاؤها ، وشرابها ونماؤها ، فهي لا تنفك تنو وتنفوا إلى لذة المتاع الأرضي الحيواني ، ولا يمكن أن تدرك من أرزاق السماء ومغائنها إلا بمقدار ما تدركه جوارح أي حيوان آخر . . فهي وجوارح الحيوان سيان مرعاها

واحد ، والأرض مائدتهم جميعا ، أو مذودها إن أردت منطق الفطرة الصحيح . .
ولأمر ما ، يخاطبنا جل شأنه بقوله : « مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » . بعد قوله :
« وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ... » ويقول :
« مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » . بعد أن يقول عن الأرض : « فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ،
وَعِنَبًا وَقَضْبًا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَاقَ غُلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ... » ويقول تعالى :
« وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ، كُلُوا وَارْعَوْا
أَنْعَامَكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلأُولَى النَّهَى » . . . هي مائدة واحدة لجوارح
الإنسان والحيوان ، أو مذود واحد ، أو سمها ماشئت ، بحيث لا تعدو الحقيقة ؛ فمن
أغضبت هذه الحقيقة رجوانه أن لا يغضب علينا ، وعرضنا عليه أن في السماء أرزاقاً غير
أرزاق الأرض ، يفيضها الله على القلوب ، لا على المعدات والجيوب ؛ قد أعدها سبحانه
وتعالى للممتازين من عباده بالإيمان ، لا للذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ،
فعليه أن يرفع بصره من مذود الأرض إلى مائدة السماء ، إذا أراد أن يدعى لنفسه
امتيازاً على البقر والشاء . . .

وأنت تقرأ قول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ : كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا »
وتقرأ بعده بقليل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا : كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » . . .
فكم من فرق هائل بين القولين . . هناك فرق شاسع بين : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، وَيَأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا » . . وأمد بعيد بين : « كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ ، وَكُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ »
إذ يسند هذا الرزق إلى ذاته سبحانه . . وما أحكم التناسب حين يأمر الناس جميعاً أن
يأكلوا مما في الأرض ، ثم يخص المؤمنين بالطيبات مما رزقهم من فضله .

فمجموعة الحواطر والعواطف والشهوات التي نخدم في الإنسان ناحيته الحيوانية فقط
— هي التي يجب أن نجرد القلب منها ونبتد ظلامها عنه ، حتى يظهر صقاله وصفائه ،
وتنبعث منه إشعاعاته الإلهية إلى الملا الأعلى .

وهذه المجموعة يمكن تفصيلها في الفصائل الثلاثة الآتية :

(١) أهواء تعلق القلب بمطالب البدن ورغبات الجوارح ، تعلقاً يعبد المرء للطعام
والشراب واللباس والنساء وأنواع الترف ومتع الحواس الظاهرة .

(٢) أهواء تعلق القلب بمطالب الجاه ، ورغبات العلو ، والسمعة في الناس ، تعلقاً
يعبد المرء لشهوة المنصب والسلطان أو شهوة الغلبة على النظراء والأقران .

(٣) أهواء تعلق القلب بالمال ، وتجعل منه زينة للحياة الدنيا ، وقد يطلب المال لتحقيق أحد الغرضين السابقين ، أو كليهما ، فيكون وسيلة لإشباع رغبات البدن ، أو عنصراً مؤازراً لشهوات الجاه والاستعلاء ... وقد يبدو لهذا كأنه ليس فصيلة ثالثة من الأهواء ، وهذا حق ؛ ولكن المال قد يحب في كثير من الأحيان لذاته ، كما يحب الرجل الحيل المسومة والأنعام والحراث — مثلاً — بدون نظر إلى متعة البدن ، أو شهوة الجاه ، فهو على هذا النحو فصيلة قائمة بذاتها .

هذا يا أخى هو الباطل الذى نريد أن نحرر قلوبنا وعقولنا من أوهامه ، ونجردها أو نخلصها من أثقالة وآثامه .

فإذا نحن أفلحنا ، فقد خلصت لنا الحقائق فى جوهرها الصريح ، وسلمت لنا الحرية فى لبابها الصحيح ... ولكن كيف نحرر قلوبنا ونخلصها مما هى فيه ؟

لقد تميزت لنا الأهواء الباطلة ، فكيف نزيح هيمنتها على القلوب ؟ . هل نكتب الكتابات ونحشد الجند ونعفي الجيش السكيف ، ثم نشن على هذا العدو غارة حازمة قاصمة ؟ نعم ، لابد من غارة .. فما أشبه هذه الأهواء الثقيلة بالعدو الدخيل الثقيل ، الذى يحتل ديار غيره فيقتضى فيهم بأمره ونهيهم ، ويسومهم ما لا يقبله الأحرار من فقر وذلة ! فإذا رأيت غاصباً محتلاً جلا عن مستعمرة غنية بدون معركة ، فاعلم أن الأهواء الفاسدة المفسدة يمكن أن تجلو عن « مستعمرة القلب » بدون معركة ... وإذا رأيت أمة منكوبة بالاحتلال ، ظفرت بحريتها وسيادتها بمجرد الأمانى التى تطوف كالأحلام ، فاعلم أن الأمانى السلبية والأحلام الفارغة ، كافية لتحرير القلب من محتله العنيد ... أما إذا أقنعتك الواقع بأن الأمر جد لاهزل ، وأنه لابد من معركة حامية ، تدبرها الأمة المغلوبة ، وتحشد لها كل ما تملك من إرادة وقوة ، فذلك هو الحق ، وهو وحده تمن الجلاء ، وضريبة الحرية والاستقلال ... إذا أقنعتك واقع التاريخ القريب والبعيد بهذا ، فاعلم أيضاً أنه لابد من مثل هذه المعركة لتحرير مستعمرة القلب الغالية ؛ ولكن ، كيف ندير هذه المعركة ؟ كيف نعد لها العدد والعدد ؟ ما جندها الذى يجب أن يعبأ ؟ وما سلاحها الذى يجب أن يهيا ؟ .. الأمر على خطورته بسيط غاية البساطة ، والمؤونة فيه سيرة غاية اليسر ؟ جنّد هذه المعركة هم أبناء هذا القلب ، هم شعب هذه المستعمرة القلبية ! .. وهل للقلب أبناء غير عواطفه وخواطره ؟

إن الوطن إذا استعمره العدو فلا سبيل إلى تحريره إلا أن يقوم أبناؤه ؛ ويتجمع شعبه على ذلك فإذا انصرف كل إلى شأنه الخاص ، فقد تبددت قواهم ، وخمدت جمرتهم ،

وتبعثت ذراتهم في الفضاء ، وهيئات أن يتم مع هذا الشأن جلاء العدو ، إلا أن يكون أمر من السماء ليس في الحسبان .

وكذا القلب إذا استعمره العدو . لاسبيل إلى تحريره إلا أن يقوم أبناؤه ، ويتجمع شعبه على هذه الإرادة . فإذا انصرفت كل عاطفة إلى شأنها ، ومضى كل خاطر إلى سبيله تفرق الشمل ، وانحلت إرادات القلب ؛ وهيئات أن يتم مع هذا خلاص المرء من ضلالات الباطل وأوهامه ... لا بد أن يتجمع جند القلب ، وأن تعبا إراداته المختلفة . لا بد من إرادات العواطف — أو العواطف المريدة (بضم الميم) — فالعاطفة التي لا إرادة لها هي عاطفة منحلة . وخاطر متميع لا يورث إلا الحياة السلبية الراكدة ... العاطفة المريدة هي العاطفة الفاعلة ، التي تنشئ للمرء حياته الإيجابية في الظاهر والباطن ، وما المرء في ميدان الانتاج إلا عاطفته المريدة الفاعلة ، فإذا خلا من هذه الإرادة ، فهو شبح فارغ هائم على وجهه ، هو والسوائم سيان ... فألى هؤلاء الفارغين نوجه النداء ، أن يعودوا إلى نفوسهم ، ويجمعوا خواطر قلوبهم ، ويلموا شعث إرادتهم .. فإذا تركز وجود أحدهم في إرادته ، حق له أن يقول : إن الجندي قد تهيأ للمعركة . ولا ينقصه إلا السلاح .

أيها الأخ : أول عدة المعركة أن تكون مريداً ، وأن تحذر العيش بلا إرادة ، وما ذلك عليك بعز ، إذا أردت العيش الكريم ؛ فهل ترى ذلك يكلفك شيئاً ؟ هل تراه يكلفك مالا ؟ أو تراه يكلفك جهداً ومشقة ؟ . . . إنه لا يكلفك إلا أن تجعل عواطفك صلبة غير منحلة ، وخواطرك متماسكة غير متميعة . . لا يكلفك إلا أن تراقب رجولتك ، أو مقومات هذه الرجولة . .

أيها الأخ : كن مريداً . . .

أما سلاح هذه الإرادات التي تجمعت في القلب ، وتهيأت للمعركة ، فإذا عماه أن يكون ؟ سيف ؟ بندقية ؟ مدفع ؟ نعم ، ولكن سيف من الحق لا من الحديد ، وبندقية ترمى بشهب من النار ؛ ومدفع يقذف بالحق على الباطل ، لا بويلات الرصاص والقنابل فالحق هو السلاح الذي يجب أن تزود به هذه الجنود ، فإذا زودت بسلاح آخر كانت حرباً على المستعمرة القلبية ، لالها ؛ كانت حرباً على وطنها مع الغاصب المحتل ؛ كانت كطوائف الخونة المجرمين ، الذين يعملون ضد أوطانهم مع الطغاة المغيرين . نعم ، فهذه الإرادة أو هذه الإرادات ، إن لم يمسك الحق بقيادها ، سخرها الباطل فيما يشاء من أغراضه .

فلتزود هذه الجنود بالحق ، فالحق عصمتها ، والحق سلاحها في الوقت نفسه ؟
فلتزود هذه الإرادات بهذا النور ، وهذه النار . ولكن ، كيف تزودها هذا الزاد ؟
إن كلمة الحق غامضة غير واضحة المسمى ، فكيف نضع هذا السلاح في أيدي هؤلاء الجنود ؟ .

التجرد هو الرجوع إلى الفطرة

إعلم يا أخى أن الحق مخبوء في مطاوى وعيك الباطن . . فلسنا نحملك على علم العلماء ، ولا فلسفة الفلاسفة ، ولا شيء مما يكبد الذهن ، بل نحملك إلى فطرتك المستقرة في كيانك ؟ فالفطرة وعاء الحق ، وكنانة سهامه وشبهه ، هي مستودع نورك ونارك ؛ فليأخذ كل جندي زاده من هذه الكنانة ، ولنسلح كل إرادة بسهم من هذه السهام ، فما الإرادة إلا وتر مشدود ، إذا رمى بسهم من الحق ، فهي الرمية الحاسمة في المعركة الفاصلة . . .

ونريد بهذه الاستعارات ، والتجازات ، أن يرجع الإنسان المريد — الإنسان ذو الإرادة المجتمعة — إلى فطرته ، ليرى حقائق الحياة على ضوءها ، وينظر إلى كل شيء من خلال هذه الفطرة . . إننا نرى الأشياء ، فلا نرى كل حقائقها ، بل قد نراها أحياناً على غير حقائقها ، لأننا ننظر إليها بحدقة العين المجردة ، لا بحدقة البصيرة الكاشفة . . فإذا نظرنا إلى كل شيء من خلال هذه الحدقة الأخيرة ، سطعت الأنوار على الحقائق كلها ، وتبدد كل ما يقيم على القلب من وهم وباطل .

فالفطرة هي المنظار ، أو عدسة المنظار التي تظهر من ورأيها حقائق الأشياء في غير لبس ولا خفاء . والنظرة الفطرية هي سهم نافذ من سهام الحق ، يمزق بنصله المرهف أغلفة الباطل ، التي ترين على ظواهر الأشياء أو ظواهر القلوب ، فإذا هي سافرة الحقائق جليلة المعادن والجواهر ؛ فكأن مريداً مجتمع الإرادة يا أخى ؛ وكان فطرياً في نظرك إلى حقائق الحياة . . إذا رأيت شيئاً قُبَّاسك ، ولا تدع ظواهره تغلبك ، وتسوقك معها ، أو تسوقك أمامها . . بل استجمع له إرادتك ، واتشد ، وأحضر له فطرتك ، أو أحضر له منظارك الكاشف ، وانظر من ورائه في رزانة . فإن الناظر الكاذبة تتبدد بأوهامها وخواطرها ، وتنكشف لك حقائق هذا الشيء ؛ لعقلك وقلبك .

كم من عيوب شائمة لا يظهر ما فيها من حطة ، وكم من أوضاع فاسدة لا يظهر فسادها . . . وكم خدعتنا المظاهر فقبلنا خداعها . . . وكم وجدنا الناس يقيسون

بالمقاييس الخاطئة ، فقسنا كما يقيسون . . . وكم ، وكم ، بما لو نظرنا إليه بهذه العين
 الكاشفة لبان لنا وجه الحق فيه ، وزال عنه خداع الباطل وتمويهاته . والحياة مليئة
 بهذه الأكاذيب التي خضع الناس لتخيل باطلها ، وأنت غني بمشاهدتها عن التمثيل لها ؛
 ولكنني في هذا المقام أريد أن أتحدث عن أكذوبة ضخمة ، بل عن باطلة الأباطيل ،
 التي يتسلل منها كل ما يرين على القلوب والعقول من تخيل وتمويه وأهواء ! فقد ضرب
 الباطل على أفطار هذه الكرة الأرضية فقاعة هائلة من الوهم ، فهي تغشى قلوب الناس
 وعقولهم جميعاً ، إلا من عصم الله ، وقليل ما هم ، فهم على برية يسرون ، وبوحي
 خداعها يعملون . . . أرهمهم أن الحياة طعام وشراب ، وأيام تأتي بالمساء والإحسان ،
 والعطاء والحرمان . . . فما على المرء إلا أن يجد ويكد ، ويتسلح وينافس ، فيحصل
 المال ، ويجمع الحطام ، وأن يفر جهده من الفقر ، وأن يستمسك جهده بأسباب الغنى ،
 وأن يجعل أيامه أيام سرور إن قدر ، وأن يدفع عن نفسه ما لا يشتهي إن استطاع . .
 فرسالته تتلخص — في وحي هذه الفقاعة ، أو هذه القبة الضخمة من الوهم — في أنه
 جاء إلى هذه الأرض ليأكل ، ويشرب ، ويتناسل ثم يموت ، بل ثم يختم القناء الأصم
 قصته إلى الأبد . . . هذه الفقاعة الضخمة التي ضربت أطنابها على الأرض ، فاعتر
 الناس بريقها ، ومضوا في غفلة مع وهمها وسرابها ، يتبع اللاحق منهم السابق ، ويأني
 الخلف على أثر السلف ، ويتصل بهم موكب الخليفة كالقطيع السارح النائه إلى غير
 غاية . . . لا يتساءلون : ما هذه الحياة ؟ . . . ولا لماذا نحن هنا ؟ . . . وأين كنا ؟ . .
 وإلى أين نصير ؟ . . . لا يتساءلون ؛ بل هي أرحام تدفع ، وقبور تبلع ، وبطون بينهما
 لا تشبع . . . وليس وراء هذا حكمة ولا غاية . . . هكذا تقول الفقاعة ! أفهو حق يا أخي ؟
 أحق أن الله خلقنا لنأكل ، ونشرب ، ونتناسل ، ثم نموت ؟ أترى بعين عقلك أو بعين
 فطرتك ، أن هذه الغاية النافهة ، والخاتمة الهائلة ، مما يهتم به الله ، فيخلق من أجلها
 إنساناً في أحسن تقويم ؟ . . . ويخلق بها فيخلق لها عالماً رائع الجلال ، يحكم السنن
 والنظام ، معجز الآيات والمجاهدات ؟ . . . ألم يكن كافياً لأداء مهمة الأكل والشرب ،
 أن يخلق في تقويم غير تقويم هذا المخلوق الشاعر ، المفكر ، العابد القانت الخاشع ؟ . .
 أو لم يكن كافياً لقضاءها أن يخلق لها عالماً ضئيلاً مهلهلاً ، يتناسب مع ضآلتها وتفاهتها ،
 غير هذا العالم الرائع الهيب ؟ . . . أسرف هذا من الله ؟ أم ماذا يقولون ؟ . . ثم لماذا
 خلقه ليأكل ويشرب ؟ . . هل ضاق ذرعاً بخيرات الأرض ، فخلق لها هذا المخلوق
 الأكلول ليربغ منها ؟ . . أم به غرام — حاشاه — لأن يتلهى بمنظر هذا اللعب فدأب

به حرفه نسى
 صريح

الدهر يصنع ويلهو ؟ . . إنه لتساؤل يفزع السرائر ، وتبرأ من إثم الضمائر ، وتهيج الفطرة ، فتقذف عليه ما يبطله ، فسبحان الله عما يصف هؤلاء المبطون ! إن حكمته جل شأنه أجل من أن تتعلق بمثل هذه الغاية ، وأن تخلق من أجل هذا البعث ذبابة واحدة ، فضلا عن هذا العالم الرائع الجليل ، « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخِذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ؛ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » فإذا أردت مثالا للنظر الفطري فهذا التساؤل من ألوانه ؛ وها أنت ذا قد رأيته سهلا لا تكلف فيه ، لأنه كان يفيض من قلبك وعقلك ، أو يفيض من منطق فطرتك الذي لا يخطيء ؛ وإذا أردت مثالا لمعنى من معاني الحق ، فاعلم أن الحق سهل لأعار الأفهام في إدراكه . . فهذا الشعور القوي الذي ثار بنفسك فأنسكت به وهم الفقاعة وإعماها . هو الحق نفسه ، وليس الحق شيئا غير ذلك . . ليس الحق نظريات تدرس في الكتب ، ويتعلمها المتعلمون في المدارس والجامعات ، فيمتاز بها قوم على آخرين . . إنما هو شعور يفيض في القلب ، حين ينظر المرء من خلال فطرته ، لا من خلال معدته وشهوته .

وبعد ، فهذا يا أخى بعض الحقائق الثابتة الأصلية ، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، هداانا إليها تجريد القلوب من أوهام الباطل ، وتعرضها لشموس الحقائق ، أو هداانا إليها الرجوع إلى الفطرة السليمة ؛ فإذا حقق المرء لنفسه هذا التجرد القلبي ، وعاش في نخوة الحقائق السافرة ، فإنه يقرأ سطور الحق في كل شيء ، ويشعر كأن روحا يهبط عليه من خلال كل كائن ، فإذا حياة جديدة ، وإذا يقظة جديدة ، وإذا معارف جديدة . .

أمنة واقعية لتجرد أهل الجاه والمال

واعلم يا أخى أن تجرد القلب من أهواء الجاه والملك والمال ، ليس معناه الامتناع عن تحصيله بكل وسيلة مشروعة . . ولكن على النحو الذي بيناه في الزهد ؛ فهذا نبى الله سليمان عليه السلام ، سأل ربه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، فاستجاب له ، ووهب له الملك الذي عرضنا بعض نواحيه في قصته السابقة ، فهل طلبه شهوة فيه ، ولأن نفسه نزعت إليه ؟ وهل تصرف فيه تصرف المترفين من أهل الشهوات ؟ كلا . . لم يطلبه

لحاجة نفسه ، وإنما طلبه في حاجة ربه ، وتصرف فيه على ما يحب الله . . فكان له من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، لا بوحى شيطان الهوى ، وداعى المصلحة الشخصية . وكانت له عيون من الطير تتجسس عن أحوال الناس ؛ ولكنها عيون خير وهدى ، لم يسخرها للوقعة بأحد ، بل سخرها بإذن الله في محاربة الزيغ والضلال ؛ وكان يرسل الملوك ، لا باسمه الشخصي ، ولا في رغائبه الخاصة ، بل كان يرسلهم كاشهد الله له : « **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ، وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ** » وكانت له الجيوش التي لا يقوم لها جيش في الأرض ؛ فهل أعطته القوة فسخرها لإذلال الناس ، أم سخرها لتأييد الحق والإيمان بالله ؟ وهل سير إلى سبأ جنوداً « **لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا** » إلا لأن موقفهم من دعوة الإيمان كان يلتبس بمواقف المراءوغين المساومين ؟

لهذا طلب سيدنا سليمان الملك ؛ أما رغبته ، وشوقه القلبي ، وما إلى هذا من عواطف ومشاعر ، فكان كله ناظراً إلى الله سبحانه ، متعلقاً بما عنده من مقامات عباده الصالحين ؛ وإنك لتجد مصداق ما تقول في ضراسته الصادقة لله سبحانه : « **رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** »

هذا مثال واقعي ، ساقه الله عز شأنه ، يشرح به معنى الزهد ، وكيف يكون الإنسان الصالح ملكاً محاطاً بالجاه ، وأسباب الترف والفتنة ، ونفسه ، مع هذا ناظرة إلى ما هو أرفع ، مسخرة كل ما تملك من جاه ومال وقوة في تأييد الحق ، وإرضاء الله سبحانه . . فلسنا يا أخى ندعو إلى خرافة ، وليس الدين دين تخلف عن حقائق الحياة ؛ فبعدا لكل غافل أضله هواه ، واستعبده شهواته !

اطلب المال ، واطلب الملك ، ولكن شتان ما طلب وطلب . . شتان ما طلب يبعث عليه باعث الشهوة ، والرغبة في التفاخر والتسكّر . . وطلب يبعث عليه باعث الرغبة في تطهير الأرض من المنكر ، وإقامة معالم الحق .

ويوسف

هذا سيدنا يوسف عليه السلام ، يطلب المنصب الرفيع من ملك مصر ، لا من الله كما فعل سليمان عليه السلام ؛ وليس في هذا شبهة من نقص تعلق به عليه السلام ،

فأسكل مقام مقال ، ولكل ظرف أحكامه وخصوصياته ، وطبيعة الموقف هنا وملايساته تقتضيه أن يتوجه بعواطفه الربانية إلى طلب المنصب من الملك ، تحقيقاً لما أراد الله لأهل مصر من اليسر والكرامة .

ويوسف عليه السلام يقول في ضراغته إلى الله : « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » وهى لفظة تشعرك بحسن إدراكه عليه السلام للحقائق العليا ، وأن طلب الملك من البشر فى مثل هذه الظروف لا يقل مرتبة عن طلبه من الله . وقد كنا أوجبنا أن يطلب الإنسان المال ، والجاه ، والحكم متوسلاً بكل ما يمكن من الأسباب الطبيعية المشروعة ، على أن يكون الطلب صادراً عن رغبة فى الله لا غير ، كما رأيت فى هذين المثليين الكريمين ...

وهذا يوسف عليه السلام يقول للملك مصر : « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » فهل تراه يطلب الإشراف على شئون التموين ، بالأسلوب الدنس الذى يلجأ إليه كل مستضعف مستبعد كشهوة الظهور والغرور ؟ . إنك لا ترى إلا العزة الكاملة فى الطلب ، عزة من يطلب لغيره لا لنفسه ، بل عزة من يتقدم لأداء الواجب وإنقاذ الناس من خطر يوشك أن ينزل بهم ؛ وإن روح العزة ليطالعك فى صيغة الأمر من قوله عليه السلام : « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » بينما يتأدب سليمان مع الله فى الطلب : « رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى » وأهل لنا فى قصة يوسف عليه السلام درساً يعلنا الدستور الذى تطلب به الوظائف والمناصب ، فهى تطلب بالعزة لا بالدلة ، وتطلب لأداء واجب ، وسداد ثغرة ، لاحشراً بدون موجب ، وإسرافاً فى المال العام ، وتطلب بحق الكفاءة والموهبة الصالحة ، لا بحق المحسوبية ووساطة الوسطاء والوسيطات . .

ألا تراه عليه السلام يقول إثباتاً لكفاءته فى غير زهو — طبعاً — « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » فهل فهم هذا الدرس حكمانا وشباننا ؟ . ولقد أخذ يوسف خطه من الملك ، فدفع الله به شدة عن الناس ، وكشف غما وكروبا كثيرة ، فكانت مصر فى أشد أيام قحطها وجدها ، بمنجاة من خطر المجاعة المهلكة . . أما هو فلم يفتنه المنصب عن ربه ، ولم يعلق الترف بذرة من قلبه ، وظلت بصيرته تهفو إلى ما عنده من مقامات الإحسان ، فيناجى ربه بمعنى مناجاة سليمان : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث . . فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً ، وألحقني بالصالحين » .

ورسول الله

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تنصب بين يديه أموال الجزيرة العربية ، وتأتيه أخماس الغنائم ، وتؤول إليه فداك وغيرها فيثأ خالصاً له من دون المسلمين ، فما وقف قلبه على شيء من هذا ، بل كان يصرفه لقوره في وجوه البر والمصالح العامة ، ليربط الحاجر بعد ذلك على بطنه ، ويقول لأهله : « أديعوا طرق أبواب الجنة بالجوع » فما كان جوعه عليه السلام عن إقلال ، بل عن غنى زهدت فيه نفسه ، تقول عائشة رضي الله عنها : « ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكنه كان يؤثر على نفسه » .

ولقد رأى عليه السلام جبل أحد مرة ، فعبّر عن منهجه هذا بقوله : « ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهباً تمضى عليه ثلاثة وعندى منه دينار إلا شيء لدين إلا أن أقول في عباد الله هكذا ، وهكذا » . — أى يفرقه بيديه عن يمينه وعن شماله وعن خلفه — ثم سار وقال : « إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال هكذا وهكذا ، وهكذا ، وقليل ما هم » . .

وبعد ، فهذه مثل تاريخية واقعة عالية ، تؤيد وتوضح ما قلناه من أن تجريد القلب من أهواء المتاع الأدنى ، ليس معناه قط الامتناع عن تحصيله ، والسعى إليه بكل الوسائل والأسباب الشريفة . . . إن تجريد القلب ينشئ في نفس صاحبه حاجات ومطالب لله ، فينبعث ببناء هذه المطالب إلى السعى والتحصيل . مهمة لا تقل عن همه المساعير من أهل الشهوات .

وكذلك توضح لنا هذه المثل ، مهمة المال وغيره من أعراض الدنيا ، فهي للانسان يأخذ منها كفاية بدنه لا غير ، ثم يرصد سائر لأحد الأمرين أو لسكلمها :

١ — تفريغ كروب الناس ، وتخفيف ما ينزل بهم ، وتيسير مصالحهم .

٢ — لا بد للحق من قوة مادية تسكون من أسباب حراسته ونصرته . . . والقوة مال ، وسلاح ، وجنود مدربون ، فليرصد المرء من ماله ، لينفق في هذه الأغراض ، وليعمل على الاستكثار من هذا المال ، واستخلاصه من أيدي أعوان الشر وجنوده ، بكل مايسعه من علم وحيلة ووسيلة : « فنعلم المال الصالح في يد الرجل الصالح » فإذا جاز له أن يفرح بما جمع ، فليفرح لأنفسه ، بل لأنه استكثر للحق من أسباب العون والنصر . . وهذا من مهمة الأنبياء ، ومن صميم نظرهم إلى حقائق الحياة وطبيعة الأشياء .

من صفات أهل الرومانية الاجتماعية

إنما فصلنا هذا التفصيل رغبة في الشرح والإبانة ، وقد رأيت أن مجرد خلوصك من كل ماهو باطل ، يسلمك إلى الحق الواضح ، فترى شمسه دائماً الإشعاع على قلبك ، فيقوى شعورك به على الأيام ، حتى لا يبقى فيك محل لغيره ، بل حتى كأنك لست من لحم ودم ، إنما أنت وحدة من الشعور القوى ، يستقل الحق وحده بحيزها . . فلا يفصل القلب حينئذ عن العقل ، كما كنا نذكر من قبل ، بل هو الروح القوى يتمكن من الكيان كله ، فيسلك في تباره العقل والقلب جميعاً . فإذا تحقق الإنسان بهذه المعاني ، فقد تحققت له الروحية الاجتماعية التي يحيا بها حياتين ، ويعيش بها في عالمين : جسمه في الأرض وحقيقته في السماء . . . جوارحه آخذة فيما يأخذ فيه أهل الدنيا ، ومواهبه الإلهية آخذة فيما تأخذ فيه الملائكة . . . يغدو ويروح بين الناس ، وله من دون ذلك غدو ورواح في اللاأعلى . . . ويأكل كل الطعام ويمشي في الأسواق ، وإنه ليسعى مع هذا في أسواق الله بتجارة أخرى . . والعمل من أعماله في الحقل ، أو المصنع ، أو الشارع ، أو المسجد ، يشبه ما يعمل به غيره ، ولكن شتان ما عمل في الأرض يرتد إلى الأرض ، وعمل موصولة روحه بالله ، يخترق السبع الطباق لقوره ، عليه من طيب القبول ماهو أزكى من ريح المسك : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » ، وَالَّذِينَ يَمَسْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ .

الرومانية وذكر الله

واعلم يا أخى أن ملاك الأمر أولاً وأخيراً ، هو ذكر الله عز وجل ، على كل حال ، وفي كل آونة ، فهو للقلوب كالهواء للأبدان . . . فإذا ساغ لديك أن تحيا الأجسام بغير هواء ، فقد صح لك أن تحيى حياة القلوب بغير ذكر . . . قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ : « ذكر الله للإنسان ، كالماء للسماك ، فانظر كيف يعيش السمك بعيداً عن الماء ؟ » .

هذا قول أهل الحقائق ، لأهل المجاز والخيال .

الحياة سر ، ومظهرها في الجسم الحركة . . . ومظهرها في الروح ترادف الأشواق الإلهية ، واليقظة الدائمة ، والجسم لا يكف عن الحركة ما دامت الحياة

تسرى فيه .. حتى إنه إذا نام لا تكف رثناه ولا بعض أعضائه عن العمل والحركة ..
فإذا انقطعت الحركة ، كان ذلك آية الموت .

وكذلك القلب ، يجب أن لا يكف عن يقظته الربانية مادامت الحياة الروحية
تجيش فيه ... حتى إنه إذا نام صاحبه ظل على يقظته وانتباهه ، وهذا تفسير ما وُصف
به صلى الله عليه وسلم ، من أنه : تنام عيناه ، وقلبه لا ينام ، وتفسير أن رؤيا القلب
الصالح ، تأتي كفلق الصبح ، وهى جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، فإن
الله سبحانه يرسل للبشرات بأمر من نبأه ، فالقلب اليقظان يحس بها فيلتقطها ، كما
تلتقط الأجهزة اللاسلكية السليمة ما فى الأثير من إشارات ... أقول : إن يقظة
القلب ، مظهر سريان الحياة الروحية ، فإذا كف عن يقظته ، وانطفأ نوره وأظلم ،
كان ذلك آية الموت ، على مثال ما تقرر فى الجسم ... فذكر الله — على هذا — لازم
لنا فى كل وقت ، وعلى كل حال ، حتى يستمر مدد الحياة وارداً على قلوبنا .

ومن حسن الحظ أنه ليس من أسهل على الإنسان ، ولا أحلى فى قلبه من
ذكر الله ... فإذا كان فى الصلاة مشقة على بعض النفوس وإذا كان فى الوضوء
ما يشبه الحرج لبرد أو نحوه ، وإذا كانت الصدقة تثقل أحياناً ، وإذا كان الزهد
— على ما بيناه — يشق على الإنسان ، وإذا كان عمل الجنة حزناً^(١) ربوة كما
يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم — فاعلم أن ذكر الله على كل حال ، وفى كل
وقت ، يدخل على النفوس من الأسرار والأنوار ما به تزول كل مشقة ، قال صلى الله
عليه وسلم : « من عجز منكم عن الليل أن يكابده ، وبخل بالمسأل أن يتفقه ؛ وجبن
عن العدو أن يجاهده ؛ فليذكر الله عز وجل » .

بل إن هذه الأعمال إذا سهلت عليك ، لانتبث أن تصير لدى نفسك من
الضرورات التى تشتتها ، والتى لا تطيق عنها صبراً ؛ فإنه يروى أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، كان إذا انتظر الصلاة هامت إليها أشواقه ، فيقول : « أرحنا بالصلاة
يا بلال » ؛ ألا ترى إلى عباد البطون حين يصيحون بحمدهم أو أهلهم : أرحونا
بالطعام يا هؤلاء ؛ والله ولرسوله المثل الأعلى .

وعلى محمل هذه السهولة ، أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « إن الجنة
أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » وعليه ، فلا تضارب بين الحديثين ، فهو يقول

(١) الحزن بفتح فسكون : الطريق ذو الحجارة والعقبات التى يصعب معها المسير .

للمقصرين في ذكر الله : « إن عمل الجنة حزن بريوة » ويقول لمن ذاقوا حلاوته ،
ووجدوا سره وبركته : « إن الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » .

معنى الذكر على كل حال

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدوة الداكرين ، فاتخذ قدوتك ، تر المثال
العالي في تحقيق الذكر على كل حال ، فقد كان عليه السلام يذكر الله إذا تناول الطعام
ويذكره إذا قام عنه ، فإذا شرب أو انتهى من الشراب كان على ذكر . . . فإذا خلغ
ثوبه أو لبسه ، وإذا خرج من بيته أو دخله ، فله في الذكر صيغ ماثورة ، وإذا أوى
للنوم أو نهض منه كان أول ما يسبق إلى لسانه ذكر الله ، بل إنه إذا تقلب من الليل
لا يخطر بباله إلا اسمه سبحانه . . . وإذا خرج إلى سفر أو عاد منه ، وإذا ركب دابة ،
أو دخل قرية فكل هذا بذكر ؛ وإذا لبس جديدا ، أو دخل سوقا ، فالله حاضر
في كل ذلك ؛ وإذا فزع من النوم أو أرق ؛ وإذا أراد جلب رزق ، أو حفظ نعمة
أعجبه ؛ وإذا أراد دفع هم وضيق أو قضاء دين . . . وإذا زار المقابر ، وإذا أمسكت
السما وأراد الاستقاء ، وإذا هاجت الريح أو أرعدت السماء ، أو نزل الغيث ، أو فاض
للطر وزاد على الحاجة ، أو رأى هلالا جديدا ، لم يكن له صلى الله عليه وسلم من شأن
في هذا كله ، إلا تنبه قلبه لله سبحانه ، فيجري لسانه بما يشاء من صيغ الذكر .

طبيعة الذكر في نفس الرسول

ولا نستطيع أن نورد هنا أحواله كلها صلى الله عليه وسلم ، فعلى فوق الحصر ،
وقد جمعت كتب السنة كل مارواه الرواة منها ، وأوردت ما كان له صلى الله عليه وسلم
من صيغ الذكر في كل . . . مما يريك حياته كلها مصورة في عمل وذكر .

كان عليه السلام شديد الإحساس بمعنى العبودية . . . لا يغيب عنه أنه عبد لله
يعمل في ملك سيده ، فوق أرضه ، وتحت سمائه ، باسمه سبحانه ، لا باسم شيء آخر ،
لا يعزب ذلك عن عقله وقلبه لحظة ؛ فهو عبد رباني ، يرى شرفه في العبودية ،
وحياته في ذكر مولاه ، ليس له في الملك مثقال ذرة ، قائم بحق ذلك كله حق القيام
يرى الانحراف عنه ، أو التقصير فيه ، هو الهلاك المفزع ، فيسبى ويقول : « بمعنى
على مثل حد السيف ، إن زغت عنه هلكت » ويدعو : « اللهم لا تكني إلى نفسي
طرفة عين ولا ما هو أقصر من ذلك » .

الاقتداء بنهج الرسول

وليس في طوق أحد أن يسمو في الذكر إلى أفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن في طوقه أن يجعل هذا الرسول العظيم قدوته ، فيقتفى أثره ، وينسج على منواله ، ولن يتكلف في هذا مجهودا بدنيا يذكر ، أو مشقة نفسية تثقل عليه ، فما هو إلا أن يكرن راعبا في معية الله ، وأن يتمثل عبوديته له ، ويستحضر له قلبه ، حتى يبدو له السكون حيا قويا ، منفعلا بروح الله فيه ؛ وحتى يرى نفسه عبدا ربانيا ، ليس له من الأمر شيء ؛ فالشرية يشرعها تحدتث أنها فضل الله عليه ؛ واللقمة يلقيها مخاطبه أنه يأكل مالا حول له فيه ولا قوة ، والعاصفة يراها ، فتقول له : يا هذا إنما تدفعني يد الله ... وهكذا يتأثر وجدانه بكل شيء ، ويؤثر كل شيء في وجدانه ؛ فيكون له في كل حال حديث خاص ، ومعنى رباني معين .. أو قل : يكون له في كل حال ، صيغة من الذكر خاصة ، يصوغها له دوام حضور الله في سيرته ... وخير صيغ الذكر ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن قلبه خير القلوب الذاكرة ، وآيات الله وأنعمه تؤثر فيه أبين الآثار ، وتنطق فيه بأصدق صيغ الحمد والشناء عليه سبحانه ؛ وصدق هذه الصيغ ، تلجحه في مطابقتها لمقتضى الحال تمام المطابقة ، فإذا لبس المرء جديدا ، وللجديد لذته أو فتنته وغروره ، فموقف العبد الرباني الكامل في هذا المقام أن يقول : « الحمد لله الذي كسانى هذا بلا حول منى ولا قوة » ... وإذا ودعت مسافرا ، والمسافر قد أعد لنفسه عديتين : الزاد من الطعام أو النقود ، وعدة الرجاء الذي يرجو به نجح مسعاه ، فموقف المودع هنا ، أن يفيض قلبه بالذكر بما يقتضيه المقام : « زدك الله التقوى ، ووجهك إلى الخير أينما كنت » ... وإذا لقيت قوما تسكرهم في الله ، أو أدخلت على سلطان مخوف ، فهل لك عدة غير الله أيها الذاكر ؟ إذا قل : « اللهم إنا نجعلك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » ... وإذا دخلت سوقا — والسوق هو الدنيا مصغرة مجموعة في مكان .. هو الدنيا بلهوها وغفلتها ، وهو الدنيا بزيتها ومالها ، وهو الدنيا بأطباعها وتناسفها ومكائدها وهو الدنيا بأرباحها وخسائرها .. وما ينسى الإنسان نفسه وربّه كما ينسى في هذا المكان — فالذاكر المعتصم بالله ، يدخل السوق على ذكر يدفع عنه الغفلة ، ويصونه أن يصبو إلى المتاع الزائل ، فيستفتح رؤيته بقوله : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير » .

نحو الربانية

ولسنا بصدد استقصاء صيغ الذكر الماثورة عنه صلى الله عليه وسلم ، فليطلبها في كتب السنة من أراد الخير لنفسه ، فمن عز عليه أن يحفظ ، أو شق عليه أن يجد الكتب ، فليستقبل أموره وأحواله كلها بهذا القلب الرقيق ، فإنه يرى نفسه وكأنه يقرأ في وجه كل أمر ، كلاماً ربانياً ، هو صيغة ذكره المناسبة للمقام .. وبهذا تطرد الحياة في القلب . والحركة في الصدر ، واليقظة في الملكات ، فيكون الإنسان حياً في الظاهر ، وحياً في الباطن .. تتصل الحياة الخارجية بحياته الروحية ، وتتصل حياته الروحية بالحياة الخارجية ، ولكل منهما أثر في الأخرى ، وصدى يتردد في آفاقها ، فتلبس دنيا الشخص حلة من السباحة والبشاشة والسهولة ، وتمحى الكزازة وتعتيدات النفوس الشجيحة ، أو على حد تعبير الأخوان : « يتطهر محيطه من جرائم الفساد الاجتماعي ؛ فكأن الربانية هي الظهور القاتل لهذه الجرائم ، وكأن قلبه مضخة إلهية تبث هذا « المطهر » في المجتمع فتظهره وتنقيه » ؛ وليس هناك معنى للربانية الاجتماعية غير هذا .

هذا واجبك أيها الداعية

والآن فإذا عجز الناس أن يحققوا لأنفسهم هذا المنهج الفاضل ، فأنت أيها الداعية لا بد أن تفعله ، وأنت المقصود قبل غيرك بهذه الكلمات .. لا نطلب إليك أن تكون مفطوراً على العصمة ، والعزوف عن المتاع الأدنى ، وإنما نطلب أن تكون لك مجاهدة قوية ، دأمة غير منقطعة ، تصل بها نفسك — على قدر استطاعتك — بروح المبادئ التي تدعو إليها ، حتى تكون ممتازاً ممن تدعوهم ؛ فليس سائفاً في العقول أن يكون الداعية كالمدعويين في احتياجه إلى البر الذي يدعو إليه ، أو أشد منهم حاجة ؛ ودعني أذكر لك بصراحة ، أن هذه الروحية هي وحدها مصدر إلهامك ، وفقهك لدعوتك ، هي .. الجهاز النابض الفعال في حياة الداعية إلى الله ، هي (الدينامو) المولد لقواه العاطفية ، وإلهامات مداركه الباطنية ، وما ملكاته البيانية ، والفكرية ، واتجاهاته العملية ، إلا آلات تتحرك ، لتعبر عن هذه القوى السيالة ، تعبيراً بيانياً ، أو عملياً ؛ فإذا خلا الداعية من هذه الروحانية ، فقد خلت حياته من (الدينامو) ، وظل باطنه فارغاً خرباً ، ليس فيه ما يحرك أو يلهم ؛ فإن هو سلك نفسه مع هذا الحرمان في سلك الدعاة ، فهو شخص دخيل أناني ، لا يريد في الحقيقة أن يدعو إلى الله ،

وإنما يريد أن يدعو إلى نفسه ؛ فاحذر يا أخى أن تكون في هذه المزلّة إن الطريق إلى هذه الروحانية أو هذا (الدينامو) سهل ، إذا جمعت همّتك على المضى فيه ، هو تقوى الله تبارك وتعالى على النحو الذى بيناه سابقا ، أو على نحو أفضل منه إذا استطعت ، والله إن بحرمك ثمرة خطوة واحدة تسيرها في هذا الطريق المبارك المأنوس ، فهو الذى يقول ، وهو أصدق القائلين : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم » ، فهذا الفرقان هو الروح الملهمة التى شبهناها (بالدينامو) فى عالم الآلات والحركات .

بعض معالم الطريق

ولا بأس هنا أن نضيف إلى ما تقدم معالم توضح للانسان طريق هذه الحياة وتؤنس فيها ، وتعينه على متاعها .

أولا : أن يكثر مطالعة كلام الله عز وجل ، فهو جلاء البصائر الكليّة ، وشفاء الصدور العليلّة . . . فإذا لزم قراءته فى تمهل ، وترؤ ، انفتحت أغلاق قلبه ، وسطعت أنوار القرآن وبشاشته فى آفاق نفسه ، وإلى هذا يدعوننا الله تبارك وتعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ! » . . . وكان عليه السلام يديم قراءته ويسأل الله : « اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي » . وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ بأيدي أصحابه إلى هذا المنهل العذب ، ويفتح أعينهم على أنواره وأسراره ، فقد روى أبو سعيد الخدرى عنه عليه السلام : « أعطوا عينيكم حظها من العبادة ، فقالوا : يا رسول الله ، وما حظها من العبادة ؟ قال : « النظر فى المصحف ، والتفكير فيه ، والاعتبار عند عجائبه » ويقول عليه السلام : « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد » قيل : وما جلاؤها ؟ قال : « تلاوة القرآن وذكر الموت » .

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى : « وعرضا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ، الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ، وكانوا لا يستطيعون سمعا » أنهم هم الذين يعرضون عن القرآن والتأمل فى معانيه ، والتدبر فى آياته . . . وليس هذا بعزيز عليك يا أخى ، إذا أردت أن تأخذ بالأسباب ، وتدخل البيوت من أبوابها ، وتدفع الثمن الذى يسلكك فى أرباب القلوب من الدعاة ؛ أما الاغتصاب بدون مقابل ، فهبات أن يغتصب أحد من الله موهبة من المواهب . . . الاغتصاب شأن قطاع الطرق ، لا شأن الدعاة إلى الله .

ثانياً : أن تكثر مصاحبة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيرته المطهرة ، مصاحبة وجدانية عميقة ، تجعلك في مجلسه عليه السلام إذا جلس ، وفي ركابه إذا ركب ، وفي معيته إذا سار ، وتسمعك قوارع وعظه ، وتسرب إلى قلبك رقة مناجاته إذا ناجى ربه في جوف الليل ، أو في خلوات النهار ... وتصل عواطفك بعواطفه صلوات الله عليه ، حتى تكاد تشعر بخلجات قلبه العظيم إذا غضب ، وبشاشته وسماحته إذا تسهل لشيء وتهلل ، ... وتسلكك في صفوف المؤمنين به ، فأنت معهم حين يسامون العذاب . تألم كما يألمون ، وتهاجر كما يهاجرون ؛ تهاجر معهم بوجودك وخيالك وعواطفك ، إلى الحبشة أو غيرها من بلاد الله .

فإذا شرع له الجهاد في المدينة ، فأنت تحت لوائه المظفر ، تشهده ممتطياً صهوة جواده ، وقد لبس لأمة الحرب ، وتقلد السيف ، وأخذ برمحه ، فهو فارس الميدان ، وقائد الفرسان ، تزهو عيناه الشريقتان من تحت مغفره صلى الله عليه وسلم ، فما يصعد شرفاً ، ولا يهبط وادياً ، ولا ينال من عدو نيلاً ، إلا وأنت معه عليه السلام ، تكاد تضرب إذا ضرب . وتقدم إذا أمر ، وتقديه بما تملك ، وتحوطه بكل ما في سويداء قلبك من حب وعاطفة ...

صاحبه عليه السلام هذه المصاحبة الكريمة ، فإنها تدخلك في محيطه النبوي الكريم ، فيلين قلبك بتيارات روحه صلى الله عليه وسلم ، ويصفو طبعك ، وتهذب غرائذك ، ويستبين لك النهج الصالح ، والغاية العليا من الحياة ، وكل هذا من الروحانية الاجتماعية التي ندعوك إلى رعاية حقوقها .

ثالثاً : محبة الأخيار والصالحين وأهل المعرفة بالله ، إذا وجدت إلى صحبتهم سبيلاً ؛ ومن علامتهم الاشتغال بعبوب أنفسهم عن عيوب الناس ، والزام أمر الشرع ونهيه في صدق وطاعة ، والقيام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوة وإيمان ، وما تحدثك به نضارة وجه أحدهم عن سعادة قلبه برزق السماء لا برزق الأرض ، وفضل الله لا فضل العبيد ، فلا يمد عينه إلى ما متع به سواه من زهرة الحياة الدنيا . محبة هؤلاء تلين القلوب ، وتطهر من الذنوب ، وهي بيئة طيبة ، يحيا فيها القلب حياة طيبة .

رابعاً : غرض البصر ، والعزوف عن مجالس المنكر ، فنجن في عصر تقذفنا موجته المادية بالإباحة التي تكاد تكون مطلقة من كل قيد ، فالمرأة متبرجة بزینتها لكل من يهوى ، وأهل المنكر يستغلون برذائلهم تحت سمع الناس وأبصارهم ، والعرف غدا

لا يشور بها ، بل قد يتلقى ذلك أحياناً بالقبول والاستزادة ، . . . والنظرة يا أخى
يريد الشيطان إلى القلب . وركون النفس إلى مجالس المنكر يطفى ثورتها عليه ،
ويسلبها الشعور بكرهته . . .

فغض البصر ، ومقاطعة هذه المجالس — يقمان حولك سورا منيعا ، يحفظ قلبك
من شرور هذه الإباحة وسمومها ، ويرد عنك ضربات موجاتها المتتالية .

لقد سألت أحد الإخوان : ما العمل والموجة المادية يتوالى سيلها ، حتى غمر قلوبنا
وأفسدها ؟ فأجابه صاحبه : أقم حولك في الحال سورا يحفظك مما ترمىك به هذه
الموجة ، ثم اشرع في رفع ما في داخل هذا السور من آثارها وبقاياها ، واقذف به
إلى خارجه ، حتى يحف محيطك ، ويفيق قلبك مما يغمره ، ويتنفس من الهواء النقي
الظهور . . . هذا السور هو غض البصر ، والعزوف عن مجالس المنكر . . . ورفع
البقايا التي بداخله ، هي تخلص النفس مما دخلها من غريب العادات وفاسد الأخلاق . . .
وهذا أيها الأخ جهد لن تجد في تكلفه مشقة ، إذا أردت أن تدعو إلى الله
بقلب سليم .

خامساً : وعليه بدراسة أحوال الروح ، وعالم ما وراء المادة ، في القرآن
والحديث ، وأقوال الصحابة والتابعين والصالحين ، ودراستها في معجزات الأنبياء
وكرامات الأولياء الصادقين ، ففي كل ذلك أوصاف نظرية ، أو حقائق عملية ، تكشف
للإنسان كثيراً من هذه الأسرار الجليلة .

والإسراء والمعراج ، والنار التي صارت برداً وسلاماً على إبراهيم ، وغير هذا
مما يطالعك في القرآن الحديث أنواره وأسراره ، إن هو إلا عرض عملي لعجائب هذه
العوالم العليا ؛ فعليك بهذا الباب من حقائق الوجود ، وحذار يا أخى أن تحاول تحليل
شئ من ذلك تحليلاً علمياً طبعياً ، أو تفسيره بمقتضى العقل والمنطق ؛ فهو من أمر ربى .
وأمر ربى فوق قوانين الطبيعة ، ومتناول العقل : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .
ولا بأس أخيراً من قراءة ما كتبه المحدثون ، ولكن حذار الفتنة بما كتبوا ؛
فعليك أن تعرض كل ما تقرأ لهم على الكتاب والسنة ، فما وافقهما فهو الحق ،
وما خالفهما فهو الباطل ، وما سكتا عنه فاجعله تحت التجربة والاختبار . . .

دراسة ما وراء الطبيعة ، تعود الإنسان الإيمان بالروح ، وغيب الله الرهيب الخطير ،
مما لا سبيل إلى فهمه إلا بالقلب ، فتتفسح آفاق نفسه ، وتنشط الحياة الروحية
في كيانه الباطنى .

سادساً : ولقد قدمنا الفكر والذكر ، ونقول الآن الصلاة والصيام ، وأنواع العبادة والقربات . . . والصلاة أيها الأخ هي : وقوفك أشرف موقف في هذه الحياة ، بين يدي الله العلي الكبير ؛ وإن وقوفك هذا للموقف خمس مرات في اليوم ، لكفيل أن يصلحك بالله ، ويجعلك منه في شيء كثير ؛ وليس مما يصعب عليك أن تجعل الصلاة صلة بينك وبين الله ، فإذا اتصلت به وأحسسته ينظر إليك ، ويطلع عليك ، ويملاً محرابك من حولك ، فوقفت خاشعاً مطرقاً ، وقوف العبد أمام سيده ، وأخذ قلبك يخفق بهيبة الموقف ، ورقة الخشوع . . . إذا اتصلت بالله عز وجل خمس مرات في اليوم هذا الاتصال أو بعضه ، كنت ذا قلب حي ، تفيض منه الروانية ، وكنت أهلاً لأن تدعو إليه ، وتتحدث عنه ، حديث العارف ، الذي يجد في قلبه مادة الحديث . . أما إذا لم تتصل فلم تكن من المصلين ، أو صليت وكنت من الساهين ، فابحث عمن يدعوك إلى الله ، قل أن تسير في زمرة الداعين إليه

ولا بد لك أيها الداعية من نوافل شتى في العبادات ، تتقرب بها إليه سبحانه ، فأنه تبارك وتعالى يقول في الحديث القدسي المشهور : « ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به . . إلخ » ؛ وأن تجعل أكثر ما تتقرب به من الصلاة والدعاء والفكر في جوف الليل . . لا بد من هذا ، فأنت داعية ، والدعاة طراز فوق مستوى العامة ، والنوافل في حقهم ترتفع إلى مرتبة الواجبات ، وقد عقد كثير من العلماء فصولاً رائعة قوية ، بينوا فيها أن النوافل في حقه صلى الله عليه وسلم فرائض . . ولهذا كان عليه السلام يقوم الليل — كما تقول عائشة — حتى تنفطر قدماه .

فهذا الزاد من تقوى الله ، وقيام الليل ، عدة الداعية على أمر دعوته الثقيل فهل ترى يسير المرء بغير زاد أو عدة ؟

قد يقول بعضهم : وما له وكل هذا ؟ ونقول : وما لنا ومالك ؟ إنك تريد أن تكون داعية ، فوصفنا لك بعض الأعباء ، فإن رأيته فوق طاقتك فأنت ما استطعت ، وإلا فإن الله قد عذر أمثالك ، فالزم صفوف الضعفاء ، واتق الله في هذا الصف الخطير .

وبعد : فاعلم يا أخي : أن الليل مركب الصالحين إلى الله ، ونواشيء الأسحار أجنحة أهل الأشواق والوجد الإلهي ، : « وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » « وأقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل » « ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً » « ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » .

الروحانية الاجتماعية والاعتزالية

وزيد أن ننبه هنا إلى أمر دقيق هام ، هو أن هذه الروحانية الاجتماعية يجب أن تكون لصاحبها ولغيره ، أما الروحانية الاعتزالية التي تقبض صاحبها عن الناس ، فلا يتصل بهم ولا يتصلون به ، ولا يعلمهم ولا يتعلم منهم ، فهي روحانية الضعفاء والأنايين ، روحانية الضعفاء الذين لم يستطيعوا التماسك أمام الشر والفساد ، ففروا إلى العزلة واعتصموا بها ، وروحانية الأنايين الذين ييغون السعادة لأنفسهم فقط ، وهي على ما فيها من جمال الوسيلة وسمو المقصد ، نوع من المرض .

قد تضع الشاب الجلد القوى في قصر جميل ، مؤثث بأثاث أنيق ، تفد عليه الأرزاق كل يوم بأطيب الطعام . . . وتبيح له أن يقيم في هذا الترف ، ويستمتع بهذا النعيم ، ولكنك لا تبيح له أن يخرج من القصر للرياضة والمشي وتنشيط الجسم .

وسيقم الشاب في نعيم القصر ، وبأكل منه ، وسينمو جسمه بلا شك ، ويسمن لحمه بلامراء ، ولكن لاجدال في أنه لحم ترهل غير مكنز ، وأنه عارض من عوارض المرض وليس سمة من سمات الصحة والقوة . . . فإذا أكل الشاب ثم خرج للرياضة والمشي ، وجعل حياته بين القصر والخارج ، والأكل والحركة ، استقام أمر الجسم واطرد نموه على قانون الصحة . . . فالأكل بلا حركة ، نذير المرض ، كالحركة بلا أكل سواء بسواء ، وكذلك الذي يعتزل الناس ويخلو للعبادة والتقوى ، زاعماً أنه يربي روحه بهذا الزاد المبارك . . . ستفتح آفاق نفسه بلا شك ، وستنمو روحه وتتسع بلا مراء ، ولكن لاجدال في أنه نمو الترهل والمرض ، لانمو الصحة والقوة . . . الروح تتغذى كما يتغذى الجسم ، وتترف كما يترف الجسم ، وتعرض كما تعرض ؛ الجسم يتغذى بالأطعمة الأرضية ، والروح تتغذى بزاد السماء ؛ والجسم يترف بطيب الطعام ، والركون إلى لين المهاد ؛ والروح تترف بطيب زادها من العبادة ، وركونها إلى مهاد العزلة المريء ؛ فإذا أفضى ترف الجسم إلى مرض ، أفضى ترف الروح إلى مرض يقابله .

قانون الحياة الطبيعية أنها تمنحك الطعام ، لتمنحها أنت العمل والحركة ، وتكون بين عناصرها عنصراً مشمراً نافعاً ، وفي هذا تقدمها وعمرانها ، كما أن فيه صحتك وسعادتك . . . فإذا منحتك الطعام ، ومنحتك السكسل والركود ، فقد خالفت القانون وعرضت نفسك لقواء النافذة الجارفة ، ومن عرض نفسه لسنن الله تهدم وانحطم .

وقانون ما وراء الطبيعة ، أنه يمنح روحك الزاد ، لتمنحه أنت العمل والحركة وما العمل والحركة هنا ؛ إلا أمر معروف ، أو نهى عن منكر ، أو إزالة باطل ،

أو ثورة على طاغوت جائر ، أو إقامة نظام عادل تستقر عليه الفضيلة ، وتحقق المساواة والمواسة ، فإذا منحك الزاد ومنحته العزلة والانقطاع ، أفسدت نفسك بالوقوف عن مسامرة سنن الله ، وعرضت نفسك لما ينجم عن هذا التخلف من سقم ومرض . فالسلامة في مسامرة قوانين الوجود . والضعف والسقم . بل الاضطراب والخلل في معارضتها والتخلف عنها .

فعلى الداعية إذا أحس من نفسه هذا الانقباض إلى العزلة أن يقاومه ، وأن يتوجه بتيارات روحه إلى الناس ، يعلمهم وينير لهم الطريق ، ويفتح عقولهم وقلوبهم على حقائق الحياة . . . يعرض عليهم نماذج من عبادته الصادقة ، ومواعظه الحسنة ، ومعاملاته المستقيمة ، وتوجيهاته النافعة ، وغير ذلك مما يتم به التأثير وتكامل القدوة . إنك داعية ، والداعية مسئول عن رعيته ، فإذا غاب عنها فقد تخلى عن واجبه ، وعرض أمته لعبث المبطلين ، وغواية الشياطين ، وإن يسوغ له هذه العاقبة بحال من الأحوال ، أنه حسن النية في الخلوة بربه ؛ وإنا نقرأ في كتاب الله عز وجل ، أن عملاً كهذا سبق من موسى عليه السلام ، فأوقفه الله به موقف الحساب والمواخذة لأن شعباً بأسره ضل بغيابه عنهم : « وما أمجلك عن قومك يا موسى ؟ قال : هم أولاء على أئري ، وعجلت إليك رب لترضى ، قال : فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري ، فرجع موسى لى قومه غضبان أسفا » .

وإنا لنرى في سيرة سيد البعثة صلى الله عليه وسلم ، أنه لم يلجأ إلى هذه العزلة مرة واحدة منذ أمره الله سبحانه بالدعوة والتبليغ ، فقد ظل مع أصحابه وأتباعه لا يفارقهم ، فهو معهم في المسجد ، والسوق ، والحقل ، والبستان ، وسائر مجالسهم ؛ وكان يصحبهم في حروبهم ومواسم حجهم ، ويوزرهم في بيوتهم ، ويعود مرضاهم ، ويشيع جنازاتهم ويحاملهم ويواسيهم ، ويشاطرهم ما ينزل بهم من خير وشر ؛ وهو فى كل ذلك مصدر رشاد وهداية ، وزاد لقلوبهم وأرواحهم ، ونور يمشون به إلى الله عز وجل . . . نعم إنه كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، ولكن أين كان يعتكف إنه كان يعتكف فى مسجده الشريف فى وسط المدينة . . . والمسجد كما كان دار عبادتهم ، كان دار ندوتهم ، ومجلس شورايم ، وما كان ينقطع دخول الناس فيه ليلاً أو نهاراً ؛ فهو اعتكاف أشبه بمخالطة ، ومخالطة أشبه بعزلة ، وهو على أى حال اعتكاف لا يعزله عن الناس ، ولا يعزل الناس عنه ، ولا يدع الرعية للسامري بدون راع . .

شكا أحد الإخوان فقال : كان لى من العبادة كذا وكذا قبل انتظامى فى جماعة الإخوان المسلمين ، وكان لى من سهر الليل كيت وكيت ، وكان لى من الخلوات والعزلة

ملا أزال أذكر حلاوته وهناءته .. وإني لأحن إلى تلك الأيام ، وأتمنى العودة إليها ، ترى هل جنت علينا الدعوة ، فأضعفت عزائمنا عن العبادة ، وصرفتنا عن الله ؟ فقال له صاحبه : لا يا أخى ، إن أيامك هذه خير من الساعة ، فقد كنت معتقلا فيها مضى ، فأصبحت الآن حراً طليقا ، كانت روحك محبوسة عن العمل ، فأصبحت الآن تعمل ، والعمل قانون السلامة وشارة الصحة .. كانت روحك في معتقلها تأكل ، وتستمرى البطالة والكسل ، أما الآن فهي في ميدانها الطليق ، تأكل وتمنع الحياة من ماتا كله .. قد تقول : إن زادها في معتقلها كان كثيراً ، واليوم أصبح قليلا .. ونقول لا بأس ، فالزاد القليل إذا أثمر عملا مباركا ، خير من الزاد الكثير إذا لم يشمر شيئا مذكورا » والأكل بلا عمل نذير الهلاك ، كالعمل بلا كل سواء بسواء » فلا تمن أيامك الأولى يا أخى ، واحمد الله على أن فتح لك ميدان هذه الدعوة الكريمة ؛ وكل ما أرجوه لك ، وأنصحك به ، أن تضاعف العمل لتشتد حاجة روحك إلى القوت فيعظم إقبالك على العبادة ..

وبعد : فهذا فهمنا للروحانية الاجتماعية ، وهذه حملتنا على الروحانية الاعترالية ، فلا تعتر يا أخى بأهل العزلة — إن وجدوا في هذه الأيام — وبما يظهر لهم من الخوارق والكرامات ؛ فكفاهم إنما أنهم يعطلون فريضة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؛ وكفاهم إنما أنهم يعطلون فريضة الجهاد ، في وقت أصبح الجهاد فيه فرض عين على كل من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر .. كان عبد الله بن المبارك يرباط في سبيل الله بشعر من شعور المسلمين ، وكان صديقه الفضيل بن عياض منقطعاً لعبادة الله في المسجد الحرام بمكة ، فكتب إليه عبد الله يقول له :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان مخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تنخضب
أو كان يتعب خيله في باطل نخلولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبرنا رجع السناكب والغبار الأطيب

ولقد كتب ابن المبارك هذا الكلام لصديقه في وقت لم يكن فيه الجهاد فرض عين ، ومع هذا وصف عبادته بأنها لعب ، وهى عبادة تقع في أشرف بقعة على هذه الأرض . ترى ماذا كان يقول ابن المبارك لصديقه ، لو أن الجهاد يومئذ كان فرض عين ؟ وماذا كان يقول عن العبادة لو أنها كانت في غير المسجد الحرام ؟

لا يصح للداعية أن يطاوع نفسه في العزلة مهما زينت له المقاصد والأسباب ،
فصومعة الداعية ميدان دعوته ، ومحاربه الذي يستنزل فيه من الله الهدى والمعونة هو
العمل لحرب الناس ، وإن الله يتجلى على العاملين في ميادينهم بأفضل مما يتجلى على العابدين
في محاربتهم ، وما أبعد الفرق — يا أخى — بين من ينهض إلى الله يوم القيامة ومعه
أمة ، ومن ينهض إليه وليس معه إلا نفسه .

أثر هذه الروحانية في الدعوة والداعية

ونريد أخيراً أن نجمل نفع هذه الروحانية للداعية فيما يأتى :

أولاً : إن الداعية — كما ذكرنا — طبيب يعالج الإنسانية من علتها الكبرى
التي تتسلل منها سائر الأمراض . ومعلوم أن دواء هذه العلة ، ليس مما ينبت في حقل ،
أو يخرج من منجم ، أو يركب في صيدلية ، إنما هو روح إلهسى في قلب العبد المؤمن ،
يشيع الربانية في قلوب المرضى ، فإذا هي شفاء ورحمة ، ونور وقوة ، ورضا وبهجة .
فهذا القلب الحى الكبير هو « الصيدلية الإلهية » ، وكل كلمة تصدر عنه ؛ هي « علبة
دواء » أو « حق » فيه شفاء .. فما لم تسكن أقوال الداعية وأفعاله صادرة من محيطه
الروحانى ، متبعثة من حياته التي يحياها وراء المادة — كانت أقوالاً غير مغموسة
بالنور ، لا عس القلوب بشئ من أسرار الشفاء ... نعم قد ينمق المتكلم كلامه ،
ويوشى عبارته ، فيثير العواطف ، ويحظى بالاستحسان ، ولكنه استحسن الزيف
والنهرج ، أترى المريض يشفيه أن تقدم له علبة فارغة ، أو حقاً ليس فيه شئ ؛ وحسبه
أنها علبة موشاة بالذهب ، وأنه حق مطعم بالعاج والصدف ؟

فهذه الربانية هي الدواء ، فإذا خلت أقوال الداعية وأعماله منها فلا بركة فيها .

ثانياً : إن الداعية لا يبلغ هذه الروحانية إلا بعد تجارب ، جرب بها مرارة الحرمان.
ومشقة المجاهدة . . والصبر على تنفيذ أمر الله ونهيه . . وطبق مفردات المنهاج الإلهى
على نفسه في حياته الخاصة ، تطبيقاً عملياً لا هوادة فيه ، وجرى ذلك كله في عصبه ،
وانصهرت به نفسه ؛ فإذا دعا إلى فضيلة بعد هذا ، أو نهى عن رذيلة ، أو وصف لذة
من لذائذ النفس العليا ، تكلم عن « معرفة و يقين » ، وتجربة ومشاهدة . فلا يتكلم إلا
بالحق المجرب ؛ هذا إلى أنه يجد مادة الكلام حاضرة في قلبه وعصبه ، دون رجوع إلى
كتاب ، فهو نفسه كتاب هذا الحق ، وصحيفة تجاربه العملية ، وفوق هذا فإن
النفس التي صهرتها التجربة ومرارة التنفيذ . تطل رائحة من خلال عينيه ، وعضلات وجهه

وخطوط أساريه . وإشارات يده . ونور طلعتة فتحدث إلى الناس بأفصح مما يتحدث به عبارته ؛ بل إن نبرة الصوت ، ولهجة الحديث — تبلغ من القلوب مالا يبلغه الحديث نفسه .. بربك هل نظرت إلى وجه « حسن البنا » وهو يتحدث أو يخطب ؟ هل نظرت إلى عينيه ، وعضلات وجهه ، وحنان صوته ، وخشوع لهجته ، وإشارة يده ؟ إن هذا المرشد الكريم ، يتكلم فما يأتي بجديد ، لأنه يتكلم بكلام الله القديم ، ولكن الوجه جديد ، والصوت جديد ، واللهجة جديدة ، والعين جديدة ، وكل هذه السنة صدق تتكلم معه ، فتجعل الكلام القديم جديدا ، لأنها تتكلم بقوة التجارب ، وخبرة التنفيذ ، وشدة المجاهدة والحرمان ؛ وكل هذه أسرار شهدتها جدران بيت هذا الرجل العظيم وهو يجري تجاربها في حياته الخاصة ، ويطبقةا على نفسه وذويه .. ومالي أستشهد لك بالمرشد ، فالحساد كثير ، والمتنطعون أكثر ، وما بنا حاجة أن نقدم لهؤلاء أو هؤلاء سبيلا للتقول علينا بأننا نعبد الأشخاص ، أو نبالغ في الثناء على الرجال ؛ فدعني أستشهد لك على غرضي بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يتحدث إلى من لا يعرفونه ، فيقولون : « والله ما هذا بوجه كذاب ، ولا صوت كذاب » . ومعنى هذا ، أنهم تأثروا بالصوت والوجه ، أكثر مما تأثروا باللفظ والعبارة ، وليس لهذا من تفسير إلا ما ذكرناه سابقا .

فهل لك يا أخى في هذه الفرقة من الخطباء تخطب معك ؟ وهل لك في هذه الطائفة من الألسنة الصادقة تتحدث بحديثك ، وتؤيدك ، وتصدقك ؟ . لا ينطق هذه الألسنة ، ولا ينهض هؤلاء الخطباء ، إلا قوة النفس التي صبرت ، وجاهدت وذوقت ، وجربت الحلو والمر ..

قالوا : تكليف ثقيل ! وخطة شاقة ! ونحن مرهق باهظ ! فقال لهم صاحبهم : لا بد من ذلك ، فالرسالة أثقل ، والمهمة أخطر ، والبضاعة أرفع ، والمنزلة سامية ، ورضوان الله سبحانه أسمى وأكبر .. ألم أقل لكم : إنكم دعاة .. ومهمة الدعاة هي مهمة الأنبياء ؟ فكيف تبغون هذه المنازل ، دون أن تتسمنوا إليها مشقة الصعود ؟

ثالثا : إنه قائد ، والقائد إذا لم يقدر بقوة روحه وهيمته نفسه ، فهو قائد ضعيف التأثير ، ولن يغنيه في جمع القلوب من حوله قانون مفروض ، أو أمر من أوامر ذوي السلطان ؛ وإنما يجمعها لك ، ويهوى بها إليك ، كيانك المعنوى ، وإنسانك الباطنى ، الذى يترعرع في رياض هذه الروحانية .

رابعا : أنها عمدة بزاد من العلم الفطرى ، ونور من المعرفة يتبين به حقائق الحياة

ويصحح له خطاءه في فهمها والنظر إليها ، ويهتدى على ضوئه إلى الصواب في معضلات الأمور ، « ومن لم يجعل الله نورا فلما له من نور » .

نعم ، فإن جوانب النفس فسيحة ، وآفاقها متعددة ، ولكن أكثر الناس يعيشون في جانب واحد منها ، جانب ضيق ، يحصر صاحبه في أوهام المادة ، وظاهر الحياة الدنيا ، فيقع في تخيلات الباطل ، ويعتد بزينة الفقايع ، ويغدو فهمه للحياة ، وإدراكه للحقائق والمعارف ، متأثرا بهذه الأوهام ، فيكثر الخطأ في أحكامه ، ويقع الزلل في مقاييسه وموازينه . . فإذا أشرقت الربانية ، وطلعت شمسها الوهاجة في قلب أحدهم ، استنارت نفسه ، وامتد النور الواضح إلى سائر جوانبها ، فإذا الأفق آفاق ، وإذا الجانب الضيق آماد شاسعات ، وإذا معارف جديدة ، ومشاعر جديدة ، وحقائق جديدة ، تظهر لنا فيما كان محجوبا عنا : وإذا بنا نرى الأشياء بفهم جديد : ونقيسها بمقياس جديد .

قال بعض الإخوان : إن فلانا تلميذك القديم يقول : إن ماركوني خير من الغزالي . ماركوني كشف للإنسانية و اخترع : أما الغزالي فثاذا أفاد منه الناس ؟ فقال صاحبه : إن هذا التلميذ القديم محجوب عن حقيقة نفسه : فهو لا يدرك مما حو اليه إلا المادة : ولا يرى الناس خلقوا إلا للهو واللعب : والعيش في محيط هذا الحطام وكفى ؛ ولو أنه أحس لنفسه بكرامة لتدرد على هذه الفكرة : وراح يلتمس رسالة أخرى في حياة أخرى تلائم ما يشعر به من سمو المهمة : وترضى ما ينطوى عليه من معان إنسانية : ولكن هذا الإحساس الكريم مصدر نوره وإلهامه الذي يكشف له حقيقة نفسه : وبريه مقعده في دار الكرامة : بين أحياء الدنيا والآخرة . . هذا التلميذ القديم : وقع فيما خدع به أكثر الناس من زخارف الحضارة المادية وزينتها : فهم يفرحون بكل من يمدحهم بأسباب اللهو واللعب : ووسائل الترف والنعيم : وألوان الطعام والشراب : ويشبع جوارحهم وحواسهم بأكثر ما يمكن من هذه الشهوات الحيوانية . . وتقدم الإنسانية ليس من هذا في شيء : كما هو مقرر في فطر الناس جميعا . . تقدم الإنسانية في سمو عواطفها : وتهذيب غرائزها : وكال حقائقها المعنوية : واشتغال ملكاتها القلبية بالله وما عنده من نعيم مقيم . . إن الرجل ليغضب ويثور : إذا قال له آخر : يا حيوان : فلماذا يغضب إذا قيل له هذا : ولا يغضب على نفسه أنه يعيش عيشة الحيوان ؟

لا يظن الإنسان أنه امتاز من الحيوان : لأنه أكل الشعير مخبوزاً : وظل الآخر

يأكله غير مخبوز . . ولأنه أكل الفول مطبوخا ، وبقي صاحبه يأكله غير مطبوخ ، ولأنه استتر بالثياب ، ونام على الفراش ، وبقي زميله القديم على ما خلقه الله . . . لماذا يغالط الإنسان نفسه — إذاً — كل هذه المغالطة ؟ . ولماذا يعتبر الترقى في خدمة البدن ترقيا . . لماذا يعتبر نفسه تقدم لأنه أكل « الجاتو » بعد أن كان يأكل الرغيف فقط ؟ وأكل اللحم أصنافاً مختلفة بعد أن كان يأكله مسلوقا أو مشويا خصب وأكل بالشوكة بعد أن كان يأكله بأصابعه ؟ وركب السيارة بعد أن كان يركب الناقة ؟ وأرسل الرسالة بالبرق بعد أن كان يرسلها مع رسول ؟ ، وسمع من بعيد بالراديو والتليفون ، بعد أن كان لا يسمع إلا من قريب ؟ الخ الخ إذا كان يغضب أن يوصف بأنه حيوان ، وإذا كان لا يمتاز منه إذا ترقى في ألوان الطعام ، فلماذا يعتبر المبالغة في خدمة الجسم وترف جوارحه تقدما ؟

هذه الغضب المباركة ، يجب أن تسمو بهمة أن تنضم في مطالب الحيوان يجب تجعل له شأنا غير هذا الشأن ، ومستوى فوق هذا المستوى : ويجب أن تراه الفارق الهائل بين ناحيته الحيوانية وناحيته الإنسانية . . ويجب لهذا أن يقيس رقيه عن الحيوان بمقدار ما يسمو بعواطفه إلى المعنويات ، لا بمقدار ما يخترع بجوارحه البدنية من أسباب المتاع . .

فكل جهد يبذله أو يبذله غيره في محيط التقدم الظاهري ، دون أن يكون له امتداد ونشاط في المحيط الآخر ، هو جهد يزيد للناس متاعهم الأدنى ، ويقف بهم في محيط حيوانيتهم العادية ، بل قد يرتد بهم إلى ما هو شر منها . . وكل جهد يبذله أو يبذله غيره لإحياء القلوب ، وإسعاد الملوك بالنفحات السماوية . هو جهد مبارك ، يخفف من انفعال الجوارح المسعورة ، ويعين الناس على الخروج من عيشة الحيوان وغفلته ، إلى أفق السعادة الإلهية ، حيث تنمو إنسانية الإنسان ، ويصل إلى ما قدر له من كمال . . فهذا شفاء ورحمة ، وهدى للناس ، وكل من له سهم في هذه الغاية ، فهو صديق الإنسانية حقاً . فانظر يا أخى : أين مكان ماركوني من خدمة الإنسانية ، وأين مكان الغزالي ؟

هذا عالم ، وهذا عالم ؟ فأى العالمين أجدى بعلمه وعمله على الإنسانية ؟ إن الغزالي كان يمسى ويصبح ، وهو ينهل من وحى قلبه ؛ فهو في ذكر وفكر وصلاة إذا خلا ، فإذا خرج للناس ، جلس للوعظ والتدريس يحذر ويذكر ، ويخاطب القلوب ، ويلين النفوس ، ويبث المشاعر الطيبة في سامعيه ، ويسمو بذلك كله إلى الله

عز وجل ؛ فإذا انتهى من وعظه وتدريسه ، انصرف يكتب ويؤلف ، ويحلل أمراض النفوس ، ويذكر أحوال القلوب ، ويصف رحيق الدواء ، ويبين حقائق الإيمان ، ويبرر للناس طريقهم إلى الله سبحانه وتعالى ، ولا تزال كتاباته مصدر حياة ، وتهذيب للفرائض والطباع إلى اليوم ... أما ماركونى فماذا أغنى في هذا الأفق الإنسانى ؟ إنه لم يزد على أن يكشف قانوناً أو أكثر من قوانين الطبيعة ، قوانين كانت موجودة ، فكشفها وعثر بها ، وهذا كل فضله ... ونحن نستخدم الآن مخترعات ماركونى ، فماذا هذبت لنا من غرائز ، وكم شبراً قربتنا إلى الله ؟ ؟ ؟

قال الأخ : وكم شبراً قربتنا إلى الله آثار الغزالي ...

فقال صاحبه : إنها لم تقربنا شيئاً ؛ ولكن أتدرى لماذا ؟ لأننا لم نستعملها ... لقد استعملنا آثار ماركونى ، ولم نستعمل آثار الغزالي ، فلك أن تتصور أى كرامة تفاض على الإنسانية ، وأى فضل تسمو إليه العواطف والأرواح ، لو أننا أقبلنا على آثار الغزالي إقبالنا على آثار ماركونى .

قال الأخ : أنتهى أن يكون من الناس مخترعون ؟

فقال صاحبه : لم أقل هذا ، ولكنى أريد أن تقاس أقدار الناس بمقياس الإيمان بالله ، وأن توزن أعمالهم بما أجدوا على الإنسانية في لباب معانيها ، لا في قشور ظاهرها فقط ، وإن ليلة من ليالى الغزالي ، لأرجح في ميزان الحق من عمر ماركونى كله ، وإن صفحة واحدة من كتاب الإحياء للغزالي — مثلاً — لأرجح في هذا الميزان من كل ما اخترع ماركونى ؛ وإنى لأعنى ما أقول ... فإنك إذا خیرت ضمير الإنسانية الراقى : أن تمجى مخترعات ماركونى كلها ، أو تمجى المثل العليا ، والمبادئ الفاضلة ، والروح الربانية ، التى فى صفحة واحدة من الإحياء — يمضى ذلك كله ، فلا يبقى له في الوجود أثر ... لو أنك خیرت ضمير الإنسانية بين هذا وهذا لملع لهول الحسارة ، ولثار يدفع عن نفسه غبن هذه الصفقة ..

فمضى نفقه هذا الفقه ؟ .

كم من أفكار فاسدة ، وآراء خاطئة ، تصححها الربانية ، وتجلو لنا وجوه الحق فيها ١١ .

خامساً : يلين بها قلب الداعية ، فيصير يقظاً مرهف الحس ، ينتفض بتيارات الروح القرآنى ، فيستخرج من دقائق إشاراته ، وخفى عباراته ، ما لا يلتفت إليه غيره ؛ وهذا ضرورى جداً للداعية الذى يجعل القرآن الكريم أهم موارده وأمداده .

نعم : فالعقل وحده لا يستقل بفهم القرآن ، فالقرآن روح من الله ، لا معان وألفاظ فحسب ، فإن استطاعت العقول — وهي لن تستطيع — أن تفهم الألفاظ ، وتستخرج منها كل المعاني ، فليس من طبيعتها أن تحس الروح الإلهي فيه ، فذلك شأن القلوب لا شأن العقول . . . وهذا الحس ، هو الذي يكشف ما وراء العبارات ، ويفتح لك أكام الألفاظ ، عن أسرار وإشارات ، لا يدركها إلا الموهوبون . . .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقدم عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ويعرف له فضله ومكانه من فقه الكتاب العزيز ، على حداثة سنه ، وكان يدخله مع أشياخ بدر ، وهم من هم في السابقة والفضل ، فأحس عمر رضى الله عنه كأن بعضهم وجد في نفسه ، فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ قال ابن عباس : فدعاني ذات يوم ، فأدخلني معهم ، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريههم . . . فقال : ما تقولون في قوله الله تعالى : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » ؟ فسكت بعضهم ولم يقل شيئا ، وقال بعضهم : أمرنا أن نحمده ونستغفره ، إذا نصرنا وفتح علينا . . . وأنت ترى يا أخى أنه تفسير مستقيم جداً مع ظاهر الآية ؟ ولكن عمر الذي جعل الله الحق على قلبه ولسانه ، كان يرى خلال السطور إشارة غير ظاهرة ، فالتفت إلى ابن عباس فقال له : أ كذلك تقول يا ابن عباس ؟ قال : قلت : لا ؛ قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعلمه الله إياه وأخبره به ، فقال : إذا جاء نصر الله والفتح . . . وذلك علامة أجلك — فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ؟ فقال عمر رضى الله عنه : ما أعلم منها إلا ما تقول ! خبرني بربك أى عقل يلتفت إلى هذه الإشارة الدقيقة بين السطور ؟ إنه سر القلب الحى الذى يحسن أن يفهم عن الله سبحانه وتعالى . . . ولعلك تسأل : من أين لنا أن هذا التأويل هو الصواب ، وبأى مرجح ترجحه على قول الصحابة ؟ ونجيب بأن المرجح هو عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ففي صحيح مسلم : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول قبل أن يموت : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وآتوب إليك » فقالت عائشة : قلت : يا رسول الله ، ما هذه الكلمات التى أراك أحدثها ؟ قال : « جعلت لى علامة فى أمى ، إذا رأيتها قلتها . . . » إذا جاء نصر الله والفتح إلى آخر السورة . . .

وقد يكون معنى بعض الآيات واضحاً ، ولكن العقول لا تنتبه إليه ، فيقف الفقيه

فيظهره ويفيض عليه من حسن التوجيه والتأويل ما يحلو إشراقه وروعه . شكا بعضهم عاصم بن زياد إلى علي كرم الله وجهه ، لأنه لبس الحشن من الثياب وترك الطيب منها ، وغم أهله وأحزن ولده ؛ فقال : اتئوني به ؛ فلما رآه عبس في وجهه ، وقال : ويلك يا عاصم ! أترى الله أباح لك النعم ، وهو يكره أن تأخذ منها ؟ أنت أهون على الله من ذلك ! أما سمعته يقول : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ » حتى قال : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » ؟ والله إن إظهار نعمة الله أمام الناس بكثرة الاستعمال والفعال ، أحب من إظهارها بكثرة الحديث والمقال ، وقد سمعته يقول : « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ^(١) » وهذا التفات جميل ، ولكن لا يلتفتة إلا الأيقاظ ، أرايت كم مرة قرأنا نخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فلم نقف على شيء فيها ، حتى وقف أبو الحسن رضوان الله عليه يؤول ، ويوجه ، ويقول : أرايت أن الله خلق هذه النعم وأباحها لك ، وهو يكره أن تأخذ منها ؟ أنت أهون على الله من ذلك ! ؟

ومثله وأجل منه ، لمحته للمهمة ، التي التفتت بذهنه هذا الالتفات الخاطف ، من سورة الرحمن إلى سورة الضحى ، فربطت له في سرعة فائقة ، بين قوله تعالى : « يَخْرُجُ مِنْهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » وقوله : « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » ربطاً لا يرد على بال الفقيه العادي ، ليستنبط هذا الحكم الموفق الطريف . . . إن إظهار فضل الله عملياً باستعمال نعمة ، أحب إليه من إظهاره بالتحدث عنها فقط . . .

لقد كان الناس يعجبون لهذا العلم الثمين ، فظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خص أهله بشيء من العلم ، فقال بعضهم : يا أبا الحسن ، نشدتك الله ! هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء من العلم دوننا ؟ فقال رضى الله عنه : « لا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، اللهم إلا فقهاً في كتاب الله يؤتیه عبداً من عباده » . وقد يكون المعنى واضحاً ، ولكن تقاصر الهمم والركون إلى زينة الحياة الدنيا ، والإصغاء إلى وسوسة الشيطان ، يجعل المرء ينظر إلى الآية ، فلا يرى فيها إلا ما يوافق هواه ، وهذا كثير جداً بين الناس ، نكتفي منه بالأمثلة الآتية :

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ

(١) تصرفنا في عبارة علي كرم الله وجهه ، بعض التصرف .

إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» ؛ فإن أكثر الناس لا يرى فيها إلا أن يشتغل كل إنسان بنفسه ، ولا شأن له بضلال غيره ، فإن هذا الضلال لا يضر إلا صاحبه .

وهذا التفسير من وسوسة الشيطان ، وتقاصر الهمم كما قلنا ، فإنه يناقض ما ورد في القرآن الكريم — في مواضع كثيرة — من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مناقضة صريحة ؛ والقرآن لا يناقض بعضه بعضاً « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

وقولهم إن الضلال لا يضر إلا صاحبه ، يناقض قوله تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

ويمكن في هذا المقام إيراد الأحاديث التي تهدم هذا التفسير ، ولكننا نكتفي بإيراد هذه المناقضة ، وبتفسير الآية تفسيراً يستخرج المعنى من لفظها بدون تعسف ، فالآية من الوجهة النحوية مؤلفة من الأمر وجوابه ، فالأمر هنا (١) هو « عليكم أنفسكم » — بالإصلاح — ... والجواب للترتب على هذا الأمر هو : « لا يضركم من ضل » ؛ فنحن أمام مقدمة ونتيجة لا محالة . . . والمقدمة أن نصلح أنفسنا بكل ما في وسعنا من أسباب الإصلاح ، والنتيجة أن هذا الإصلاح حصن لنا من كيد الأعداء ، فلا يستطيع هؤلاء الضالون أن يلحقوا بنا ضرراً ما . . . نأخذ هذا من قوله تعالى : « لا يضركم من ضل » . . . فمن أين جاءهم هذا الذي بهرفون به ؟ اقرأ الآية يا أخى مرة أخرى ، فإنك لا ترى لها إلا معنى واضحاً لا يحتمل غيره . . . فالله تعالى يأمر المؤمنين أن يعنوا بأنفسهم وأن لا يهملوها ، وأن يقبلوا عليها بكل ما يصلح شأنها ويقوى أمرها ، وأن لا يفرطوا في شيء من هذا . . . فإذا استجابوا لأمره قصرت يد العدو عنهم ، وعجز عن أن ينال منهم نبلاً .

والآية الكريمة ، مخاطبة جماعة المؤمنين ، أو مخاطبة المؤمنين بجماعة وأمة : « عليكم أنفسكم » ، ولا مخاطبة أفراداً متفرقين : عليك نفسك . . . والفرق بين الخطابين كالفرق بين أن تقول : يجب على الأمة أن تفعل كذا ، وعلى الفرد كذا . . . فهمي إذا تقتضيهم أن يقدموا لأنفسهم أداة النجاة ، ويقيموا لها حصن الأمان ، وترك لهم تقدير ما يلزم من وسائل الإصلاح والحماية ، على حسب ما يلائم روح العصر والبيئة ؛ وهي على كل حال لا تخرج في كل عصر عن الأسس الآتية : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والتزام سائر قواعد الإسلام الحسنة ؛ بقوة الروح ضرورية قبل كل قوة .

(١) عليكم أنفسكم ، هو اسم فعل أمر ، ولكننا تجاوزنا قلنا له أمر .

ويأتي بعدها العلم ، وقوة الذخيرة والسلاح ، تنفيذاً لأمره تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . . . ولا بد لإتمام العدة من تدريب كل قادر على الرماية وسائر فنون القتال . . . فلو أن جماعة المؤمنين عنوا بأنفسهم هذه العناية ، وأقبلوا عليها بهذا الإصلاح ، فإن أعدى أعدائهم لا يستطيع أن يضرهم بشيء . . . فأين هذا يا أخى من المعنى الذى يفرق الأمة أفراداً متخاذلين ، لا يهتم أحدهم إلا بشأن نفسه ؟ ألا قاتل الله الهمم القاصرة !

(ب) قابل أحد الإخوان صديقاً له ، يعمل معه فى عمله الرسمى فقال له : إني أعتب عليك ، إنك لا تعمل معنا فى الدعوة إلى الله ، وأنت رجل آتاك الله علماً ، ورزقا حسناً ، وشباباً وصحة ؛ فقال الصديق : إن عملنا الرسمى ما هو فى الحقيقة إلا دعوة إلى الله ، فإذا أحسنناه وأعانا الله عليه ، فهو حسبنا وفيه الكفاية . فقال الأخ : إن هذا العمل الرسمى ، يؤديه بقيود رسمية ، داخل الغرف والجدران والأسوار ، فلا يستفيد الناس شيئاً منه ، ونحن نريد الصوت الحر ، الذى يقف بين الناس لا بين الجدران ، ويعمل بتكليف من الله لوجه الله . فقال الصديق : « كفاية كده » ! إن الله يقول : « فاتقوا الله ما استطعتم » فقال الأخ : هذه حجة عليك وليست لك ، فليس معناها : اتقوا الله على « أد الحال » ، وليس معناها اتقوا الله « كل حين كان » وإنما معناها : ابدلوا فى تقوى الله كل ما فى استطاعتكم من جهد ، ووقت ، وعلم ، ومال ، ولا تدخروا من ذلك شيئاً . . . فإذا بقى فى الاستطاعة فضل لم يبذل ، فهو تقصير عن أمره سبحانه ، وتفریط فى تقواه . . . ولماذا يا أخى تذكر : « فاتقوا الله ما استطعتم » وتنسى قوله : « اتقوا الله حق تقاته » ؟ فابقسم الصديق ومشى . وهذا التفسير الخاطىء ، يقع فيه كثير من الناس ، ومثله تماماً ، نظرهم إلى قوله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » ؛ فوسوسة الشيطان ، وتقاصر الهمم عن أمر الله ، جعلهم يستشهدون بهاتين الآيتين الكريمتين على أن الله « يدلل عباده » ، ويقبل منهم جهد الكسالى للتراخين .

(ج) وكثيراً مانكون بصدد التحذير من فتنة المال والأولاد ، ليظل القلب سليماً لله تعالى ، فينبى لك أحدهم محتجا عليك بقوله تعالى : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » متوها أن فى هذه الآية الكريمة حجة تفحملك وتسكنك ، مع أنها حجة عليه لا له ؛ فلو أن عزمته ناهضة بأمر الله حقاً ؛ لوضعت له إلى جنب هذه الآية قوله تعالى : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ » وقوله تعالى :

« إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » ... ولكن انحلال عروته الدينية ، وقف به على هذه الآية فقط ، وجعله يرى في ظلها مهاداً لنا ، يركن إليه في دعة واستسلام ... ومع هذا فالآية على حدتها لا تفيد الثناء على المال والبنين ، وليس فيها ما يحض على الحرص عليهما ، بل فيها ما يشبه التزهيد ، إن لم يكن هو التزهيد الصريح ؛ فهما زينة الحياة الدنيا ، وليساً زينة الحياة العليا ، وما أبعد الفرق بين الزينتين ...

وإن روحاً قوية مباركة ، تطالعك من خلال هذه الآية ، تندب بأوائك الذين رضوا لأنفسهم وقلوبهم ، أن تكون مقفرة من زينتها الفاضلة ، خالية من بواعث الهمة إلى الجمال الأعلى ، واكتفوا بهذه الزينة السطحية الفارغة ، التي لاتعرض أصحابها إلا في سوق الأطفال .. وهيهات أن يرغب في هذه الدعى الكبيرة أحقق المساومين .. وبعد ، فلو أننا قرأنا الآية كلها ، لوجدنا أن آخرها يحكم على أولها .. كان أحد الإخوان في موقف من هذه المواقف ، فاعترض عليه معترض بهذه الآية ، فأجابه الأخ على الفور : اقرأ يا أخى بعد هذا : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً » . فاقطع من الإخام وسكت ..

ومثل هذا ما يلقاك به بعضهم في احتجاج وإنكار قائلاً : « وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » ، فلك أن تفهمه على الفور بما قال الله أول هذه الآية : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ » ... ولك أن تأخذ بيده إلى الصواب ، فتقارن له بين أول الآية وآخرها ، وتريه الفرق بين قوله تعالى : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ » وبين قوله : « وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ » ... فنحن أمام أمر الإقبال على شيء ، ونهى عن نسيان شيء آخر ... فالآية السكينة تفترض فيمن تخاطبهم حسن تقديرهم لمعالي الأمور ، وقوة إقبالهم على أمر الله ، في استغراق أنفسهم بحظوظهم الأخرى . فنهت إلى هذه الحظوظ ، تنبهاً يسيراً يلازم قدرها اليسير . فقالت : « وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » ..

وبعد فإن المجال يطول بنا لو ذهبنا إلى استقصاء أوهام الضعفاء في تأويل كلام الله وهي أوهام لاعدة لتبديدها إلا يقظة القلب ونور الربانية فيه ؛ وهي عدة لازمة للدعاية كما رأيت :

سادساً : الدعاية المجدد المنشئ ، أو الموجه المسكل ، لابد أن يستلهم هذه الروحانية الاجتماعية ، لأنها من أمر الله .

ونعني بالمجدد ، الذى يحدد مبادئ من كيان أمته الاجتماعى ، والاقتصادى ، والدولى ... وبالمثل ، الذى ينشئ دولة جديدة ، على غير مثال سبق ، على نحو ما فعل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وبالموجه المكمّل ، الذى يحدد نفسه بصدد أمة تحتل بين الأمم مكانا طيبا ، ولكن طموحه إلى السكّال يبعث بهمة إلى غاية أبعد وأسمى ؛ هؤلاء الدعاة ، لابد لهم من روحانية اجتماعية يستلهمونها الحق الذى لا يضل ، وبدونها يكون الداعية رجلا مشغوبا بالمجد ، يتورط فيما يتورط فيه المجانين من أخطاء وكوارث .

الإنسان المؤمن ، خليفة الله فى الأرض ، وجنديه المختار لتطهيرها من الشر ؛ وهذه المهمة ، تقتضيه أن يواجه الشر ، ويعرف أوكاره ، ويستقصى مآسيه ؛ فلم يكن ذا وجدان نقي ، وقلب يفظ ، فإنه لا يستطيع أن يشعر بحسن الحسن ، وقبح القبيح ، ولا يتنبه إلى مواطن الضعف ، وما يلزمها من ضرورات العلاج ... فالمسألة مسألة شعور ووجدان ، ومسألة تنبه وإدراك عاطفي ، قبل أن تكون مسألة العقل المنظم الذى يرسم خطوات التنفيذ . ومهما أوتى الشعور من صفاء طبيعى ، فلا بد له من الاتصال بالله لا محالة ، ولا غنى له عن ذلك بحال من الأحوال ، وإلا كانت الجهالة والفتنة والفوضى .

على هذا الجندى أن يتصل دائما بقائده الأعلى — والله المثل الأعلى — عليه أن يبسط صفحة قلبه لله ، وأن يطيل بها التسمع إلى ما فى الكون العالى من إشارات وخطرات ، فإن صفحة قلبه تغدو رقيقة رقيقة ، تهز وتخرج لما يهبط عليها من أمر الله سبحانه وتعالى ؛ وهنا يمشى الجندى فى محيطه ، وهو مزود « بألة الإحساس » التى تنفض كلما رأت أثرا من أثار الفساد والشقاء ، وتهش وترتاح كلما رأت مظهرا من مظاهر الخير والنظام ... ولن يكون لذلك أثر فى نفسك إلا الرغبة الشديدة فى أن تعمل لعلاج الفساد ، وبناء المجتمع على أسس الخير ، وتغدو وكأن هاتفا فى أعماق نفسك يهتف بك فى كل موطن بما يجب أن تتجه إليه من مطالب وأعمال .

ولقد ذكرنا فى المقدمة أن الداعية سياسى فى بيئته ، وقائد فى محيطه ، وزعيم لفكرته ولمن يتبعه فى ناحيته ... ومعنى هذا ، أن أفق الداعية قد يتسع ، فيكون قائد الأمة كلها ، وزعيم فكرتها ، وقديضيق ، فيكون قائدا إقليميا ، أو قرويا ، عاملا فى محيطه الصغير ، على ضوء فكرته ، وإلهام صلته بالزعيم الكبير ... نقول هذا حتى لا يظن أحد أن رسالة الإصلاح مقصورة على الزعماء الكبار ، ذوى الآفاق الواسعة . وبعد ، فإن خطورة هذه الناحية العملية ، تفنع الداعية بضرورة الإقبال

على الله سبحانه ، وتنظيم حياته الروحية على قدر استطاعته .

ساجا : أن هذه الروحانية ، تسمو بفضائل النفسية ، وقواه العاطفية ، إلى ذروة رفيعة من الفضل ، فإذا به ينظر إلى الناس ، كأنما ينظر إليهم من قمة جبل شامخ ، فيراهم وقد زالت جسامه أجسامهم كأنما صبوا في قوالب الأقزام القصار . . . وإحس بهماء ما لبعضهم من مظهر ورواء ، فاستووا في تقديره على منظر هين متشابه ، يسلك الجميع في منزلة واحدة . . . ويترتب على هذا أمران :

الأول : أنهم جميعاً أمامه هياكل ضعيفة ، لا تضر ولا تنفع ، ولا تملك لنفسها شيئاً ؛ فهو لذلك لا يرهب ، ولا يرغب ، ولا يخاف ، ولا يخشى ، مهما استعلن الأقوياء بما لهم من جاه وسلطان ، فهيات أن يغتر بهذه الأوهام الضعيفة صاحب الأفق العالى . . . فهو شجاع غاية الشجاعة ، قوى بالله غاية القوة ، غنى بما يجد في قلبه من رزق الله ، واثق بنفسه وربه كل الثقة . . . وذلك من ألزم الصفات للداعية الأصيل .

الثاني أنه يقبل على الناس وهو في ذروته العالية ، وأفق العاطفي الفسيح ، فيعطف على عيوبهم كما يعطف الرجل الكريم على عيوب الأطفال ، وبما لهم روح الرفق والتسامح ، وبالحكمة والموعظة الحسنة ، لا يضيق بهم ولا يحقد على جهلهم ، بل هو الصبر ، والملاينة ، والتماس العاذر ، ومسايرة الأمل في هدايتهم ؛ فإذا بقي منهم أحد على علته ، رثى حاله ، وحزن وتألم ، كما يألم الرجل الرحيم لبقاء العلة في مريضه العزيز ؛ ولأمر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزن على قومه ، ويحرص على هدايتهم ، حتى كادت نفسه تذهب عليهم حسرات .

هذه الصفة الكريمة ، هي التي تجعل الداعية ، جديراً بشرف الدعوة إلى الله ، فهو عالمي العاطفة ، رباني النفس ، تتسع نظراته لأتباعه ومخالفيه ، وتشمل الناس جميعاً بحبها ؛ غير أن حبه لأتباعه يتخذ سمة المودة والبشاشة ، وحبه لمخالفيه يتخذ سمة الرثاء والإشفاق ، والحرص على إسماعدهم ، وعلاجهم بمختلف الوسائل . . . بل إن عواطفه انتسح إلى ما وراء الإنسانية ، حتى تشمل الحيوان والجماد ، فيرحم الحيوان ويوصي به خيراً ؛ وبني للجماد ، ويحن لما له من عهود وذكريات ، على نحو ما ترى في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تلك يا أخي هي الروحانية الاجتماعية ، لا الاعتزالية ؛ نخذ نفسك بها ، وزن ما ترى من حالك بميزانها ، حتى تعرف أين أنت منها ، وأين هي منك . واسأل الله لي ولك أن يرحم ضعفنا ، ويكمل نقصنا ، ويجعلنا أهلاً للفضل والحكمة ؛ إنه ولي التوفيق ، وهو ذو الفضل العظيم !

الفصل الثالث

الطبيعة التنفيذية

تمهيد

الروحانية تصل المرء بالله ، وتلهمه روح رسالته .
والطبيعة التنفيذية تصله بالحياة ، ليصوغ تعاليم الرسالة أعمالا نافعة ، وأوضاعا
عمرانية صالحة .

وهذان هما طرفا الإيمان ، ولا بد من اجتماعهما في قلب المرء المؤمن . . . فإذا
ادعى لنفسه الروحانية ، ولم يكن له عمل ، فهو إيمان ناقص ، بل إيمان زائف مضطرب .
وإذا رأيت له عملا ودعوى عريضة في الإصلاح ، ولم يكن له حياة روحية سليمة
تصله بالله ، فهو امرؤ يخبط في ضلال مبین .
ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشرح لنا هذا بقوله : « ليس الإيمان بالتمنى ،
ولكن ما وقر في القلب ، وصدقه العمل » .

بعض خصائص الإيمان

والإيمان الكامل الصحيح ، الذي يستقر في القلب فيبعث صاحبه على العمل ،
له سمات عديدة ، وخصائص كثيرة من أهمها :

- ١ - فهم الرسالة .
- ٢ - حب تعاليمها ، وتعلق القلب ببحالها .
- ٣ - الغيرة على حرمتها .

١ - الفهم

ولسنا نغنى بالفهم ، أن يحيط الداعية بعناصر الرسالة ، وتوجيهاتها ، وأمرها
ونهيها ، وحلالها وحرامها ، فذلك فهم العقول لا القلوب ، وشأن التلقين لا اليقين . .
وإنما نغنى بالفهم ، الفهم العاطفي ، والتصديق القلبي ؛ وهذا التصديق شعور يحل

في كيان المرء ، وإحساس يستولى على وجدانه ، فيدرك به من حقائق الرسالة ، ما لا يستطيع العقل أن يدركه . . . وأوضح مظاهر هذا الفهم أو هذا الشعور ، أن يدرك أن الرسالة حق ، وأن ما عداها باطل . . . ويميز الفرق بين الحق والباطل ، كما يميز أحدنا الفرق بين صور الأوهام التي تتراءى لنا في أضغاث الأحلام ، وبين ما نراه في عالم اليقظة والمشاهدة ؛ فإذا أدرك أحدنا الحق والباطل هذا الإدراك ، ويميز بينهما هذا التمييز ، فقد بلغ رشده القلبي ، وتم فهمه العاطفي ، وصح أن يكون مع المؤمنين . . . وإذا لم يفهم هذا الفهم ، فليعلم أنه لم يبلغ رشده بعد ، وإن بلغ من العمر ستين أو سبعين سنة ، ونال من الإجازات العلمية ما نال .

والعلامة الظاهرة التي تدل على أن المرء فهم هذا الفهم ، أن يرى متجافياً عن دار الغرور لأنها باطل ، منيباً إلى دار الخلود لأنها حق ، مستعداً للغوت قبل لقاء الموت . وعلامة عدم الفهم أن يعرض عن حقائق الآخرة ، ويفتر بأوهام الدنيا يظنها شيئاً ؛ فيكون مثله كمثل الأبله ، الذي زعموا أنه رأى في المنام كأنه يصرف جنبها من رجل آخر ، فقال له الرجل : أعطيك فيه تسعة وتسعين قرشاً ، فقال : لا ، بل مائة قرش ، وأصر كل منهما على قوله ، وهنا استيقظ من حلمه ، فلم يجد في كفه شيئاً ، فما كان منه إلا أن أغمض عينه ، ومد يده لعالم الأحلام ، يقول للرجل الوهمي : لقد رضيت بما تريد ، فهات التسعة والتسعين . . . ولو كشف عنا الغطاء ، وأصبحنا من أهل الإيمان والفهم ، والنظر إلى حقائق الوجود ، لرأينا أكثر الناس في إقبالهم على متاع الغرور ، كهذا الأبله الذي يستمنح الأوهام قروشه المزعومة .

فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

٢ - حب النعالم

الفهم على ما قررناه يجعلنا نقدر الحق قدره ، ونعرف قيمته . . . ولكن القوة الإيجابية ، التي تشغف المرء بالرسالة غير واضحة فيه ؛ فأودع الله القلوب سر الحب وجعله من خصائص الإيمان . . . وفي الرسالة جمال ، لا يدرك إلا بالحب . كما أن فيها نفاسة لا تدرك إلا بالفهم .

ومقتضى هذا الحب ، أن يكره الإنسان الطاغوت ، ويبغض الباطل ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينص على خصوصية الحب في الإيمان بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه مع ما جئت به » ؛ وينص على خصوصية بغض الطاغوت بقوله : « ثلاث

من كن فيه وجد في قلبه حلاوة الإيمان : ١ .. ب .. ٢ .. وأن يكره أن يعود إلى الكفر ، كما يكره أن يلقي في النار » . ويجمع الله عز وجل المعنيين في قوله ممثنا على عباده : « ولكن الله حب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة » . ^١ والله عليم حكيم .

ومن دلائل هذا الحب الظاهرة ، أن يرى صاحبه ناهضا ، منبعا إلى الدعوة لرسالته في همه وجد ، مطبقا تعاليمها على نفسه وآل بيته ، في غير هواة ولاريا ، ^٢ وإلا فكيف يكون محبا ، وهو لا يجتهد في نفسه إلا الكسل في التنفيذ ، ^٣ والكرهية للتكاليف ؟؟ .

٤ - الغيرة :

الغيرة من لوازم الحب ، وكلما كان الشيء محبوبا ، لاصقا بخاصة نفس المرء ، عظمت ^١ منتهى عليه . حرمة لديه ، وقامت الغيرة تحرس حماه ، وتصون محارمه أن تستباح . والغيرة على الحق من صفات الله عز وجل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يغار ، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه » .

ومن علامات غيرة المؤمن ، الغضب إذا انتهكت محارم الله ، والثورة لإبطال ما يرى من منكر .. قالت عائشة رضي الله عنها : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، وقد سترت سهوة ^(١) لي بقرام ^(٢) فيه تماثيل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هتكة ^(٣) وتلون وجهه ، وقال : « يا عائشة أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » .. ومن علامات الغيرة كذلك أن لا يطيق أن يرى رسالته معطلة ، أو خاضعة لسلطان رسالة أخرى ، ومن هنا نرى المؤمن الحق ، والداعية المفطور ، يلج في أن يجمع لرسالته كل سلطان روحي ومادى يكفل لها الهيمنة على ما سواها .

معنى الطبيعة التفسيرية

ونحب أن نستخلص من هذا كله : أن الإيمان ليس معنى روحيا سلبيا يصل الإنسان به إلى الله فقط . بل هو كذلك قوة إيجابية ، تبعث على التنفيذ ، وتنهض إلى العمل ، أو هو سر ^١ إلهي مشبوب في قلب الداعية وعصبيه ، موكل بإتقاد رسالته إلى الحياة العملية . . . فلا يهدأ القلب ولا العصب حتى يكون كل شيء في الحياة يجري على منهاج الدعوة .

(١) السهوة ما يشبه النافذة . (٢) القرام ستار . (٣) هتكة مزقه .

وتعاليمها .. وإلأنهو العمل الصادق والجهاد القوى ، حتى يقر الله عينه بما يحب ، أوقضى الله شيئاً آخر » .

وأنت ترى في هذا السر الإلهي المشبوب خصوصيتين واضحتين :

الأولى : أنه جذوة متقدة ، يستمد منها الداعية القوة على العمل ، والغيرة على الدعوة .

الثانية : أنه قوة منهضة ، يشعر بها الداعى كأن ضرورة ملحة تضطره إلى التنفيذ ، أو أن حافزاً نفسانياً ينهض أعضائه إلى العمل ، فيشعر براحة عظيمة ولذة عميقة ، إذا هو استجاب له ؛ أو بضيق ثقيل خانق ، إذا هو لم يعمل ولم ينفذ ولم يطبق .. وهذا مانسميه الطبيعة التنفيذية .

وبدون هذا السر ، يكون الداعية رجلاً كسائر الذين تمنى رؤوسهم بأوهام الإصلاح ، وكل ما ينفعون به الأمة ، مقالة يكتبونها أو محاضرة يلقونها ، وحسب الواحد منهم بعد هذا ، أن يقبل عليه القراء أو المستمعون « فيهنثونه » بما كتب أو بما خطب ، فيشيع السرور في نفسه ، ويعمد إلى تصنع التواضع المغرور .. وإني أعد هذه النهضة كارثة تقتضى الحزن لا السرور . فلو أن داعية مطبوعاً كان كل حظه أن يثنى الناس على ما كتب أو خطب ، لانفلقت كبده من الغيظ والحسرة ، فإنه لا يريد شيئاً من هذا ، لا يريد ثناء لنفسه ، ولا يطيق أن يرى هؤلاء البله ينصرفون من قراءته أو سماعه في غير مبالاة ، إلى حيث يفتون ويتشاءون في حياتهم الراكدة الحاملة .

بدون هذا السر يكون الداعية واحداً من هؤلاء المرائين الفارغين المرتزقين ، ومن الارتزاق ما يكون لكسب الثناء ، كما أن منه ما يكون لكسب الغذاء .. على أن هذا امتياز فطرى للداعية المطبوع ... ولا يزيد أن نقول إن الداعية يجب أن يكون هكذا وإلا فليرح نفسه ، ولا يكلفها ما ليس من طبيعتها ... لا .. إن كل مهمتنا هنا أن ننظر إلى الدعاة العظام ، الذين بعثهم الله للبناء والإنشاء ، وزصد ما يمكن أن ندركه من صفاتهم وامتيازهم ، ثم نضعه مثلاً أعلى يحتذيه الدعاة الراغبون في الإصلاح .. وما أقصد بهؤلاء البنائين المنشئين غير رسل الله صلوات الله عليهم ، بل غير مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففيه اجتمعت كل صفاتهم الفاضلة ، وثمار تجاربهم النفسية والعملية .. فإذا نظرنا إليه ، واتخذناه قدوتنا في الدعوة ، فإن الكثير مما حرماه من الصفات الفطرية ، يتأتى لنا حظ منه بالتجربة والممارسة والمران .

كيف نكسب الطبيعة التنفيذية

فما على الراغب في الخير والدعوة إليه ، إلا أن يستوعب سيرته صلى الله عليه وسلم في الدعوة ، وأن يلم بروح رسالته في القرآن . . ومن حسن الحظ أن الله سبحانه وتعالى ، قد جمع لنا هذه الرسالة في قواعد كلية واضحة . . ولم يكتف بذلك ، بل أجرى هذه القواعد في صور من الأمر والنهى تضع القارئ على أبواب التنفيذ ، وتفقه على رأس طريقه إلى العمل ؛ فما عليه إلا أن يسير ، وينفذ ما يريد الله سبحانه وتعالى أمراً ونهياً ، لا بروح التابع للمأمور فقط ، بل بروح الداعية المكاف بالدعوة كذلك . . فإنه بعد أمد قريب أو بعيد يحس أن شعاعاً من هذه الطبيعة التنفيذية ، وقبساً من جذوتها المقدسة ، قد سرى بإذن الله في أعماق نفسه .

نبراً من البعر عن الله

وزيد أن ننص هنا على أن هذا السر التنفيذي للشباب ، يجب أن يكون متصلاً بروحانية الداعية كل الصلة ، عاملاً بإلهامها ، آخذاً من معينها . . وإنا نبرأ وتبرأ معنا الإنسانية العالية الكريمة — لا إنسانية الماديين المحصورين في قوميتهم ووطنيتهم — من كل رجل منفعل للزاج ، ينطلق على غير هدى من الله ، إلى إقامة نظام اجتماعي ، أو سلطان عملي ، ينفذه به على الناس ما يزين له مزاجه المختل . . ولقد قلنا في الروحانية الاجتماعية إن الدعاة المجددين المنشئين ، لا بد لهم من هذه الروحانية ، يستلهمونها الحق الذي لا يضل ، وبدونها يكون الداعية رجلاً مشغوقاً بالجد الوهمي ، يتورط فيما يتورط فيه المجانين من أخطاء وكوارث .

هذا الصنف المختل الخبول ، نبرأ إلى الله منه ، ونحذر الشباب وغير الشباب أن يغتروا بشأنه ؛ فهو بعيد عن الله ، ضال عن الحق ؛ وهو بلاء على نفسه ، وعلى الناس ، وإنا لنهيب بشبابنا ودعاتنا ، أن يصلو نفوسهم بالله قبل كل شيء ، وألا يظنوا أن قوى الشباب فيهم ، وأشواقهم المشبوبة إلى المجد ، هي الكفيلة بتحقيق ما يصبون إليه . . لا يشباب ويا دعاة ، لا بد من النور الذي تسيرون على ضوئه ، وتعملون بوحيه ، وإلا فكم من عشواء جمحت بين النخيل ، حتى أوردتها الصدام موارد الهلاك .

على الراعية أنه يعرف غاية أول

والآن فماذا يراد من الداعية ؟ أو ماذا عليه أن يعمل ؟
يراد منه أن لا يحبس مبادئ رسالته وتعاليمها في صدره وفكره ، بل يصوغها

أوضاعاً اجتماعية ، وصوراً عملية حيوية ، وأنظمة عمرانية ، يستقيم بها شأن الناس في معاشهم ومعادهم .

وهذا كلام غامض لا يشفي علة ، ولا ينقع غلة كما يقولون . . . فكيف يصوغ رسالته هذه الصياغة ، وعلى أى أساس يفعل هذا ؟ . . أما الداعية المفطور ، فله من وحي قلبه ووحي ربه ما ينير له الطريق ، ولا يحوجه إلى هذا التساؤل ؛ وأما الداعية الذى نحن بصدده ، فمن حقه أن يلتبس معنا من نور الحق ما تقر به نفسه .

الغاية الله

على الداعية في ميدان التنفيذ والعمل ، أن يعرف غايته أولاً ، وأن يفهمها حق الفهم ؛ فإذا تأتى له هذا ، استطاع بفطرته أن يدرك الوسائل التى تحقق له هذه الغاية وتصل به إليها . . وغاية الداعية ، هى غاية كل إنسان في هذه الحياة الدنيا ، مسلماً كان أو غير مسلم ، في مشارق الأرض ومغاربها . هو الله سبحانه وتعالى . . فعلى الداعية وعلى كل إنسان أن يعلم أنه خلق لله أولاً ، وأنه خلق لله آخراً ، وأنه لم يخلق لغير الله على أى اعتبار من الاعتبارات ، . . . وأنا أدرك أن هذا الكلام غير براق لاسحر له ولا خلاية ، فالشباب المتحمسون ، والكهول الذين فتنوا بزينة الحضارة المادية وأحداث العصر الجارية ، إنما يفتنهم المجد للشخص في عالم المال ، والصناعة والحرب والسياسة . . . ويفتنهم المجد للدولة بعلو سلطانها وكثرة مستعمراتها . . . فمجد الشخص ومجد الأمة هما قبلة أنظارهم ومطمح عزائمهم ، وكل كلام يستحث همهم إليه فهو الكلام الساحر البراق ، الذى يحلو في قلوبهم المخدوعة .

لا ، أيها الناس ؛ إنما خلقنا لله لا لهذه الأوهام ، والمجد كل المجد أن ينجح الإنسان في سبيل هذه الغاية العليا ، فإذا لم يكن لهذا الكلام بريق لامع ، فإن له من منطق الفطرة ، ما تخشع له القلوب ، وتعنو لقهره الطباع ؛ فنحن مخلوقون لله ، رضىنا أم لم نرض ، راجعون إليه لا محالة ، أطعنا أم لم نطع ؛ ولخير للإنسان أن يمضى إلى مالا بد منه في كرامة ، من أن يكره على اللضى إليه في هوان وذلة ؛ ولقد عنت السموات والأرض لقهرة الله وسلطانها ، حين استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرها ، قالتا : « أتينا طائعين » ؛ فمن ركه شيطان الغرور فسوف يرد إلى ربه لا محالة ، وهناك تنكشف له الحقيقة التى طالما تجاهلها ، فيقطع

الندم ولات ساعة مندم ، ويزيد من خبيثته وتقمته على نفسه ، أنه لم يبصر ما أبصره العمى ، ولم يفهم ما فهمه الجمد ، يوم قالت السموات والأرض : « أتينا طائعين » ؛ كل ذلك وواعظ الله يهتف به في موقف حسرتة : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ، « قد خسر الدين كذبوا بقاء الله ، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، ألا ساء ما يزرون » .

فإذا عرف الداعية غايته ، فقد عرف واجبه ، وأدرك أن عليه أن يركز همه ويحصر كل ماله من جهد فكري وعاطفي وبدني في بلوغها ، وقطع مراحل الطريق إليها .

وهذا يا أخي هو المحور الذي دارت حوله رسالات الله ، وما أنزل من وحي وعلم على أنبيائه ورسله وأوليائه ، فمن أراد أن يرى هذه الرسالات مجموعة في كلمة واحدة ، أو موعظة واحدة ، فلينظر إلى هذه الحقيقة ، فإنه يرى كل ذلك يتجه إليها ، وينجمع عندها ، ... وما نقول هذا اقتراء على الله سبحانه ، واجترأ على رسالته ، فهو أمره عز شأنه ، وقوله لرسوله : « قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى .. ثم تفكروا » ؛ فالغاية الله تبارك وتعالى ، والواجب أن تفكر وتعمل لبلوغ الغاية من رضاه سبحانه ، وأن يكون طريقنا إلى الله سهلاً هادئاً مأموناً . وهو واجب الداعية نحو نفسه ونحو الناس ، وهو الذي نكل تنفيذه إلى الطبيعة التنفيذية .

إمبار القلب

والآن فما معنى أن نجعل الطريق إلى الله سهلاً هادئاً مأموناً ؟ ونحن على رأس رحلة إلى الله سبحانه وتعالى ، فإذا اجتزنا مراحلها على ما رضىه ، فعند الصباح يحمد القوم السرى ، ويخطون رحالهم في دار المقامة من فضله ، « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » .

وهي بعد رحلة لا تقطع بقطار أو سيارة ، وإنما تقطع بالقلب ، والقلب فيها هو كل شيء ... فيه يبصر الإنسان غايته ، أو يبصر الله تبارك وتعالى كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وغايتنا لا تدرك بالأبصار ، ولكن تدرك بالقلوب التي في الصدور ، وما لم يبصر الإنسان غايته ، لم يعرف إليها سبيلاً ، ولم يدرك لها جمالاً .

وبه يستبين الطريق إليها ، فلا تلبس للعالم على ذوى القلوب الحية : « أو من كان

ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ وما المعالم هنا إلا الطيب والحديث ، والحسن والقيبح ، والنافع والضار ، والحلال والحرام . وهو الذي يضاعف أشواق المرء إلى غايته ، ويستحث همته إليها ، قهون عليه المراحل والعقبات ؛ وكلما أدركه كلال أو ملل ، لاحت له بوارق من دار السلام ، فيتجدد عزمه ، ويحيا رجأؤه على حد قول الشاعر :

لها أحاديث من ذكراك تشلغها عن الطعام ، وتلهيها عن الزاد
إذا اشتكت من كلال السير أو عدها روح القدوم فتحيها عند ميعاد
فالقلب يا أخى هو كل شيء في هذه الرحلة الأزلية ، هو كل شيء في حياتك ، وما الجسم إلا مطية له ، أو ظرف يصونه ، ولقد تقدم في غير موطن ، أن الإنسان ما هو إلا قلبه ، وسأنت في باب مصادر الداعية أن القرآن الكريم يجب أن يقرأ على أن الغرض الأول والأخير منه هو إحياء القلب ، والمحافظة عليه سليماً مطمئناً بذكر الله ، وأن السنة النبوية كلها ترمى إلى هذا المعنى من قريب أو بعيد ، مباشرة أو بطريق غير مباشرة ؛ ولقد قلنا منذ قريب : إن مثل هذا الكلام لا يريق له ولا سحر ، فهل يظن أولئك المخدوعون ، أن القرآن الكريم نزل لتنظيم خدمة الجسم ؟ أو أن السنة المطهرة تعلمنا كيف نجمع لهذه المطية زادها ؟ . . . وإذا لم يكن الإنسان هو قلبه الفياض بمعاني النبل والكرامة ، وعواطف اللوامة والإيثار ، وطمأنينة الذكر والقوى ، أفيظنون أنه هو جسمه الطاعم الكاسي ، وشهواته الجائعة المنهومة ؟

إذا فواجب الداعية يا أخى — بعد معرفة الغاية — ينحصر في إحياء القلب ، وجعل طريقه إلى الله سهلاً ، هادئاً مطمئناً ، لا يعثره فيه ما يطفئه ، أو يخمده ؛ وهذا فيما يبدو لي يتحقق بالأمرين الآتيين :

أولاً : دوام التذكير بالغاية ، بما يجعل الإنسان مشغولاً بها مفكراً فيها ، مقبلاً بكليته عليها ؛ وليس للقلب من زاد يحيا به إلا معرفة هذه الغاية ، وتعلقه بها ، وتفكيره فيها . . . ولقد يؤنسنا في هذا المعنى قوله تعالى : « ثم تفكروا » .

أما كيف يتأتى للداعية دوام التذكير ، فإن الله سبحانه وتعالى قد فرض علينا الصلاة ، وجعلها دروساً عملية في مناجاته سبحانه والثناء عليه ، والتفكير في يوم الدين ، والناس الصراط المستقيم . . . وترك للداعية أن يقيم المسجد ليكون مدرسة ربانية يزاول طلابها فيها هذه الدروس بإرشاده وإمامته . . . « خمس حصص كل يوم » . وهذا توحيه إلهي ، ومثال عملي ينصبه الله سبحانه وتعالى للداعية ، لينسج على منواله ، ويسير على هده في تقرير الغاية والتذكير بها . . . فعلى داعيتنا أن يجعل الناس

على إقامة الصلاة ، ويرد للمساجد أنسها وروحانيتها . . وأن يضع برامج التعليم في مدارس البنين والبنات لتكون مذكرة بالغاية الأساسية ، موجهة إليها ، غارسة لها في قلوب الصغار والكبار . . وأن ينتفع بوسائل الثقافة الأخرى ، كالمسرح والسينما والصحف والمجلات ، وما استجد من أساليب الدعاية . . . ولا يسوغ بحال من الأحوال أن تجند كل هذه الوسائل الفعالة ، لتقرير العقائد الزائفة ، وإذاعة المبادئ الفاسدة ، والتوجيه إلى حياة اللهو والباطل ؛ ويقف دعاة الحق كأنهم لا يرون ولا يسمعون ، ولا يعيشون مع أحياء هذا العصر .

ثانياً : إذا تقرر أن القلب هو كل شيء في عوامل الرحلة ، أو هو أهم شيء فيها — فهو الذي يبصر الغاية ، وينير الطريق ، ويحدد العزائم ، ويستحث الأشواق — فقد وجب أن نتيح له من الهدوء و فراغ البال ، ما يجعله على ذكره وفكره ، وإقباله على الله سبحانه في طمأنينة وسكينة . . . وفي رأي أن القلب إذا أحيط بما يقيه ويحفظه من المؤثرات العارضة ، مضى إلى غايته على هدى وصراط مستقيم . . . ويمكن الدعاية أن يجعل هذه المؤثرات فيما يأتي :

(١) مؤثرات اقتصادية

نعم ، فمطالب العيش وكل ما يتصل بالحياة الاقتصادية له تأثيره المباشر القوي على القلب ، كالفقر والتعطل عن العمل لمرض أو شيخوخة أو سبب آخر ، ونقل الدين والغرم ، ونزول الآفات والحرائق ، واليتم والترمل إذا مات رب الأسرة ولم يترك شيئاً ، وما يشبه ذلك مما تضيق به النفس ، ويغدو به المرء موزعاً في أودية من الهموم والأفكار والذلة والحيرة . . . فهل يتأتى للقلب أن يظل في هدوئه وسكينة ، وهذه الهموم تنقسمه وتنزعه ؟

على الدعاية أن يترك هذا ، وأن يبذل غاية جهده لصيانة القلب منه ، والمحافظة على بقائه في روض سلامه ، ونعيم ذكره وفكره . . . ونحب أن نذكر هنا مرة أخرى ، أن سلام القلب ليس من الأمور السكالية التي قد يتهاون المرء في العناية بها ، وليس هذا النعيم من قبيل التذليل والزيد في مطالب الرف . . . لا . . . إنه الضرورة الأولى . . . إنه الحياة التي ليس بدونها حياة . . . وإنه النجاة ، وليس بدونه إلا الهلاك ، ولا يدرك هذا إلا من فقه وأيقن أنه خلق لأخراه لا لدنياه . . . فإذا عشنا بالنص على على هذه المؤثرات المتصلة بمعيشة الناس ، فإننا ننص على قيام سبب من أسباب الهلاك ،

وليس للإنسان إذا هلك ، من فرصة أخرى يصلح فيها شأنه ، إنها الجنة أبداً ، أو النار أبداً . . . وإذا كانت الحكومات تسارع إلى مكافحة الأوبئة لسلامة الأبدان ، فأحرى ثم أحرى أن تكافح ما ينفذ على القلب من الهموم والأزمات ؛ ولأمر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن . . . وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » ويقول : « اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر » . . . وليس من البشر كافة من هو أسمى همه من رسول الله ، فهل تراه فزع إلى الله واستعاذ به ، إلا لأن الحزن والهم وغلبة الدين والفقر من مهلكات القلب ، كالذنوب والشهوات سواء بسواء ؟ أم تراه فزع منها لأنها تصد نفسه عن الطعام ، وتقعد بهمة عن السعى في الأرض لجلب الحطام ؟ . قد يجوز لأى باحث اجتماعى نفسانى أن يستخرج من هذا الكلام ما يشاء ، من تأثير الهموم على همه المرء وعزيمته وما لذلك من أثر اقتصادى وعمرانى فى الحياة المادية ، وهو حسن . . . ولكن ما نعلم من سمو همته صلى الله عليه وسلم ، وصفاء إدراكه للحقائق العليا ، يجعلنا نجزم بأنه يقصد قبل كل شيء سلامة قلبه ، الذى هو مستودع الحياة فى الدنيا والآخرة .

فإذا نحن عينا بتقرير هذه العوامل الاقتصادية ، وأثرها على حالة المرء النفسية ، فلسنا نقف بمرادنا عند حدود اللقمة التى تسد جوعه ، وتستريح عريه ، كما يقف كثير من المهتمين بعلاج مشكلات الفقر والبطالة . . . بل نرى إلى ما وراء هذه الحدود من انقشاع الظلمة عن القلب ، وصفاء الأفق من حوله ، وعودة الطمأنينة إليه ، ليواصل سيره إلى غايته . . . فإذا أمكن أن نصل إلى هذه الغاية مع بقاء أسباب الجوع ، فتلك مرتبة لا يدركها إلا المشمرون . . . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجوع فلا يذله الجوع ، ويخلو بيته من القوت فلا يتضعض لأحد لينال من فضله شيئاً ، ولا يهمه ذلك أو يفهمه ، بل يربط الحجر على بطنه ، ويقول لمن حضر من أصحابه : « ألا رب نفس طاعمة كاسية فى الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة ، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم » ؟ ولكن أنى لنا بهمة رسول الله ، وعظمته الشاحنة المترفعة على ما يذل الناس من قيود وضرورات ؟ !

لقد ذكرنا ما ذكرنا ، لنبين أن مرادنا الإسعاف بالمال والطعام واللباس ، غير مراد أصحاب العقول المحصورة ، والنفوس الضيقة . . . ولذا نرى دائماً أن يقترب هذا الإسعاف المادى ، بإسعاف روحى يربط على القلب ، ويمسح عنه بخنانه ما مسه من هجير الحاجة ،

ويعملوه رضا بما قسمه الله له ... وهذا يا أخى فرق ما بين مناخنا ، ومناهج أعظم المصلحين المعاصرين . . . فقد بشر الإنجليز — وحرب السنوات الست قائمة — بمشروع بفردج واعتبروه — واعتبره الناس في المشرق والمغرب — حدثاً جديراً بتقدم الإنسانية ؛ فهل لنا في غير زهو أن نفاخر بمنهاجنا ونبشر به ؟ بل هل لنا قبل ذلك أن نثق بأنفسنا ، ونعتر بما عندنا من إيمان ويقين ؟ .

ونعود إلى ما نحن بصدد من تقرير اضطراب الحالة النفسية بالعوامل الاقتصادية المتصلة بمعيشة الناس ، ليرى الداعية أن علاج هذه الطوارئ بما لا يحتمل الهوادة والتراخي ؛ فليس يصبر على هلاك الناس إلا جاحد القلب ، غليظ العاطفة ، وليس هذا من الدعاة في شيء . . . ويرى كذلك أن ضرورة الموقف تقتضيه فرض التكافل والتعاون بين جماعته ؛ تقتضيه أن يجعل هذا التكافل نظاماً مفروضاً على الجميع . . . ولقد فرض الإسلام الخفيف الزكاة ، ولم يجعلها تطوعاً متروكاً إلى اختبار المرء ورغبته ، ففتح بهذه الفريضة العملية الإيجابية ، الباب على مصراعيه أمام الداعية ، ولم يتركه إلى حسده ونغمينه ، وأمره أن يأخذ كل القادرين بأدائها ، وأن يترحم بالسيف على حكمها ، إذا هم قعدوا عنها وبخلوا بها . . . وليس على الداعية بعد هذا إلا التنفيذ ، وإقامة الأنظمة ، وسن القوانين التي تحقق هذا التكافل بين الجماعة ، وتجعله حقيقة عملية واقعة . وننبه هنا أخيراً إلى ما أُلغنا إليه سابقاً من أن مهمة الداعية لا تنتهى بإقامة هذا التكافل ، بل لا بد من أن يجعله نظاماً سائعاً في قلوب السكاقلين والمكفولين ، رضون عنه ، ويغبطون به ، ورونه في صالحهم على السواء ؛ فإن المتبادر إلى الذهن أنه في صالح من قعدت بهم الحاجة فقط ، وهذا خطأ . . . فإن غصة الفقر على القلب ، تعدل غصة الحرص وحب المال ؛ وتفسير هذا ميسور لمن يدرك أن حياة القلب في الاشتغال بالله سبحانه وتعالى وحده ، وليست في شيء آخر ، وأن هلاكه في انصرافه عنه ، واشتغاله بغيره ، وهذا الانصراف يتحقق بشواغل الفقر ، كما يتحقق بشواغل العنى والمال ؛ والعبرة بالتأخر لا بالمقدمات . . . فإذا وقف الداعية عند إقامة التكافل ، وتيسير سبله ووسائله الظاهرة ، فقد أقام نظاماً آلياً ، قد يخلو في قلوب الفقراء دون الأغنياء . . . وإذا صح هذا في منطق المصلحين المحجوبين ، فلن يصلح في منطق المصلح الإسلامى ، الذى يرى بنور الله ، ويتخذ القرآن دستوراً وإمامه . . . والله تبارك وتعالى يقول : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » . . . أما الوقوف عند الفرض بالقوة والسيف ،

فإنه يقيم الناس على ترقب الفرص المناسبة للانتفاض والعصيان والوثوب على النظام .
ومن حق الدعوة عليك ، ومن حق الناس كذلك ، أن تطيل النظر في قوله تعالى :
« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » ،
فإنه قول جامع لكل ما يمكن أن يقال أو يعمل في هذا الباب ، فقد قال الله تعالى :
١ — « خذ من أموالهم صدقة » وهذا حق الفقير ، وهو أمر القانون ، وحكم
السيف لا محالة .

٢ — « تطهرهم وتزكهم بها » والتطهير مرتبة ، والزكية مرتبة أخرى فوقها ،
وكلتاهما في غنى عن الشرح والبيان ؛ وها هنا حق القلب ، ولا يصل هذا الحق
إلى القلب بمجرد أخذ الصدقة ، بل بالأسلوب الذي تؤخذ به ، وصرفها في المصارف
التي سنت لها ؛ وهو أسلوب الوعظ الرقيق ، الذي يجعلها عبادة وقربة إلى الله سبحانه ،
ووسيلة إلى الدار الآخرة . . . وأسلوب النظام الذي يشعره أن الدولة راعية له ،
مسؤولة عنه ، في يسره وعسره ، وأن أبنائه في كفالة الإمام ، إذا هومات عنهم
ولم يترك لهم شيئا ؛ وإنها لكفالة رحيمة لا قسوة معها ، عززة لا ذلة فيها ؛ كفالة
ترقب الله في الجميع ، ولا تبغى لنفسها شيئا من جاء أو منفعة مادية . . . أسلوب العدالة
والمساواة في الحقوق الإنسانية ، بحيث يأمن الظلم ، ويشعر أن خير الدولة للجميع ،
لا لطائفة دون طائفة . . . أسلوب السماحة في البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ،
وتيسير المصالح ؛ وهو أسلوب تسنه الدولة ، لتجرى عليه معاملتها مع الناس ، ويجرى
عليه معاملات الناس بعضهم مع بعض ، فلا طمع ولا استغلال ، ولا ربا ولا غرر ، ولا
شيء مما تؤكل به أموال الناس بالباطل . . . وإنما هي السماحة العامة ، التي تخرج
الإنسان من حدود بدنه الضيقة ، ودنياه المستعرة بمحجم المطامع والأزمات ، إلى آفاق
قلبه ونعيم الحياة الآخرة .

بهذا الأسلوب تلين القلوب ، وتنحل عنها أقفالها ، وتؤتي الصدقة ثمارها
الاجتماعية والروحية .

٣ — « وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » وادع لهم بخير ، وأفض
عليهم من نور قلبك وحنان نفسك ، فإنه سكن لهم من الفتن والثورات والانتفاض
على النظام .

وبلاحظ من ظاهر الآية الكريمة ، أن الضمائر فيها عائدة على أرباب الأموال
والقادرين ، وهذا معناه أن خير الصدقة مردود على المتصدقين ، ونفعها عائد عليهم

وحدهم . . . ويعضد هذا قوله تعالى : « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْسِكُمْ » فهم الذين نالهم التطهير ، وهم الذين أصابوا التزكية ، وصدقاتهم قد قبلها الله سبحانه يمينه ، وهو يربها لهم حتى تكون كل منها مثل الجبل ، على ما ورد في الحديث الشريف . . . أما الفقراء ، فإذا نالهم من هذا ؛ رغيف ؟ ثوب ؟ درهم ؟ هل تطهر الفقير بالرغيف والثوب والدرهم ؟ ومتى كان المسكين قد تدنس حتى تطهره الصدقة ؟ إن الذي تدنس حقاً هو الذي دخل حب المال قلبه ، فأفسد عليه طمأنينته ونظام تقواه . . أما الفقير ، فكل شأنه أن عقبة وقعت في طريقه ، أعساه على اجتيازها ، وأزلنا عنه ما كان يشغله بها .

ومن زعم أن أكل الرغيف ، أو لبس الثوب ، أو إنفاق الدرهم طهارة لا كله ولا يسه ، فلزعم إلى زعمه هذا ، أن الأغنياء أكثر الناس طهارة ، لكثرة ما يأكلون ويلبسون وينفقون . ! ؟

إن آخذ الصدقة في الحقيقة هو الله تعالى ، وهو سبحانه القائل ذلك بنفسه : « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

فهذا كما ترى توجيه في فهم الآية . يتفق تمام الاتفاق مع ظاهرها الذي لا ليس فيه ، وهو بهذا يسبغ رداء الكرامة على الفقراء ، ولا يجعل لأحد من المتصدقين فضلاً عليهم ؛ فصدقاتهم دائرة بينهم وبين ربهم ، يطهرهم بها ويربها لهم ، وبضائع أجرهم عليها . . وهو من المدركات العالية في كتاب الله سبحانه .

وقد يرى بعضهم أن يرجع الضائر في قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها » إلى الأغنياء والفقراء جميعاً ، ويستأنس لرأيه ، بأن المال مال الله ، كما ورد في القرآن الكريم ، والجميع خلقه سبحانه ، فهم شركاء في ماله ، لكل منهم حق معلوم ، ونصيب مقرر ، كما ورد في كتابه أيضاً . . فالصدقة على هذا التوجيه تطهر الأغنياء من الشح وحب المال ، ومن رذائل اجتماعية خلقية كثيرة . . وتطهر الفقراء لا من الفقر ، ولكن من الذلة وعبادة أرباب المال . . وكلا الفهمين يستند إلى كلام الله ؛ وفي كل خير وبركة . والعبرة بالعمل ؛ وفقنا الله سبحانه وتعالى إليه !
هذه خواطر رأينا تقيدها ونحن نتكلم عن المؤثرات التي تتصل بمعيشة الناس فتبليد أفسكارهم ، وتوقعهم عن المضي إلى غايتهم الربانية . . وقد رأى الداعية أن الإسلام

قد رسم له كل ما هو أساسى وضرورى ، فما عليه إلا أن ينفذ ، وأن يكون مشبوب الرغبة فى التنفيذ ، منبعثاً إليه فعلاً بقوة الواجب . وخطورة المسئولية .

(ب) مؤثرات نفسية

وهى عوامل ترجع إلى غرائز الإنسان الحيوانية ، وأهمها كلها هنا ، غريزة الجنس وحب المال ؛ وكل منهما إذا ثارت بصاحبها عصفت بعقله ، وفرقت همه قلبه ، لتعش به كالريشة فى مهب الريح . . ولا بد لانتظام سير الإنسان ، أو لانتظام سير قلبه إلى الله ، من معالجة جموح هذه الغرائز ، وتلطيف حدتها وثورتها . . وليس معنى هذا ، محاربتها واستئصالها ، بل الغض من عنفها واصطراخ شياطينها فى القلب ، حتى تغدو مهذبة نبيلة . . ولا يكون هذا إلا بعلاج طبيعى قبل كل شئ ، علاج يمس طبيعة البدن ، ويؤثر مزاجه الحيوانى . . . وهذا بعض الأغراض الحكيمة التى شرع الله من أجلها فريضة الصيام ، فيها هدهدة لغرائز البدن ، وكشفة لقواها النائرة ؛ ولقد ترى من هذا شيئاً فى قوله عليه السلام : « يا معشر الشباب ، من وجد الباءة منكم فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ؛ فمن لم يستطع ، فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء (١) » .

وداعيتنا لاهيمنة له على سرائر الناس ، فيعرف من صام ومن لم يصم ؛ فالصوم سر بين العبد وربّه ، ولا سبيل لأحد أن يعرف شأن غيره إلا إذا رآه يستعلن بالإفطار ، ومعنى هذا أن كثيراً من الأفراد يتحللون من هذه الفريضة السكرية ، وتبقى غرائزهم على ما هى عليه من العنف والتزنى ، تهدد هذا فى ماله ، أو ذاك فى عرضه ؛ وقد أعد الإسلام لهذا الاحتمال عقوبة صارمة حازمة ، تنقم لفورها شياطين الفتنة ، وتريح القلب من اضطراخها وبلبلتها ، فللسارق قطع يده ، وللزانى جلده أو رجمه حتى يموت . وما على الداعية إزاء هذا النظام العملى لعلاج الغرائز ، إلا أن يكون حازماً فى تنفيذه ، لا تأخذه شفقة فى دين الله بمجرم أو مجرمة ، حتى يستقر أمن الناس على أعراضهم وأموالهم ، وحتى تنقم شياطين الغرائز فى مقامها ، فيصفو الأفق حول القلب ، وينصرف إلى دار سلامه ومعين حياته .

(ج) مؤثرات اجتماعية

وهى عوامل ترجع إلى العادة والعرف فى تقدير قيمة العرض والعفة والفضيلة ، وأبرز ما فى هذا الباب ، تبرج النساء ، واستعلان الناس بما يأتون من منكر

(١) مأخوذة من وجاء إذا ضربه فى عنقه .

وليس من قصدنا هنا أن نحدثك بما يجري في الشوارع ، أو يدور في حلقات الرقص ومجالس الخمر ، وتذشره الصفوف والمجلات على أنه من آيات الرقى وسمات التحضر ؛ وإنما نريد أن نذكر أن هذه العوامل مما يقطع على القلب طريقه ، ويفسد عليه هدوءه وطمأنينته . . . والنظرة سهم مسموم ، وهي تريد الشيطان إلى القلب ، والمرأة إذا خرجت استتيرفها الشيطان ، وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده فتنة أضر على الرجال من النساء ؛ وهذا ما نخذر منه دائماً ، لأنه الهلاك ، كما تقرر في غير موطن ومطلوب إلى الداعية أن يعمل بكل ما يستطيع من الوسائل ، على تطهير البيئة من كل فساد يضر بحياة القلب ؛ وقد فتح له الإسلام الباب ، فنهى عن التبرج ، وشرع لشارب الخمر عقوبته ، ثم ترك له أن يتم تطهير البيئة بما يحضره من سلطان رוחي ، أو نحو ذلك مما استحدث في العصر الحديث . . . وعندنا غير التبرج : صحافة خليعة ، وملاذ لإثارة أحط الغرائز ، وصور تلصق على جدران الشوارع للفتنة والإغراء ؛ فليعلم الداعية أنها من أعدى أعدائه ، وأن القضاء عليها من أهم واجباته .

وقد وفدت علينا من الغرب سخافة رقيقة ، تدعى أن المرء حر في حياته الخاصة ، يفعل بها ما يشاء ، وليس للناس إلا أن ينقدوا أخطاءه في صلته بالجمهور ، وخدماته العامة . . . وقد قبل أهل الشهوات والمفتونون منا هذه السخافة ، وتبعهم عليها كثير من الجماهير ؛ فإذا عبت على فلان أنه يشرب الخمر أو يلعب القمار ، أو يراقص النساء ، أو . . . أو . . . قيل لك ، هذه أمور شخصية لا يصح لك أن تتكلم فيها ، فانقد مشاربهم ، وتصرفاته العامة ، وآرائه في السياسة أو الأدب أو الاقتصاد ، أو نحو هذا . . . فليدخل الداعية هذه السخافة في حسابه ، فالمرء كله وحدة متماسكة ، بحياته الخاصة والعامة ، ولا صلاح لإحداها بفساد الأخرى ؛ ومن الجحود للفضيلة ، أن زدرىها ونخذلها بقبول هذه الرذيلة السمجة . . . ولنا مكافئين مناقشة هذه الحماقة ، وإقناع ذويها بالبرهان فلبس بعد أمر الله ونهيه مجال للتردد والجدل ، فعد أمر وكفى ، وليس في المقام إلا إزال العقوبة الصارمة التي تردع السادر ، وتوقظ الغافل ، وتقيم الجميع على شرع الله ، في جد واعتدال .

والآن . أين نحن من فصلنا هذا ؟ لقد تقرر أن واجب الداعية — بعد معرفة الغاية — ينحصر في إحياء القلب ، وجعل طريقه إلى الله سهلاً هادئاً مأموناً ، لا يعتره فيه ما يطفئه أو يغمده . . . وذكرنا أن هذا يتحقق بأمرين .

١ — دوام التذكير .

٢ — إحاطة المرء ببيئة ذات أوضاع فاضلة ، تقيه هموم الأزمات الاقتصادية ، وتهذب غرائزه الحيوانية ، ويقوم العرف فيها على استهجان الرذيلة ورعاية حقوق الفضيلة . أما التذكير فغير مستطاع في البيئات الفاسدة ، أو قل على الأصح إنه لا جدوى له ، فالمجتمع إذافسد ، تبلبلت فيه الآراء ، ومضى أفراداه يعجب كل منهم برأيه ، يعبد هواه ، ويذهب مع ما يسمونه الحرية الشخصية إلى أبعد مدى مستطاع ، فماذا ينفع التذكير في هذا المحيط ؟ البيئة الفاسدة تدعو إلى الإباحة والانطلاق ، فما لم يكن في يد المذكر سلطان يأخذه الجاحمين ، فإن أمره يكون أقرب إلى العبث منه إلى أى شيء آخر ... ومن هنا يجب العمل أولاً على إيجاد البيئة الفاضلة ذات الأوضاع الصالحة .

ولقد ذكرنا ما جاء به الإسلام من قواعد هذه البيئة ، فما على الداعية المصلح إلا أن يشرع فيما يريد ؟ عليه :

- ١ — أن يدخل في بيئته ما يريد من المبادئ الخلقية والأوضاع العملية .
 - ٢ — وأن يعدل ويصالح ما لا يعجبه منها .
 - ٣ — وأن يزيل ويستأصل كل فكرة أو وضع يعارض الحق الذى ينشده .
- هذا هو الترتيب الطبيعى ، وإلا فإن وعظ الواعظين وخطب المذكرين لا تمكث مع الناس إلا ربمّا يخرجون من معابدهم ، حيث يطفى على العقول والقلوب سيل مما يصنع الشيطان وجنوده في الحياة .

وهوب معالجة العقبات بالسرفوف

قال أحد الإخوان : هذا كلام معقول ، ولكن تحقيقه من الصعوبة بمكان ، إذ كيف يتأتى للداعية أن يتصرف في أوضاع بيئته هذا التصرف ؟ ... إن العقبات أمامه كثيرة : فهناك العرف الذى استمرأ ما هو عليه ؛ وهناك ثقافة مغرورة مفتونة لا تعترف بدعوتك ؛ وهناك قوانين لها معك حساب عسير إذا قتت تتجدها ؛ وهناك من لهم مآرب خاصة في حماية الأوضاع الفاسدة ، فلن يدعوك لتحريمهم حظوظهم منها . فكيف السبيل إلى ما تدعو إليه ؟ .

فقال له صاحبه : نعم ، السبيل واضحة جلية ، وإن كانت شاقة بعيدة المدى ... السبيل أن تدعو الناس إلى ما تريد ، وتحذرهم ما هم فيه ، وتبين لهم خطأ ما هم عليه . ثم تنظر إلى العقبات ، فتسوس كل عقبة بما يفتيك به قلبك ، وبما يحضرك من أمراكه . لا تنتظر يا أخى أن أرسم لك خطة ، فليس الداعية آلة تنفذ ما يراد لها ، إنما هو قلب

حي ، وفكر يقظ ، جاءه الرسول بالمنهاج الكامل ، وأمره أن يستهدى فطرته في تفاصيل التنفيذ ، ويستفتى قلبه فيما يعن له ، وإن أفتاه الناس ، وأفتوه . . . واعلم أنك بالغ بأمر الله ما تحب ، ما لم يعجلك شيء عن أناتك وحملك . .

مثال لنجاح الأسلوب اللين

واعلم أن مثل الداعية القوى المؤمن ، كمثل السيل المنحدر من شواحق الجبال . . فيه منه قوة الاندفاع ، وفيه منه للناس سر الانتفاع ؛ ولكن السيل لا يعجل إلى العقبات أو الهضاب فيمزقها ويزيلها ، بل يدور حولها ويحيط بأطرافها ، ويمضي إلى ما خلفها ، ويتركها معزولة عما عداها ، ثم يعلو ماؤه ويعزر فيضه ، فيرتفع على جوانبها بالتدرج ، حتى يغطي قممها ، ويخضع لسلطان رءوسها الشائعة . . فإذا كنت لم تفهم هذا المثل ، فرسالتك قد نزلت من السماء لا من الجبل ، وسر اندفاعها وانتفاعها في قلبك أنت ، لا في جهة أخرى . . وأنت الذي يجب أن تسبح بدعوتك في كل مكان فإذا صادفتك عقبة من قانون عتيد ، أو شخصية طاغية ، فلا تعرض لها بغير ما يعرض لها السيل ؛ أدعها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولا تقف عندها فذلك خرق وجهل ، بل أفع ما يفعل السيل ؛ در حولها ، وامض في سبيلك إلى ما وراءها ، وادع الناس إلى جانبك ، حتى تغدو منعزلة عما عداها ، ويقنعها الواقع بقوة أمر الله ، أو يغيبها أمر الله عن الأنظار . .

وسر ذلك — قطعاً — إلى الطبيعة التنفيذية الموقفة . . . ولا نستطيع تحليل هذا السر ، ولكننا نستطيع أن نشير إلى مظاهر نجاحه وتوفيقه في محيط الدعوة الخارجي ؛ ونشير كذلك إلى بعض الخصائص النفسية التي تلازمه ولا تنفك عنه .

دعائم النجاح في المحيط الخارجي

١ — الحركة

ولقد قلنا إن الطبيعة التنفيذية سر مشبوب لا مدى لقواه الهائلة . . ومن شأن هذا أن يجعل صاحبه حركة دائبة ، لا يكف عن الدعوة ، ولا يغمد عن العمل ؛ يزور هذا ويدعو ذاك ، ويتحدث إلى آخر ، ويدور على الأندية والمجالس ، ويقوم الولائم ويدعو إلى الحفلات ، ويتحدث إلى كل من يقابله . . فإذا وفدت وفود الناس في اللوالم أو غيرها ، فهي فرصة حسنة متاحة للقائهم ، وعرض دعوته عليهم . . وهو لا يقر في مكان ،

بل لا بد له من التنقل في المدن والقرى ، والمغايرة بين البدو والحضر ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يركن إلى دعة ، فراحته في تعب ، وسعاده في دعوته .

أفتظن هذا يا أخى يكون بغير تلك العاطفة القوية ، أو بغير هذا السر الإلهي المشبوب ؟

لا يقل أحد إنى لا أملك هذه العاطفة ؛ فإن كل راغب في الخير يمكنه أن ينهض ، وأن يتحرك ، وأن يذهب ويحجى ، حتى ينقذ زنده ، ويمور باطنه ؛ والحركة تلد الحركة ، والهمة تدفع الهمة بإذن الله . . أما دعاة المجالس الراكدة ، والسكراسي الجامدة ، والكلمات التي لا تسكفهم إلا حركة اللسان ، فذسأل الله لهم حسن التوجيه ، وأن يخرجهم من إثم ما هم فيه .

٢ — الربغال بالدعوة في صميم حياة الناس

ومن أول هذا النجاح أن يعين الداعية بدعوته إلى صميم حياة الناس ، إذ ليس كل من تكلم داعية ، وليس كل من غدا وراح وذهب وجاء ناجحاً في دعوته ؛ إن النجاح كل النجاح أن تدخل دعوتك في صميم حياة الناس ، وأن تسكبها في قلوبهم وأعصابهم ، أما أن تبقى على هامش الحياة فلا ؛ إن نجاحك أيها الأخ ، أن تجعل دعوتك مسألة حيوية حارة ، يتحدث بها الناس في مجالسهم ومنازلهم ، مع أصدقائهم وأهلهم . . تأمل هذا جيداً ، فليس النجاح حفلة تقام ، أو خطبة تقال ، أو رحلة تشق فيها كثيراً من القرى والأمصار . . النجاح أن تكون الدعوة هي مسألة الساعة في حياة الناس : يلقي الرجل أخاه فلا يحدثه إلا عنها ، ويزور الصديق صديقه فتكون أقرب المسائل إلى حديثهما ، ويسمر السامعون فيدور جدلهم حولها ، كما هو شأن الناس فيما يشغلهم من المسائل العامة كل وقت .

هذا معنى اشتغال العقول والقلوب بالدعوة ، وليس ضرورياً أن يتناولها الجميع في استحسان وإعجاب وتأييد ، وإنما المهم أن يتحدثوا عنها في اهتمام وكثي ؛ فإذا رأيت منهم الخصوم والوالين ، هؤلاء يعارضون ويحتدون في معارضتهم ، وهؤلاء يؤيدون ويتحمسون في تأييدهم ، فذلك من صميم النجاح . . وقد آمنت القلة من أهل مكة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكفرت الكثرة العظمى ، ولكن الدعوة كانت هي المسألة الحاضرة في المجتمع المسكى كله ، تشغل أذهان المؤمنين وغير المؤمنين على السواء ؛ وكان الداعية الأكبر صلوات الله عليه لا يكف عن الدعوة ساعة من نهار ؛ وكان

المتحدثون لا يكفون عن الخوض في حديثها ساخطين أو راضين ؛ وكان الأذى لا يفتأ ينصب على المؤمنين ، أذى اللسان ، واليد ، والسوط ، والنار ، والحراب ؛ وكان الإغراء يبذل بسخاء لمن يرتد منهم عن دينه : إغراء بالمال ، أو السلطان ، أو زواج الجيلات الشريقات ، أو غير ذلك ؛ وكان الآباء والأمهات يستعطفون أبناءهم ، ويتوسلون إليهم بكل وسيلة ليرجعوا عن شأنهم الجديد ؛ وكان الجدال والشقاق والخصام يدخل البيوت ، فيفرق بين القلوب ويباعد بين الأحبة . . . كان ذلك كله ، وكان هو النجاح بعينه ؛ لقد جدّ الداعية صلوات الله عليه وعمل ونصب ، حتى أدخل دعوته في صميم الحياة ، ولم يبقها خافضة على الهامش الخامل ؛ وحسب دعوة الحق نجاحاً أن تنفذ إلى « لب حياة الناس — حياتهم العاطفية والعقلية — نفوذ عداً أو نفوذ ولاء . . ولا نقول هذا ، لتقف من الآن للناس موقف العدا ، لتحملهم على معارضة فكأن هذا آية نجاحك ، فلا بد من الحكمة والموعظة الحسنة . . لا تجعل أحداً يخاصمك لميب في أسلوبك الخاص ، وطريقة معاملتك ، بل دع الذين يخاصمونك يخاصمونك في جوهر الدعوة نفسها ، فإنهم حينئذ لا يخاصمون إلا الحق ، والحق لا ينبغي أكثر من الدخول في قلوب أوليائه وأعدائه ؛ فإن هؤلاء الأعداء لا يعادونه إلا بعد أن يعرفوه ، ولا يرفضونه إلا لأنه يحرمهم جاهها أو متعة استباحوها ، أو لنحو ذلك من الأهواء والاعتبارات الطارئة على الناس . . لا يرفضونه إلا لداع وقتي ، فإذا تغيرت الظروف وزالت هذه الدواعي الوقتية ، لم يبق في القلب إلا شيء واحد ، هو الحق الساكن في منزلة العدا ، فيتحول حينئذ في غير كلفة إلى منزلة الولاء .

أما الجهد الذي يقف بدعوته على الهامش ، فهو جهد الأموات الهازلين والمرائين ، ممن لا إيمان لهم بأنفسهم ودعوتهم ، وليس من العقول أن يشتغل الناس بدعوة لا تشغل صاحبها .

أيها الأخ ، اجعل مثلك الذي تقتدى به في التبليغ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم اهتم بدعوتك ، وانصب لها نفسك في محيطك ، في قربتك أو مدينتك أو أمتك ، واقتحم بها إلى كل مجلس وناد ، وتحين لها كل فرصة سانحة ، وتغير لأحاديثها ما يلقى الناس من كوارث الطاغوت وآلامه ؛ ولا تجعل كلامك مقصوراً على الجنة والنار ، والبعث والحساب ، والقلب والبدن ، بل بث ذلك بثاً في ثنايا حديثك عن شذوذ الأوضاع ، وبلايا المطامع ، وفساد الأخلاق وضحايا الطغيان والطاغوت ؛ ولا تكف عن الكتابة والخطابة ، والحديث والسعي ، حتى تحيا دعوتك في قلوب من يفزعهم أمرك أو يرضيهم ، ويشغل بك الجميع في حضورك وغيبك .

وهذا سر من أسرار الطبيعة التنفيذية ، يكون به الداعية جادا غير لاعب ، شجاعا غير خائف ، عمليا غير خيالي ، متمزجا بآلام الناس وآمالهم ، مغنيا لهم بالنعم الذي يفزع ويطرب ، ويرضى ويغضب ، وقيم ويقعد !! . وإلا فما معنى أنه سر موكل بإفناذ الرسالة إلى الحياة ، إذا هو لم ينفذ بها إلى قلوب الناس وصميم شئونهم .

٣ - التجميع :

وهناك أمر ثالث ، تلتفت إليه الطبيعة التنفيذية الناضجة ، ألا وهو « التجميع » : أى تجميع من يقبلون على الدعوة بالولاء والتأييد . . ولا يكون هذا نتيجة تفكير عقلى أو اجتهاد نظرى ، إنما هو شعور من القلق ، لا يطمئن معه الداعية على هؤلاء المؤيدين أن ينفذوا بلا نظام فى بيضاء الحياة .

وليس من قصدنا أن نذهب إلى التحليل النظرى لعناصر هذا الشعور الذى يحفز الداعية إلى « التجميع » . . وليس من قصدنا كذلك أن نتحدث عن مزايا الجماعة إذا تجانست عقائدها ، وتلاقت ميولها على خدمة مبدأ معين ، ولا أن نسوق لك ماسن الإسلام لتجميع أفراد المسلمين من صنوف كثيرة من العبادات ، ولكننا نريد أن نذكر أن كل جهد يبذل فى الدعاية دون أن يقترن بالرغبة فى التجميع ، أو دون أن يعقبه التجميع فعلا ، فهو جهد نظرى ، لا يلبث أن يزول أثره بعد حين قريب أو بعيد .

وهذا معنى نلجحه فيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أو صاه . . إلى أن يقول له : وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاثة خصال أو خلال ، فأيتهم ما أجابوك ، فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ؛ ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين . . إلخ إلخ .

فأنت ترى أن الرسول عليه السلام يهتم بأن يدعو من يسلم إلى أن يتحول إلى دار المهاجرين « المدينة المنورة » فلماذا ؟

عليك أن تفكر ، وأن تستخرج المزايا العملية لهذا « التجميع » الذى يجمع المؤمنين ويركزهم حول قطب الدعوة الأعظم صلوات الله عليه .

ولا نريد أن يكلف الداعية فى العصر الحديث أنصار دعوته أن يتحولوا عن قراهم ومدنهم ليقیموا من حوله ، وإنما نريد أن تثبت الأفكار حول رأى هذا التجميع الذى كان يبغيه عليه الصلاة والسلام ؛ فإن رأى الداعية وأنصاره من أنفسهم الرغبة

في تحقيقه فليجتمعوا ، فإنه طريق النبي عليه السلام . . . وإلا فإن سهولة المواصلات البريكية ، والبرقية ، والجوية ، والبرية ، ونحوها ، مما يحقق للدعوة هذا التجميع بانتقال الداعية إلى أعوانه حيث يقيمون ، انتقاله بشخصه ، أو بأرائه وتوجيهاته ، على أن يكون له في كل مكان جماعة تمثل نفوذه ، وتعمل صادعة بأمره .

وكان الرسول عليه السلام ، يعذر من لم يستطع الهجرة إليه والتجمع حوله ، فكان يرسل إليهم من يقوم فيهم بالدعوة مقامه ، ويجمعهم على أمر الله .

ولقد قامت منذ قريب دعوة إصلاحية دينية ، وكانت قوية بقوة من نادوا بها ودعوا إليها ، فأين هي الآن ، وأين آثارها ؟ .

إن عهدنا بها قريب ، ولا زال الجيل الحاضر يذكر رجالها بالثناء والتعظيم ، ويحلهم محل الإمامة والأستاذية والصدارة ، فماذا أثمرت هذه الدعوة ؟ إن رجال هذه الدعوة لم يعوزهم العلم ، ولا الجاه ، فقد كانوا في الذروة من هذين ؛ ولكنهم لم يفتنوا إلى سر « التجميع » فلم يهتموا أن يقيموا لهم جماعات تمثلهم ، وترعى دعوتهم في المدن والقرى .

حقاً لقد اجتمع حول هؤلاء كثير من رجال القضاء والمحاماة وكبار الموظفين والكتاب والأعيان والأغنياء ؛ ولكنه كان اجتماعاً ، لا تجميعاً ؛ وكان فوق هذا اجتماعاً يسوده معنى إعجاب التلاميذ بعقريه أستاذهم ، لا معنى الجندية في الجنود الناهضين بطاعة قائدهم . . . كان هؤلاء الأنصار ما بين مأخوذ بعلم الأستاذ وذكائه ، أو واقع تحت تأثير شخصيته القوية ، أو راغب في مزايا الجاه الذي يتمتع به الإمام ، وقليل منهم من كان راغباً في الإصلاح حقاً .

كان الدعاة مقتصرين على الجهر برغبات الإصلاح ، ولم يعملوا على تنظيم آثار هذه المجاهرة في البلاد .

ولو كنت بصدد ذكر الأسباب المختلفة لعدم بلوغ هؤلاء الرجال العظماء إلى أكثر مما بلغوا بدعوتهم ، لقلت إنهم على فضلهم وقوة اعتصامهم بالله ذهبوا في الدعوة مذهباً عقلياً لا وجدانياً ، فكانوا يعولون كثيراً على ثمار العقول لا القلوب ، ويعنون بتنبية الأذهان بالدروس العلمية والمقالات العصرية ، لا بإثارة خصائص الإيمان ؛ وكانوا يحسنون الظن بالنهضة الفكرية ، فصرفتهم عن إيقاظ الحقائق الروحية . . . وبالجملة كانت البلاد جماً هامداً فديت الحياة على أيديهم في رأسه فاستيقظ الذهن وهتف اللسان ، أما القلب فلم ينبض ، وأما البدن فلم ينهض ؛ ولو شئنا لقلنا إنهم لم يذهبوا

إلى كل مكان في البلاد ، ولم يدخلوا بدعوتهم في صميم شئون الناس على النحو الذي قررناه سابقاً ، فلم يهبط إلى قرارة المحيط طلباً لما رسب فيه من معادن القوى الشعبية ، وظلوا فوق اليم يجمعون ما يطفو لهم من جيد وردى .

ولوشئنا لقننا غير هذا ، ولكنا لسنا بصدد شيء منه ، وإنما نحن نقرر أن التجميع أمر لا بد منه ، فهو الخطوة العملية التي تضع في يدك ثمرة ما بذلت من جهود في الدعوة ؛ فإن لم يكن تجميع كنت كالصياد الذي ألقى شبكته في الماء ثم رمى خلفها بحبالها وخلاها في اللجة يتسرب الصيد من خلالها .

كننا نقرر هذا ونستشهد له بما ورد في السنة المطهرة ، وبما تعرضت له دعوة هؤلاء الأئمة الأئمة بسبب انصرافهم عنه ، فقاتهم الصيد المرموق ، وظلوا قادة بلا جند ، وظل الشعب جنداً بلا قادة .

أصول التجميع

وما دمننا بصدد التجميع ، فلا بد أن نذكر أن الدعوة إنما تنتصر بقلوب من يؤمنون بها ، لا بأموالهم ولا جاههم ولا قواهم البدنية ؛ فإذا أقبل عليك إنسان فلا عليك أن يكون غنياً أو فقيراً ، سيداً أو سوقاً ، فحسبك أن ظفرت منه بقلب ، فالدعوة بذرة مباركة لا تنبع إلا في تربة القلوب المؤمنة ؛ وحذار أن نخدعنا المظاهر أو الألقاب العلمية وغير العلمية ! وحذار أن نفرط في شخص ما ، مهما بدا لك أنه تافه الرأي ، شاذ السلوك ؛ فإن لكل شخص مزية ، وإن الله سبحانه أعدل من أن يخلق شخصاً ما ، دون أن يسلمحه بمواهب جليلة ، والعبرة بمحسن الاهتداء إلى هذه المزايا ، واستخراجها والانتفاع بها ، وقد يكون لأحد هؤلاء من المواقف ما لا يبلى فيه غيره بلاءه ؛ فاشغل كل واحد ممن حولك بعمل ، وأعط كل ما تميل إليه نفسه ، ليشعر أنها دعوته ، وأنه منها وهي منه ، واستغل كل قوة وموهبة ... وأخرى أريد أن أنص عليها : اقبل في جماعتك كل من يعطيك من ظاهر أمره الاستعداد للعمل معك ، والاستقامة على أمر الله ، وليس لك أن ترده بحال من الأحوال ، اجتهداً منك في أنه مقيم على المعصية ، فإنك لم تشق عن قلبه ، ولا تنجح عليه بمضايقه ، فعبى أن يكون قد أحدث توبة بينه وبين الله ؛ وكل ما عليك أن تتعهدهم من آن لآخر بالنصيحة والموعظة ، وأن تأخذهم بتنفيذ تعاليم الرسالة وتطبيقها على أنفسهم في غير هوادة .

على أن تلاحظ في تجميع هذه القوى والمواهب ، أو في تأليف هذه الجماعات ، أن يسودها معنيان أساسيان :

الأول - النظام

فلا بد من الرجوع إلى قانون وأمر . . أما أن يركب كل شخص رأسه ، فيعمل كل ما يخطر بباله ، ويدخل فيما لا يعنيه ، ويتصرف فيما ليس من اختصاصه ، فتلك هي الفوضى التي تنذر كل جمع بالشقاق والانحلال . . وخير مظهر للنظام الطاعة الدقيقة ، التي لا تردد معها ، ولا حرج في تقبلها . . وليس من غمنا هنا أن نتكلم عن مزايا الطاعة وآثارها في نظام كل جماعة ، ولا أن نورد كل ما ورد عنها في الكتاب والسنة ، ولكننا نحب أن ننوه أن الطاعة لا تجرح العزة ، ولا تهدر الكرامة بحال من الأحوال ؛ فليحذر الناس هذا ، وليعلموا أنه من مداخل الشيطان لهدم الجماعات ، وتفريق كل شمل ملئهم . . إننا نعمل لله ، والله لا ينظر في تقدير الأعمال إلى مناصب أصحابها ، ولكن إلى صدق النية في ابتغاء وجهه سبحانه . . وقد يتقبل الله من أهل الصف الأخير ، ما لا يتقبل من أهل الصدارة والإمارة ، وإنما شرع الطاعة لتكون نظاماً يعقده به الجمع ، وتتوجه به الأعمال ، فما تحقق لنا هذا المعنى ، فهي الإمارة الرشيدة ، ولو وليها عبد حبشي ، وما لم يتحقق فهو الهدف الذي يجب أن تسمى الجماعة لتحقيقه . . أقول هذا لالاستحسنة نظرياً وعقلياً ، بل لاستحسنة عاطفياً قبل كل شيء ، ونجعل أعمالنا مصدقة له محقة لثماره البارة . . ولنذكر دائماً : أن القليل المتجمع ، خير من الكثير المتفرق . . وأن الاجتماع والاتلاف على بعض الخير أو بعض الحق ، خير من الجمع الذي يفرق أعضاؤه وكل منهم يرى أنه وحده على الحق . . فيجب أن نحقق ثمرة الطاعة أولاً ، ثم ننظر بعد هذا في شأن الإمارة ؛ فإذا كنا ننقم منها أنها لا تتمتع بحسب أو نسب أو جاه أو نحوه ، استعذنا بالله ، وطرحنا هذه الأهواء جانباً ، وإذا كنا ننقم عدم الخبرة ، وسوء التصرف ، والاضطراب في العمل ، أو الذهاب مع الأهواء الدائمية — عاجلنا الأمر بالحكمة ؛ والحكمة هنا هي الحرص التام على سلامة الجماعة ، فإذا أُنذر العلاج بالتصدع كان من الجريمة الاستمرار فيه .

الثاني - الإخاء الفاضل

فيجب أن يسود هذه الجماعات ما يسود الأخوة الموقنين . . وأهم عناصر الإخاء : الحب . . والمساواة . . والتعاون على الخير في السراء والضراء .
فإذا رأيت إخوة غير متحابين ، فقد دخل عليهم أمر أفسد ما بينهم ؛ وإذا رأيتهم يفاخر بعضهم بعضاً بجاهه ، ويكاثر بماله ، ويتعالى بمنصبه ، فهذا شذوذ لا يجري

عليه أمر الأخوة ؛ وإذا رأيتم بعضهم عن بعض في المعونة ، فاعلم أن أواصر القلوب متقطعة .

ونوصي هنا بمخلصين كريمين كبيرتين :

الأولى فضف الجناح

وأعني به انكسار الأخ في هذه الدعوة الربانية لأخيه ، مسيرة للقول الطيب المأثور : إذا عز أخوك فهن . . ونحن إذ نوصي بهذا ، نرجو أن تتخذ كل جماعة دستوراً عملياً لها . . عملياً لا نظرياً . . فإن الآفة هي انصراف النفس عن إساعة مثل هذه المبادئ السكريمة . . فلو أننا رضنا أنفسنا على إساعتها وتجرعها ، فقد انتصرنا نصراً عظيماً ، وأذلنا شيطاناً مريداً كان ينفخ في الأوداج ، بما يسميه العزة والسكرامة والانتصار للنفس . . ولأمر ما قال رسول الله صلى عليه وسلم : « وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما ! ما كظمها عبد لله ، إلا ملأ الله جوفه إيماناً يجد حلاوته في صدره » .

فإذا أخذنا أنفسنا فيما بيئنا بسياسة الدل لإخواننا ، ولو في حالة البغي ، رجونا أن يكون ذلك ماحقاً لأسباب الفرقة والتقاطع .

وبدهي أن هذا الدل الذي نوصي به ، ليس ذل الضعيف للقوى ، ولا ذل الفقير للغنى ، ولا ذل المتخلفين في نسبهم لدوى النسب والجاه ، ولا ذل الرجل لعدوه حين ينزله حكم القهر على الاستكانة . . ليس الذي نوصي به شيئاً من هذا ، فهذا كله من الرجس الذي نبرأ إلى الله منه ومن الآخذين به ... وإنما هو ذل المؤمن للمؤمن ، والأخ لأخيه ، ومن تنتظمهم دعوة الإصلاح الإلهي في رباط المساواة ، هؤلاء هم الذين يجب عليهم أن يتعاطوا هذا الدل فيما بينهم ، فإن لم يتعاطوه فهم آثمون ، عاملون بيد الشيطان في هدم دينهم ، وإن زين لهم الشيطان أنهم على الجادة الواضحة المستقيمة . . فإن فساد ذات البين هي الحالفة التي تخلق الدين ، وتذهب بجماله . . فإذا كان لابد لأحد أن يرى حظه من العزة ، فلينظر إلى ممثلي البغي والعدوان والطاغوت : أى موقع يقعون من نفسه ، فإذا وجد بغضاً ينهضه إلى الوقوف في وجوههم ، فذلك هو العزة الصحيحة ؛ وإذا وجد غير ذلك فليعلم أنه ذليل ، ولو انحنت أمامه رقاب وهامات . . وهذا هو المعنى الصريح لقول الله تعالى : « أذلة على المؤمنين ، أعزّة على الكافرين » فهو ذل الرحمة والرغبة في استبقاء الأخ إلى جانبك ، وهو كذلك ذل يحمل معنى الاستعلاء ، ولأمر ما عداه الله بأداة العلو فقال : « أذلة على المؤمنين » ، ومضى إلى

الغاية فقال : « أعرّة على الكافرين » . أما حين ينقلب الأمر إلى عكس هذا ، فقد انقلب إلى حال من الشذوذ لا يرجى معها صلاح .

كبرا علينا وجبنا عن عدوكم لبئست الحلتان الكبير والجبن ولا يظن أحد أن انكسار المرء لأخيه ، قد يغرى المعتدى بالاسترسال في بغية أو حدثه ، فليس هذا من القوانين المطردة ؛ وقد قرأنا أن أباذر رضى الله عنه هفامرة فغير بلالا بسواده ، فسكت عنه بلال ، فندم أبو ذر ، وألقى بنفسه على الأرض ، وأقسم لا يرفع رأسه حتى يطاء بلال خده بقدمه ، ولم يرفع رأسه حتى فعل بلال ما أقسم عليه صاحبه .

أيها الناس ، اعلّموا أن الرسول عليه السلام يقول : « المؤمن كالجمل الذلول » ؛ فمن أراد منكم أن يكون رجلا عزيزاً ، فليتعلم أن يكون جملاً ذلولاً ، وليضع مثال أبي ذر وبلال بين عينيه ... أما الهوس والعنف ، وأما الشدة والحدة ، وأما المسارعة بالرد الغليظ ، والكلام الجافى ، فهو لاحالة شأن الحقى الفارغين ، الذين لا تقوم بهم رسالة ، ولا يناط بهم أمل ، قد خلت رءوسهم من التمييز والنظر في عواقب الأمور .

الثانية ترك المرء

وليس من قصدى أن أسترسل في بيان المراحل التى يمضى فيها الجدل ، حتى ينتهى إلى حقد وبغضاء ، وتدابير وتقاطع ، وإنما ندل الأخ على ربح قيم مضمون . . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني زعيم — أى كفيل — ببيت في وسط الجنة لمن ترك المرء وهو مُحَقَّقٌ ، وببيت في أرباضها لمن تركه وهو مبطل » . . فإذا كنت ترى أن الحق معك أو عليك ، فاعلم أن الرسول عليه السلام يمد يده « بهذه الضمانة » يقول لك إن هذا الببت خير لك من استمرارك في الجدل ؛ فلينظر المرء هل يرفض يد رسول الله ويرد عليه كفالاته ؟ إن قال : نعم ، فلماذا يبقى مع السائرين تحت لواء هذا الرسول ؟ . . وإن قال : لا . . فليقذف بالمرء وأسبابه في وجه الشيطان ، وليغنى ما تقدم له يد الرسول صلوات الله عليه .

المرء روح خبيث شرير ، شديد الأثر في محق الحجة ، وهدم الجماعة ، والجماعة من لب الدين ، والفرقة من صميم الشرك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول شيء نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان ، المرء » وليس مما يشق على نفس الإنسان أن يترك المرء ولو كان محقاً ... قد يقول قائل : إنه الرأى ، وإنه الحق تجب المناصلة عنه حتى يظهر .. ونقول : لسكل رأيه ، فليعمل به لخاصة نفسه ، إن رآه حقاً . . وإن

رأيك يا أخى ليس أعلى ولا أعز من الجماعة ، فإن الله تبارك وتعالى يقول : « لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم » ؛ فانظر المقابل الذى ستخسرهُ الجماعة بتحقيق رأيك وإظهاره .. وأحب أن أقول أخرى . إن الحق الذى يختلف فيه ، هو حق قليل الضوء ، خافت النور ، لكثرة ما يلبسه من أخلاط الباطل ، ولا ضرر من إرجاء البحث فيه ، أو العدول عنه ، اكتفاء بالحق الذى لاخلاف عليه ، ولا جدال فيه ... واشتغال الناس بما ظهر لهم من الحق ، أكفل لسعادتهم وأهدى إلى سبيل ربهم .

تلك هى دعائهم نجاح الداعية ، ومظاهرها توفيقه فى المحيط الخارجى ، أما الخصائص النفسية التى قلنا فيما مضى : إنها تلازم سر الطبيعة التنفيذية ولا تنفك عنه ، فهى :

الصبر

فقد ابتلى رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه بعقبات ، وأوذوا وهددوا بالقتل والنفي ، وغيرها من ألوان العذاب ، فكان العلاج الأكبر الذى عاجلوا به أمرهم ، هو الصبر .

« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ » .

وما نرى الله عز شأنه ، أوصى رسله بشئ أكثر مما أوصاهم بالصبر ، وليس معنى الصبر هنا الاستكانة والدلة ، والعود عن الدعوة ، والكف عن التفكير فى معالجة من يستطيعون بالأذى على الأحرار الأبرياء ، وإنما الصبر هنا معناه :

١ — أن يهضم الداعية ما يلقى من إغراض وعناد ، وتحد ، وأذى ... بحيث لا يشعر أن هذه العقبات غصة يشرق بها حلقه ، فإن ذلك يضايقه ، ويعجله عن حسن علاجها ، بل عليه أن يروض نفسه على هضم ذلك كله ؛ أما « الزفرة » من كل حادث لا يعجبه ، فهى بمثابة وقوف اللقمة فى الزور ، وهو مالا يستقيم عليه أمر الدعوة والداعية ، فعليه بحسن الاحتمال ، واستقبال كل شدة بالرضا والتسليم ، وحمد الله على كل حال ، وطلب المغفرة لمن يجهلون عليه ، فإنهم لا يعلمون ..

٢ — أن يرتقب ما يأتى به الزمن ، فللزم من مفاجآته وفرصه التى تجيء بغير ما ينتظر ، وقد يحرق الله فى غضونه من الأحداث والتصرفات ما يهون به شأن هذه العقبات أو يزيلها ، وما على الداعية إلا أن يحذر انطفاء حماسته بطول الزمن ، بل

عليه أن يتخذ مما هضمت أعصابه مددا لثورته الباطنة وقواه السكائمة ، فلا تزيده الأيام إلا قوة على أمره .

٣ — أن يتخذ سبيله في غير طريق هذه العقبات ، عليه أن يدور حولها ، ويمضي إلى ما خلفها .. عليه أن يمضي في دعوته ، يدعو الناس ويجمع حوله الأنصار ، ويتألف قلوب الجماهير ، بما يبذل لهم من شتى الخدمات والمنافع والمساعدات ... أمامه مفسد لا يحميها القانون ، ولا منفعة لأحد في استمرارها ، فعليه بعلاجها وإبعاد الناس عنها . وهناك مبادئ لا حرج عليه ولا على أتباعه إذا هم نفذوها ، وطبقوها في حياتهم الخاصة وكانوا مثلاً عملية لها ، تجلو للناس فضائلها ، وتدعوهم إلى التجلي بها ... وأنت بهذا إنما تقوم « ببيئات » لدعوتك ، وتنشئ « حتمول تجارب » لبعض تعاليم رسالتك ، ولا يخفى ما في هذا من قوة التوجيه ، والانتفاع بما يبدو من خطأ .

عليه بهذا وبما يشبهه ، فكل جهد يبذله في دعوة الحق ، إنما هو مدد يزيد به رسيد النصر الذي ينتظره ... فإذا قعد وكف عن العمل ، معتذرا بأن ليس هناك من يسمع ندائه ، أو بأن العقبات والظروف غير مساعدة ، فقد كف عن مدد مؤكد للنصر ... وما نقول هذا ذهاباً مع عاطفة نظرية ، أو تزيينا للسلام بشيء من الاستعارة والمجاز ، بل هو الحق الذي لا مرية فيه ، وهو الأمر الواقع ، والله تبارك وتعالى يقول : « أنى لأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » ، « وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم » ... وقد نعود لبيان هذا المعنى بعد قريب ، وكل مانوصى به هنا عدم الكف عن العمل في الميادين التي لا حرج من العمل فيها ، فإنك يا أخى بهذا ، إنما تصنع بيدك جنود نصرك .

هذه بعض معاني صبر الداعية في سياسة العقبات ، وقد قص الله عز وجل على رسوله مثلين فيهما الكثير من التوجيه الحسن في هذه السياسة :

أما الأول : فإن موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى ، راعته مظاهر الظلم التي ينزلها المصريون بالشعب الإسرائيلي ... وموسى شاب يهينه الله سبحانه للرسالة ، فهو ذو نفس حساسة ، تكره الظلم ، وتثور على مظاهره ، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها : « فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَفَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَّزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ، قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ،

فَاغْفِرْ لِي ، فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْجَحْرِمِينَ ؛ وَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ مُوسَى : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ، فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ : يَا مُوسَى أُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ؟ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ .

إن الظلم جريمة يجب استئصالها بدون نزاع ، وموسى إنما كانت رسالته تخلص بني إسرائيل مما كان يقع بهم ، فهل سلك موسى بهذا العمل سبيلا سديداً في علاج هذا الفساد ؟ .

ماذا عاد على الإسرائيليين من قتل المصري المعتدى ؟ هل استؤصل الظلم وامتنع الأذى ؟ .

إن المصري قد يكون له بعض العذر في ضرب الإسرائيلي وظلمه ، لأنه إنما يجري في ذلك على عادة شائعة موروثه ، وسنة مرعية ، يرعاها ويباركها فرعون مصر الأكبر ، فإذا أردنا العلاج الصحيح ، فلن يكون بعلاج الحوادث الفردية ، وإنما بتغيير العادة الشائعة ، وإبطال السنة أو القانون الذي يرعاه فرعون . . . أما قتل فرد أو عدة أفراد كما حدث من موسى عليه السلام ، فهو عمل لا يقرب من الإصلاح خطوة واحدة ، وقد نعته موسى بأنه من عمل الشيطان .

على أن علاج الفساد بعلاج حوادثه الفردية ، كثيراً ما يوقع تحت طائلة القانون ، ويغضب مقامات كبيرة لها منفعة في استمراره على ما هو عليه ، وحينئذ يعرض الداعية نفسه لحكم القانون ولبطش الجبارين في غير نفع يعود على الرسالة .

لا نشير بالجبن ، ولا بالاستكانة ، ولكننا نحب للداعية أن يتسع أفقه العقلي والنفسي ، فيعالج مبعث العلة وأصلها بالحكمة والروية ، وحسن النظر في مبادئ الأمور ونهاياتها ، فذلك هو السبيل الطبيعي للعلاج ؛ أما الوثوب على الحوادث الفردية ومظاهر الفساد المتفرقة ، فشأن البسطاء الذين يذهبون مع حرارة العاطفة ، دون تفكير بالنظر في عواقب الأمور ، وشأن من لا يدخرون أنفسهم لما هو أجل . .

هذا الخطأ يقع فيه الكثير بحسن نية ، كما وقع موسى وهو شاب يميل به عنف

الشباب ، فكانت العقابة الحتمية أن تنبه الملأ من قوم فرعون إلى خطر هذا الشاب ، فائنمروا به ليقتلوه ، ولكن الله بالغ أمره ، وقد أعد موسى ليقوم في الوقت المناسب برسالة الإصلاحية الخطيرة . . .

ورأى عز شأنه ، أن هذا الشاب قد نضج شبابه ، وقويت حرارة إيمانه ، ولكن تجاربه لم تكتمل بعد ، ورأى أن أخطاءه ستكثر ، كما رأى مظهراً من مظاهر الأذى المألوفة ، ورأى سبحانه أن هذا من شأنه أن يقطع الطريق على المصلح بالقبض عليه ، أو بقتله ، فكان من تدبيره جلت حكمته أن أراد له أن ينضج على مهل ، في بادية بعيدة ، في رعاية بنى صالح . . فقيض له من نصحه بالخروج من المدينة ، لأن الملأ يأمرون به ليقتلوه ، فخرج منها خائفاً يترقب .

هذا المثل يقصه الله عز شأنه ، ليتدبره كل داعية ، فهو بعيد الغور عميق العبرة قيم التوجيه . . فلما تم نضجه عليه السلام ، وبلغ سن النبوة عاد إلى رأس الفساد يعالجه بالقول اللين وبالبرهان المبين ، دون أن يلتفت إلى مظاهر الفساد التي كانت من قبل تخف به إلى الخطأ .

وما على الداعية في علاج هذه العقبة الكبرى إلا أن يستمسك بعزته ، ويعتصم بربه ، ولا يفرط في رسالته ؛ عليه أن لا يفتر عن الدعوة إليها ، وسوف يرى أن فيض الرسالة سيغرق العقبة ، كما أغرق الله فرعون في نهاية أمره .

أما المثل الآخر — فإبراهيم عليه السلام — فإنه راغ إلى أصنام المشركين ضرباً باليمين . . . وهذا عمل طيب في حد ذاته ، لأن صاحبه ينبعث إليه بياعث شريف ، ويقصد به غاية كريمة . . . ولكن هل ترى هذا المنهج كفيلاً بقطع دابر الأصنام ، وإقناع الناس بالعدول عن عبادتها ؟

إنه عمل العاطفة الطيبة بلا نزاع ، ولكنك ترى فيه الملاحظات الآتية :

١ — أن تكسير الأصنام شبيه بالعمل الفردي ، كلاهما لا يبطل الفساد ، ولا يستأصل عبادة الأصنام ، لأن سبيل استئصالها بث العقيدة الصالحة في القلب ، وتمسكها من قرارة النفوس بالوسائل الحالية من الاستفزاز .

٢ — أن القوم لا يبعد أن يكونوا قد صنعوا أصناماً غير التي كسرت ، وقد تكون الجديدة أبهى وأجمل من القديمة ، فعمله إذا لم يعقب ثمرة .

٣ — أن القوم غضبوا لآلهتهم ، وعاجلوا هذا الفتى بالنار التي تحسم أمره وترى بهم منه ، لولا أن أدركه الله في آخر لحظة ، فنجاه إلى أرض أخرى .

ونحن نلاحظ في سيرة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد ثبت فؤاده بهذا القصص ، فلم يعجل عليه السلام بعلاج فردى ، بل قد كان يصلى في السكبة في جوف الليل ، والأصنام تطل عليه بعيونها الجامدة البغيضة ، فلم يرفع إليها يداً ، ولم يحرك لنحوها ساكناً ؛ ولو أنه صنع ما صنع إبراهيم بأصنام قومه لما رآه أحد ، ولكن ماذا كانت تكون العاقبة ؟ تعود الأصنام لما كانت ، بل إلى أحسن مما كانت ، ويعاجل رسول الله بالأذى كما عوجل من سبقه ؛ ولكنه صلى الله عليه وسلم علم أن سبيل العلاج شيء غير هذا ، هو الصبر والاستمرار على الدعوة ، وتجميع الأنصار ، وتعبئة القوى ، فلما أن أتى الله اليوم الموعد ، كان عليه السلام يشير إلى الصنم بقضيب في يده قائلاً : جاء الحق وزهق الباطل ؛ فينكفي إلى وجهه إلى حيث لا رجعة ، وإنا لنعلم أن شبان الدعوة الحممدية الأولين ، كانوا كثيراً ما يعرضون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشوروا إلى أسلحتهم ، وأن يهبوا في وجوه أعدائهم ، فكان عليه السلام يسكن ثورتهم ، ويطلب إليهم أن ينتظروا . . . لقد كانوا يعلمون وهم في مكة قبل أن يشرع الجهاد ، أنهم موعودون يوم يحملون فيه السلاح للبطشة الكبرى ، كانوا يقرأون في القرآن المسكى قوله : « علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يُقاتلون في سبيل الله » قهفو نفوسهم إلى هذا اليوم ، ولكنه عليه السلام لم يعجل بعجلة هؤلاء الشباب ، ولم يخف لحقتهم ، بل كان يطلب إليهم أن يكفوا أيديهم عن هذا الآن ، ويكتفوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، حتى تكتمل القوى وتنضج الثمرة ، وتطلع الأقدار بأيام الله .

ونحن نأثم أشد الإنثم إذا نصحنا للداعية في علاج العقبات بغير المنهج الذى سنه الله - لرسوله ، والتزمه صلى الله عليه وسلم في حكمة وأناة وقوة .

فإذا انتهى الداعية من علاج عقباته ، وخلا له الجو ، وصار سيد أمره شرع في إقامة النظام الذى تريده دعوته ، واستقبل مرحلة لا تقل خطورة ومسؤولية عن مرحلة العقبات ، وما لابسها من مشقات ، إن لم تزد عليها . على أن كل مشقة ستون أو ستونين إذا هو التزم ما أنزل الله سبحانه من أمر ونهى ، واستهدى مارسم له من ترغيب وترهيب . . .

والداعية في هذه المرحلة يبني أمة ، ويؤسس دولة على تقوى من الله ورضوان ؛ وقد ذكرنا له فيما مضى شيئاً من أصول رسالته ، فعليه أن يقيسها بما لديه من أمر الله

سبحانه ونهيه ، فإذا اطمأن إليها فيها ونعمت ، وإلا استقبل أمره على بصيرة ، وشرع باسم الله في بناء ما يريد لدعوته ، ولن يضل سبيله أبداً ما دام زمامه معتورا بيمين الله عز وجل في كل ما يأتي أو يدع .

وقد تقرر فيما مضى أن هذه الطبيعة التنفيذية هبة إلهية للأفئدة المسلمين ، ولكن الإنسان يستطيع أن يحصل لنفسه حظاً كبيراً منها ، إذا هو أخذ بالتجارب الآتية ، أو بما هو خير منها إن وجدها :

أولاً : الاطلاع على تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . واستخلاص سيرته كداعية . . . ثم تقسيم هذه السيرة إلى مراحل في الدعوة منظمة . . . ثم الوقوف عند كل مرحلة لدراستها ، وتفهم ما كان له عليه السلام فيها من أسلوب خاص في معالجة ظروفها .

وما أظن أن المقام يقتضي أن أعرض لبيان أقسام هذه السيرة الجليلة ؛ على أننا سنذكر — إن شاء الله — في باب مصادر الداعية في فصل قراءة القرآن ، شيئاً عن جهاده عليه السلام .

ثانياً : جمع ما ورد في القرآن الكريم عن الأوامر الإلهية التي خوطب بها الرسول كداعية ، وتصنيفها وتبويبها ، ليخرج منها دستور عملي للداعية ، إذا سار عليه فقد أدرك من غبار النبين ما لم يدرك غيره .

ثالثاً : جمع ما أخذ الله على رسله وعاتبهم عليه ، كالذي سجله القرآن على موسى وإبراهيم عليهما السلام ، وإحصاء ما أثبت به عليهم ، والانتفاع بكل ذلك في حرص ورغبة .

رابعاً : العمل ، والتنفيذ ، والتطبيق ، والتربص ، والحركة ، فإن ذلك كله يقدر زنده ، ويشير رواكد نفسه .

خامساً : الأخذ بما أوصينا به في الروحانية الاجتماعية . . . وهو مبسوط في مكانه سابقاً .

سادساً : وصل نفسه بالدعوة ، وكثرة التفكير في مشكلاتها ومسائلها ، وما يحيط بها من ظروف ، وما يعترضها من عقبات ، والاجتهاد في تذليلها ، فإن هذا بمثابة عملية المزج التي تخلق الدعوة بقلبه ، وتخلط قلبه بالدعوة ، ويغدو هذا القلب ميداناً موقوفاً على هوائها ، تتصايح فيه وتتصاول ، ولا مجال فيه لغيرها من شواغل الحياة

الرخيصة .. وإذا بلغ الداعية هذه المنزلة ، فقد أدرك حظاً كبيراً مما يزيد له ، إذ تصبح خواطره كلها ربانية مطهرة .

من بركات الطبيعة التنفيذية

وقد مضى في تضاعيف هذا الفصل ، بعض بركات الطبيعة التنفيذية ، ولا بأس بالإشارة إلى بعض آخر ، لعل الرغبة في تحصيل ثماره تثير الهمة إلى أن نكون من أهل العمل والتنفيذ .

١ — اتساع فقهه في الدعوة ، ورسوخه فيها ، وازدياد خبرته بالحياة وطبائع الناس ... ذلك أن الطبيعة التنفيذية تنقل الداعية من حيز إلى حيز ، تنقله من حيز القواعد المتصورة إلى حيز القواعد المطبقة المنفذة ، وهو الذي يطبقها بنفسه ، أو بإرشاده وتوجيهه ، ويرى أثرها في الحياة .. هذا إلى أن مهمته ليست تطبيق القواعد خشب ، بل مواجهة مطالب المجتمع — وهي كثيرة متشعبة — بما لا يخرج عن روح رسالته ... وهنا يجد كأن أصول الرسالة قد أثبتت في ذهنه فروعاً لها ، وكأن القواعد السكينة قد ظهرت لها تنوعات بمثابة الجزئيات ، وهكذا تصبح الرسالة مرنة في ذهنه ، وذهنه مرناً للرسالة ولطالب الجماعة ، فيتسع أفقه الفقهي والعمل ، ويعظم تعمقه في فهم أسرار الدعوة ، وملابسته لطبائع الناس وما يصاحبهم . وهذا باب واسع نكتفي فيه بهذا القدر ، ولا شك أن الناس يدركون الفرق الهائل بين الفقه الذي محصته للمسئولية وتجارب الحياة ، وبين الفقه الذي لم يكن من حظه إلا أن ينقل من سطور الكتاب ، إلى رؤوس النظرين السكالي .

٢ — مقاساة الداعية لمشقات التنفيذ وتطبيق القواعد والجزئيات على نفسه يلين أعصابه ، ويظهر نفسه ، ويثير الحرارة في قلبه ... ومعنى هذا أنه يصير ذا وجدان يقظ ، ووعى باطن متنبه ، يتأثر بما يعرض عليه ، ويتلفت لكل ما يمر به ... وأهم ما يهمننا هنا أن الداعية بهذه الحالة يصبح أقدر من غيره على الاتصال بروح القرآن الكريم ، على ما سيأتى في باب مصادر الداعية إن شاء الله ، وتغدو أعصابه بهذه الليونة كأنها « موصل جيد » لكهربائية الكتاب العزيز وأسراره .

٣ — أكبر مظاهر الطبيعة التنفيذية ، إنهاض الداعية ... والعمل قانون الله في هذه الأرض ، وهو رسالة الإنسان فيها ، وقانون العمل ارتباطه بالأجر والثمر ،

وهو قانون لا يتلف في الدنيا ولا في الآخرة ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

وبدهى أننا نقصد عمل الخير العام ، لا العمل الذي تبعث إليه مطالب الجوارح ، ويؤدي ثمره إلى محالب الأنانية .

حقاً إن هذا القانون لا يتخلف ، حتى في العمل لهذه المآرب الداتية ، « وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » ولكننا نتكلم عن العمل الأصيل ، والرسالة العليا للإنسان ، فليس العمل مالا وعقاراً ، وليس الأجر تسلم الذبوة في المناصب أو الشهرة ، وإنما الأجر أن تبقى لنفسك ولغيرك في عالم الحقائق أعمالاً من الباقيات الصالحات ... كنت أعود مريضاً شيخاً ، في مرضه الأخير ، وكان قد أسرف على نفسه طوال حياته في شبابه وشيخوخته ، وارتكب أكثر ما يرتكب آثم من ذنوب ، وكانت شخصيته محبوبة مهيبة معاً في الناس ... وحضرته نوبة من تباريح العلة وأنا عنده ، فلما فرغ منها أو فرغت منه ، قال وهو يتنفس : إني أنظر الآن إلى عمري الذي مضى ؛ أنظر إلى الستين سنة ، فأجدها قد انضمرت كلها في يوم واحد ، بل لو انضمرت في يوم واحد لمان الأمر ... إني أنظر فلا أجد إلا كلاماً فارغاً ، وأعمالاً كلها لمو ولعب ، وأياماً كالأوهام الهائمة ، وأنا فيها إنسان عابث تافه لا قيمة له ... لقد طالما اغتررت بنفسى ، وطالما غرني الناس فأحترموني ، وأقبلوا على وأحبوني ، ولكني الآن أنظر إلى نفسى ، وإلى أيامى فلا أجد شيئاً ؛ فلو كان لى أن أضح الناس لنصحتهم بالعمل الباقي ، الذى يبق فى صحتهم وموازينهم ، يوم ينظرون إلى أنفسهم ومحفهم بمنظار الحقيقة لا بمنظار الأوهام ... ثم بكى وقال : يا ليت لى يوماً واحداً أرد فيه إلى عافيتى ، لأعمل شيئاً ، بل لأبنى فيه نفسى ، وألقى الله وأنا ابن يوم واحد ، لأنى إن لقيتة وليس لى شيء يوضع فى ميزان إلا العمر الطويل الذى قضيتة فى لا شيء ... »

واستمر حديث الرجل فى كثير من هذا المعنى ، ولكنى أقصر على إيراد هذا القدر ، فهو يبين أن الحياة ليست مالا ولا منفعة ذاتية ، وأنها ليست متعة يقضى منها الإنسان مأربه ، وأنها ليست طعاماً وشراباً ولباساً . وأنها ليست كسلاً ودعة وراحة ، وإنما هى العمل الباقي الذى تعمله لمؤزارة الحق والفضيلة والخير العام ، ترجوبه وجه الله ، لا وجه نفسك والناس ، فهذا وحده هو الذى يترامى فى أواخر أيامك ، حين تنتظر بمنظار هذا الرجل الدائم .

تمثل معي يا أخى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الأخير ، وهو يمر وراءه عمره جراً . . . ماذا كان يرى عليه السلام في هذا العمر ؟ إنه كان يرى أياماً بل ساعات بل دقائق ، تكسدت فيها الحقائق وأعمال الجهاد الشاق الطويل . لا يرى فيها دقيقة فارغة بلهو أو لعب . . . حتى أيام جاهليته عصمها الله من الشرك والأوزار ، وكانت كلها تنفج بريح النفس الزكية الطيبة ، إذ كان يقرى الضيف ، ويعمل السك ، ويصدق الحديث ، ويعين على نوائب الحق ، فهو عمر بأعمار ، وحياة لو وزنت بأجيال البشرية كلها لرجحتها .

فانظر ياربك الله إلى فضل الطبيعة التنفيذية ، حين تبعث صاحبها إلى العمل لينبى نفسه — ومن جاهد فإنما يجاهد في الحقيقة لنفسه — فيلقى ربه حين يلقاه بأيام حافلة ، وأعمال ضخمة ، وهيكلي إنسانى ، أثقل في ميزان الله من جبال الدنيا ؛ فتعساً لأولئك السخفاء التافهين ، الذين يلقى أحدهم ربه وهو هامة فارغة ، تنزائل كالأوهام حين ينظر إليها في عالم الحقائق .

إن كلامنا إنما يكتب تاريخه بنفسه ، وما الأعمال التي نعملها إلا سطور هذا التاريخ . . . جلسات المقاهى ، والأندية الفارغة ، والأحاديث التافهة ، والأيام اللاهية ، والحركات الغافلة ؛ كل هذا نقش على الماء ، أو تفر في الهواء ، ويبقى بعد ذلك مسئوليتك الخطيرة ، عن عمرك فيم قضيته ، وشبابك فيم أبليته ؟

لا أدري متى يصحو الناس ، ومتى يفتقون من هذه الغفلة الغليظة الكثيفة ؟
إن قانون الله العمل . . . فمن أخذه فقد وضع الله في يده مفاتيح الدنيا وسر إدارتها ، ومن تركه وعاش في بطنه وشهونه وغروره ، فهو خارج عن سنة الله ، وهو أشبه بالطفيليات والحشرات المؤذية التي تضايق الأجسام الحية والبيوت العامرة .

وإن قانون العمل الثمر وليس الثمر كما قلنا مالا ولا عقاراً ، وإنما هو ازدهار للفضيلة وقوة للحق ، وتمكين لمعانى المساواة والإيثار والبر العام ، فهذا هو الثمر للحق ، يثمره العمل الحق ؛ ولا عمل بلا ثمر ، بل إن العمل ليحمل في تضاعيفه سر الثمر الذي لا ريب فيه ، فمن غابت عن عينه ثمار عمله ، فليعلم أن لحصد الزرع وقتاً لا يعلمه إلا الله ؛ وهو على كل حال لن يخرج من هذه الدنيا إلا بعد أن يكشف له الله عما عمل ، ويريه ثمر ما عمل .

فأولئك الذين يطمعون في الأجر بلا عمل ، قوم عجيب شأنهم ، فهم إنما يأملون نتيجة بلا مقدمة ، ويغفون أن يبثوا نفوسهم بلا لبنات ، ويكتبوا تاريخهم بلا كلمات ؛

وهذا لا يجوز إلا في دنيا من الأوهام ، لافي حياة من الحقائق ، نحاسب على دقائقها وجلالها ، لايفلت ميزانها ذرة من ذراتها .

كثير من الناس يريدون النجاح ، ويحبون أن ينتصر الحق ، ولكن السبل تعمى على أحدهم ، فيجد نفسه مفكراً ماذا أعمل ؟ .. فليعلم هؤلاء أن كل كلمة عمل ، وكل خطوة عمل ، وكل حركة عمل ، وكل إشارة عمل ، والحركة تلد الحركة ، والعمل يفجر آفاق العمل ؛ فما عليه ، إلا أن ينهض وأن يتحرك ، وأن يغدو ، وأن يروح ، وأن يهتم ، وأن لايركن إلى سابق كسله ومجالسه التافهة .. قانون الله العمل ، وهذا يصدق على أصغر كلمة ، وأقل حركة : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » . والعبرة أن يكون كل ذلك مقصوداً به وجهه الله ، مراداً به خدمة الحق ، وإن تظل سبل العمل معماة أبداً ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

وأخيراً أيها الدعاة ، إن الذي تنهضه طبيعته التنفيذية إلى العمل ، فإنما تضع في يده باسم الله مفاتيح الدنيا ، وسر إدارتها ، مفاتيح كنوزها وقصورها ، وخزائنها وممالكها ، فلينظر أحدهم أى أمانة ألقيت بين يديه ... بهذه المفاتيح — مفاتيح العمل — ملك الداعية الأكبر صلوات الله عليه ماملك ، وملك الدعاة من بعده ماملكوا ، فانظروا ماذا تأخذون من هذه المفاتيح وماذا تدعون .. وماذا تفتحون من هذه الدنيا وماذا تهملون ... ألا ما أزهد الناس في الخير الذي بين أيديهم ، وأبعدهم عن النصر وهو قريب منهم ، وأجهلهم بحقائق أنفسهم وهى سافرة لهم .. العمل — أيها الناس — سر النصر ، وقانون العزة ، وسبيل السعادة والسيادة .. ألا ليت الناس يفهمون !

٤ — نور من الباشاة يسطع في آفاق الداعية ، فلا يشعر معه بياس أو خيبة رجاء .

قل إن هذا البشر هو الثقة ، أو هو الأمل للتجدد ، أو هو حقيقة الرجاء ، ولكنه على كل حال من أسرار الطبيعة التنفيذية وهباتها الكريمة الغالية . ولا أحب أن أدخل بك في معنى الأمل ، أو بيان حقيقة الرجاء ، ولكنى أريد

أن أقول : إن الطبيعة التنفيذية تملأ قلب الداعية بشعور هنيء سعيد ، كله يقين بأنه في الميدان المنصب لا محالة .. شعور الزارع المطمئن إلى جودة بذوره وسلامتها ، وإلى خصوبة أرضه وقوتها ، وإلى ملائمة الجو وطبيعة الهواء .

فانظر ماذا تسمى شعور هذا الزارع ؟

هل تسميه أملاً ؟ انه شيء فوق الأمل ، لأن الأمل قد لا يتحقق ، ولأن الأمل فيه شيء من خداع الأمانى وشطط الخيال ، ولأن الأمل يفترض حسن الظن بالظروف وسوء الظن بها . ولأن الأمل يرمى بأنظار صاحبه إلى توقع الثمر في المستقبل فقط ، ولكنه لا يتوقع ذلك في الحال .

أما شعور هذا الزارع فهو في الحقيقة يقين لا يتطرق إليه شك ؛ فالبذرة سليمة ، والتربة جيدة ، وطبيعة الجو ملائمة مأمونة الآفات لا محالة ... هذا الزارع هو الداعية الحق . وهذه البذور هي الدعوة التي يلقيها في الناس ، وهذه التربة هي فطرة الله في الناس ، إذا بلغت البذرة أعماقها حضنتها وتفاعلت بالخير معها . وملائمة الجو ، هي رعاية الله سبحانه ، وكفى بالله راعياً وكفياً .

لقد قلنا في صدر هذا الفصل : إن أوضح مظاهر فقه الداعية أن يدرك أن الرسالة حق ، وأن ما عداها باطل ... وأن يميز الفرق بين الحق والباطل ، كما يميز أحدنا الفرق بين صور الأوهام التي تتراءى لناس في أضغاث الأحلام ، وبين ما نراه في عالم اليقظة والمشاهدة .

فالداعية في ميدان الدعوة ، يثق ويوقن إيقاناً عميقاً بأن ما معه هو الشيء الوحيد الثمر ، وأن ما عداه لا ثمر له لأنه وهم لا وجود له ... ولك أن توازن بين شعور زارع يبذر بذوراً سليمة ، وآخر يبذر بذوراً عفنة وهو يدرك أنها عفنة ... بل لك أن توزن بين هذين ، أحدهما يبذر البذور السليمة ، والآخر ليس في يده شيء ، إلا أنه يقبض قبضته ثم يبسطها في الجو ، لينثر على الأرض لا شيء ، محاكياً فعل الرجل الأول ... فأى العاملين حق ، وأيها باطل ؟

لا تظن يا أخي أننا نفترض فروضاً جدلية أو وهمية ، بل إننا نجلى لك وجه الحقيقة ونحن ندرك مع هذا أننا لم نبلغ من التعبير كل ما نريد ، لأن هذا فوق طاقتنا .

فالداعية يرى أن ما معه حق لا محالة ، وأن ما عداه فهو صور الأوهام التي تتراءى للناس في أضغاث الأحلام ... وأن هذا الذي معه هو البذر ... لا أقول هو البذر الذي سيثمر لا محالة ، بل أقول هو البذر وهو الثمر في الوقت نفسه ، أي هو البذر ذو الثمر

الحاضر ؛ ولا نحب أن ندخل بالناس فيما قد لا يفهم ، فنكتفي بإحالة القارئ العزيز إلى ما يحكيه الله عن سحرة فرعون فإنهم ما كادوا يرون الحق الذى ألقاه موسى حتى وقعوا ساجدين مؤمنين ... فهل تراهم تقبلوا الحق ثم حضنوا بذره فى فطرتهم ، ثم أخذت البذور تخضر ، وتكبر وتطول حتى أثمرت سجوداً وإيماناً ؟ أم أن الثمرة كانت حاضرة فى البذرة على ما يقصه الله تعالى : « فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ » (١) « فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ... وألقى السجرة ساجدين قالوا آمنا رب العالمين رب موسى وهارون (٢) ؛ هذا المعنى العالى هو الذى نغنيه ، وهذا الفقه العميق هو الذى نسميه شعوراً متمكناً من قلب الداعية ، لا يحس معه يأس ولا خيبة رجاء ، بل هو نور اليقين الذى يرى من ثمر البذور ما لا يراه أقوى المبصرين ..

كنت أركب سيارة من سيارات الأوتوبيس الريفية مع الداعية المشار إليها بالبنان رضى الله عنه ... ووقفت بنا السيارة عند إحدى نقط المرور ، وأخذ الجندي يعد الراكبين ، ويؤدى واجبه المعتاد نحو كل سيارة ؛ وإذا برجل كان يجلس مع الجندي يقبل على فضيلته ويسلم عليه ويقبل يده ، ويدور بينهما الحديث القصير الآتى :

ش. فضيلتك فلان ؟

نعم ، وأنت من ؟

قال أنا فلان من مواليد هذه القرية وأهلى بها .

قال فضيلته : ومن أين تعرفنى ؟

قال رأيته فى شعبة الإخوان المسلمين بامبابه تخطب ... وأنا عامل أطلب العيش هناك ، وأتردد أحياناً على الشعبة . وأنا هنا الآن فى زيارة قصيرة لأهلى .

وهنا كان جندي المرور قد أتم إجراءاته العادية واستأنفت السيارة سيرها فالتفت إلى فضيلته وقال :

لقد تألفت فى هذه القرية شعبة ... فعجبت وقلت : هل أفضى لك هذا الرجل بشئ لم أسمع عن هذه الشعبة ؟

قال : لا ... ولكن هذا كلام فى الله لن يضيعه ... سيجلس الرجل مع من كان معهم الآن ، فيقولون له : من هذا الذى سلمت عليه ؟ فيقول لهم : إنه فلان ، فيقولون

له : وما شأن فلان هذا ؟ فيقول : إنه يدعو إلى كذا وكذا ، ويقول في دعوته كيت وكيت . قال فضيلته : وهذا كلام حق ، أو بذرة طيبة صالحة ألقيت في أرض طيبة صالحة ، عودنا الله أن تؤتي أكلها طيبا صالحا .

وإني أدعك أيها الأخ تتأمل هذا الحديث القصير ، وتتأمل كيف استخراج منه هذا الداعية الفقيه حقائقه الصحيحة الجميلة . . . ثم أسألك بعد هذا : أى شعور كان يملأ قلب هذا الداعية حين رأى في تلك الكلمة القصيرة كل هذه المعاني الجميلة .

إنه شعور الثقة بالأجر المعجل ، والثر الحاضر ، شعور اليقين الذي يدرك حقيقة الحق ، وأثره في هذه الحياة ؛ وإذا كان هذا شعوره تلقاء كلمة صغيرة من كلمات الحق ، فكيف يكون شعوره تلقاء كلام عظيم كثير ؟ .

لا تقل إن شعوره تبعاً لذلك يقوى ويعظم لأن الحق هو الحق ، لا يقوى ولا يضعف بكثرة الكلام أو قلته ، فالحق في الكلمة الواحدة لا يقل جلالة عن الحق في الكلام المتوارد الكثير .

ومن هنا ترى الداعية الحق ؛ يفتن لقيمة كل كلمة يلقيها في دعوته ، كما يفتن لجلال كل كلمة تمر به من كلمات الحق ، فتراه يطرِب لما لا يطرِب له غيره ، ويستبشر به ، ويتسهل له ، ويرى فيه من الخير ما لا يراه الحاضرون . . . لا تقل إنه الأمل ، فهو أمر فوق الأمل وغير الأمل ، ومعه ما شئت إن كنت لا ترضى أن تنعته بأنه نور اليقين والثقة ، وشعور الاطمئنان والبشاشة ، بالثر الحاضر والأجر المعجل ، أترى هؤلاء يتطرق إليهم يأس ، أو قنوط ، أو سأم ؟ أم هو الفرح المتجدد بفضل الله ، والهمة التي يرد عليها كل آن من قوة الحق مدد وأمداد ؟ .

واعلم أن ثقة الداعية في الناس وحسن استعداد فطرتهم ، لا تقل عن ثقته فيما لديه من الرسالة . . . ولهذا تراه يدعو الصغير والكبير ، والغنى والفقير ، والسوقة والأمير ، يدعوهم وهو يرجو الخير في فطر الجميع ولا يتوقع الإعراض والصدور أبداً عند أحد .

هل يسمى الزارع ظنه بأرضه الخصبة التي قامت كل الشواهد على سلامتها وقوتها ؟ إذا فكيف يسوء ظن الداعية بفطر الناس التي فطرتهم الله عليها ؟ إن الفطرة حق ، وهي من أمر الله ، فإذا أعرض بعض الناس عن الحق ، فإن الفطرة لم تعرض ، ولكن أهواء من الباطل وأغذية من الشهوات حالت بين الدعوة والفطرة . ألا تسمع

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ! وهل أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون ، إلا وهو يعلم أن هذا الجبار العنيد ، يحمل في أطواء نفسه فطرة مستعدة للخير ؟ ولهذا قال سبحانه : « لعله يذكركم أو يخشى » .

فالداعية الفقيه يستقبل الناس جميعاً ، وهم لديه في حسن الاستعداد سواء ، وكله رجاء بل يمين في أن يجد من الجميع أعواناً له على الخير الذي يدعو إليه ؛ فإذا أعرض عنه إنسان ، أو رده بسوء ، فإنه لا يتوقع الشر من الآخرين أبداً ، إذ هو يدرك أنهم ينطوون على فطرة الحق ، والحق مبعث الأمل والرجاء بل مبعث الثقة واليقين . . ولهذا تراه يستقبل الآخرين رجاء جديدي يقين حديد ، كأن له في كل فطرة وفي كل وجه هاتف يهتف به : هنا النصير ، فلا يفوتك هذا النصير ! ولعل من خير ما نوضح به هذا المعنى ، ما كان منه عليه السلام في العام الحادي عشر لبعثته .

خرج عليه السلام هذا العام ، إلى وفود العرب وقد حضرت إلى مكة في موسم الحج . . خرج إلى الوفود ، والقبائل ، والبطون ، والعشائر وهم شيء كثير ، قد ضربوا خيامهم ، فوق الآكام ، أو انتشروا بها على وجوه القيعان .

خرج إليهم عليه السلام في العام الحادي عشر يدعوم إلى الله ، وقد جاوز الحادية والحسين من عمره ، فأخذ يحوس خلال الديار ، ويمشي بين الخيام ويتنقل بين المضارب يوماً وآخر طيلة أيام الموسم ، يقضي نهاره سائراً فوق رمال الصحراء الثقيلة ، أو حزونها وحجارتها المنعجة ، يغشى مجالس القوم ، ويرتاد منديباتهم ، ويعرض نفسه على شتى القبائل ومختلف العشائر . يأخذ منهم ويعطيهم ، ويناقشهم ويناقشونه ، ثم يردونه أخيراً رداً جميلاً أو غير جميل ، ويعود في آخر يومه ويده صفر .

وها هو ذا الموسم أو شك أن ينقض حجمه ، وأن يرجل أهله ، ولم يظفر رسول الله منه بشيء . . . وها نحن أولاء في أحد أيامه الأخيرة ، وقد أخذ الجميع يستعدون للرحيل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل على شأنه ، لا يثنيه إعراض الناس ، ولا يواسه انتضاء الموسم بلا نتيجة ، بل يستقبل كل يوم ببشر جديد ، ويستقبل كل وجه بشعور جديد . . . في هذا اليوم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من طوافه بين مضارب الخيام ومجالس العشائر ، وقد أنهكه تعب الأيام السابقة ، وهو رجل قد نيف على الحسين ، وأثقلته السنون . . . وبينما هو عائد رأى من البعد نفرأ ستة من أهل يثرب لم تبلغهم دعوته بعد .

لو أن أحدنا في هذا المقام لسخط على يومه ، ونفض يده من الناس ، ولهتفت به هواتف الضعف ، تؤسه من هؤلاء الستة ، كما يؤس من جماهير الموسم وجوعه .
ولو أن أحدنا في هذا المقام ، وهو يحرج جسمه الثقيل في سن التحسين ، عقب طواف نهار طويل ، للوى وجهه عن هؤلاء الستة ليسرع إلى بيته ، حيث يريح هذا الجسم المهدود الكدود .

لقد كان هؤلاء الستة يصلحون من شأنهم ، ويخلقون رؤوسهم ، فلو أن أحدنا في هذا المقام ، لانطلق في إعراضه قائلا : وماذا أجد عند هؤلاء الذين يخلقون رؤوسهم من الإنصات لكلامي . . إنه لم ينصت إلى الفارغون ، فهل ينصت الذين يخلقون ؟ . . بل لو أن أحدنا في هذا المقام لاستنكف أن يغشى بدعوته مجالس الحلاقين أو ماشبه الحلاقين .

أيها الأخ ، قف ! فقد وقف مولانا سيد الدعاة . . ، لقد يم وجهه نحو هؤلاء النفر الستة . . ها هو ذا يخطو في وقار السن ، وجلال النبوة ، وبشر اليقين ، حتى يقف على النفر الستة .

تبارك الله رب العالمين ! ! لقد كان هؤلاء النفر ، هم أهل العقبة الأولى ، ونواة الأنصار بالمدينة ، ومفتاح العهد الجديد ، الذي استقبله الإسلام ، بعد الهجرة الكبرى ! ولا يسعى إلا أن أترك لك أن تتأمل هذا المثل ، وبعد مراميه وعمق معانيه .

ولا تحسبن العبرة في هذا المثل ، أن رسول الله وجد من هؤلاء النفر مطاوعة لأمره ، بل الشاهد هنا ، هو هذا الشعور القوي ، الذي يلزم صاحبه حين تبعته النهضة إلى العمل ، وحين يظن به اليأس واللذل . . . وليس ضروريا بعد هذا أن يكون قد آمن به نقر أو أقل ، أو لم يؤمن به أحد . .

إن هذا الشعور صادق حق لا محالة ، آمن الناس بالداعية أو لم يؤمنوا . . فإن استجابة الناس شيء ، وصدقة في نفس صاحبه شيء آخر ، فليس إيمانهم دليل صدقة ، كما أن إعراضهم ليس دليل كذبه .

ولقد عرضنا حديث الداعية المشار إليه بالبنان ، والشعبة التي تحدث عنها لم تؤلف بعد ، أفنظن هذا يغير من حقيقة ما قيل مثقال ذرة ؟ أو ينال من صدق هذا الشعور شيئا ؟

إن معك قرشاً ، فإن شئت جعلت هذا القرش رغيماً فاشتريت به رغيماً ، وإن شئت جعلته ثوبا ، وإن شئت جعلته سلاحا ؛ أي أن هذا القرش ، يحمل من قوة

الشراء ما يصيره في يدك ، رغباً ، أو ثوباً ، أو سلاحاً ؛ فإذا لم تجد في السوق رغباً أو سلاحاً ، فالقرش يحتفظ بقيمته ، حتى يظهر الرغيف أو الثوب أو السلاح . وكذلك شأن الحق ، فهو « عملة » هذا الوجود التي تقوم عليها سننه وينتظم بها أمره ، وكل من يقتني هذه « العملة » فهو غنى قادر ، يلزمه شعور الأغنياء القادرين . . . وكل من يقتني « عملة » غيرها ، فهو مفلس مزيف ، يلزمه شعور الفلاس المزيفين ؛ وهذا الشعور الذي يثبت اليقين والثقة في نفس صاحبه بأن حياته مليئة بالجد ، والحق ، والكرامة ، هو الذي يعيننا من هذا كله ، لأنه يشعر صاحبه بمعنيين عظيمين :

الأول : أنه لا يعمل عملاً إلا وهو يدرك أن عمره حاضر حضور الرغيف في جوف القرش ، وهذا يجعل حياة المرء حافلة بمجلائل الأعمال ، أو حافلة بأنواع الثروة والغنى ، فلا يتصور معه قعود عن عمل ، أو زهد في قول ، أو إعراض عن حركة ، أو خطوة متى كانت في الحق ؛ لا يتصور هذا أبداً ، إلا إذا تصورت رجلاً يلزمه الشعور بحب المال وعدم حبه في الوقت نفسه . . . إن الشعور بقيمة الحق ، كالشعور بقيمة النقد ، ولكن الساعى في الحق ، ليس كالساعى في المال ، لأن صاحب المال قد ينجح سعيه ، وقد لا ينجح ، أما صاحب الحق فنجاحه منوط بصدق نيته ، فإذا صدق النية ، كان عمله هو نفس النجاح ، لأنه هو نفس الثروة . . . إن القلب هو الدار التي تضرب فيها هذه الثروة ، فكل كلمة منها ، وكل عمل عليه طابع القلب ، فهو « عملة » حق وثروة صدق لقيمة لغيرها في هذا الوجود .

والداعية الممتاز هو الذي يشعر بقيمة الحق ، ويشعر بشدة افتقاره إليه ، بل بشدة افتقار الناس جميعاً إليه ، فهو يعمل لتحصيله ، ويعمل لتأييده وتثبيته ، وهو في أثناء عمله ، يلزمه الشعور بتدفق الثروة بين يديه . . فانظر يا أخى هل يئأس مثل هذا ؟ أم هو العزيمة السعيدة المجددة ؟

الثاني : أنه يسمو بمعنوية صاحبه وبكرامته ومقومات رجولته ، ولا نقول كما يسمو القرش بمعنوية حامله ، لأن النسبة بين طرفي التشبيه شاسعة الآماد ، وإن كان كل منهما يماثل الآخر في الاستعداد من العملة التي يحملها . وإذا كان الحق يصنع الرجال ، ويصوغ الأبطال ، فهذا السمو بمعنوياتهم ، هو سر الصناعة وجوهر الصياغة ؛ وما ظنك برجال ينظرون إلى الناس وهم يتعاطون الباطل ويتعاملون به فيما بينهم ؟ . . إنهم ينظرون إليهم كما ينظر أحدنا إلى أطفاله ، وهم يصطنعون فيما بينهم عملة من الصفيح

أو الحزف أو الورق الملون . . وما أظن موقفاً يبرز للرجل حقيقة نضجه ، وامتيار رجولته ، كهذا الموقف الذي يقفه على هؤلاء الأطفال .

٥ - إن الطبيعة التنفيذية إذا دفعت بالداعية إلى ميدان الدعوة وغمرته في محيطها ، نشأت بينه وبين مختلف الطوائف معاملات متباينة ، وصلات متعددة ، منها ماهو سار ، ومنها ماهو غير ذلك .

فالناس منهم المؤيدون ، ومنهم المخالفون ، ثم منهم المعارضون المعاندون ، ثم منهم المعادون الذين ينحرفون في عدائهم إلى الأذى والاعتداء . . . وهو مضطر حيال ذلك إلى أن يسلك مع كل طائفة سياسة خاصة ، إلى جانب ما يعانيه من مشقات الجهاد وسياسة العقبات . . . وكثيراً ما يبيت الداعية ليله مهموماً مفكراً يمد قلبه بتفاعلات ما حدث له ، بل كثيراً ما يسبب ذلك أزمات تثقل كاهله ، وتسحق همته ، وتركه أعجز ما يكون ، يسمى الظنون بحوله وقوته ، فليس في الوجود ماهو أعجز منه ، ولا أضعف منه ، ولا أفقر منه إلى حول الله العلي القدير .

هذه الأزمات القاسية التي تجرد الداعية من حوله وقوته ، وتسحق فيه كل شعور بمزية شخصية ، وتدعه حطاماً لاسر فيه ، إلا أن يتداركه الله بفضله ، هي أزمات مباركة ، تصهر قلب الداعية بحرارتها المباركة ، فإذا انصهر تخلص مما فيه من شوائب الغفلة والسهو ، وصار صاحبه أشد ما يكون إحساساً بضعفه وعجزه ، وأصدق ما يكون افتقاراً إلى عون الله وقوته ، وأقوى ما يكون انبعاثاً وفراراً إلى حمى الله عز وجل ؛ فإذا دعا الله حينئذ كانت دعوته من الأعماق ، تهتف بها معه كل جوارحه ، وينطق بها وإياه كل كيانه ، فتصعد ناصعة قوية ، تتجلى لها الحجب حتى تخر أمام عرش الله عاجزة ساجدة . تسأله الغوث والمعونة والنصر . . . وإن الله سبحانه لأشد ما يكون استجابة ، حين يكون عبده منصهراً في هذه البوتقة المباركة ، يخاطبه بلسان العجز المحض ، وشعور الهوان المصفي .

هذه الحالة ، مباركة الجوانب ، كثيرة النفع والخير ، فهي تنفي عن صاحبها ما عساه تشردوا البكرة ^{تسرع} أن يكون قد دخله أثناء غفلته أو سهوته ، من أنه مجاهد ذو عمل وأثر ، أو ذو موهبة ^{بهم اسمهم عملوا} ، أو ذو حول وطول . . . فإن بذور الطغيان إذا نمت في النفس وشاعت معانيها ^{مستلح} في القلب ، أغرت اكتفاء المرء بنفسه عن الله سبحانه ، وهذا مركب الطغيان ؛ وهو من معاني التصوف العالی ، الأخوة من قول الله سبحانه : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ

فَصِرَ لِلْغَيْمِ

تسرع البكرة

بهم اسمهم عملوا

مستلح

فانضمت الغيم

بعدة والسم

الغيم لله

سرع البكرة

سرع البكرة

لَيَطْفَى أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى » ؛ أى أن الإنسان إذا رأى نفسه استغنى بعلم أو موهبة ، أو جاه ومنصب ، أو مال وقوة ، أو نحو ذلك ، ركه الطغيان ، أو ركب الطغيان إلى ما شاء له شيطانه ؛ ومن هنا كان عليه السلام يبرأ إلى الله من حوله وقوته ويقول : « اللهم لا تكنى إلى نفسى طرفة عين ولا ماهو أقصر من ذلك » ... هذه الحالة العالية المطهرة ، لا بد منها لترحس عن الداعية ماقد يلحقه من الأذى ، ولترده دائماً إلى معرفة حقيقة نفسه ، وهوان قدره ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه .

ومن بركتها أن الإنسان حين يدعو الله من بوتقة الضعف ، ويغاطبه بشعور العاجز المقهور ، يقبل الله عليه ، بما لا يدور في حسابه من النصر . . . اقرأ معي ما يحكيه الله عن نوح عليه السلام في إحدى هذه الأزمان الوجدانية المنصهرة « فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَ تَصْرُ » ، فأنت ترى في قوله عليه السلام : « أنى مغلوب » شعور الرجل المنهار ، الذى فرغت نفسه من كل حول وقوة ، ففزع إلى الله سبحانه في صدق ، أن ينتصر له من أعدائه المكابرين . . فتكون الإجابة بما ليس في الحسبان « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ » .

أيها الداعية ، إن دعوة الضعيف الذى يقبل على الله بشعور القهر والغلبة تفتح أبواب السماء ، وتفجر ينابيع الأرض ، بأسباب النصر وجنده ، فهل تتعلم كيف تسخر جنود السموات والأرض بإذن الله لنصر الله ! وهل ندرك سر قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما تنصرون بضعفائكم » .

وهذا رسول الله ، يظله عام الحزن بفقد نصيره الكبيرين في الدعوة : زوجه خديجة وعمه أبى طالب ، ويشعر بوحشة لفقدما ، وخلو ظهره من سندهما ، فيخرج إلى الطائف ، وهى بعيدة عن مكة ، لعله يجد من أهلها ظهيراً لدعوته ، فيردونه أشنع رد ، ويعرون به سفهائهم ، فيبكي قلبه ، ويحس بوحشة الانقطاع ، ويحضره شعور الضعف والانكسار ولهوان ، فينبض قلبه ، وينطق لسانه ، ويرسلها إلى الله أنفاساً حارة : « اللهم أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى قريب يتجهمنى ؟ أو عدو ملكه أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ! »

ولست بصدد أن أقف بك على قوله عليه السلام : « أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس » ، ولا قوله « أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى » ؛

ولكني أترك لك أن تقف وأن تتأمل عمق العاطفة ، وصرخ اليقين ، حين تمخضه
الآزمات ، وترى بأى شعور يجب أن تقبل على الله ... أترك إليك هذا لأمضى فيما أنا
بسيّله فأقول : إن الله استجاب لأنات هذا القلب ، بما لا يدور في حساب أحد ،
فقد جلس عليه السلام من جوف هذا الليل ، جلسة أشرف سكان الملائكة الأعلى على
روعتها ، وأنصت لها الجن من سكان هذه الأرض ، وهو يرتل القرآن بأعذب صوت
ردد هذا اللحن القدسي الخالد ؛ وكانت ترانيم أنعامه عليه السلام تعمل إلى جنات
الوجود ، وأعماق السكون ، خشوع العبودية ، وسر الألوهية ، مجتمعين في نعمات
أطهر قلب عرف الله في هذه الأرض ؛ وإذا بالجن تلبى النداء ، وبأتبه النصر من
حيث لا يحتسب .

فمن الأعمال ما هو حى لأن الروح تسكنه ، ومنها ما هو ميت . لأنه ولد بلا روح .
لا يحتسب ، ونزل البشرى بقوله سبحانه : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ
يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا : أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ
مُنْذِرِينَ ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ ، يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ، وَآمِنُوا
بِهِ ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُخْرِجَكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ » .

ونحن نوصى الداعية ، أن يعمر نفسه في محيط الدعوة ، ويكثر من أسباب هذه
الآزمات ، استصفاء لقلبه ، ولصوقاً بربه ، فإن الله سبحانه لا يسمع إلا لمن يدعوه من
خلال هذه القلوب .

٦ — وهذه سادسة من أمر الله سبحانه ، فأرجو أن يشرح لها صدرك ،
وأن يؤنس بها فقهك ، وأن يقبل بك على تسمير أسرارها . . يقول أحدنا في حياته
اليومية لعمل من الأعمال : هذا عمل ميت لا روح فيه ، ويقول لعمل آخر : هذا عمل
قوى حى ؛ وهو بهذا يقصد أن العمل الأول منبعث عن قلب راكدا لا حياة فيه
ولا إيمان ، ولولا ذلك لبعث في هذا العمل قوة ، ولفخ فيه من روحه ، ونسمع في
محيط أهل الورع والتقى مثل قولهم : هذه صلاة ميتة أو ولدت ميتة ، أما إذا استحضرت
لها قلبه ، فأتم خشوعها ، وأقام ركوعها وسجودها ، وأودع كلماتها من نبضات قلبه ،
فهى صلاة حية ، تصعد إلى الله تعالى ، وعليها حل القبول .

وهذا كلام حق لا مجاز فيه ولا كناية ، وما يعلم حنود ربك إلا هو ، وما هى
إلا ذكرى للبشر ، والروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

وإذا كنا لا نشاهد هذه الأعمال الحية أو الميتة ، فهو ليس حجة على أنها غير موجودة . . فإن في هذا السكون من الكائنات والعجائب ما لا نستطيع رؤيته أو لمسه ، أو سماعه ، أو شمه ، لأن الله خلق حواسنا قاصرة عن إدراك هذه الأمور الروحية المعنوية ، أو قل إنه خلقها لإدراك الأمور المادية فقط ، أما ما وراء المادة ، فلا سبيل لها إليه ، إلا أن يجهزها الله بأسرار ليست عادية .

ونحن إنما نحصل علومنا ومعارفنا عن طريق هذه الحواس القاصرة ، فما جاءتنا به من علم أفئتنا به ، ووقفنا عنده . . أما ما يأتينا من أنباء الكائنات الأخرى ، بما ليس من معارفنا ، فليس لنا أن ننكره ونجحد ، وعلينا أن نصدق فيه كل من قامت الشواهد الصادقة على رجحان عقله ، ونفوذ بصيرته ، وصدق قوله .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه أبو هريرة في أحوال من يوضع في قبره : « فإن كان مؤمناً ، كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن شماله ، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله » .

وحكمة قيام هذه الأعمال من حول صاحبها . أنها تبغى رد كل مزججة عنه حتى سؤال الملوك ، فإنها لا تسمح لها بالخلوص إليه ، إلا بعد أن تعرف أنها رسول الخير إليه . واستمع معي إلى تنمة الحديث السابق : « فيؤتى — أى الميت — من قبل رأسه ، فتقول الصلاة : ما قبل مدخل ؛ ثم يؤتى عن يمينه ، فيقول الصيام : ما قبل مدخل ؛ ثم يؤتى عن يساره ، فتقول الزكاة : ما قبل مدخل ؛ ثم يؤتى من قبل رجله ، فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس : ما قبل مدخل » .

ولا يجوز لنا أن نتأول في كلامه عليه الصلاة والسلام ، زاعمين أن هذه أمور تمثيلية ، يقرب بها إلينا رسول الله ما يدور في العالم الآخر . . لا يجوز لنا أن نزع هذا ، فهو اجترأ على مقام الرسول ، وصرف لكلامه عن ظاهر معناه بلا دليل ولا سند . . ولقد قلنا إن جهلنا بحقائق هذه الكائنات ، لا يصح أن يكون حجة لردّها . . فإذا قال الرسول عليه السلام : إن الصلاة تقف على رأس الميت وتقول : كيت وكيت فهو الكلام الحق ، وليس لنا — بل ليس من كرامتنا العقلية — أن نتخذ جهلنا حجة لتأويل كلام غيرنا ، بل ليس بما يصلح عقولنا ونفوسنا ، أن يظل أحدنا في مستوى قصوره العادي وكما رأى كلاماً من أفق رفيع ، جذبته وأدناه إليه ، وظل يمسخه ويشوّهه ، حتى يلاثم

بينه وبين مستواه القاصر . . ليس هذا بما يصلح عقولنا ونفوسنا . إنما يصلحها ، أن نسمو ونتسلق إلى المستوى الذى يرفعنا إليه كلام هؤلاء الأفاضل . . فإذا قال عليه السلام : إن الصلاة تقف وتقول وتفعل كذا وكذا ، فليس لهذا من معنى إلا أنها تقف وتقول وتفعل ما أخبر به عليه السلام . . أما كيف تقف وهل لها رجلان ؟ وكيف تتكلم ؟ وهل لها لسان ؟ وكيف تفعل ، وهل لها يدان ؟ فهذا ما لا شأن لنا به . فليكن الكيف ما يكون ، وكل الذى علينا أن نعلم به . أن الصلاة ستقف وستتكلم ، على ما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله عليه . . وإلا فما قول هؤلاء التأولين فى قوله تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » كيف تؤدى الرجل شهادتها ، وكيف تؤدى اليد ؟ هذا ما لا شأن لنا به ، فليكن الكيف ما يكون ، أما الذى لا شك فيه أن الشهادة ستؤدى لا محالة « وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

فالأعمال الصالحة من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، ومعروف ، وإحسان ونحوه ، هى كائنات حية ، مؤلفة من ظاهر وباطن ، أو من غلاف وسر ، فالظاهر هو صورة العمل ، والسر ، هو الروح الذى يسكنه . . وصورة العمل هى فعل الإنسان ، وأما الروح فمن أمر ربى ؛ وعملية المزج بين الروح وصورة العمل ، تتم فى داخل القلب ؛ فكل عمل طيب يخرج من القلب المؤمن ، فهو عمل حى ، تسكنه روح طيبة ؛ وكل عمل يثم من وراء القلب ، فهو عمل ميت لا روح فيه . . والذى نريد أن نجلوه فى هذا الكلام للداعية ولغير الداعية ، أن هذه الأعمال الحية بأرواحها الطيبة ، تلزم صاحبها فى حياته وفى مماته ، حتى يلقى الله بها يوم القيامة . . وهى إذ تلازمه لا تكون معطلة عن النفع ، مكفوفة عن العمل ، بل فى خدمة صاحبها فى حياته ومماته . . ترد عنه كل مزحجة وتسوق له كل خير مستطاع . . ولقد أوردنا حديث أبى هريرة فيما سبق وهو يبين لنا هذا المعنى ويؤكد به ؛ ومع هذا فإننا نورد حديثاً من كلام سيد المرسلين يقطع الشك ويقرر اليقين قال صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل نكتفى بإيراد بعضه : « رأيت البارحة عجياً — رؤيا الأنبياء حق ، لأنها وحى — . رأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين ، فجاء ذكر الله عز وجل فطرد الشياطين عنه ، ورأيت رجلاً من أمتى يلهث عطشا ، فكأنا من حوض منع وطرده ، فجاء صيام شهر رمضان فسقاه وأرواه ؛ ورأيت رجلاً

من أمتي ، ورأيت النبيين جلوسا حلقا حلقا ، كلما دنا إلى حلقة طرد ، فجاء غسله من الجنابة فأخذ بيده ، فأقعده إلى جنبي ... ورأيت رجلا من أمتي يتقي بيده وهيج النار وشررها ، فجاءته صدقته فصارت سترة بينه وبين النار وظلت على رأسه ... ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الزبانية ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله في ملائكة الرحمة ؛ ورأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه ، وبينه وبين الله عز وجل حجاب ، فجاء حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل ... ورأيت رجلا من أمتي قائما على الصراط رعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف فجاء حسن ظنه بالله عز وجل فسكن رعدته ومضى ؛ ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة .

وكل هذا صريح في أن للأعمال الحية قدرة على التصرفات ، بما أودع الله فيها من أسرار الأرواح ، ونجب أن نذكر أن تصرفات الأعمال ، أو أرواح الأعمال ليست مقصورة على نفع صاحبها في الآخرة ، بل في الدنيا كذلك ، فقد قال عليه السلام : من قال في يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، كانت له حرزا من الشيطان حتى يمسي ؛ وقد أورد الترمذي في نحو هذا عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له كفيته وهديت ووقيت وتنجي عنه الشيطان فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى ؟ بل إن لها من عون صاحبها في الأمور المادية ما يكاد يكون من العجب ، فقد روى البخاري أن فاطمة رضي الله عنها ، شكت إلى أبيها شدة ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة ، وطلبت إليه أن يعطيها خادما ، فما كان منه عليه السلام ، إلا أن علمها هي وزوجها ، أن يسبحا كل ليلة إذا أخذتا مضاجعهما ثلاثا وثلاثين ، ويحمدا ثلاثا وثلاثين ، ويكبيرا أربعين وثلاثين وقال : « إنه خير لسكما من خادم » .

وكان حبيب بن سلمة ، يستحب إذا ناهض حصنا ، أو لقي عدوا أن يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، وقالوا : إنه ناهض يوما حصنا من حصون الروم فقالها ، وقالها المسلمون معه وكبروا ، فانهدم الحصن وانهمز العدو ... ولعل حبيب ابن سلمة رضي الله عنه ، كان يستأنس في فعله هذا بما ورد في بعض الآثار ، أن للملائكة

لما أمروا بحمل العرش ، قالوا : يا ربنا كيف نحمل عرشك ، وعليه عظمتك وجلالك ؟
فقال : قولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقالوها فحملوه .

ولقد قلنا : إن عملية مزج الروح بالقول أو بالعمل ، محلها القلب ، فليس كل قول نافعاً ، وليس كل عمل مساعداً . فليعلم الداعية هذا ، وليدرك قيمة القلب الذي ركبه له الله في صدره ، فهذا القلب يستطيع أن يصنع بنفسه جنود نصره على ما أشرنا إليه سابقاً ، وليختر لنفسه : أيزهد في هؤلاء الجند الباركين ، أم هو سيفتح آفاق القلب ليستخرج منه هذا الخلق الكثيف من جند الله ؟ إن هؤلاء الجند تربطهم بك رابطة الجند بقائدهم . إنهم خرجوا من سويداء قلبك ، فهم منك وأنت منهم ، يعطفهم عليك ما يعطف الأبناء البررة على أبيهم ؛ ولك أن تقول : إنهم ذرية أنجبها قلبك ، إلى جانب الذرية التي ينجبها صلبك ، غير أنهم أصدق وفاء ، وأطول بقاء ، وأقدر على العون والمؤازرة ... لك أن تقول هذا ، وتستأنس لما تقول بقوله تعالى : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » ففيه مقارنة خفية بين ضربين من البنين ، لم يكشف الله عنهما الغطاء ، حتى لا يدخل على الناس ما يبلبل أفكارهم ، وترك لدوى البصائر أن يستشفوا هذا المراد وهم راسخون ولعل مما يسندنا في هذا الاستئناس ، قوله تعالى : « إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ »

رداً على الذين كانوا يشمتون به عليه السلام ، لموت أبنائه الذكور ، ويقولون : إنه أبتَر ، لا ذرية له تبقى من بعده ونحمل ذكره ، فقرر بهذا سبحانه أن الذي لا عقب له ولا ذرية ، هو في الحقيقة الذي فسد قلبه يبغيض الرسول ، فليس له من ذرية القلوب والأعمال ، ما يبقى بعده مذكوراً في ضمير الأجيال ، أما ذرية الصلب ، فلا خير فيهم لأبيهم ، إذا كان رجل سوء مقطوعاً عن أعمال البر والتقوى .

وبعد فاعلم يا أخي أنك في جهادك أحوج ما تكون إلى هذه الذرية ، فأكثر من العمل والنية ، يكثر من حولك هؤلاء الأبناء في عالم الخفاء . . . ولن يكونوا كلاً على أبيهم ، بل سيعملون معه من دون أن يراهم ؛ بل قد يكون في مخدعه نهارة أو ليلاً قد أضناه العياء ، فلا يقرون حول مضجعه ، بل يسبحون في مختلف الأماكن يتلمسون عملاً يساعدون به أباهم أو أصحابهم ، ويارب قوم جلسوا يذكرون جهادك ، فتنبه في هذه الذرية الخفية المباركة ، تبث العواطف في القلوب بإذن الله ، وتثير خواطر الخير في أذهان القوم ، فإذا بالحديث يسترسل بالثناء عليك ، وتأييدك ووجوب مناصرتك ؛ وإذا بهذه الأرواح الخفية تفعل ما لا تفعل المقالات والخطب . . . وقد تستقبل في

غذك واحدا من هؤلاء أو أكثر ، يسابعك على دعوتك ، ويطلب إليك أن تشركه في تأسيس هيئة في قريته .

أبها الأخ ، هذه هي الدرية ، فاحرص عليها في جهادك ، جهادك القولى والعملى ، وجهادك السلمى والحربى ؛ واعلم أن المجاهد الذى ينزل إلى الميدان بدون جمع من هذه الدرية ، فهو أضعف نصيرا من المجاهد الذى ينزل ميدانه بغير سلاح ؛ واعلم كذلك أن هذه الدرية تعمل لأبها ، ويبدأبها ، من ألوان الكفاح ما يثير الدهشة ، ويدعوا إلى العجب ؛ وفي مثل هذا يقول ابن القيم : « إن العسكر كانوا يشاهدون من قوة الإمام ابن تيمية فى الحرب أمرا عظيما » . ألا هل بلغت . . . اللهم فاشهد .

الباب الثالث

مصادر الداعية وموارده

لا نريد بهذه المصادر ، أنها مدد خطابه وموارد بلاغته ، ومناهل المعاني التي يشفق بها حديثه . . . وإنما نريد قبل كل هذا ، مصادر النمو للمكاته ، والوحي لروحه ، والإلهام لمشاعره النفسية ، والتوجيه العملي لسير رسالته ، وموارد البناء للمجتمع الفاضل الذي ينشده ؛ ونحن نذكر من هذه الموارد على سبيل المثال لا الحصر (١) القرآن الكريم . (٢) السنة المطهرة . (٣) تاريخ الأمم والشعوب وسيرة الرجال والأبطال . (٤) واقع الحياة الجارية . ولا بأس من ذكر كلمة توجيهية عن كل مصدر منها .

١ - القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ)

كثير من الناس ، بل كثير من أهل العلم والبحث ، إذا تكلموا عن القرآن الكريم ، قالوا إنه ذو ناحيتين : ناحية المعاني ، وناحية الألفاظ ؛ ثم يتشعبون شعباً ويتفرقون فرقا بعد هذا .

فأهل الأدب ينظرون في جمال المعاني . وجودة العبارات والأساليب ، ثم يجهّدون أنفسهم في تعرف وجوه إعجازه : هل هو معجز بألفاظه وتراكيبه ، أم هو معجز بمعانيه ، أو معجز بكليهما ؟

وأهل الفقه ينظرون في الألفاظ والمعاني ، ليستخرجوا منهما الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات ونحوها .

وأهل الجدل والسكلام ينظرون في الألفاظ والمعاني ويتساءلون : هل القرآن قديم

بمعانيه وألفاظه ، أو قديم بمعانيه دون الألفاظ ؟ إلى آخر ما هناك من خلاقات لا طائل وراءها إلا ضعف العقيدة ، واتساع الهوة بين الآراء .

والاجتماعيون ينظرون إلى ألفاظه ومعانيه ، ليستخرجوا منها ما يستطيعون من توجهات خلقية وأدبية واجتماعية ، في الشورى والمساواة ، وحقوق الإنسان وغيرها ؛ ولكنهم بكل أسف لا يذهبون في هذا الاتجاه مذهباً جديداً .

هذه الطوائف وغيرها لا ترى في القرآن غير ناحيتي الألفاظ والمعاني ؛ وقد أوردنا هذه الآيات الكريمة على رأس هذا الكلام ليعرف القارئ أن القرآن « روح » وليس ألفاظاً ومعاني فقط .

ولست أيسح لنفسي أن أفاضل بين الروح والمعاني والألفاظ ، فكله من الله سبحانه وهو بكل شيء عليم ؛ ولكني أقول : إن الاهتمام بناحية الروح في القرآن يجب أن يأخذ مكانه في قلوبنا وعقولنا . وليس حسناً أن نهتم بالروح في جسم الإنسان والحيوان ولا نهتم بها في كلام الله سبحانه وتعالى ، فكلاهما من أمر الله عز وجل . فهو يقول هنا عن الروح في الكلام « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » ، ويقول في موطن آخر عن الروح في الأجسام : « وَبَسَّأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »

فعلى الذين يبحثون في إعجاز القرآن وغير إعجازه . أن يلتزموا هذا الروح قبل كل شيء ، ثم يطلبوا ما في الألفاظ والمعاني من قوة وجمال وموعظة وأحكام ؛ فإن الباحث في إعجاز الألفاظ ، لا يعدم مكابراً يدعى أنه لا يشعر بإعجاز ، ويدعى أن لديه من الآثار الأدبية ما هو أروع منه ؛ أما الروح الإلهية فإن إعجازها قائم لا شك فيه ، وإخامها مسلم به من الجميع ، فلن يحدث أحد نفسه بمعارضة آثارها في كلام الله سبحانه كما أنه لن يفكر في معارضة آثارها في أجسام الكائنات ، وقد أشار القرآن إلى كلا الإعجازين فقال : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ » وقال : « لَنْ يَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ حَتَّى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » لأن المسألة ليست صورة بدنية أو كلامية ، فهذا ما يستطيع كل مكابر أن يدعى القدرة على صنعه وإنشائه ، ولكن الإعجاز أظهر ما يكون ، في بث الروح الذي تحيا بها الأبدان ، وينهض بها شأن الكلام .

ولست هنا بمتكلم عن إعجاز القرآن فأسترسل في بيان آثار الروح الإلهي فيه .

وإنما أتحدث باعتباره أعظم مصادر الوحي والنمو للملكات الداعية ومشاعره ؛ فيجب على الداعية بل كل إنسان أن يراعى التوجيهات الآتية أثناء تلاوته للقرآن الكريم :

القرآن روح

أولاً : أن يقرأ القرآن على أنه روح ؛ وللروح آثارها ، ومن آثارها الحياة والنمو والقوة ، والسمع والبصر . . . ولا يزيد أن نطيل بذكر الآيات التي تدل على أن القرآن حياة للقلوب والأرواح ، وأنها تنمو به وتقوى وتسمع وتبصر ؛ ولكننا نطلب إلى الداعية أن يلتصق بهذا الروح وأن يختل لإيجاد الصلة بينه وبين قلبه ، حتى تسرى تياراته وإشراقاته في كيانه كله . . . وليس ضرورياً لانتقال هذا الروح القرآني إلى قلب الإنسان ، أن يقرأ القرآن كله ؛ بل الضروري أن يزيل الفوارق والحجب التي تفصل بين قلبه وبين القرآن ، فإذا زالت وصار القلب أمام القرآن وجهاً لوجه ، أحس بالحياة والقوة والنور والحشية والحنان تملأ وجوده . . . وآية واحدة من كتاب الله كقيلة بهذا لو أحسننا الاتصال بها ؛ وأنا أعني ما أقول فإن التحقق بمعنى آية واحدة ، سلباً وإيجاباً وعملاً واعتقاداً والتزاماً بتكليفها في غير تهاون ولا رخاوة ، مع محالطة روحها لحفايا القلب ، يحجي الإنسان ظاهراً وباطناً ، ويجدده وينيره . . . كالذي يمس السلك الكهربائي إذا لمسه من أي طرفه أو من أي نقطة فيه سرى السكهرباء فيه واضطرب وانتفض دون أن يتوقف ذلك على لمس أجزائه كلها مرة واحدة . . . القرآن جبل الله المتين كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه بيد الله وطرفه الآخر بيد الناس ، فأى جزء أخذنا بمجد وقوة سرى سره إلى القلوب فارتجت به وحيث « الله نَزَلَ أَحْسَنَ الْخَبَرِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » ؛ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ .

ولعلك تقول وما فائدة القرآن كله — إذا — ما دامت آية واحدة منه كافية لإحياء القلوب ؟ ولماذا لم يكتف الله سبحانه بآية أو بضع آيات ؟ وهذا سؤال حق ، واعتراض له وجاهته ؛ ولكن الاعتراض يزول ، إذا علمنا أن مهمة القرآن ليست حياة القلب غسب ، بل وضع مناهج العمل الذي تنتظم به الحياة كذلك ، حتى لا يضل صاحبها عملاً واعتقاداً أثناء سيره إلى الله ؛ ويقول بعض العارفين : « من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق » والتصوف هنا حياة القلب والتفقه معرفة أحكام الله وحدوده التي يسميها مناهج العمل ، والزندقة ضلال عن سبيل الله . ألا ترى يا أخى أن الله عز وجل

حين أحيا الإنسان بما بثه فيه من أسرار الروح لم يتركه سدى بل خلق له العقل الذى ينظم له هذه الحياة ويدبر له أمره ، بما يدرك من أصناف الضرر والنفع ؟
كذلك روح القرآن به تحيا القلوب ؛ أما عقل هذه الحياة الذى يوجهها إلى الله على بصيرة ، فهو الأحكام الشرعية ، ولذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » . . . وهذه الحياة كما — ذكرنا — تحدث بآية واحدة بل كلمة واحدة لأنها روح لا دخل لها بالأحجام والمساحات ، ولا بطول الكلام وقصره ؛ أما الأحكام ، فإن الله عز وجل يعلم من طبيعة تكويننا أن عقولنا لا تتفقهها ، إلا وهى متفرقة فى مواضع شتى وفى أزمان مختلفة . . . ولو كانت طبيعة العقول كطبيعة القلوب فى تقبلها للحقائق جملة واحدة فى لحظة واحدة كملح البصر أو هو أقرب ، لساق لنا الأحكام فى آية واحدة ، أو لكان للأحكام شأن لا نعرفه ، غير هذا الشأن الذى نعرفه ؛ ولكن الله سبحانه يجرى كل شئ على سنته التى فطره عليها والله عليم حكيم ؛ فليس المعول عليه فى إحياء القلوب مقدار ما نقرأ من القرآن ، إنما هو كيف نطالع القرآن . ونوصى هنا .

١ — بالتأمل والتدبر والوقوف على كل عبرة ومعنى . . . ويجب أن تكون القراءة فى خلوة هادئة ، ولا سيما خلوات الليل حيث يشف القلب ، وتنكشف أغشية النفس .
٢ — سل نفسك قبل قراءة القرآن : هل هواك مع الله أو مع الدنيا ؟
وأعلم يا أخى أن كل هوى من الأهواء الدنيوية ، إنما هو حجاب كفيف بينك وبين الله ، وبين قلبك وبين القرآن ؛ فحب المال حجاب ، وحب البنين حجاب ، واشتغال القلب بشواغل الدنيا حجاب أو حجب ، وإعجاب المرء بعلمه أو ذكائه أو صلاحه أو قوته أو جاهه ، من اللوانع الكثيفة الثقيلة ؛ وميل الطبع إلى شئ مما حرم الله ، وبغضه الخير لما فيه ، وحسده وحقده ، ورغبته فى نزول الأذى واللصية بمن يكره ، هذا ونحوه أكنة يبتلى بها القلب ، فتحول دون وصول الروح القرآنى إليه .

فعليك يا أخى أن تعرف فى صراحة — بينك وبين نفسك — هل بينك وبين القرآن حجاب من هذه الحجب أم لا ؟ والمقياس أمامك ، فأنت وشأنك « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة » ، « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِلَاخِرَةٍ حِجَابًا مَسْتُورًا ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا »

يا أخى حياة القلب هى كل شئ ، وأنت طالب حياة ، فلا تبخل بأى جهد يجعلك من الأحياء : مهما شق عليك ؛ ونحن فى رسالة لا ينهض بحقها إلا القلب الحى ، وفى رحلة إلى الدار الآخرة ، لا ينفع فيها مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ؛ فجرد قلبك من هذه الأهواء على ما بيناه فى الروحية الاجتماعية ، ليكون قلبك سافراً غير محجب ، فإنك حينئذ تدرك وتحس وتحب وتبكي وتخشع ، وأنت فى روضة من رياض الجنة .

٣ — ويجب أن تستحضر عبوديتك لله ؛ استحضرها حقيقة لا مجازاً ، استحضرها شعوراً قوياً ، يريك ذلة العبد أمام سيده الكبير العظيم ؛ ونحن جد خيرين بحالة الاضطراب والذبذبة التى تعترى المرء بين يدي رئيسه القوى الجبار ، ونعرف أن كيان هذا المرءوس يتركز كله فى أذنيه ، يسمع بهما ما يقال له ، ويتركز فى قلبه ليتلقى ما يلحق عليه ، فإذا عينه وملامح وجهه وحركات رأسه ، تؤذن كلها بالطاعة ، وتلقى ما يقال لها أو تؤمر به بمزيد القبول والارتياح . كل هذا ليشعر المرءوس رئيسه أنه يتحرى مواضع رضاه ، وأن لا إرادة له إلا فيما يريد رئيسه العتيد .

هذه الحالة التى يدخل فيها عبد لعبد مثله ، هى التى نريد أن يدخل فيها العبد لمولاه ذى الجلال والإكرام ؛ فلو وفق إلى مثلها لتطارت من فوقه الحجب ، ولرأى نفسه أمام عظمة عرش الله عز وجل وكأنها لا شئ ؛ فإذا به فى سلطان الله يفر منه إليه ، ويتركز وجوده فى أذنه وقلبه ، فيغدو لأمر الله ونهيه وقع فى قرارة نفسه لا يدانيه وقع كلام آخر . . . وتلك حالة يمكن كسبها بالممارسة والمران ، وهى بلا شك موصل جيد لروح القرآن إلى قلب الإنسان .

٤ — واستحضر تلك العبودية بصفة جدية حقيقية ، يورث الإنسان نهضة إلى أمر مولاه ، ومسارة إلى إنفاذ ما كلفه به وألقاه عليه فى القرآن ، وهذا يعنيننا من ناحيتين :

الأولى : أن تنفيذ الأمر إن هو إلا تفسير عملى له ، يكشف خفاياه ويجلو غوامضه ، ويكسب صاحبه فهماً فى كتاب الله ، لا يناله النظريون الواقفون عند حدود التلاوة النظرية .

والثانية : أن تنفيذ الأمر إن هو إلا تنفيذ لتكاليف شاقة ، كم تقاصرت دونها ألهم ؛ فإذا راض المرء نفسه على التنفيذ ، وتحمل مشقة الرياضة والمجاهدة ، ونهض بهذه التكاليف بغير هواة ولا رخاوة ، فقد أحدث مورانا فى قلبه وعصبه ، وتنبت

في وعيه ، وبقطة في ملكات نفسه ، وهذا مما يزيد في تفهمنا لكتاب الله ، والوقوف على كثير من أسرار ومعانيه . . . وبدون التنفيذ الحار تكون الأعصاب بليدة فاترة وملكات النفس غافلة راكدة ، فلا يصلح شيء منها لمطالعة روح القرآن .

٥ — والقرآن يا أخى كلام الله ، وقد تفرد الله بكل صفات الكمال والجلال ، ومن شأن كل كلام — حتى كلام البشر — أنه يدل على أسرار صاحبه ، وصفات ذاته ؛ فإذا أراد أحدنا أن يدرس شخصاً ما اتخذ كلامه مادة من مواد الدراسة التي تعينه على مراده . . . فأولى بنا ثم أولى أن نلتبس أسرار الله في كلامه سبحانه وتعالى ، ومطالعة صفات كماله وجلاله فيه ؛ قال جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه : لقد تجلى الله عز وجل لخلق في كلامه ، ولكنهم لا يبصرون .

ولكى نبصر تجليات الله في كلامه ، أرى أن نستحضر ماله سبحانه وتعالى من صفات الكمال في القدرة والعلم ، وغير القدرة والعلم مما لا طاقة لنا بالإحاطة به ؛ نستحضر من ذلك ما نستطيع في هبة وخشوع . . . فإذا أقبل أحدنا على القرآن ، وفي قلبه شعور بهيبة هذه الصفات ، وفي نفسه شوق لمطالعتها واستجلائها فإن آيات القرآن ستشف له بإذن الله عنها .

إن أحدنا قبل أن يقرأ المقالة ، يقرأ اسم صاحبها ، فإذا كان من كبار الكتاب استحضرنا له في الحال مانع من صفات بلاغته ، وقوة معانيه ، وسداد آرائه ، بل وملامح نفسه ، فبعيننا هذا على تعرف ما في المقال ، وحسن الالتفات إلى إشاراته ومرامييه . . . وكثيراً ما نقرأ المقال بدون إمضاء ، فقرأ عادياً ، فإذا قيل لنا إنه لفلان من كبار الكتاب أعدنا قراءته ، بعد أن نستحضر ما لهذا الكاتب من صفات القوة والامتيار ، فإذا بنا نجد في المقال ما لم نجد أولاً ، وإذا بروح الكاتب تطالعنا من خلال سطوره ، بعد أن كانت وراء الحجاب غير منظورة ؛ والله المثل الأعلى ؛ ولعلك يا أخى أدركت ما نريد .

٦ — وأخيراً يجب أن نقرأ القرآن ، كأما نسمعه من الله سبحانه وتعالى ، وهذا أمر يكاد يكون من البديهيات التي نفعل عنها ؛ فالقرآن كلام الله ، خاطبنا به ، ووجهه إلينا ، وأبسط مقتضيات هذا ، أن نصغي إلى هذا التكلم العظيم ونحسن الاستماع إليه : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

والإنصات إلى الله لا يكون بالأذن ، بل بالقلب وبوعيك كله ، وهي منزلة تقتضى الإنسان مراناً ورياضة وتدرجاً في مقاماتها الرفيعة . . . قال بعض السلف : كنت

أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة ، حتى تلوته كَأَنِّي أسمعُه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت إلى مقام فوقه فكنت أتلوه كَأَنِّي أسمعُه من جبريل عليه السلام ، يليقُه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم جاء الله بمنزلة أخرى ، فأنا الآن أسمعُه من المتكلم به ، فعندها وجدت لذة ونعما لا صبر لي عنهما .

وهو من مقامات الشهود التي لا قبل بوصفها إلا بذكر آثارها ، فقد رووا عن بعض آل البيت ، أن حالة لحقته في الصلاة ، نثر مغشيا عليه ، فلما سرى عنه قيل له في ذلك ، فقال : ما زلت أردد الآية على قلبي ، حتى سمعتها من المتكلم بها نفسه ، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته سبحانه وتعالى .

هذا يا أخى بعض ما يصلك روح القرآن ، فإذا اتصلت تمت الحياة في نفسك ، واهتز قلبك وترعرع ؛ وكان مالك ابن دينار يقول : مازرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن ؟ إن القرآن ربيع المؤمن ، كما أن الغيث ربيع الأرض .

القرآن قصة الجهاد النبوى :

ثانياً : في القرآن الكريم قصة كاملة لأروع مظاهر الجهاد ، وأصدق حقائقه ، وأشرف مقاصده ؛ لواء القيادة فيها معقود لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن خلفه صحابته رضوان الله عليهم .

ونحن نوجب على كل إنسان — أو كل داعية على الأقل — أن يطالع أبناء هذه القصة في أجزاء القرآن الكريم ، ويدرس طبيعة الجهاد في الميدان المسمى ، وطبيعته في الميدان المدنى ، مطالعة دراسة وتفهم ، لامطالعة تلاوة وتسليية .
وتيسيراً لعب الدراسة ، نذكر أن الجهاد المسمى ، كان صراعاً هائلاً بين عقليتين متغايرتين تمام التغاير :

عقلية تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتنظر إلى حقائق الوجود وإلى الغاية من الحياة على ضوء هذا الإيمان .

وعقلية مادية جاهلة لا تفقه من حقائق الإيمان شيئاً ، تنظر إلى الوجود على أنه هو هذا الأفق الدنيوى المحدود ، الذى يبدأ من المهد إلى اللحد .

فالتوحيد مسلم به من العقلية الأولى ، ولكنه عجب لدى الأخرى : « أَجْعَلَ الْإِلَهَ إلهاً واحداً ؟ إِنَّ هَذَا لَشَىءٌ عَجَابٌ ، وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَىءٌ يُرَادُ ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْعِلَةِ الْآخِرَةِ ،

إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ . وهكذا تفكير العقلية المادية المظموسة ، فقس عليه كل ما يدور حول التوحيد من جدل ونقاش .

والإيمان بالرسول لا غرابة فيه لدى العقلية المؤمنة . ولكن العقول المادية تنكر هذا أشد الإنكار : « أُنْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ؟ » وقالوا — متهمين ساخرين : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » ، واتخذوا من فقر الرسول حجة تدعّم رأيهم ، فلو جاز في زعمهم أن يختار الله رسلا من البشر لاختارهم من ذوى المسكنة والجاه والمال : « أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ؟ » « لَوْلَا أُنْزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَئَتَيْنِ عَظِيمٍ » .

وملائكة جهنم تسعة عشر ؛ فلا يتصور هؤلاء المادبون ، إلا أن الملائكة مثلهم ، فيتسكعون ويتدرون بهذه النار التي يعذب فيها من لا يعصى من البشر ، وليس يحرسها إلا تسعة عشر ؛ فينزل فيهم قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ » .

أما البعث ، فأبعد هذه العقائد كلها عن عقولهم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرَقَةٍ ، إِنَّكُمْ أَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ » هذه أمهات العقائد التي دار عليها الحدل بين هاتين العقائتين ، ورى القرآن المسكي يسجل الكثير منه ، فهو يقرر العقيدة ويذكر وقعها لديهم ويورد جدلهم حولها ، وما لهم فيها من شبهات وشكوك ، ويرد على ذلك كله بالبرهان القوي ، والمنطق الفطري الواضح ، مما يبين لك خصائص العقلية المادية ، ويعطيك صورة واضحة لهذه الحرب الجدلية التي اضطربت نارها في مكة ثلاثة عشر عاماً .

وكما كان الصراع بين عقليتين ، كان كذلك بين قوتين : قوة الإيمان العزلاء ،

وقوة الطاغوت الغاشمة المتعطسة ، وقوة الإيمان لا تبغى لنفسها شيئاً ، وقوة الطاغوت أخوف ما تخافه أن يضيع سلطانها ، وتفقد ما تحصل عليه من منافع على حساب الضعفاء ، فهي تصب غضبها وأداها على المؤمنين ، لا تعرف في ذلك إلا ولا ذمة . . . وقوة الإيمان لا تقابل هذا الطغيان بالاستسكانة والدلة ؛ بل تنتصر لنفسها في حدود طاقتها . . .

والقرآن المبكى يصور هذا كله ويورد أمثله وحوادثه .
فإذا قرأت أنباء هذين اللونين من ألوان الصراع في تودة وتمهل ، وتتبع وقائعها في القرآن المبكى وحده ، وتنقلت من سورة إلى سورة على حسب ترتيب النزول — وهو في مصحف الملك — فإنك لا تلبث أن تدخل بعواطفك في هذا الصراع وتدب حرارته وحماسه في قلبك ، وتكون بهذا أقدر على فهم القرآن ، وتمثل حقائقه ومعانيه ، وأجدر أن تبتغى بأنباء هذا الجهاد العملى فى معترك جهادك ، وميدان رسالتك ، فما أشبه الليلة بالبارحة ، والمعول عليه الفطنة التى تحسن العرض والاستشهاد .

أما الميدان المدنى فكانت قوة المؤمنين تنازل فيه ثلاث جهات مختلفة : اليهود ، والمنافقين ، ومشركى العرب جميعاً ، لا مشركوا مكة وحدهم ؟ مع ملاحظة أن قوة المؤمنين هنا فى المدينة أكثر عدداً وعدة ، فهى قوة مسلحة خطيرة .

١ — أما اليهود فهم أهل علم وكتاب سماوى ، وثورته منذ قرون عن آباء صدق ، ولكن ورثوا نصوصه ، ولم يرثوا روحه ، فاستقرت نصوصه ، فى أدمغتهم وأقفرت نفوسهم من روحه ومثله العليا ؛ وطال بهم الأمد فقصت قلوبهم ، وفسق كثير منهم عن أمر ربه ، ودخلهم حب الدنيا ، وتعاملوا بالرشوة ، وأخذوا الربا وقد نهوا عنه ؛ فهم يأخذون عرض هذا الأدنى باطلاً وسحتاً ويقولون : سيغفر لنا ، وإن يأنهم عرض مثله يأخذوه فى غير تورع ولا استحياء ، لأنهم أبناء الله وأحباءه ، فلن تمسهم النار إلا أياماً معدودة . . . وهكذا أخضعوا دينهم لدنياهم ، واشتروا بكتبهم ثمناً قليلاً . . . ذلك موجز أمرهم وأمر آبائهم من قبل .

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، حدد علاقته بهم بمخالفة مرضية ، تسكف لهم الأمن والنظام والحرية والعيش الحسن ، لو أرادوا . لسكنهم لما رأوا قوته زداد ، وسلطانه يعظم ، ودينه يهيمن ، وزمام الأمور الاقتصادية والسياسية

ينتقل إليه ، أكلت قلوبهم الغيرة ، وزاد بهم الحقد والغيظ : « وَلَئِنْ يَدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » .
فهاتان صفتان خسيستان : بيعهم الدين بالدنيا ، وهو داؤهم القديم . . . والغيرة الحاقدة ، وهي داؤهم الجديد . . . مع دهاء ومكر ودس وغدر . وقد سجل القرآن صفقتهم الخاسرة ببيعهم الدين بالدنيا في مثل قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ » .

ويدور كثير من آيات القرآن المدني حول تسجيل هذا المعنى واستهجانها . أما حرصهم على الدنيا وتشبههم بها ، فإنك تراه في مثل قوله تعالى : « وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا . . . يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ » .
وتنكير كلمة « حياة » وخلوها من « أل » يدل على أنهم يريدون حياة وكفى ، دون أن يهمهم نوع الحياة ، فأى نوع وقع لهم فهو حسبهم ؛ فسواء لديهم الحياة الوضيعة والرفيعة ، والدنيئة والشريفة ، والدليلة والعزيزة . فليس المهم عندهم النوع ، وإنما المهم « حياة » من أى نوع كان .

وسجل غيرتهم وحقدهم في قوله تعالى : « مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ رَحْمَتَهُ مَنْ يَشَاءُ » وقوله تعالى : « وَكَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ » « وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَنْكُمْ الْأَمْلَ مِنَ الْغَيْظِ . قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

وهل تنتظر يا أخى من هؤلاء الذين حرصوا على الحياة الدنيا في ذلة ، وباعوا بها دين الله ، أن يكونوا صرحاء كالمشركين في حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لقد كان المشركون يشنون عليه حربهم العدوانية بالجدل والأذى ، في صراحة وجراحة ؛ أما هؤلاء الأذلة فإن تنتظر منهم إلا حرب الجبناء الدسائين ، وهي حرب محروصون فيها على حياتهم وسلامتهم قبل كل شيء . ولن يهمهم بعد ذلك أن يتخذوا ماشاء لهم

الجبن الدليل ، من الأساليب الدينية في غير تورع ولا كرامة ، وإذا كان هؤلاء باعوا دينهم بدنياهم ، واشتروا بكتابهم ثمنًا قليلًا ، فهل تظنهم يتورعون أن يحرفوا هذا الكتاب ؟ وإذا اقتضت أساليب الحرب الدينية أن يحرفوه ، فهل يكلفهم هذا قطرة دم واحدة ؟ وهل يعرض حياتهم وسلامتهم لأي نوع من الأذى ؟

لقد سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلموا أن القرآن يقول إنه جاء بمثل شريعة موسى والأنبياء من قبله : « شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى » ويستشهد على هذا بالمائدة الواضحة بين تشريع التوراة وتشريع القرآن ، ويسوق من أمثلة هذه المائدة قوله تعالى : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ » .

هذه دعوى النى الجديد ودعوى قرآنه الذى جاء به . وقد استشهد بهم وبكتابهم ؛ فإن قالوا : « نعم » فقد أمكنوا عدوهم من أنفسهم ، وإن قالوا : « لا » أبطلوا حجة الخصم ، وشفوا أنفسهم من عيظها . . أفنظهم يتورعون . . وذكر القرآن أيضاً أن التوراة بشرت بهذا النبي ، وذكرت بعض صفاته — فقال إنهم يجدونه عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . . الآية

أفبتكون هذا الاسم مكتوباً عندهم في التوراة ؟ وهل يعترفون أن كتابهم بشر حقاً بهذا النى الأمي ؟ أم أن هذه فرصة أخرى لتحريف الكتاب وإخفاء الاسم الكريم ؟ هل يتورع الجبان الدل ، أن يشفي غيظه بهذا التحريف ؟

هذا يا أخى هو القطب الذى دارت عليه أساليب الحرب اليهودية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فإذا استحضرناه في أذهاننا ، كانت معانى القرآن التى سجلته أكثر وضوحاً في قلوبنا ومداركنا ، وذلك مثل قوله تعالى : « وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » « وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ إِنَّا أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ، وَإِن لَّمْ تَوْتَوْهُ فَاحْذَرُوا . . وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ ، فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبَهُمْ ، لَّمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . . « وَإِنَّ مِنْهُمْ

لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » . . « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ » وقالوا في إبطال نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أخذ علينا عهداً في التوراة أن لا نؤمن لرسول إلا إذا جاءنا بقرآن تنزل عليه النار من السماء فتأكله ، ولا نراك جثث به ، فنحن معذرون إذا لم نؤمن بك ، لأن هذا عهد الله ؟ ومن يدرس هذه الحجة الواهية ، يجد فيها ضعف الجبناء الأذلاء ، الذين لا يرون مواجهة خصمهم في شجاعة .

ولو كان ما يقولون حقاً ، لآمنوا قديماً بالرسول التي جاءتهم بهذه القرابين ، فإنهم كفروا بهؤلاء الرسل وقتلوه . . . وقد ألم بهذا المعنى كثير من آيات القرآن الكريم : « الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ — وَبِالْقُرْآنِ الَّذِي قُلْتُمْ — فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ » « أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ — فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ؟ »

لم يكن هذا هو السلاح الوحيد الذي حاربوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن التحريف وكمات الحق ، أقل مظاهر الحقد والغيظ ، ولا يشفي هذه القلوب إلا عمل إيجابي يتصدع به بناء هذا الدين الذي يعظم شأنه ، وتتوالى أنباء نصره فتحرق أكبادهم : « إِنْ تُصِيبْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا » . ولكن هذا العمل الإيجابي ، يجب أن يكون عمل الجبناء الأذلاء ، الذين يحرصون على حياتهم وسلامتهم قبل كل شيء ، فإذا عسى أن يكون هذا العمل ؟ هو الدس بين أنصاره ، ومحاولة تشكيكهم بحركات شيطانية . . ومن أمثلة الدس ، أنهم رأوا جمعاً من الأوس والخزرج يجلسون إخواناً بعضهم مع بعض في مجلس واحد ، يتجاذبون أطراف الحديث في ألفة ومودة ، فعاظهم هذا ، وأرسلوا من اندس بينهم ليذكرهم شيئاً من الحروب التي كانت بين القبيلتين قديماً ، فذكر شيئاً من مفاخر الحرب يوم بعاث ، وأنشد أشعاراً في أمجاد الفريق المنتصر ، فتهلل

لهذا أحد الفريقين ، وثار الفريق الآخر ، وما لبثوا أن قاموا يضرب بعضهم وجوه بعض ، فبلغ الخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسرع إليهم ، وكف بعضهم عن بعض ، وكشف لهم عن مراد اليهودى الدساس ، فندموا وأقبل كل فريق على الآخر ، يصاخفه ويعتذر إليه ، وفي هذا ينزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ » ... ومن أمثلة التشكيك الشيطانية ، أنهم كانوا يبعثون فريقاً منهم فيؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيفرح بهم المسلمون ، ويشيع خبرهم في المدينة ، ثم يعود هؤلاء الذين آمنوا فينظأهرون بأنهم درسوا حال الرسول عن قرب ، ودرسوا طبيعة دينه ، فلم يجدوه هو الرسول الذى تذكره التوراة ، ولم يجدوا قرآنه على شئ . . . وبعد تمثيل هذا الدور الحسيس ، يعلنون فى أسف أنهم مضطرون إلى أن يعودوا إلى دينهم القديم ، ما دام النبي المنتظر لم يبعث بعد . . وبهذا يصدون عن سبيل الله من آمن ، أو من يريد الإيمان ؛ ويتركون كثيرين فى شك وحيرة . . « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ؟ » « وَقَاتِ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ؛ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارَ ، وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

ولجأوا أيضاً إلى الاستمراء والسخرية بشعائر الدين وبما ينزل الله من آيات القرآن ، ليوهمو البسطاء أنه ليس بشئ . . لما نزل قوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ؟ » سخر بعض اليهود وضحك ، وقال إن رب محمد فقير ، ويطلب أن تقرضه ، وأخذ يعلق على هذا المعنى ويسترسل فيه ، ليلقى فى روع الناس ، أن الرب الذى يحتاج إلى القرض ، لا يصح الإيمان به ، وغضب أبوبكر ، وضرب ذلك المتجنى الأثم ، فارتفع الرجل إلى رسول الله يشكو ، فقص عليه أبو بكر ما حدث ، فأنكر الرجل وتبرأ على عادة الأذلاء الأذنياء ، فأنزل الله سبحانه وتعالى فى هذا قوله : « لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ، وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » .

وهزئوا كذلك بالأذان ، وتغيير القبلة ، ونحوها من شعائر الدين : « وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا » « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ : مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا » « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا ، وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ؛ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ » ومثل هذا كثير في القرآن الكريم .

على هذا دار شأن اليهود مع الدين الجديد :

(١) تحريف للكتاب وإنكار لما فيه وكنان له (٢) ودس بين أنصاره وأتباعه وتشكيك لهم (٣) واستهزاء بشعائره وآياته . منبعثين بذلة الجبان الدنيء وغيظ المحقق الحاقد ، وبه تقرب كثيراً من فهم القرآن الكريم فهماً عاطفياً ، لا فهماً منطقياً فقط .

أما موقف النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، فنورد منه ما يأتي :

(١) الجدل البالي هي أحسن « وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » والنفس القوية المؤمنة لا يعقل أبداً أن تنازل الأعداء بسلاحهم . . . ولقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم صابراً على ما ذكرنا من أمرهم ، أخذاً بالتي هي أحسن ، ولو شاء لانتقم منهم لدين الله ، وفي يده من السلطان والقوة المسلحة ما يعينه على هذا ، لكنه ترك أمرهم لله ، وظل على جدالهم بالحسنى والمنطق القوي .

حقاً لقد أجلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم عن المدينة ، وقتل الآخرين ؛ ولكن لم يكن هذا انتقاماً لما حرقوا في الكتاب أو نحوه ، إنما كان لأنهم نقضوا مخالفتهم معه ، وحاول بنوا النضير أن يقتلوه غدراً في إحدى زيارته لهم ، وهموا — فعلاً — بما حفظ الله منه نبيه وذكر قصتهم في سورة الحشر . . . وغدر بنو قريظة في غزوة الخندق ، ودبروا من الحيانة ما لو تم أمره لما بقي مسلم واحد على ظهر الأرض ، ولتغير مجرى التاريخ ، ولكانت الدنيا على غير ما نراه الآن . وقصتهم مفصلة في كتب السيرة ، وقد أورد القرآن طرفاً منها في سورة الأحزاب .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يأخذهم في جدالهم إلا بالتي هي أحسن ، والصفح عما يأتون من جرائم الدلة والدس والحسد : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ

لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .
 (ب) دعوتهم إلى الإيمان بالرسول جميعاً ، وبالكتاب المنزلة كلها ، لأن القرآن جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتب والرسول ؛ وما دام الجميع يدعون إلى الله ، وغايتهم واحدة ، وكتبهم متفقة في القواعد والأصول ، فالإيمان بهم جميعاً واجب ، ونصرة من يحىء من هؤلاء الأنبياء واجبة ، لأنها نصرة لله سبحانه : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا : أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » .

وهذه دعوة خالصة ، إذا وجهت إلى من يدعو إلى الله فرح بها ، ولا يضيق بأهلها ، فالدعاة إلى الله مجاهدون لغاية واحدة ، يفرح بعضهم ببعض وينتصر بعضهم بنصر بعض ، وكما نزلت إلى الميدان طائفة جديدة ، تعمل بعملنا وتدعو بدعوتنا ، ولها شاهد في كتبنا ، وجب أن نفرح بها ، لأنها تعزير لقوتنا . . . أما مناوأتها والتفرغ لخصائنها ، فهو شأن من يعمل لنفسه لا لله . . . ولهذا رأينا اليهود يضيقون ذرعاً برسول الله صلى الله عليه وسلم . . . لقد دعاهم إلى الإيمان بالكتب كلها لا بكتابه فقط ، فأى حرج في هذا ؟ « قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » . لقد ضاقوا بهذه الدعوة السمحة ، ولم يحضرهم إلا كرازة النفس ولؤم الطبع الأثافي : « وَقَالُوا : كُونُوا هُودًا - فقط - أَوْ نَصَارَىٰ - فقط - تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، قُولُوا : ءَامَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

واستمر الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الدعوة العامة يقررها ، ويثبتها في إنسانية سمحة فسيحة ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . . . وهو موقف لا تعلق به ذرة من غبار موقف القوى بإيمانه ، الواثق من وعد ربه .

(ح) تذكيرهم نعم الله عليهم ! وما خصهم به من فضل : « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ... وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، يَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْجِبُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ، وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ ، فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ ... وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى » إلخ وهو أسلوب إذا تقربت به لأعدى أعدائك لان وأسلس ، ولكن الأناني الحاقد الذليل ، لا يرضيه إلا أن يخلو له وحده وجه الأرض .

وكان لا بد من الحملة عليهم ، وتعقب مخازيهم ، وهتك أستارهم وأسرارهم ؛ ولكنها حملة هي غاية في العدل ، فلم تتجاوز تقرير الحقائق ، وبيان ما ارتكبوا من جرائم التحريف والتغيير ، وذكر ما لأسلافهم في الماضي من مواقف مع الأنبياء ، ابتداء من موسى إلى عيسى عليهم صلوات الله وسلامه ، وما كان لهم من خلاف وتعنت وجحود بآيات الله ؛ وقتل بعض هؤلاء الأنبياء وتكذيب بعض ... يسرد ذلك كله حتى لا يخدع الناس بهم . ويعرفوا أن موقفهم اليوم من القرآن إن هو إلا حلقة من سلسلة ماضيهم الطويل ، وعادة يجرون فيها مع ميراث قديم . وهو في كل هذا لا يتجاوز ما هو مكتوب عندهم في التوراة .

وإنك لتبين عدالة هذه الحملة ، حين ترى الإسلام في تقريره للوقائع يذكر ما لهم وما عليهم ؛ فيقول عن أصولهم وأجدادهم « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِصْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ » . ويقول فيهم : « وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » ولكنه مع هذا يقرر أنه مسح بعض هؤلاء القدامى ، فجعل منهم القردة والخنازير ، بما فسقوا عن أمره ... ويعدل معهم في حاضرهم فيقول : « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَٰئِكَ نَبْشِطُ لَهُمْ الْجَنَّةَ وَأُولَٰئِكَ مِنْ الصَّالِحِينَ ... مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلوك هذه الخطة العادلة ، يطمع أن يؤمن هؤلاء به ، فقطع الله له كل طمع فيهم وقال له : « ولئن رضيت عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .

« ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك » ، « أفنتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون ؟ »

وبعد : فيمكن تتبع أخبار الجبهة التي نازل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود في سور القرآن المدني ، ولا سيما البقرة وآل عمران والمائدة ؛ ولعل ما مضى يرسم لنا خطوطاً أولية ، لسير هذه المعركة ، تساعدنا على قوة فهم ما جاء عنها في القرآن الكريم ، لا فهم الباحث فقط ، بل فهم الداعية ، الذي يريد أن يصل عواطفه بقبض الحوادث في كتاب الله كذلك ، وأشير دائماً بأن يكون تفسير ابن كثير بجانبك فإنه بعد معرفة هذه الخطوط الأولية ، يساعدك على أن تعيش في جو هذه المعركة ، كأنك تراها أو تسمعها ، ولهذا أثره العظيم في إبلاغ روح القرآن إلى قلب قارئه ، وفي أن يشهد الداعية ألواناً من المنازلة والمصالاة ينفع بها في دعوته .

جبهة المنافقين

لما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة ، كان أهلها على أهبة الندادة بعبد الله بن أبي مسكاه عليهم ، فتغير مجرى الحوادث على غير ما يهوى هذا الرجل فأقام مدة وحوله جماعة من أنصاره وأصدقائه يقبلون الأمور ويتبعون الفتن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أعز جنده ، وأعلى كلمته ، فأقبل بعضهم على بعض يوم بدر ، وقالوا : هذا أمر قد توجه . . . ورأوا الناس يدخلون في دين الله ، ويقبلون على رسوله بالسمع والطاعة والمحبة ، فسكرهوا أن يظلموا وحدهم ، فدخلوا في الإسلام ظاهراً ، وبقيت قلوبهم على ججودها وغيظها . . . فكانوا يقومون بمهمة « الطابور الخامس » لليهود ولغير اليهود من أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأعلم الله رسوله نبأ هؤلاء المنافقين ، بصفة عامة لا خاصة ، ليأخذ حذره ، فقال : « وَيَمِّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّعَاقِ ، لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ » ثم زاده معرفة بهم فقال : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرَجَ — يظهر — اللهُ أَضْعَافَهُمْ ، وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْيَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَيِّئِهِمْ ، وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ .

وقد عرفنا موقف المشركين بمكة ، واليهود بالمدينة ، ثم موقف هؤلاء ؛ ولا شك أنهم أحقر الثلاثة ، وأخسهم نفساً وألأمهم طبعاً ؛ فليس كالتفاق آفة تخلق المروءة والرجولة ، ولهذا يقول الله تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا » . وتتلخص أساليب هذه الحرب السرية في الأنواع الآتية :

(١) إضعاف شأن المسلمين في الحروب ، وهؤلاء المنافقون أفدر من غيرهم على القيام بهذه المهمة ، فقد دخلوا في الإسلام ، وأظهروا الإخلاص لنيبهم ، وأتقنوا دورهم ، حتى أن عمر نفسه لم يكن يعرف عن أكثرهم إلا الصلاح والورع ؛ فكان هؤلاء « الصلحاء الأكابر » يبعدون عن الخروج للقتال . أو يستأذنون في القعود ؛ فإذا رآهم من هو أقل منهم من العامة ، اقتدى بهم وأدركه شيء من الفتور والتشاغل . وكانوا كذلك يشيرون على غيرهم بالقعود معهم ، فيقعد من يقعد ، ويخرج إلى القتال من يخرج مخالفاً مشورتهم . فإذا قتل . قالوا : « لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا . قُلْ فَأَدْرَأُوْا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

وكان بعض هؤلاء المنافقين يخرج ولكه يعود من الطريق ، ويقول : والله ما ندرى علام تقتل أنفسنا ؟ فإذا رجع رجع معه طائفة كبيرة من الجيش ؛ كما حصل يوم أحد . . . فإذا خرجوا ولم يرجعوا من الطريق سعوا بالفتنة ، وبشوا روح التخاذل في الجيش ؛ كما حصل في غزوة تبوك : إذ قال بعضهم : « يظن هذا — يعني رسول الله — أنه يفتح قصور الروم وحصونها هيهات هيهات ! » ويقول آخر : اتعصبون جلاله بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لسكانا بكم غدا مقرنين في الحبال ! « وصدق الله العظيم » لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ، وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ — مشوا بالفساد — يَبْغُوا نَفْسَكُمْ الْفِتْنَةَ » .

(ب) كانوا ينهزون كل فرصة سانحة للوقعة بين المسلمين وإثارة الفتن في صفوفهم . في غزوة بنى المصطلق تدافع غلامان على الماء ، أحدهما لرجل من المهاجرين والآخر لرجل من الأنصار . . . فصاح المهاجري : يا للمهاجرين ! وصاح الأنصاري : بالأنصار ! . وسمعا عبد الله بن أبي رأس المنافقين ، فلم يتركها تمر دون أن يستغلها

في الواقعة التي يريد ، فقال : قد ثاورونا في بلادنا ، والله ما مثلنا وجلايب قريش هذه ، إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . . . ثم أقبل على من في مجلسه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتوهم أموالكم ؛ أما والله لو كففتهم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها . . . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وأرادها الرجل فتنة بين المهاجرين والأنصار ، ولكن الله أحبط كيده وحفظ جنده من التفرقة .

(ج) محاولة الغض من جلال الرسالة بالاستهزاء برجالها ، واختراع الأراجيف في حقهم ؛ فهذا عبد الله بن أبي يخترع حديث الإفك ويتولى كبره ؛ وهو ضربة موجّهة للإسلام بطريق غير مباشر . . . فإن شك الناس في عرض عائشة وعرض أبيها وأسرته ، وشكهم في النبي الذي كان في زعمهم معاشر امرأة زانية — هذا الشك من شأنه أن يضعف الحماسة لرسول الله وزعماء الإسلام ؛ وقد تفاقم خطب هذا الحديث ، وأفاض فيه كثير من المسلمين ، وكاد يتحول إلى كارثة إسلامية ، بتنازع الأوس والخزرج ، لولا حكمة رسول الله الذي أسرع ختم الشر . . .

وكانوا يتقصون أتقياء المؤمنين في سخرية وتهكم ؛ قال رجل منهم في جماعة من صلحاء القراء : ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوننا ، وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء ! فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا ، غضب وجاء الرجل يعتذر ويقول : إنما كنا نخوض ونلعب .

وقالوا عن النبي : إنه أذن ، كما قال له أحد شيئا صدقه ، فإذا قيل له صدقه صدقه أيضاً .

وكانوا يهزون بالمطوعين من المؤمنين في الصدقات ، فمن أعطى جزئلا رموه بالرياء ، ومن أعطى قليلا لأنه لا يجِد إلا جهده ، سخرُوا منه . . . كل هذا وهم معدودون من المسلمين ، لا يستطيع أحد أن ينكر عليهم إسلامهم ، لأنهم يقولون بألسنتهم : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتحت ستار هذه الشهادة يأتون ما يأتون من الجرائم ، فإذا سئلوا اعتذروا ، أو أنكروا وأقسموا .

(د) تدبير الاتصالات السرية باليهود ، والمشرّكين ، والنصارى ، للإيقاع برسول الله والمسلمين ، وأنباء هذه الاتصالات ، مذكورة في كتب السير والتفاسير ، ونذكر منها على سبيل المثال ما كان من منافق رهط أبي عامر الراهب ؛ فقد سافر هذا الرجل ، إلى ملك الروم ، يستنصره على النبي ، فوعده ومناه وأقام عنده وكتب

إلى جماعته من أهل النفاق ، يعدمهم ويمنهم أنه سيقدم عليهم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويغلبه ، ويرده عما هو فيه ؛ وأمرهم أن يتخذوا له معقلا منعزلا ، ليستقبلوا فيه رسله وكتبه ، وليكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فبنوا لهذا الغرض مسجداً سمي فيما بعد مسجد الضرار . وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : « وَالَّذِينَ أَخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ، وَكُفْرًا ، وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى . وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » .

أما موقف النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الفئة فهو موقف لا يقفه غيره عليه السلام .

(أ) كان يترك إلى الله سرائرهم ، ويعاملهم بما يبدو من ظواهرهم . جاء منافق ليتوب من نفاقه ، فقال : « يارسول الله : الإيمان على لساني ، والنفاق في قلبي ، ولا أذكر الله إلا قليلا ، فقال عليه السلام : اللهم اجعل له لساناً ذا كرا ، وقلبا شاكراً ، وارزقه حبي وحب من يحبني ، وصبر أمره إلى خير ! . فقال الرجل : يارسول الله ، إنه كان لي أصحاب من المنافقين ، وكنت رأساً فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ فقال عليه السلام : من أتانا استغفرنا له ، ومن أصر فآله أولى به ، ولا تخرقن على أحد سترا » .

(ب) كان يشفق عليهم من إثم ما يجرمون ، فإذا أنباء الله من أمرهم شيئاً استدعى أحد أصحابه وقال له : « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا » كما حدث في غزوة تبوك لما حاولوا إرهاب المسلمين من الروم .

(ح) كان يشعرهم أن إغضاه عنهم هو إغضاء الكريم الذي القطن ، لا إغضاء الغفلة والبلادة ؛ فكان أحياناً يغمزهم بما يكاد يكشف أمرهم . . . فكلامهم غير كلام المؤمنين الصرخاء : « فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيَاهُمْ وَلَتَعَرَّفَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » وأحوالهم غير أحوال المؤمنين المطيعين : « وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً » ولكنهم لم يعدوا شيئاً كما أعد غيرهم ، فكان من علامة المنافقين عدم اهتمامهم بالاستعداد للقتال ، اكتفاء بعذر كاذب يعتذرون به للرسول صلى الله عليه وسلم . . . بل كان الاعتذار نفسه من جملة صفاتهم المعيزة لهم : « إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ » الآية .

(٥) وصف مام عليه من الجبن . وتفاهة القدر : « وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّوْلِ مِنْهُمْ ، وَقَالُوا : ذَرْنَا نَسْكُنَ مَعَ الْفَاعِدِينَ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ — أَى النساء — فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ، وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأُولَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ » وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَمْهُمْ خُسْبٌ مُسْنَدَةٌ .

وكل منصف يرى أن اكتفاء القرآن بوصف حقيقتهم هو أعدل المواقف ؛ ولك أن تقدر ما كان محل بهؤلاء الخونة المستترين ، لو أنهم كانوا في دعوة من الدعوات الحديثة ، لترى الساحة التي قوبلت بها جرائم هؤلاء .

فطبيعة الموقف في هذه الجهة ، أن المنافقين كانوا يجهدون لإضعاف الروح المعنوية في الجيش الإسلامى ، ويعملون لشق جماعتهم ، ويحاولون الغض من جلال الرسالة ليهون شأنها في قلوب الناس ، ويتصلون سرّاً بأعداء الإسلام في الداخل والخارج للقضاء عليه ؛ أما الرسول صلى الله عليه وسلم فكان يقبل منهم ظاهر أمرهم ويترك إلى الله سرهم ... وبشفق عليهم من إثم مام فيه ... ويكتفى بأن يشعرهم بفظنته التي لا يروج لديها نفاقهم ... ولا يوقع بهم من الأذى أكثر من وصف مجموعتهم بالجبن وتفاهة القدر ، دون أن يعرض لأشخاصهم بشئ .

ولعل في هذا التلخيص ، ما يعين الداعية على فهم ما ورد في القرآن الكريم خاصة بهذه الناحية ، وهو — طبعاً — في السور المدنية . ولا سيما في صدر سورة البقرة ، وسور : النساء ، والتوبة ، ومحمد ، والمنافقين ...

جبهة المشركين :

وهى هنا جلاّد بالسيف ، ومعارك تراق فيها السماء . . غير أن القرآن لا ينحو في تسجيلها نحو المؤرخين ، ولا يسرد أبنائها سرد المراسلين الحربيين في ميادين القتال ، ولكنه نمط عجيب يعرض عليك من حوادث الأبطال ، وكلسات الرجال ، ماهو جدير بالخلود والتسجيل ؛ نمط يريك الروح المعنوية للمقاتل المسلم ، أعظم ما تكون الروح المعنوية قوة ، وأبقى ماتكون طهرأ ، وأصفى ماتكون إشراقا .

على أن هذا النمط ينفرد بلون من الإعجاز ، إذ يثبت في ثنايا الحوادث والمقاتلات ، قوانين الحرب ، وأحكام القتال ، وآداب الجهاد ... فتقرأ حين تقرأ دروساً في البطولات القوية المثيرة ، دون أن تشعر بما اعتاد الناس أن يشعروا به حين قراءة القوانين من الملل والركود ، فهي بطولية مؤسسة على القانون ، وقانون يعرض نفسه عليك في أنباء البطولة ؛ فإن قلت : إن سر القانون لبس القوم فكانوا أبطالاً ، فأنت صادق ؛ وإن قلت : إن القوم صاغوا بأعمالهم صوراً حية لهذه القوانين ، فأنت كذلك صادق .. والقرآن الكريم ، إنما يرمى إلى كلا العنيتين : يشيد بفضل القوانين ، ليبعث بالهمم إليها ، ويشيد بأعمال المؤمنين ، لتسكون منوالاً لمن ينسج عليها .

ولسنا بصدد إيراد كل ماجاء في القرآن عن قوانين الحرب وآداب القتال ، وإنما بصدد تحليل لون من ألوان جهاده صلى الله عليه وسلم بالمدينة ؛ والمقام يقتضينا الاختصار على ما يبين لنا طبيعة الموقف في هذه الجبهة الثالثة من جبهات جهاده صلى الله عليه وسلم .

١ — والمادة الأولى من هذا القانون ، توجب أن يكون القتال في سبيل الله ، وقد قرأ المسلمون هذه المادة وفهموها ، ورعوها حق رعايتها ، لأن قلوبهم استوعبتها ، وآمنت بها حق الإيمان ، ونحن نكتفي بأنواع ثلاثة من أغراض القتال في سبيل الله .

الأول : لنشر العقيدة الإسلامية ، إذ يقول الله تعالى : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ » .

الثاني : لتحرير الأوطان ، وتخليص أهلها المستضعفين من ذل السيطرة الأجنبية ، والله تعالى يقول : « وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، واجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، واجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا » ..

الثالث : تأديب الغادرين الذين نكشوا أيمانهم ونقضوا عقودهم ، وهذا قول الله سبحانه : « أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَشُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » . وقد نزل هذا القرآن الكريم في مشركي قريش لما نقضوا عهد الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ — والمادة الثانية من هذا القانون المبارك ، توجب على المقاتل أن لا ينتظر أجراً على قتاله إلا من الله سبحانه ، وذلك قوله تعالى : « فَيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ » أما الذين يشرون الحياة الآخرة بالدنيا فليسوا من أهل هذا القانون .

وجزاء الله مكفول لا محالة في الدنيا لمن كتب لهم النصر والغلبة ، وفي الآخرة لجميع المقاتلين : « وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » « قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ؟ » .

والحسينان هنا هما : النصر في الدنيا ، وأجر الشهادة إذا كان القتل . . . وأحب بهذه المناسبة أن أنبه إلى خطأ يقع فيه بعضهم بحسن نية ، ذلك أنه يجعل إحدى الحسينين مغنم القتال عند النصر ، والأخرى أجر الشهادة . . . ووجه الخطأ أن المقاتل المسلم إنما يبغي وجه الله لا وجه غرض من أغراض الدنيا ، وهذا المقصد السامي الجليل ، يجب أن نزرعه عن أن يتعلق به أغراض رخيصة كهذه ، . . . هذا إلى أن جعل مغنم القتال إحدى الحسينين في مقابل أجر الشهادة في الآخرة ، مما لا يسيغه أهل الفقه المستنير ، فأين هذه المغنم اليسيرة مما أعد الله للشهداء من جزاء لا يحيط به وصف الواصفين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ » فانظر ماذا تقع هذه المغنم من متاع الدنيا القليل ، ثم انظر ماذا تقع من أجر الشهادة الضخم الجزيل . . . وسلك نفسك بعد هذا هل تطمئن إلى أن تكون هذه المغنم في ميزان الله إحدى الحسينين مقابل أجر الشهداء ؟ .

إن الذي يطمئن إليه ضمير المؤمن ، أن تكون عزة النصر هي إحدى هاتين الحسينين ، وهو الذي يسير قول الله تعالى : « وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » . . فهل يسمى الله مغنم الحرب أجراً عظيماً ، وهو الذي يقول عن متاع الدنيا كلها : إنه قليل ؟ وبعد فما كان المؤمنون عبيد درهم ولا دينار ، وهم يحملون سيوفهم بأيديهم وقلوبهم في صدورهم ، لا تهتف إلا بالله ولا تنتظر إلا لثوابه . . فإذا وقع أخيراً بين أيديهم شيء من الأسلاب والغنائم ، فهو شيء قد أحله الله لهم ، ولكنه لا يمكن أن ينزل في قلوبهم منزلة الفرح بنصر الله سبحانه .

٣ — والمادة الثالثة من جريدة هذه الآداب تنص على أن مصدر القوة والتأييد الذي يلقاه المسلمون في قتالهم ، هو الله سبحانه وتعالى ، فليس لمخلوق قوة ذاتية ، إلا

فهذا وحده مفتاح نصر الله ، وهو وحده السر الذي تحرك به جنود الله ، في السماء والأرض .

واعلم أن هناك كثيرا من آيات القرآن تدور حول هذه القوانين ، وتتصل بها من قريب أو بعيد ، فتشرحها شرحا مستفيضا . . فإذا كان هناك من يظن أنى أملت بالشرح الوافي لكل مادة ، فليحذر هذا . . فإنما هي موجزات مضغوطة ، لو أردنا أن نسرد كل الآيات التي تشير إليها لامتد بنا القول . . . فتنبه لهذا ، والله معك .

وأعود أخيرا . فأقرر أن القرآن الكريم في هذه الناحية لا يسرد أخبار الجيوش وحركات الجند ، وإنما يقرر هذه القوانين ونحوها ، يذكر من أقوال المجاهدين ، وأعمالهم ما هو تطبيق لها ، وتفسير عملي لأسرارها ، وتجريب واقعي لصحة موعودها ، فلا بد من استحضار هذا كله في الذهن ، عندما نقرأ أثناء هذا اللون الدامي من ألوان الجهاد في سبيل الله ، فإن الآية حينئذ تفصح لنا عن مكنونها ، بأكثر مما كانت تفصح من قبل . . .

واقراً على هذا من الآن غزوات : بدر ، وبنى النضير ، وأحد ، والحنديق ، وبنى قريظة ، والحديبية ، وحنين ، وتبوك ، في سور آل عمران ، والأنفال ، والتوبة ، والأحزاب ، والفتح ، والحشر ، وكها مدينة ؛ فإنك واجد إن شاء الله ما حدثناك به ، على أن تجعله مصباحاً تهتدى به في رسالتك وجهادك . . .

أسس المجتمع في القرآن

ثالثا . يجب أن نقرأ القرآن على أنه يرمي إلى بناء مجتمع فاضل ، أو مجتمع نموذجي كامل ، وعلمنا أن نلتبس مواد هذا البناء في آياته البينات على النحو الآتي :

- ١ — ما هي التعاليم التي سنّها القرآن للفرد ، لجعله عضوا سليما نافعا في هذا المجتمع؟
- ٢ — ما هي المبادئ الاجتماعية ، والاعتبارات العاطفية ، التي قررها للمجاعات ليكونوا متعاونين على البر والتقوى؟
- ٣ — ما هي القواعد التي شرعها لنظام الدولة العام ، ليتربى في ظلها خير أمة أخرجت للناس؟

ولتسهيل البحث ، نذكر أن كل ما جاء عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفضائل النفس الذاتية ، إنما هو خاص بإعداد الفرد ؛ فليكن بتسريح طرفك فيه ، طرفك القلبي لا العادي وحده ، فسترى أن القرآن جاء بالممتع المشبع ،

الذى يبنى كيان الشخص أفضل البناء وأقواه ، وسترى أنه أفاض في هذا الباب ، وأحاط بكل جزئياته وتفصيله ، بما لا يرد على البال ؛ وجبذا لو جمعت لنفسك طائفة مختارة من هذا الباب ، تكون مرتبة حاضرة على لسانك عند الاستشهاد .

وفي دستور الجماعات المتعاونة ، جاء نظام الطبقات ، وإقرار الفروق المادية ، وكفالة الحقوق الإنسانية ، في ظل الإخاء العام ، الإخاء الحقيقي لا النظرى ... جاء حق الفقير في مال الغنى ، والنص على أن المال مال الله سبحانه وتعالى ، ونحو هذا مما تيسر به الأزمات النفسية ، ويسهل به امتزاج العواطف ، وتوافر الحب بين الجماعة ، فليك باستقصاء هذا النوع من اللبائى ، فى القرآن ، مع الاهتمام بمعرفة موقع كل مبدأ فى بناء الجماعة على الحب والإخاء .

وفى نظام الدولة : واجب الرئيس الأعلى فى أصلين كبيرين : (١) العدل فى الحكم (٢) ورعاية ما ائتمن عليه من حقوق الناس المختلفة : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » .

وقرر واجب الأفراد فى أصلين كبيرين أيضا : (١) الطاعة المطلقة ، إلا فى معصية الله (٢) والارتفاع إليه بمنازعاتهم التى يعجزون عن حلها بالوسائل السليمة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

هذا إلى التشريعات الخاصة بحماية النفس ، والعرض ، والملكيات ، وتقرير قواعد المعاملات فى البيع والشراء ، والدين ، والرهن ، والإجارة ، والميراث ونحوها ؛ والنص على أصول السياسة الخارجية للدولة ، من حيث الحرب والسلم والمعاهدات ، والتصريح بأسباب ضعف الدولة ، وقوتها ، بما ليس وراءه زيادة لمستريد .

فإذا نحن قرأنا القرآن ، وليس فى أذهاننا هذا الاعتبار ، بدا لنا كأنه مصمت مغلق ، كأنما نسير فى مدينة غريبة مجهولة التخطيط .. ولسنا إذا راعينا هذا الاعتبار بدقة وبقظة ، انكشف لأبصارنا وبصائرنا حقائق جميلة ، ما كانت تخطر بالبال .

القرآن وقوانين الوجود :

رابعاً : وعلينا أن نقرأه على أنه جامع القوانين التي يدار بها هذا الوجود ؛ فإن كل شيء عنده سبحانه بمقدار ، وكل أمر يجري على سنة وقانون ، فمن هدى إلى هذه السنن والقوانين ، وصدقها وآمن بها ، وأحسن توجيهها والاتفاع بها ، فقد انحازت إليه مفاتيح هذا الوجود ، فلينظر كيف يتصرف فيه .
وإليك بعض هذه القوانين على سبيل التمثيل :

١ — الاستغفار مفتاح آرزاق السماء ؛ ولا تحسبن أنا نقصد الأرزاق المعنوية القلبية فحسب ، بل هو قانون الأرزاق المادية أيضاً .. ولا نحب أن نتركك إلى حدسك وتخمينك ، فاقراً معنا قوله تعالى : « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً » .

وقد ابتلينا في العصر الحديث بالغفلة والشك ، وزهبننا نظن أن هذا الكلام ومثله إنما أريد به مجرد الترغيب والترهيب ، لأنه حقيقة واقعة ، وقانون صادق ؛ ابتلينا بهذا خسرنا كل شيء ... وقد كان سلفنا الصالح يفتنون إليها ، ويوقنون بخيرها ، ويستفتحون أبواب السماء بسرهما ، فيسعنهم الله بما يريدون .
رووا أن السماء أمسكت ، والأرض أجذبت ، على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فخرج مع الناس ليستسقي لهم ، أي يدعو الله أن يمطرهم ، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذه الشدائد ، فاستغفر عمر ربه هنيهة ، ثم عاد بالناس ، فقالوا له :

— ما نراك استسقيت لنا .

— قال : لقد استسقيت لكم بمجاديع السماء .

— قالوا : وما مجاديع السماء ؟

— قال : الاستغفار .

وكانهم حاروا في أمرهم : أيقول هذا من عنده . أم هو شيء في كتاب الله ؟ فقال لهم : حيث يقول الله سبحانه : « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً » . وها قد استغفرت لكم ، وسيرسل الله السماء عليكم بما يشاء ... قالوا : فما أتم عمر كلامه ، حتى أهتز الأفق ، وبدأت الرياح تشور ،

وأقبلت السحب تترى ، حتى انعقد في سماء المدينة ظلة من الغمام ، وأنجز الله موعوده :
 « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا » .

٢ — حصن النعم أن تقول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله » ... وهو قانون كريم ، وتعليم صادق حكيم ، أجراه الله في سورة الكهف على لسان الرجل المؤمن ، حين قال لصاحبه وهو يحاوره : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ! » ... وكما قرأنا نحن هذا القول ، دون أن نلتفت إلى ما فيه من الخير ، حتى أوقفنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « ما أُنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد ، فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة ، دون الموت » .

ولهذا كان بعض السلف يقول : من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده ، فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وهو قول مأخوذ من الآية الكريمة ، ويستند إلى الحديث الشريف .

٣ — كل عمل سوء يرتد على صاحبه ، فيوبقه : هذا قانون لا يتخلف من قوانين الله . فنية الشر تلد في كل عمل روحا شريرة ، تسكن فيه كالوحش ، ترتقب الوقت المناسب لتثب فيه على صاحبها . واقرأ معنى قول الله تعالى « إِنَّمَا بِغَيِّكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » وقوله سبحانه : « وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » وقوله : « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ » . قال محمد بن كعب القرظي : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزلن به : السكر ، والبغى ، والنكث ؛ وتصديقها في كتاب الله تعالى : « ولا يحق المكر » إلخ إلخ . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصور لنا شدة إلحاح الشر في طلب صاحبه بقوله : « إياك ومكر السيئ ، فإنه لا يحق المكر السيئ إلا بأهله » ولهم من الله طالب ! « بل إن الله عز شأنه يبين لنا بصريح العبارة أن هذا قانون من قوانينه ، فيقول عز شأنه : « وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ؟ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا » .

٤ — إن كل هدف يسعى إليه المرء باسم الله ، فهو مدركه لا محالة . ومن السهل على الإنسان أن يصدق هذا بعقله ، ولكن ليس من السهل أن يحيط به قلبه ، لأنه من حقائق اليقين ، التي لا يلزم بها إلا ذوو القلوب .

ولقد قلنا في غير موضع : إن شأن القلوب فيما تفقه ، هو التسليم المطلق بما فقهته ، تسليماً غير مقيد بعلّة أو برهان .

أما شأن العقول ، فإنها لا تقبل شيئاً إلا بعمران المنطق القائم على الأسباب والمسببات ، والعلل والمعلولات ، والأقيسة والمفهومات ، وما إلى هذا من قوانين التفكير .

فإذا انبعث المرء بحقائق فكره ، انبعث وهو يقدر لرجله قبل الخطو موضعها . وإذا انبعث بحقائق قلبه ، مضى على قانون التسليم المطلق ، كأن ما انبعث إليه حقيقة واقعة .

وليس من قصدنا هنا أن نشرح حقيقة الفهم العقلي والقلبي ، وإن كنا نحسن أن هذا من الضرورات التي لا غنى لأحد عنها ، فإن في القرآن والسنة مدركات تبدو كأنها وهم إذا نظرنا إليها بالعقل وحده ؛ فنكتفي بما قررناه ، مؤكدين أن الإنسان في أشد الحاجة إلى كلا النوعين من الفهم ، على أن يحسن الانتفاع بكل منهما في مقامه .

رووا أن المسلمين جاءوا مصر لفتحها ، واجتمع أولو الأمر فيها ، وطلبوا إلى قائد الحملة أن يرسل إليهم رسولا ، يفاوضهم ويفاضونه .. وكان مما جرى في مفاوضاتهم أن حاولوا توهين عزيمته ، وإلقاء اليأس في قلبه من فتح البلاد ، فما كان منه إلا أن أجابهم بكل بساطة : ياهؤلاء ، إننا لسنا بصدد فتح البلاد ، فإن الله قد فتحها لنا منذ أن قطعنا إليكم من الأودية ما قطعنا ، فهو سبحانه يقول : « وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ »

ونحن نترك لك أن تتأمل هذا الاستخراج الجليل ، والفقہ الدقيق ، واليقين الصادق ، الذي من الله به على هؤلاء المؤمنين .

٥ — والله سبحانه يقول : « وهو يتولى الصالحين » . فكون الله تعالى يتولى الصالحين ، قانون نافذ ، وقول صادق ، فليعلم هذا كل من يحب أن يدخل في الرعاية التي لا يرام حماها ، وكل ما عليه أن يأخذ بأسباب الصلاح ، حتى تجرى عليه أحكام هذا القانون الكريم .

وقد يموت الرجل الصالح ، وله ذرية ضعفاء ، فتمتد رعاية الله إليهم ، توسعاً منه سبحانه في عموم رحمته ، ولأن رعايتهم رعاية لأبيهم ، لما فيها من تطيب قلبه ، وتسكين خواطره ؛ وأنت تقرأ تصديق هذا الكلام في سورة الكهف إذ يقول سبحانه : « وأما الجدار فكان لفلان فلانين يتييمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما ، رحمة من ربك ؛ وما فعلته عن أمري » .

فإنه سبحانه قد سخر الخضر عليه السلام لإصلاح الجدار، إبقاء على ثروة الغلامين اليتيمين، وإنفاذاً لمشيئته في رعاية أبيهم الصالح بعد مماته .

وقد قرأنا استخراجاً لطيفاً من هذه القصة ، لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أجذبت الأرض على أيامه ، وشكا إليه الناس ما يلقون من شدة ، وكان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً ، فأخذه بيده وخرج ليستسقي للناس ، فقال في معنى استسقاؤه : اللهم إن نبيك كان يستسقيك لأمته فتجيبه وهانحن أولاء اليوم ، وليس من يستسقي لنا ! اللهم وهذا العباس عم نبيك ، وبقية أهله ، فاحفظ نبيك الصالح في هذه البقية ، فإنك قلت وقولك الحق : « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا » ، فما لبثت السماء أن أقبلت عليهم بالمطر الغزير .

ولعل فيما أسلفنا من هذه الأمثلة ، ما يغنينا عن الاسترسال في الاستشهاد ، ويقف بنا على حقيقة المراد .

ومع أن من السهل أن يلغى الإنسان إلى هذه القوانين في القرآن ، ويستخرج منها ما يهديه الله إليه ، فإننا نذكر هذه التوجيهات البسيطة تيسيراً لمهمته :

١ — يستطيع كل قارئ أن يجد الكثير من هذه القوانين ، في صيغ المبتدأ والخبر — وما هو في حكم المبتدأ — كقوله تعالى : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، لَنَبُوَّاهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » ، « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » ... فعليك بملاحظة أمثال هذه الصيغ فإن فيها الشيء الكثير .

٢ — وفي صيغ الأمر وجوابه ، يسوق الله طائفة كبيرة منها : « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا » ، « قَاتِلُوهُمْ ، يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ » .

٣ — وفي صيغ الشرط وجوابه يطالعك الكثير من سنن الله في حزم وقوة : « إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ » ، « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا » ، « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » ، « إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ »

يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا» ، « وَلَوْ^(١) أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » ، « فَأَمَّا^(٢) الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَمُكِّتُهُ فِي الْأَرْضِ » .

٤ — وتستطيع أن ترى في صيغ الحصر والقصر ، قوانين في غاية الظهور والجلال : « لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا » ، « وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُرِيَّ نُورَهُ » ، « وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ » ، « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » .

٥ — كل جملة تفيد ترتيب الجزاء على عمل سابق : « نَسُوا اللَّهَ ، فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ » ، « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » ، « فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ، فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

ليس على المرء بعد هذا ، إلا أن يعنى عناية جديدة بالتنقيب عن هذه القوانين ، فهى سنن الله الباقية النافذة ... وليست هذه الصيغ التى أشرنا إليها كل شئ فى موضوعنا هذا ، فإن كل حكم يمكن استخلاصه من آية من الآيات يعتبر قانوناً من هذه القوانين ... والمدار كله على النظر ، بل كيفية النظر فى هذه السنن ، المدار على الاهتمام القلبى ، والحرص الذى يشغفك بها كما شغف الذين من قبلنا ... اقرأ القرآن على هذا الاعتبار ، تنفسح فى نفسك له آفاق وآفاق ...

القرآن خزائن المعانى وجامع المعارف :

خامساً — والقرآن ، كلام الله سبحانه ، وخزانة معانيه ، وجامع علومه ومعارفه .. وهذه ناحية لا يدرك الناس غورها ، ولا يفقهونها حق فقهها ، بل ولا بعض فقهها . فإذا افرق أهل الأذواق الأدبية فى نقد كلام البشر ، إلى قائل يدعى أن جودة الكلام راجعة إلى اللفظ دون المعنى ... وإلى آخر يمارى بأن المعنى هو كل شئ ، وما اللفظ إلا وعاء له ، وأن العبرة بلباب الشئ لا بظواهره .. إذا افرق الأدباء

(١) لو هنا من حروف الشرط .

(٢) أما من أدوات الشرط كذلك .

إلى هذا وغيره ، فإن مما لاشك فيه أن الكتاب يتفاوتون بتفاوت ملكاتهم وخصوبتها في إنتاج المعاني القيمة ... وأن كلامهم بعد هذا يتدرج في أقدار الشرف ، بحسب ما يتضمن من هذه المعاني كيفاً ومكماً .

إذا سلمنا بهذا ، دعوناك يا أخى إلى تصور الفروق الهائلة بين البشر وبين الحق تبارك وتعالى — إن صح أن يكون هناك فرق بين مخلوق يكاد يكون لا شيء ، وبين خالق عظيم جليل هو كل شيء في كل شيء — ولكننا نضطر إلى محاولة تصور هذه الفروق ، لترتب عليها إدراك شيء من الفروق الهائلة بين ما يصنعه البشر العاجز الضعيف كلامه ، وبين ما جاءنا في كلام الله القديم ، من معانيه القديمة ، ومعارفه التي لا يحيط بها حصر ، ولا يدرك لها غور .

نريد أن نقرأ القرآن الكريم ، وننحن مستحضرون هذا الشعور ، أو هذه الفروق ، في مشاعرنا ومداركنا ، فإن هذا يجعلنا نتوقع أن تشف لنا كل كلمة ، بل كل حرف ، عن محيطات من المعاني لا ساحل لها ؛ ونحن لا نقول هذا بروح المتعصب الإسلامى . . . ولكن بروح الإنسان الذى تمثل — على قدر ما يستطيع — ما هنالك من فروق هائلة بين البشر وبين الله سبحانه ، فلم يجد ما يعبر به عن مراده إلا هذا القول الصادق ، البالغ غاية الصدق .

إن الله سبحانه ساق كلامه في قدر محدود ، من صفحات المصحف الشريف ، وسور مقدرة معلومة ، هي سور القرآن الكريم ؛ وقد استطاع العلماء أن يعددوا آيات القرآن ، ويعدوا كلماته ، بل أن يعددوا حروفه . . . فهي إذن حروف معدودة ، تحوى معاني كلام الله القديم كلها . . فكيف نتصور احتواء هذه الحروف على علوم الله سبحانه ، إن لم يكن في كل حرف إشارات إلى آفاق وأعماق ؟

إن كاتباً من الكتاب يستطيع أن ينتج في إنتاجه الأدبي ، من الحروف عدداً يساوى حروف القرآن ، أو أكثر

فإذا جمعت كل ما أنتج جيل كامل من الكتاب ، وأحصيت حروفه ، وحاولت أن تستخلص ما في هذه الحروف من المعاني ، ثم حاولت أن تقارن هذه المعاني ، بما جاء في كتاب الله ؛ لأدركك الحياء ، وأعرضت عن المضي في هذه المقارنة ، تنزيها لعقلك أن يستمر في شيء غير معقول . . . فإذا جمعت كل ما أنتج كتاب البشرية وفلاسفتها ، في كل أجيالها وعصورها ، وتسنى لك إحصاء حروفه ، واستخلاص معانيه ، ثم حاولت أن تقارن بينها وبين كلام الله ، لرفض فقهك ويقينك بالله أن يلتفت إلى هذه الحماقة ، ولدوى صوت الوحي في أعماق قلبك يخاطب هذه الأجيال البشرية في شخصك :

« وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » . . « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ،
يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » .

ولمضى الوحي الكريم يتكلم عن الطرف الآخر في المقارنة ، وهو علم الله سبحانه :
« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ
رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » . . « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ
وَالْبَحْرُ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

فإذا أنت حاولت أن تجمع علم البشرية كلها ، وهو قليل ، وتضعطه في حيز محدود
من الحروف ، مماثل لعدد حروف القرآن وكلماته ؛ أفلا يحق لك أن تقول إن تحت
كل حرف إشارات وإشارات إلى علوم ومعارف كثيرة ؟ فكيف والقرآن الذي بين
يديك ، جامع علوم الدنيا والآخرة ؛ مما لا يحيط به إلا الله سبحانه ؟

حقاً يا أخى ، إن تحت كل كلمة من القرآن لأسراراً بعيدة الأغوار ، ورسول الله
صلى الله عليه وسلم يصفه ، بأن له ظهراً ، وبطناً ، وحداً ، ومطعماً ، ويقول وقد
فقه منه ما لم يفقهه : إنه « لا تنقضى عجائبه ! » . . . فانظر شأن هذا الكلام الذى
حوى من العجائب ما لا ينقضى !

ولقد كان علماء المادة يقفون فى أبحاثهم عند الذرة ، ويقولون : إنها الجوهر
الفرد الذى تتركب منه المادة ، ولا يقبل التجزئة ، لتناهيها فى الصغر والدقة . .
ولكنهم عادوا يطالعوننا بعجبية من عجائب الذرة ، وهى قابليتها للتجزئة والتحطيم ،
إذ حطموها فعلاً ، واستكشفوا ما فيها من خلائق الله وأنواع الإشعاع ، وما زالوا
يطالعوننا إلى الآن من أسرار جزئياتها بالعجيب الرائع ؛ وإذا بالقرآن يطالعنا
بسر تحطيم الذرة كما نقرأ لأول مرة فى قوله تعالى : « وَمَا يَعْرُزُ عَنْ رَبِّكَ
مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » . . . فكلمة « أصغر » وحدها ، ليست إشارة إلى الذرة فقط ،
بل هى تصريح جلى بإمكان تجزئتها وتحطيمها ؛ ولك أن تحصي كم من الجهود والتجارب
والمعارف سخرت وبذلت فى سبيل تجزئة هذه الذرة . . وكم من العلوم والمعارف وأسرار
القوى يندرج تحت أجزائها ! وإذا عرفت أن تحطيم الذرة إنما هو باب — فقط —
لآفاق من العلوم جديدة ، أمكنك أن تدرك أن كلمة « أصغر » هذه كانت تسخر من

معارف البشر ، حين كانوا ينكرون تجزئتها ، وأنها حينئذ كانت تشير للعالمين
عما وراءها من المعارف الهائلة الخطيرة .

وإذا كان هذا شأن كلمة واحدة من كلماته ، فكيف بكلماته كلها ؟ . . بل إذا كان
هذا شأن كلمة من الكلام الذى يمس المادة المحسوسة ، فكيف بكلمة تتناول من أسرار
الروح ما لا نرى ولا نحس ؟

ولست بعد هذا أطمع أن أكلف نفسى أو غيرى ، أن يسبر أغوار هذه الأعماق ،
وإنما أطمع أن يستحضر ذلك الشعور الذى يلفته إلى أنه يقرأ كلاماً لا كالسلام . . .
يقرأ كلاماً خافلاً بأسرار المعارف والعلوم ، حتى لا يترك سطرأ واحداً دون أن
يستخرج منه معنى واحداً على الأقل . . . وليعلم أننا لم نشبع أنفسنا بالكلام عما نشعر
به نحو القرآن ، وما تحوى آياته من وجوه المعانى العجيبة ، فإن هناك لحظات تمر ببعض
العارفين ، ينكشف فيها الغطاء عن قليل من وجوه هذه المعانى ، فإذا عوالم رهيبة
خطيرة ، لا ينجى منها إلا أن يعود الغطاء إلى ما كان : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ .
وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
الْأَلْبَابِ » . . « لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِنْ
خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

قف يا أخى ، وابحث ، وتقب فى كلام الله ، على هدى وبصيرة ، فإن المعانى تفتح
لك ما استغلق من أبوابها .

اقرأ القرآن على أنه خزانة المعانى ، وجامع المعارف ، وانظر ماذا تحصل لنفسك منها ؟
ابسط مصحفك أمامك ، واقصد سورة من سوره ، وتقب فيها ، تنقيب الأثرى
الحاذق العالم ، عن ثمين الآثار وجواهر الكنوز . . اقرأها آية آية ، وضع على هامش
مصحفك عنواناً خلاصاً ما يبدو لك من معناها . . ثم اجمع ذلك فى جريدة أو « قائمة »
تجد نفسك أمام عناوين — أو رؤوس موضوعات — كلها فى غاية العمق الملىء
بعلوم الحياة وحقائقها ، مما لو أردت استنفاد الجهد فى شرح كل منها وتفصيله ، ل طال
بك الأمد . .

لقد فتحت مصحفى ، ووجدتني أمام سورة الزخرف ، وهأنذا أقبل إليك بعض
رؤوس موضوعاتها لا كلها : . . جلال شأن القرآن . الله لا يحقرنا بذنوبنا . عروق
التوحيد فى أصول الفطرة . نعم الله وأدب التمتع بها . الأثر فى رأى الحق . افتراء

الجهلة في خلق الملائكة . جمود المترفين على التقاليد النافهة . إنكارهم للحق . كلمة
باقية . الترف يورث الصدود عن الحق . عقلية مادية . الفصل في فهم حقيقة المادية
والربانية . لكل نفس مادية شيطان^١ يلزمها . قرين السوء . الأخسرون أعمالاً .
ندامة الغافلين يوم القيامة . صبر الداعية المصلح بورثه إحدى حسنيين . عقلية مادية
تتخبط في أوهام الضعف . عاقبة المبطلين . أخلاء السوء يعادى بعضهم بعضاً في القيامة .
دقة إحصاء الله لأعمالنا . سر الألوهية يملأ السموات والأرض .

ومع أن هذه العناوين ليست كل ما يؤخذ من الآية الواحدة ، ومع أننا لم نستوعب
كل آيات السورة الكريمة ، فأنت ترى أن الطائفة التي سقناها لك من العناوين ،
طائفة قيمة ، تمتاز بأن كلا منها يتناول لونا من ألوان الحياة العملية ، أو القلبية ، بل
إن منها ما يتناول ما هو وراء المادة ، كالملائكة ونحوها ؛ وكل منها في موضوعه
يتضمن الحق من لباب المعارف الإلهية ، التي لا يأتيا الباطل من بين يديها ولا من خلفها .
قراءة القرآن على هذا النحو ، تقتضيك استحضار قلبك وعقلك ، وهذا وحده هو
الذي يفتح لك خزائن تلك المعارف القدسية ؛ وهي معارف تنقلك إلى الملأ الأعلى ،
وتدقيقك من نفحات رضوان الله ما لا قبل لأحد بوصفه . . ولقد حدث أخ مسلم
جرب هذه الطريقة فقال : لقد كنت أجلس إلى مكتبي ساعات طويلة ، أربعاً أو خمساً
أو أكثر ، فلا يزيدني من الزمن إلا استغراقاً في حسن ما أنا فيه ؛ ولقد كانت تفيض
بي النشوة ، فأضطرب أو يضيق نطاقى عن احتمال طاقات السرور المتدفق ، فأضرب
بيدى على المكتب ، أو أبدي من ألفاظ الاستحسان على غير إرادة منى . . أقول : وقد
استطاع هذا الأخ أن يقرأ القرآن كله هذه القراءة ، وأن يجمع من هوامش مصحفه
في ثلاث سنوات ما هديت إليه مواهبه ، ولا يزال كلما أعاد النظر ، يطلع على شمس
ربانية من المعاني القيمة الغالية . . وأنا أشير عليك هنا بكتاب « تفسير القرآن العظيم »
للإمام الحافظ ابن كثير القرشى . . فهو يعينك على فهم ما تحتاج إلى فهمه ؛ فعليك
به واحرص على اقتنائه .

والذي أريده الآن ، أن أقول لك : اجمع محصول يومك ، وهو في المتوسط
لا يزيد على نصف ربع ، وهيبته تهينة طيبة في قلبك وعقلك ؛ ثم تحدث به إلى
إخوانك الذين اعتدت أن تحدثهم ، أو إلى من تشاء من الناس ، مرتباً الترتيب الذي
ترضاه ، فإن تحدثك به وهو جديد في وجدانك ، حتى في مشاعرك ، لين عبق في
فؤادك ، يبلغ درجة كبيرة من التأثير في نفوس سامعيك ، بل في نفسك أنت كذلك . .

وهذا من شأنه من جهة أخرى أن يجعل المعاني تربو وترسخ ، وتمكن منك ، وبكثرة ما تلقى على الناس من هذا المحصول ، تنمو ذخيرتك ، ويسلس لك قياد الاستشهاد . وأوصى في ختام هذه السكلمة ، أن تجمع الآيات التي تتناول في الإمام بمعنى واحد ، أو معان متقاربة ، بحيث يتألف من كل عدد منها طائفة يتكامل فيها عناصر موضوعها . اشرع في ذلك بالتدرج في غير تصنع ، ومستجد الإمام ابن كثير يعينك أجدى معونة على غرضك هذا أول أمرك ، ثم لا تلبث أن يكون لك كتابك الحافل الزاخر إن شاء الله ؛ وقد نصحن بالتدرج ، لأنه يركز الغرض على مهل ، في ذهنك وقلبك ، فيكون للوضوع في عقلك ، قبل أن يكون في كتابك ، ويكون انتفاعك به على طرف الثمام ، قريب المرام ؛ والله الموفق إلى خير السبل !

القرآن بعد الانسائه للدار الآخرة

سادساً : أن تقرأ القرآن على أن الغرض الأسمى له ، هو إعداد الإنسان للدار الآخرة .

فكل ما أشرنا إليه من روح الله في القرآن . وما جاء فيه من قصص الجهاد ، وما ضمنه من نظم الاجتماع ، وما أودعه من القوانين والمعارف ؛ ليس مقصوداً لذاته ، وليس غاية تنهى إليها أهداف الإسلام ؛ وإنما يراد بها إيقاظ القلوب ، وإحاطتها بكل وسيلة مادية أو معنوية ، لتكون سليمة حية ، حتى ينصرف الرء بها إلى غايته الأخيرة . فعلياً أن نلاحظ هذا المعنى في كل آية ، فإن العبرة لا تكمل إلا به ، وجمال التوجيه لا يظهر بدونه . . . وفي المقام ما يغرى بالاستطراد والاستشهاد ، واسكننا نمسك ، اكتفاء بفطنة القارئ الأريب ، سائلين الله عز وجل ، بكل اسم هو له ، سمى به نفسه ، أو أنزله في كتابه ، أو علمه أحداً من خلقه ، أو استأثر به في علم الغيب عنده ، أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وذهب همومنا ، وجلاء أبصارنا ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم !

٢ — السنة

السنة هي المرجع الثاني — بعد القرآن الكريم — لعلوم الدنيا والدين ، وهي نفحات نفس قدسية ، وخلاصة كاملة لتجارب أعظم عقل فهم القرآن ، وسنن الاجتماع وعلل النفس ، ومشكلات الحياة ، وضروب الإصلاح — وبعبارة أخرى : السنة هي صورة لحقبة من الزمن « نموذجية » في سمو كمالها ؛ لا يخطر ببالك لون من ألوان

الحياة إلا وجدته في تلك الحقبة ، حتى إن الألوان التي لم تكن موجودة في عهده صلى الله عليه وسلم ، تنبأ بوقوعها ؛ وقد جاء الزمن مصداقاً بإذن الله لما تنبأ به عليه السلام . . . فإذا أسمعك متحدث : « قال صلى الله عليه وسلم » ؛ فأرهف أذنيك ، واستجمع مواهبك ومشاعرك ، لأنك ستسمع أصدق قول ، وأنفع قول ، وأظهر قول نطق به بشر ؛ وهو بهذه الصفات غنم ، تتضامل إلى جانبه الدنيا وما فيها . غنم عقل وروحى واجتماعى وعملى ، يجد فيه كل باحث رى ظمئه إلى ما يشتهى من خير المنافع . السنة هى الإسلام الواضح في صورة عملية سهلة لا شائبة فيها ؛ فعليك بالتزود منها من كتب السيرة ، وكتب الحديث والنقاب ، وقرأها كلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً ، على ما أوضحنا في قراءة القرآن الكريم ، ومثل الحوادث لنفسك على مهل ، لتبدولك حارة حية ، واستخلص من أجزائها ما تستطيع من عبر .

وأريد أن أنص على معنى يغيب عن ملاحظة بعض المعاصرين ، ممن لهم مشاركة في السنة ؛ ذلك أن تاريخه عليه السلام ليس كالتاريخ المدرسى أو الجامعى ، أو ليس كتاريخ الأبطال والرجال . . . فتاريخ هؤلاء يؤرخ ما تأثرت به الحياة بفعلهم وتوجيههم الدائى المنبعث من عوالمهم النفسية الشخصية ؛ أما تاريخه عليه السلام فهو تاريخ عمل الله السافر وغير السافر ، أجراه سبحانه بيد عبد ربانى ، ليس له من الأمر من شىء ، إذا نطق لم ينطق عن الهوى ، وإذا رمى فليست رميته ، ولكن الله رمى .

هذه الآفاق الإلهية في سنة الرسول عامرة بغير وحوادث تخاطب القلب والعقيدة ، ولا تعباً بالعقل المادى الخاضع لقوانين المادة وحدها ، ولذا ترى الباحثين المعاصرين والمدرسين ، والأساتذة ، يعمرون مثلاً بقتال الملائكة في صفوف المسلمين يوم بدر ، وبالرمية المباركة التي أعمت عيون المشركين . ونحو ذلك ، مما لا يجدونه سائغاً في منطقهم المادى ، لأنه من فعل الله المهيمن على المادة وغير المادة ؛ أقول : يعمرون به وكأنهم لم يروه ، وهم له في قرارة نفوسهم منكرون ، فيجب أن يكون شأنك غير هؤلاء . . . فالتس في أخباره صلى الله عليه وسلم دائماً ناحيتين : العوامل الإلهية السافرة غير المحجوبة بحجاب ، والعوامل النفسية الشخصية الخاصة به عليه السلام . . . وهذه إن بدت مطبوعة بطابعه الدائى ، لأنها من نبات قلبه وانبعاثات نفسه ، هى أيضاً ربانية إلهية ، لتعلق مشاعره وعواطفه صلى الله عليه وسلم بربه دائماً . . . فالأولى عوامل ربانية سافرة ، والأخرى ربانية بالواسطة ، لا يظهر فيها السفور إلا لمن يقرءون ما وراء

السطور ، ويطالعون ببصائرهم مشارق أنوار الله في أمثال هذه الصدور . وقد عنيت بأن أنص لك على ذلك ، لكي تقرأ تاريخ الحقبة النبوية على حقيقته .

هذه واحدة . . . أما الأخرى فهي لتعلم عملياً أن الشخص الذي يعيش في الدنيا بإلهام مشاعره الربانية ، لا يوحى معدته وجوارحه الحيوانية ، عاملاً بأمر الله لا بهواه ، مجاهداً في سبيل الحق للحق لا في سبيل نوازعه الخاصة ، هو شخص لا يحجبه عن الله حجاب ؛ فهو ينتصر بالله لا بحالة ، مؤيداً بحنود السموات والأرض ، ما ظهر منها وما بطن ؛ فافهم هذا يا أخى ، فهو من لب لباب الحقائق العملية ، التي ترى شواهدا شاخصة لك في سيرته عليه السلام ؛ ومن ثم فاحرص أن تملأ حياتك بهذه الجنود ، ولا تزهد في نصر الله كما يزهو الجهلة المطموسون .

يا أخى : الخير أمامك ، ليس بينه إلا أن تمد يدك . . . يدك الربانية . هذا في تاريخه العملي ؛ ونقول مثله في تاريخه القولى صلى الله عليه وسلم : فهو كلام لا كلام الناس ، فإذا حدثك أن مجالس الذكر تحف بها الملائكة ، فاعتقد أن هذا حق من الحق ، لا مجاز فيه ولا كناية ، فهو يقول لك ما يعرف ، لأنه يعرف من علم الله ما لا يعرف غيره .

وإذا دعا المؤمن لأخيه بخير بظهر الغيب ، قالت الملائكة : آمين ، ولك بمثل ما دعوت ، فهو لذلك دعاء مستجاب لا محالة ؛ وإذا وعدك على عمل جزاء ما ، أو وصف لك حقيقة من الحقائق ، أو نصحك نصيحة ، فهو الحق الذي لا مرية فيه . إذا قرأت السنة هذه القراءة ، فهمت الإسلام حقائقه وأسراره كما كان يفهمه الصحابة ، أو قريباً مما كانوا يفهمون ، وحق لك أن تعرض نفسك للتبشير بدعوة القرآن الكريم ، والله يسلك بنا وإياك مسلك القدوة به صلى الله عليه وسلم !

٣ - التاريخ وسيرة الرجال

ليس الغرض أن ينظر الداعية إلى التاريخ نظرة المدرس الذي يجمع المعلومات جمعاً علمياً مرتباً ، ثم يقدمها لطلابه .

وليس الغرض أن يتظرف الداعية ، فيقص القصص للتسلية ولقطع الوقت في غير غناء . وإنما نرى كثيرين يركبون هذا النهج التافه ، فيسوقون القصة تلو القصة دون ربط بينهما ، ودون غاية مقصودة بكل منهما .

وإنما ينظر الداعية إلى التاريخ على أنه مستودع لأخطاء الإنسانية وصوابها ، وضلالها وهداها . وما جنت في عواقبها من خير وشر ، ويأخذ من ذلك لموضوعه بمقدار .

أرأيت إلى نهج القرآن الكريم في ذلك ؟ . إنه هو الذي نقصده !

... فليس الغرض من القصص ، وسياق التاريخ في القرآن ، أن تعرف أحوال القرون الأولى فقط ؛ بل الغرض الأعلى هو علاج الإنسانية ، إذ يتناول الغرائز الأصلية في الإنسان ، ويؤرخ لها ، ويذكر أثرها ، وما أحدثته في بيئتها من خير وشر .

أما الغرائز العارضة . والطباع المتغيرة ، فلا يغفل القرآن بتاريخها ، لاندثارها وبطلان تأثيرها كلما تغير الزمان والمكان . والقرآن كتاب خلود ، فلا بد أن تعلق عبرته بأعمال الغرائز الأصلية ، التي تلازم الإنسان في كل عصر وبيئة ، والتي تجعل من بني آدم ، مجموعة إنسانية متشابهة في جوهر التكوين ومعدن النفوس ، ولا شك أن هذه الغرائز — مع وحدتها في بني آدم — تتشعب باختلاف الظروف إلى مناح متعددة ، وتتخذوا ألوانا اجتماعية متغيرة ؛ ولكن مع تعددها وتفاوت مظاهرها وصورها ، يمكنك أن تحكم على ما يظهر أمامك ، وترجعه إلى بواعثه الأصلية وتلحقه بغيرته التي دعت إليه ، وأوحت به .

فما يريد القرآن تفصيل الحوادث ولا سرد دقائق الوقائع ، إنما يقف فقط على اللب الذي هو عبر الحادث ، فتراه مثلاً في موقعة طالوت وجالوت ، لم يسردها السرد التاريخي ، ولم يعرضها عليك العرض الذي يعيد صورتها إلى ذهنك ، فليست الصور الظاهرية بذات بال ، ولكنه يكتبني بما يشعر أنك هناك فئة قليلة جداً تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة كثيرة العدد . فأيد الله الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين . . اقرأ القصة في سورة البقرة ، تجد لها دائرة على الإيمان وأثره في تثبيت العزائم والإقدام ، واستئزال النصر من عند الله العزيز الحكيم ؛ وكل ما يدخل في هذا المحيط من أجزاء الموقعة تركه القرآن جانبا .

وهذا النوع من التحليل التاريخي العميق ، يقتضى الداعية أن يكون عظيم الفهم لدعوته ، قوى الشعور بمقتضيات موضوعه ، حتى لا يقع فيما يخل ويعمل .

ومما تجب ملاحظته أن القطعة التاريخية قد يبرز منها عدة معان ، فيسوقها الداعية في مواقف متعددة بتعدد معانيها ، ويعرضها في كل موقف في لون مغاير لألوان سابقة ؛ وهذا كما ترى يرجع إلى حكمته ولباقته ويقظة إدراكه ، بحيث يضرب كل مرة على

وتر من الإحساس جديد ؛ فنهضة هتار مثلاً تستطيع أن تعينك على غرضك إذا كنت بصدد البرهنة على أن الأمة إذا عثرت فسكبت — تسترد شأنها السابق إذا اجتمعت عزائم أبنائها وهمهم على ذلك ، أما إذا لم يكن منهم همه لتحقيق هذا المطلب العظيم فلا . . . وتستطيع أن تعرض هذه النهضة لتبرهن على أن الفقر قد يخرج من أكوأخه من العباقرة من ينتشل أمة كاملة من حضيض كبوتها ، وأن يتبوأ منها أسمى مراكز القيادة والسيادة فيها ، وهو أسمى أو شبه أسمى إذا قيس بمعاصريه من عظماء الساسة ورؤساء الشعوب . . . وتستطيع أن تعرضها إذا كنت تتحدث عن الباطل وسرعة انهياره مهما قوى جنده ، فتحمل على عقيدة النازى التى تجعل منهم رؤوس الناس وسادة الأجناس ، وتجعل منا نحن عبيداً وخداماً ، وتدعى أن ذلك هو روح الطبيعة ووحى الله ، والله من ذلك برىء ، فالناس لآدم وآدم من تراب ، أكرمهم عند الله أتقاهم ، ذلك هو الحق الذى يقذف به الله على الباطل فيدمغه ويهزمه ، وبأبى الله إلا أن يتم نوره . ولو ذهبت أستقصى لك الألوان الكثيرة التى يمكن أن تعرض فيها هذه النهضة لخرجت عن قصدى .

وفى التاريخ حوادث على هامشه قد تبدو تافهة ، ولكن الوقوف عليها قد يستخلص لنا كثيراً من ملامح النفوس وصفات الطباع وأعماهاات القلوب لجماعة ما أو لشخص ما ، فعلى الداعية أن يتقظ لذلك . . . وفى تاريخ الجبرتن كثير جداً منه .

؛ - واقع الحياة العملية

واقع الحياة العملية هو تاريخها الجارى ، الذى سيصير يوماً ما تاريخها الماضى ، فهو أيضاً مستودع صوابها وخطئها وضلالها وهداها ، وما ترى من عواقب الهدى والضللال والخطأ والصواب . . . وهو يمتاز من التاريخ الماضى بأنه يتولى عرض الحياة نفسها أمامك على صفحات الوجود — لا صفحات الكتب — عرضاً عملياً حياً يتعرض به نظرك وسمعك ومشاعرك ، لا يحفل فى ناحية ويفصل فى أخرى ، بل يفقك أمام حوادث فردية ، تبين فيها مبلغ اختلال قوانين المجتمع أو سلامتها ، قوانينه الاجتماعية أو الخلقية . . . ويقفك أمام ضحايا تفجع القلوب وتذيب الأكباد ، أو أمام لصوص ذهبوا فى الناس بسماة الرفعة والفخر ؛ فأنت تقرأ وترى فى كل يوم ، وفى كل طريق ، وفى كل صحيفة ، وفى كل بيت ، وفى كل محكمة ، وفى كل دار من دور اللهو البرىء أو العايب — تقرأ وترى ذلك كله فى ثوبه العملى الواقعى الأخاذ . . .

فعليك — بما فقهت من دعوتك وأرهفت من مشاعرك — أن تتأمل ذلك الضرب من التاريخ القيم ، وتنفهم دوافعه ومراميها ، وتحلل علله ونتائجه ، وأن تصنفه أصنافاً بعد دراسته وإبداء الرأي فيه على ضوء فكرتك ، وليكن لك سجلك تجمع فيه مختاراتك من الحياة ؛ وسترى بعد ذلك أن إيراد بعض ما تجمع من الأمثلة ، يجعل كلامك حاراً قيماً ، فعالاً جياشاً في نفوس سامعيك . . . فعليك بمطالعة هذا التاريخ العملي ، والوقوف على مآسى الناس ومخازيهم ، وأمراض الاجتماع ، وشذوذ أوضاعه ؛ ولا ضير عليك في كل هذا ، فأنت طبيب .

الباب الرابع

الداعية في كلماته

(١) المحاضرة (٢) الدرس (٣) الخطبة (٤) المقالة (٥) الحديث العادي

* * *

ليس هناك — فيما أرى — فرق بين المحاضرة والدرس . ولكنهم درجوا على أن تكون المحاضرة أكثر استيعاباً لعناصر الموضوع ، وأوسع تفصيلاً وإفاضة في معاني هذه العناصر ، وأن تكون عناية المحاضر أتم وأوفى ، وأن يحاط السامع بما يجعله يتبهاً لتلقى معلومات ممتازة وتوجيهات قوية صالحة ، وأن يلتزم الترتيب والنظام في المحاضرة ، فلا يكثر المحاضر الانسياق مع عواطفه ، والاستطراد مع الخواطر الطارئة ، مما يبعد السامعين عن الموضوع الأساسي ، بينما الدرس قد يقبل شيئاً من هذا ويعذب به ؛ وعلى هذا الاعتبار أو الاصطلاح ، سنوجز الحديث عن المحاضرة والدرس .

١ — المحاضرة

(١) يختار موضوع المحاضرة — طبعاً — من صميم ما تجرى به الحياة ، وهذا يقتضى الداعية أن يكون متصلاً بهذه الدنيا ، منفعلاً بما يجري فيها من خير وشر ، وحلو ومر ، ومعروف ومنكر . . . فما كان من صالح رضى به ، وحمد الله عليه . وما كان من فاسد قام له ، وأخذ في علاجه وتغييره بوسائله الحكيمة ، وموعظته الحسنة .

ومعنى هذا أن الداعية يختار موضوعه مما يعرض له من مشاكل الحياة ، أو مما تلميه الحياة عليه . . . ومثل هذه الموضوعات ، يجعله أقرب إلى قلوب الناس ، وأملك لزمام انتباههم وعواطفهم . . . فلا تجعل الموضوع يعرض نفسه عليك ، فتهرب منه ، أو تفعد عن الاستجابة إليه ، فالحياة في هذه الحال هي التي تختار لك ، واختيارها أصدق اختيار ، لأنه إلهام الله ، وصوت القضاء ، وصدى ما جرى به القلم في أم الكتاب ؛ ولأمر ما نزل القرآن الكريم منجماً على حسب الحوادث ومقتضيات الأحوال .

وطبيعى أن الموضوعات التى يوحىها محيط الزراع ، غير التى يوحىها محيط الطبقات المظلومة من المدرسين . . . وللعامل آلام وآمال تلهم موضوعات غير التى تجرى فى المحيطين السابقين ؛ ولصغار الموظفين مشكلات وأزمات نفسية ومالية ، لا يتبينها إلا من يصغى إلى شكواهم ، ويقف على أحوالهم ، وفى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفى المعاملات التى يلقاها بعض الطوائف من بعض ، وفى طبيعة السلوك الاجتماعى الذى تجرى عليه حياة بعض الأصناف من الناس ، وفى اختلال الموازين التى يزن بها الناس خلق الرجل وكرامته ونجاحه ؛ وفى نظام الدواوين والتعليم ، والمحيط التجارى والإدارى . . . فى هذا وفى غيره موضوعات أنت فى غنى عن بيانها ، لأنها شائعة مستعجلة ، تفرض نفسها وحوادثها على جهازك العصبى اللاقط .

(ب) يجب أن يكون الموضوع مدروسا دراسة وافية مستفيضة ، محللاً إلى عناصر بارزة ، وخطوات واضحة مرتبة ترتيباً طبيعياً ينتقل بالسامع من حلقة إلى حلقة ، ويقضى فى النهاية إلى خاتمة يحسن السكوت عليها ؛ فإذا كنت تريد التحدث إلى طائفة من الشباب المثقف — مثلاً — عن مقومات الإنسان الفاضل الذى ينشدونه ويشده معهم الإخوان المسلمون ، كان من السهل عليك أن تفترض فى هذا الإنسان وجوب العزة ، أما الدليل فليس لنا به حاجة ، ثم يجب أن يكون لهذا الإنسان رسالة فى الحياة يعمل جاهدا لتحقيقها ، أما الرجل الذى يعيش بلا غاية معينة ، ولا مبدأ معروف ، فهو من السوائم الحمل .

وأخيراً لا بد له بعد العزة والرسالة ، من العلم ^(١) ؛ ليكون من أمره على هدى وبصيرة ، ومن لا علم له لا بصر له .

فدعائم البناء إذن عزة ، ورسالة ، وعلم ؛ فإذا أوضحت ذلك ، أقنعت سامعك بما تريد ؛ أما السلام المرسل بغير نظام خيره غير متحقق .

(ح) أن تستحضر لكل عنصر ما يؤكد ويوضحه من كتاب الله وسيرة رسوله

(١) يجب أن يكون مفهوماً أننا نقصد بالعلم هنا العلم بالله عز وجل عن طريق التأمل فى السماء وما فيها من عجيب صنع الله وآياته ، والأرض وما أحدث فيها من كائنات وآثار ، وما بين السماء والأرض من ظواهر كونية ، وما أفاض علينا من نعم فى أبداننا وأرزاقنا وأسرار نفوسنا وطباعنا وغير ذلك مما يقضى بنا مع النظر والاعتبار إلى الله عز وجل ، وهذا هو العلم الحق الذى يجب أن توجه إليه جهود الإنسانية ، وكل علم لا يوصل إلى الله فهو علم لا بركة فيه — وليس معنى ذلك أننا لا نتعلم الصناعات أو طرق معالجة الأشياء لتعيش ونأكل ، بل أقصد أن يكون لله عز شأنه غرضنا الأعلى مما نعرفه .

صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً ، أو سيرة صحابته ، أو عبر التاريخ ، أو حوادث مما تسمع أو تقرأ أو تشاهد ، على نحو ما سقناه لك في مراجع الداعية .

فإذا كنت بصدد شرح العزة في الموضوع السابق مثلاً ، وجدت طبيعة العنصر تلهمك أن العزة معناها ألا يذل المرء لمخلوق مثله . وهو يذل في هذه الحالة لغرض من اثنين : ليدرك منفعة شخصية ، أو ليدفع ما قد يؤذيه في رزقه أو نفسه ، وحينئذ يزدحم حولك نصوص كثيرة من كتاب الله وأحاديث الرسول ، تؤكد لسامعك أن الإسلام يغرس العزة في نفس المسلم ، ويذهب بأصولها إلى أبعد الأعماق ؛ فهو من ناحية ابتغاء المنافع والخوف على الأرزاق ، قد علم أن رزقه في السماء . . . وما كان في السماء فهو مصون ، بعيد عن أن تتناول إليه يد عابث من أهل الأرض . . . ويعلم كذلك أن الله قد فرغ من قسمة الأرزاق بين الناس قبل أن يخلقهم ، وقد جفت الأقلام وطويت الصحف على ذلك ، فليس للحوادث بعده أن تجري على خلافه . . . والقرآن والسنة حافلان بما يشبع رغبتك في هذا الباب . ولا بد من الجملة طبعاً على أولئك الذين يذلون أنفسهم ، ويذلون أخلاقهم وأعراضهم ، زعماء أن ذلك هو سبيلهم إلى ما يصبون إليه من جلب المنافع أو درء المساوىء . . . وما أحراك أن تفرد حملة خاصة على أولئك الذين يتعبدون بالمثل السائر : « إن كان لك عند الكلب حاجة قل له ياسيدى » . . . أما الاستكانة إلى الذل تخوفاً على النفس مما يصيبها من أذى القتل ، أو الضرب ، أو السجن ، أو نحوه ، فالمسلم قد ربي على قول الله عز وجل : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

وإذا أقدم المسلم في جرأة وشجاعة ، فلامه اللائمون من الجبناء ، وحذره المخذرون من الضعفاء ، ألقى الله على لسانه رداً حاسماً : « وَمَا كَانَ لِلنَّفْسِ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوَجَّلاً » .

وإذا اعتراه في موقف من مواقف البأس ذبذبة أو تردد ، ناداه هاتف العقيدة من أعماق نفسه : « قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا » . وسيجتمع عليك الكثير من نصوص القرآن

والسيرة ، وكل منها يعرض نفسه عليك ، فسُق ما تختار منها مرتباً واضحاً على قدر ماتراه وافية بأداء غرضك .

ويجب أن تتحكم في الاختيار ، وفي ترتيب العناصر ، وفي جمع الشواهد ، وفي سوق الحديث ؛ يجب أن تتحكم في ذلك كله العقلية العملية ، ممثلة في مظاهرها التي تقدمت في بيان مزاج الداعية ، حتى لا تكون غامضاً ولا نظرياً .

واحذر في تقسيم موضوعك ، أو بيان حقيقة عنصرك ، أن تنحو نحو التقسيمات الفلسفية أو التعمق النظري ، ففي موضوع مقومات الإنسان الفاضل الذي تشده لم تذكر لك كل شيء ، وقد يأتي غيري بغير ذلك ، لأنه لم يكن من همنا الاستقصاء الفلسفي الذي يغوص وراء الفروض والعلل ، وإنما أخذنا ثلاث لمحات أضأت لنا من محيط الفطرة في بساطة ووضوح ؛ ولو أننا أردنا الاستقصاء لما فرغنا من البحث إلا بعد عناء ، بل ولا بعد العناء ، فقد لا نخرج إلا بالخلافات التي يضرب بعضها بعضاً ، والنظريات التي لم ينته أمحايها من التدليل على صحتها بعد . كان همنا حين الاختيار ، أن نسوق كلاماً تقبله فطرة السامع وعقله وكفى ، أما أنه جامع مانع فلا ؛ ومع أننا نقصد أن يكون كذلك ، فهو في الحقيقة جامع ، لأن الخير في الإسلام وإن تعددت صورته يرجع إلى معين واحد ، فإذا نشأت طفلاً مثلاً على فضيلة ما ، ألفت ذلك يعود بالتربية والتنمية على الفضائل الأخرى ، وذلك من أسرار الله في شريعته .

(و) يجب أن يعد عناصر المحاضرة ما يفهم منه أن الناس ينجون في الدنيا — لا في الآخرة فحسب — ثم ما يبذلون في سبيل الإصلاح من عمل صالح ، وتضحيات لوجه الله ، وثبات على المبادئ الفاضلة ، وصبر على مقاومة الفساد . يجب العناية بإبراز هذا المعنى ، لأنه يشرح الصدور ويشجذ العزائم ، ويجدد الآمال والههم فحسب ، بل لأنه هو منطق الحياة ، وقانون الوجود الذي لا يتخلف ؛ فلكل شيء ثمن ، ولكل عمل أجر ، ولكل جهد بدني ونفسي ثمر من جنسه في الدنيا والآخرة ، وهو من قوانين الله التي لا تتخلف في حياة الأفراد ، ولا في حياة الجماعات والأمم ؛ والكسل لا يهب إلا الحرمان ، والفوضى لا تورث إلا الحمية ، والأنانية لا تعقب إلا التنازع والتفكك والفشل .

(هـ) يجب أن يكون غرض الداعية من من كل ذلك إحياء للشاعر الإلهية ، وبث خواطر الخير والتقوى في القلوب ، فكل موضوع يجب أن يعالج على هذا الأساس ؛ وبعبارة أخرى : يجب أن يكون للداعية في موقف المحاضرة هدفان أساسيان :

الأول ، علاج موضوعه الخاص ، والثاني ، إحياء هذه المشاعر القلبية إحياء ربانيا ، على أن يكون الغرض الأول مقصودا لذاته ، ومقصوداً كوسيلة للغرض الثاني ؛ ويجب لهذا أن يساق للسامع ما يشعره بأنه مستول ومحاسب ، وبأن عين الله ساهرة تطلع عليه ، وتحيط بظاهره وخفي سريره ، وأن الإنسان قادر على أن يجعل ما يدور في هذه السرائر خيراً محضاً ، يرضى الله ويسعد العباد ، والسعيد من جعل نفسه زكية مطهرة . اجعل ذلك في عنصر واحد إن اقتضاه المقام ، أو اجعله شائعاً في العناصر كلها إذا أوجبه المناسبة ، أو اجعله في بعض العناصر دون بعض . . . اخضع في ذلك لذوق الموضوع ، وذوق عقليتك العملية .

(و) وأرى أن تحدث بينك وبين جمهورك تعارفا عاطفيا ، قبل أن تبدأ في حديث محاضرتك ؛ فإن مطالعة الجمهور بالموضوع مباشرة تفاجئ مشاعره بأمر لم يتهيأ له . . . إن المشاعر بيوت مغلقة ، وقد نهانا القرآن عن أن ندخل بيوتا غير بيوتنا ، حتى نستأنس ونسلم على أهلها .

فلا بد من هذا الاستئناس أو التعارف العاطفي كما أسمىه . . . ويكون هذا على صورة استفتاح سهل مبسط ، يتناول أمراً هيناً مما تدركه الأذهان في يسر ، بل مما لا يحتاج في إدراكه إلى أقل جهد عقلي ، كأن يذكر حادثة خاصة وقعت له ، أو رآها وهو في طريقه ، أو نبأ قرأه أو سمعه ، أو ملاحظة لاحظها في الحفل أو في كلمة خطيب سابق إلخ . . . على أن يكون هذا كله ذا صلة بالحفل والدعوة التي تعمل لها صلة مباشرة أو غير مباشرة ، ثم يعلق على استفتاحه تعليقا يسيراً ملوناً بلون المزاج إذا اقتضى المقام المزاج ، أو بلون الاستبشار إذا أوجب المقام إزجاء البشري ، أو بلون آخر من ألوان العواطف والمشاعر التي يقتضيها الحال . . . فإذا أقبلت عليك القلوب ، وتفتحت لك النفوس ، فقد تحول تيارها إليك ، وألقت بأزمته بين يديك ، فبادر في الحال بالنقاطها ، وصل خيوطك بخيوطها ، ثم اخلص إلى موضوعك بما لا يغير عليك أنس جمهورك بك ؛ ولا تطالبني بضرب مثل ، فإن هذا ليس من القواعد التي تعلم ، بل هو من وحي الذوق ، وإلهام الطبع اليقظ . . . ويكتفي فيه بالتنبيه إليه .

(ز) وهناك حقيقة يجب الالتفات إليها ، وهي أن المحاضرة لا تنضج في ذهن الداعية إلا بمرور الزمن وكثرة الإلقاء ، فعليك أن تلقى مرة ومرة وعشر مرات أو أكثر من ذلك ، في أما كن مختلفة ؛ وعليك أن تنقد نفسك عقب كل مرة تلقى فيها محاضرتك ، ووازن بين موقفك في آخر كل مرة وسابقتها ، فهذا يكسبك ثباتاً وقدرة

هائلة على التوضيح ، وسهولة في سياق العبارات والألفاظ . . . ثم إن كثرة التردد على ما ذكرنا ، تعين على اختبار المعاني فيلبد بعضها بعضاً ، وتزداد سمواً وقيمة ؛ فلا تخش من نفسك أن تقول لك إن تكرير المحاضرة الواحدة في الأماكن المتعددة عى وعجز ؛ ولا نظن — إذا صاحبك أحد في رحلاتك — أن التكرار يوحى إليه بقلة معارفك ، فكل هذا من خواطر الشر ، فإن الحقيقة لا ينقص من قدرها أن تتكرر ، ولا ينقص من قدر صاحبها أن يكررها ؛ فحسب الإنسان أن يكون على حق ، وأن يدعو إلى حق ؛ على أن من مزايا الإعادة أن يزيد الداعية إيماناً ، وتضلعاً ، وتعلقاً بما يقول . . . أما إذا أجهد الداعية نفسه في تحضير المحاضرات الكثيرة للمتعددة النواحي ، لكي يقنع غيره بأنه بحر لا ساحل له من المعارف ، يتكلم في كل بلدة بما لا يتكلم به في غيرها ، فذلك منهج في الدعوة لا يثمر ، ولا يفي باقتناع الناس بحقيقة من الحقائق ، فضلاً عن أنه من إملة الأنانية والرياء والسمعة ؛ وحسبك أن تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمضى حقبة من عمر رسالته في مكة ، يقول إذا عرض نفسه على القبائل قولاً واحداً لا يغيره : « أدعو إلى أن تعبدوا الله وحده ، وأن تخلعوا هذه الأوثان التي تعبدونها من دونه ، وأن تمنعوني حتى أبلغ عن ربي » وذلك لأنه إنما يبلغ حقيقة يدعو إليها ، وليس من همه إثارة إعجاب الناس بمواهبه وملكاتة العقلية واللسانية .

٢ — الدرس

جری عرف الوعاظ والدعاة — غالباً — على أن يكون موضوع الدرس آية من كتاب الله عز وجل ، أو حديثاً من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وفي رأي أن الدرس أشق من المحاضرة ؛ أو بعبارة أحكم ، الدرس أحوج إلى دقة الداعية وحساسيته من المحاضرة . . . فالمحاضر يحصر همه في إقناع الجمهور بموضوع معين ، ولا يعنيه من الآية أو الحديث إلا وجه واحد من وجوه الدلالة ، هو الوجه الذي يتصل بفرضه . . . أما للدرس ، فالآية تفرض عليه الدقة وطول التأمل ، والوقوف عند كل كلمة ، بل عند بعض الحروف أحياناً ، وفي كل وقفة من هذه إشارات ومعارف وعلوم إلهية تلتهم أنوارها في صدر الباحث ؛ فإذا به ينشرح ويتسع ، ويفرح بفضل الله .

ومن هنا أحب أن أنه إلى أن الدرس يجب أن يكون أحفل بالرفائق ، التي تحرك القلب ، وتخطب الوجدان . . . فإذا أفسحت لك الآية بين كلماتها ، وشتت لك عما وراء سطورها ، فاستخرج ما تشاء من المعاني ، ثم رتبها واربط بين بعضها وبعض ،

ثم وسع دائرة الحديث بما يتصل بالمعنى من آيات الكتاب ، وسنة رسول الله وصحابته ، وأخبار الناس قديماً وحديثاً ، وصل ذلك — ما أمكن — بمحادثات الحياة وواقعها العملى .

ودرس الحديث كدرس الآية فى كل ما ذكر .

وعندى أن الدرس أكثر فائدة من المحاضرة . . . فالدرس ميسور لك فى كل وقت ؛ فما عليك إلا أن تجلس فى ناديك أو مسجدك لتلقى درسك على من يحضر من خلق الله ، وهذا لا يكون فى المحاضرة .

ذلك أن قلة عدد من يحضر الدرس — عادة — تمكن المدرس من التأثير برقايقه فى قلوب مستمعيه ، ومن إنشاء صلاة روحية ، تعارفية ، عملية بينه وبينهم فيكونون معه غالباً على ما يريد . أما جمهور المحاضر فقد جاء غالباً « ليسمع » ويقضى وقتاً ما . فإذا استولى المحاضر على ألبابهم وإعجابهم كان أثره « وقتياً » لدى الأكثرين ؛ وما أقل من يقع فى يدك من مستمعى المحاضرة ، ليكون جندياً من جنود فكرتك .

ولست بهذا أضع من شأن المحاضرة ، فدعوتنا إنما ذاعت بمحاضرات فضيلة أستاذنا المرشد رحمه الله ؛ لكننى أردت أن ألفت نظر الذين يضيعون كثيراً من الوقت فى انتظار فرص المحاضرات فلا يتكلمون إلا حين يجتمع الناس للمحاضرة .

ولا يكفى أن تكون ذا يقظة تامة لما تقرأ وتعى من كتاب الله وسنة رسوله ؛ لا يكفى ذلك لتؤثر به فى النفوس ، فقد يكون شعور سامعك أقل يقظة من شعورك . فلا بد قبل أن تدلى بمضمون آيتك أو حديثك أن تهيب سامعك تهيئة أنت صاحب السيطرة عليها بذوقك ولباقتك وتجاربك

حدث سلمان الفارسي رضى الله عنه قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة ، فأخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحات ورقه فقال : « يا سلمان ألا تسألنى لم أفعل هذا ؟ قلت : لم تفعله ؟ قال : إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحات خطاياه كما تحات هذا الورق وقرأ : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرُى لِلذَّاكِرِينَ » . ألا ترى أن عقولنا وقلوبنا بعد هذا التمهيد العملى الجليل صارت أكثر تقبلاً ، بل أكثر حيوية وسروراً بما مازجها من أنوار الآية وحسن توجيهها ؟ وإن أحدنا لن يبلغ من يقظة الشعور والعقل ما بلغه صلى الله عليه وسلم ، ولن يكون قلب أحدنا حياً بالقرآن كما كان قلبه عليه السلام ، ومع ذلك ، رأى

الرسول الكريم أن يكون حسن التأتى فى عرض مواعظ كتاب الله ؛ فنحن إلى هذا المنهج أشد حاجة منه عليه السلام . . . وذلك وحى الفطرة الملهمه ، وفضل العقلية الواقعية اللبقة ، التى بينا ضرورتها للداعية فيما سبق

ويمكن أن يتسنى للانسان الكثير من هذه التمهيدات التى تنبه الدهن وتمهد الطريق . إذا هو أحسن فهم الآية أو الحديث ، وأحاط بالكثير من إشارتها ومراميتها ، ثم استخرج من ذلك حكما طريفا يدعو إلى العجب ، أو لطيفة تستشرف النفس إلى معرفة ما تنطوى عليه . . . ومثال ذلك ، أن بعض السلف الصالح سأل أتباعه وسامعيه من منكم يحب أن يستوطن الجنة وهو فى هذه الدنيا ؟ فكلهم استشرف إلى ذلك ورغب فيه أشد الرغبة ، وكان وجه العجب فيه أن الآخرة هى موعدنا بالجنة ، فكيف ندخلها فى الدنيا ؟

فقال السلفى رضى الله عنه : عليكم — إذاً — بالترزام مجالس الذكر والعلم ، فإن كلا منهما روضة من رياض الجنة ؛ ومضى الرجل يستشهد لقوله بما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا ؛ قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : حلق العلم »

٣ — الخطبة

تستطيع أن تلح فروقا اصطلاحية بين المحاضرة والخطبة فيما يأتى :

(أ) يغلب على المحاضرة صبغة تقرير الحقائق ، وتثبيت المعانى . . . أما الخطبة فيغلب عليها صبغة إثارة العواطف والمشاعر .

(ب) عناصر المحاضرة أشبه بالقواعد والأصول والأحكام . . . أما عناصر الخطبة فأشبه بالخواطر العارضة والمعانى الطارئة .

(ج) تحتاج عناصر المحاضرة إلى الشرح والاستشهاد . . . أما الخطبة فشأنها الاسترسال مع ما يحضر من الخواطر والمعانى .

وأرى — شخصا — أن تكون الخطبة مرتجلة ؛ بل أرى أن تكون دروسك ومحاضراتك كلها مرتجلة . . . أما محاضرة الورقة ، وخطيب الورقة فلا شأن لنا به ، إذ لا حاجة بالنهضات إليه .

نعم قد يحتاج الرء إلى تحضير كلامه فى الورق ، إذا كان المقام يقتضى تحديد معانى

الألفاظ ، وتبين مرامي العبارات ، كهؤلاء السياسيين المسؤولين ، أو المفاوضين الذين يضطرون إلى تضمين العبارات وتحميل الألفاظ معاني وإشارات لا يستطيع الارتجال أن يفي بحقتها . فلنسم أمثال هذه الكلمات « بياناً » ، فإذا كان لا بد من تسميتها خطباً ، فهي ليست من النوع المنهض الذي نريده .

ونعني بالارتجال ، ارتجال الألفاظ فقط ، لا ارتجال المعاني والعناصر ، إذ لا بد للخطيب الذي يحترم نفسه ويقدر واجبه ، أن يعرف ما سيقول . لا بد أن يعد لموقفه مادته من الأفكار والحواطر المناسبة ، وأن يهيئها في نفسه ، وأن يجيئها في ذهنه أكثر من مرة .

وهذا الارتجال المحضر هو ارتجال التركيز والبناء ، والثبوت والدوام . فإذا وقف الداعية ليتكلم ، وقف وهو رابط الجأش ، ثابت النظرات ، مالك لزمان نفسه وزمان موضوعه ، مستنداً إلى ما أعد من ذخيرة ؛ فإذا فتح له في موقفه عن جديد من الحواطر والمعاني ، فيها ونعمت ، وإلا فحسبه أنه ينفق بما لديه .

وهناك ارتجال غير محضر ، وهو في الغالب يعبر عن صدى الحوادث في نفسه ؛ أو استجابة لحادث ، أو رؤية ، أو سماع آثار مشاعره ؛ فلا يزال يرتجل ويسترد مع الدواعي الطارئة والحوافز العارضة ، حتى تنحل عقده النفسية ، ويشعر أن قد هدأت ثوائره ، فينتهي عند ذلك ارتجاله .

وهذا النوع ، لإثارة السامعين إثارة وقتية ، أو توجيههم إلى وجهة أو عمل مطلوب لساعته . . أما أنه للتركيز والإنشاء والثبوت فلا .

وهذا الارتجال الذي يقوم على حركة الوجدان ، لا يؤدي مهمة إلا إذا كان صاحبه يتمتع بموهبة أسيلة ، وتجارب سابقة ، درسها وفكر فيها ، فتركز عليها كأنها نقط محضرة ؛ وبدون هذا يكون الكلام غالباً غير مرتب ، وقد يدل لتفاهته وكثرة اضطرابه . وكثيراً ما نرى خطباء من ذوي الارتجال المرتجل تخونهم ملكاتهم ، فتسمع أحدهم يبدأ لك معنى من المعاني ، ثم لا يلبث أن يفتح له باب من الاستطراد فيستطرد ، ثم يرسله هذا الاستطراد إلى باب آخر ، وهكذا . . حتى ينسى معناه الأول . . فمن يرضى لنفسه بمثل هذا ؟

حقاً إن أحد هؤلاء قد ينجح في ستر موقفه عن أكثر السامعين ؛ ولكن المسألة ليست مسألة ستر الموقف أو عدم ستره ، فالداعية ليس بهلواناً أو مشعوذاً يموه على الناس ، ويستتر عنهم أخطاؤه وأكاذيبه . . إنما الداعية يصدر رسالة ذات أهداف ؛ فهل أصاب أهدافه أو لا؟ وهل حقق المهمة التي يدور عليها الكلام ، أو ستر موقفه وسكت ؟

٤ - المقالة

ذكرنا في باب فقه الدعوة والداعية ، شيئاً عن الكتابة الضرورية للنهضات ، فلا نطيل بإعادة معناه . . . وزيد عليه هذا ، أن يلاحظ الداعية أنه يكتب للناس كافة ، عالمهم وجاهلهم ، الأمل منهم وغير الأمل ؛ وهذا يقتضيه أن ينزل إلى المستوى الذي يألفه الجمهور في فهم ما يقرأ أو يسمع ، مستوى الألفاظ السهلة والأفكار الواضحة . . . وحسب الفكرة وضوحاً ، أن تكون نابعة من القلب ؛ فتكون — مثلاً — تعبيراً عن عاطفة وطنية ، أو تصويراً لوجدان ديني ، أو عرضاً لمثل إنساني ، أو تقدماً توجيهياً لأعمال المجتمع وأحوال الناس . فإذا كانت الفكرة ماضية بروح العاطفة ، فهي لا شك سهلة واضحة .

هذا ووضوح الفكرة لا يغني عن وضوح اللفظ ، أو عن نزول اللفظ إلى مستوى الجماهير . سأل أحد الدعاة : ما رأيك في كتابتي ؟ فقال له صاحبه : إن أسلوبك سما يضاعفك فوضوعها في شرفات الدور الأعلى ، فرجل الشارع لا يراها ولا يتأثر بها ، وإن كان أهل الطبقة العليا يرونها ويعرفون لها مزاياها . . . ولو أنك نزلت بيضاعتك في معارض الدور الأول ، لرآها الجميع ، وانفع بها رجل الشارع . . . فقال الداعية — وقد أحس لهذا القول مرارة — : إننا مكلفون أن نرفع الجمهور إلى مستوانا ، لا أن ننزل إلى مستوى الجماهير . . . فقال له صاحبه : لو أنك أستاذ في اللغة والأدب ، لحق لك أن تقول هذا ، ولكنك صاحب دعوة ، وقائم على رسالة ، مكلف أن تقابل الجميع ، وأن تكلم الجميع ، وأن تفهم الجميع ؛ فإذا لم تخاطب الناس على قدر عقولهم ، أضعت الوقت ، وأخفقت في الرسالة . . . ألا ترى إلى التاجر ، يحتال في عرض تجارته ، وتنسيقها تنسيقاً مغرياً بالوقوف عليها أو الشراء منها ؟ .. فأنت كذلك تعرض على الناس تجارة ؛ فانظر كيف تثير أشواقهم وأذواقهم إليها ؟

ونقرر على ماضى أن الجماهير من حيث الإقبال على القراءة كالطفل الممعود (١) ؛ إذا رأى الطعام أشاح بوجهه ، وانقبضت معدته في جوفه ، فلا يزال به أبواه يغريانه ، ويلطفانه ، ويشيران شهوته ، ويحتالان لتجيب الطعام إليه ، لعل أن يأخذ منه شيئاً يقيم به أوده .

نعم ، قد نرى كثيرين من العامة يقرءون ، ولكنهم يقرءون مالا يسمعون ولا يفهمون

(١) الذي يعمدته مرض .

من جوع ؟ يقرءون كتب التسلية ، وقصص اللهو الفارغ التي يقطعون بها أوقاتهم ، ويرتاحون بها من أنفسهم .

ومن هنا نرى الصحفي اللبق يدرك هذه الحقيقة ، ويأتي إلى الجمهور متظامنا خفيف الخطأ ؛ فإذا عرض عليه خبراً ، عرضه — مثلاً — في قصة قصيرة ، أو نكتة لبقة ، أو فيما يشبه هذا . . . فهو يحتال على طفله الممعود ليعطيه ما يشاء من فنه وفكرته ، فتروج صحيفته ، وتغمر الأسواق ، وتسيطر على الأندية ، وتدخل البيوت ، وتستقر مع القراء في المخادع .

وعلى الداعية أن يفهم هذا ، وأن يدخل الطفل للممعود في حسابه ، وليس له أن يحتاج بأنه لا يستطيع أن يفعل فعل الصحفي ، وأن وقار الدعوة وجلال معانيها ليس مما يعرض هذا العرض . . . أقول : ليس له أن يحتاج بهذا أو بما يشبهه ، فإنه إذا تحرك ، وحاول ، وجرب ، لا يعدم نتيجة طيبة ، وثمرة مبشرة بخير كثير . . . ليس ضرورياً أن يتبدل الداعية ، ولكن ليس ضرورياً أن يترمت ! وليس من الحتم أن يجري كلامه كله عامياً ، ولكن ليس من الحتم أن يحمله كله جارباً على ما حوت القواميس من الألفاظ اللغوية الصحيحة ! !

ومما يهون على الداعية مهمته ، أنه لن يكتب للجمهور عن الرق في الإسلام ، أو كيف سما الإسلام بالمرأة ، أو نحو هذا مما يدخل في باب الموضوعات العلمية ؛ لن يكتب للجمهور في هذا ، وإنما سيتحدث إليه عن واقع الحياة اليومية . . . وقد قلنا فيما سبق ، إن واقع الحياة اليومية ، هو تاريخ الإنسانية الحاضر ، وهو مستودع أخطائها وصوابها ؛ فإذا أخذ الداعية مادة حديثة من صميم ما يجري في هذه الحياة ، وتحدث عن صوابه وخطئه ، وصور كلا في صورته الطبيعية الدارجة ، وعالجه بروحه الرباني ، ووزنه بميزانه الإلهي ، فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة . . . وسيجد أن كلامه قد غمر الأسواق ، وسيطر على الأندية ، ودخل البيوت ، وأستقر مع القراء في المخادع ، لأن الحياة تولت حمله إلى كل ذلك . . . وليس عليك من حرج بعد هذا أن تكون قد أجريت في كلامك لفظاً عامياً ، أو عبارة متداولة ، أو مثلاً سائراً ، أو نحو هذا مما يخفف وقعه على الأسماع ، ويعين على بيان حقيقة المراد . . . ولأمر ما كره رسول الله الثرثارين المتفهمين ، والذين يخاطبون الناس بما لا يفهمون ؛ وكان عليه السلام يدخل في كلامه ألفاظاً أجنبية ، ويعدل عن لهجته الأصلية ، ليخاطب وفود القبائل بما يفهمون من اللهجات . . . فهل نعتبر ؟ !

٥ - الحديث العادى

إذا أحس الداعية أن له حاجة لدى الجمهور يرجو قضاءها ، فيتلطف في الحصول عليها ؛ فهو داعية حقاً . . . وإذا لم يشعر هذا الشعور ، فهو مغلق لا يصلح لهذا الأمر الخطير .

فهؤلاء الذين يسخطون على الجمهور وينقمون عليه إعراضه ، قوم فاتهم الكثير من فقه مهمة الداعية .

ليس للجمهور حاجة إليك فيتودد لقضائها منك . . . أما أنت فصاحب الحاجة ، فانظر كيف تقبل عليه وتقضيها منه . . . فهل هناك غير الحديث الرقيق والكلام اللين ؟ يقال هذا في المحاضرة والدرس والخطبة والمقالة . ولكنه في الحديث العادى أئزم وأظهر ؛ حيث تواجه صاحبك أو أصحابك وجها لوجه ، أو كلمة لكلمة . . . في الناس شذوذ ، وفيهم تعال وكبرياء ، وفيهم ميل إلى تنقص أصحاب المبادئ ، وبخسهم أشياءهم ، وفيهم ميل إلى الجدل ورغبة في الغلبة والانتصار ؛ فعليك أن تذكر هذا كله ؛ وأن تعالجه بعلاجه الحاسم ؛ وما علاجه إلا أن تهمله وتتغاضى عنه ، وتلتزم حديثك الرقيق وكلامك اللين .

ونوصى هنا بثلاث خصال :

الأولى : أن يترك كل رغبة في الغلبة والانتصار على مناظره ، بل عليه — إذا أحس أن الحديث سيتحول إلى مناظرة جدلية — أن يكف عن المضى فيه ، في أدب وحكمة ولباقة . . . فإذا استطاع بعد ذلك أن يستأنف حديثه الرقيق اللين في جو هادئ ، فيها ونعمت ، وإلا فمن الخير أن لا يعود إليه .

ونحن بهذا لا نتقى فقط شر الجدل ، وما يورث القلوب من حقد وفرقة ، وإنما نتقى آفة تحيد بنا عن أسلوب الدعوة الحق ؛ فليس الجدل من أساليب الدعوة في قليل ولا كثير ، وليست الغلبة والقهر من هذا في شيء ، أو ليس في الدعوة غالب ولا مغلوب ؛ ولكن إخوة مؤمنون ، متعاونون على البر والتقوى .

يجب حقاً أن تغلب . . . ولكن حذار أن تحمل الشعور بحب الغلبة والقهر ؛ ويجب حقاً أن تغلب . . . ولكن حذار أن تحمل سلاحاً غير القول اللين ، والكلام الهادئ ، والنفس الراضية الوديدة ؛ فإنه سلاح يغلب الأقوياء ، ويستنزى إليك من اعتصم بذروة الشمع والإباء .

الثانية : أن يترك تحدى الناس بما لدعوته من فضل ، وما لمبادئها من سمو .

ويترك تحديهم بما لرجلها من صلاح وجهاد وفضائل . . ويترك تحديهم بما تزمع الدعوة أن تفعله غداة انتصارها من كيت وكيت وكيت .

ليترك هذا وأمثاله ، وليترك التحدى فى جميع صوره ، وليذكر دائماً أنه صاحب حاجة يرجو قضاءها ، فهل يقضيها بالتحدى ؟
أنت صائد ، والصيد أمامك تريد أن تقتنصه ؛ فهل تثيره وتهيجه ، حتى يفر منك فلا تدركه ؟ أو يكون لك شأن آخر ؟

بل إننا فوق هذا نشير باللين عندما يظهر التحدى من غيرنا . . . نشير بنسيان التحدى ، ونسيان كل أثر له فى النفس ؛ ولذا كرر أن الصيد بدأ يستعد للافلات ، فلنتطامن له فى غير ذلة طبعاً ، ولنظهر له الود الهادى ، والمسألة الفطرية — لا المصطنعة — حتى يهدأ ثأره ، ويقر فى مكانه .

إن صاحبك الذى يتحداك ، ليس له مصلحة أدبية أو مادية فى أن يتحداك ويفاضبك فهو إذاً غير مريض ، ومن السهل علاجه برفق ، واقتناصه بسهولة .

أره من نفسك الود ، والتقدير لشخصه ورأيه ، وأشعره — بحركاتك الرزينة وإشاراتك الهادئة — أنك فى حالة طبيعية بسيطة ، وأنت خالى الدهن من تحديه إياك أو تحديك إياه .

سقول : كيف ؟ فأقول : جربه عملياً ؛ فتجارب الحياة هى التى تشرحه لك ، وتريك أمثله الكثيرة .

ثالثاً : أن يترك « التعامل والتفاضح » على الناس ، فإن الناس يكرهون من يتحدث عن نفسه ، أو من يتظاهر بالامتيار عنهم بشئ .

عليه بالتواضع ، ونسيان علمه وفصاحته ، وأن يتحدث إليهم فى فصاحة لا كلفة فيها ولا فوارق ، فإنه لا يلبث أن يمتزج بهم ويمتزجوا به .

والويل لمن يشعر بنفسه ، ويحس بمواهبه . . . قد لا يثور به الناس ، وقد لا يؤذيه أحد ؛ ولكنه لن يقترب منهم ، ولن ينجح فى مهمته .

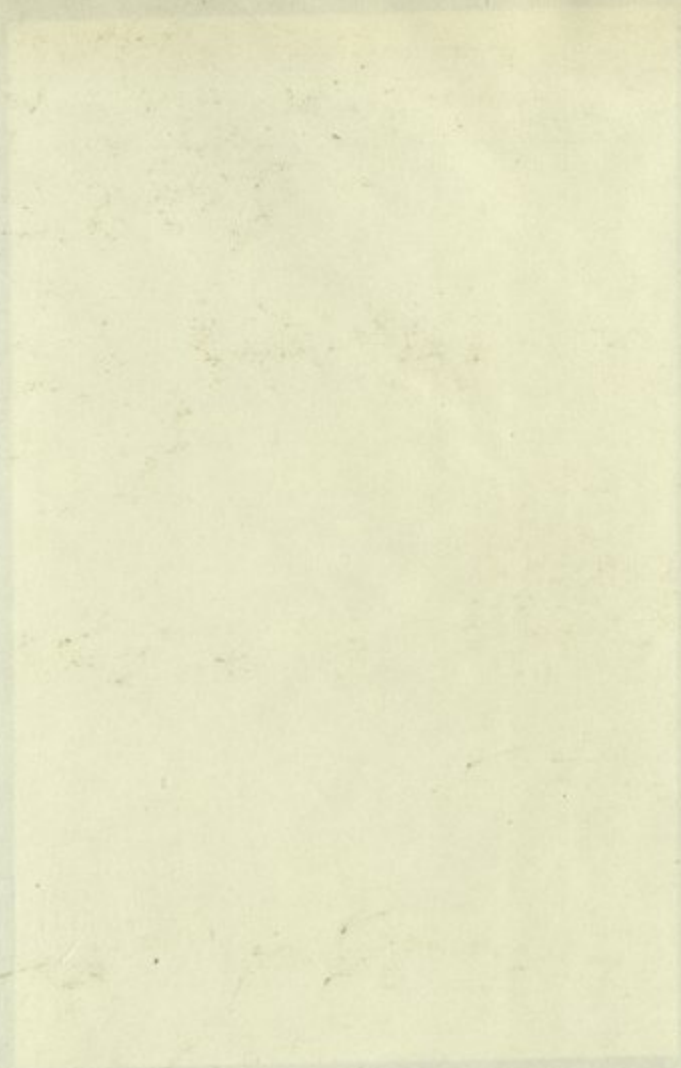
سقول هذا ليغسل كل منا نفسه ، ويظهرها من هذا الرجز ، وليكون دستوراً عملياً لنا فى خطاب الناس ؛ فإذا خاطب أحداً غيره ، خاطبه على أنه مثله ونظيره ، وأن ما لديه من علم فالفضل فيه لله لا لأحد آخر .

فلتقبل على الناس بفضل الله ، لا بفضل نفوسنا — يفتح الله لنا ما نشاء من القلوب والعقول ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً كبيراً ؟

فهرس كتاب تذكرة الدعاة

صفحة	
٣	مقدمة الإمام الشهيد
٤	مقدمة المؤلف
	الباب الأول
١٣	فقه الدعوة والدعاة
	الفصل الأول
١٣	قضية بين فهمين
	الفصل الثاني
١٧	ذبذبة بين غايتين
	الفصل الثالث
٢٥	إلى العلاج
	الباب الثاني
٣١	مزاج الداعية
	الفصل الأول
٣١	العقلية الواقعية
	الفصل الثاني
١٢٤	الروحانية الاجتماعية
	الفصل الثالث
١٦٩	الطبيعة التمهيدية
	الباب الثالث
٢١٨	مصادر الداعية وموارده
٢١٨	القرآن الكريم
٢٥٢	السنة
٢٥٥	التاريخ وسيرة الرجال
٢٥٧	واقع الحياة العملية
	الباب الرابع
٢٥٩	الداعية في كلماته
٢٥٩	المحاضرة
٢٦٤	الدرس
٢٦٦	الخطبة
٢٦٨	المقالة
٢٧٠	الحديث العادي



A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00489968

297.74
K456tA
c.1